
رواية
جيرالدين بروكس
سنة العجائب
«حكاية وباء»
مكتبة ميزوبوتاميا
https://t.me/Mesopotamia1972
ترجمة: حنان علي



@MESOPOTAMIA1972



mohamed khatab

سنة العجائب
(حكاية وباء)



اسم المؤلف: جيرالدين بروكس

Author: **Geraldine Brooks**

عنوان الكتاب: سنة العجائب (حكاية وباء)

Title: **Year of Wonders**

ترجمة: حنان علي

Translated by: **Hanan Ali**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al-Mada**

الطبعة الأولى: **2021**

First Edition: **2021**

This edition published by arrangement with Viking, an imprint of Penguin Publishing Group, a division of Penguin Random House LLC



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 · +964 (0) 780 808 0800 · +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 · +961 706 15017 · +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus Karjeh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 · +963 11 232 2275 · +963 11 232 2289 · ص.ب: 8272

جيرالدين بروكس

سنة العجائب

(حكاية وباء)

ترجمة: حنان علي



مقدمة الترجمة

شاءت المصادفة أن يأتي العمل على ترجمة هذه الرواية متزامناً مع انتشار جائحة كورونا covid-19، واتّباع إجراءات الحظر الصحي في معظم دول العالم، لتكون حكاية الوباء التي تسردها جيرالدين بروكس عن الطاعون الذي ضرب بلدة إيام الإنجليزية في القرن السابع عشر، والحظر الطوعي الذي فرضه القرويون على أنفسهم، مطرح مقاربةٍ شائقةٍ وملفتة، يباين عبرها القارئ أساليب البشر بتدبّر أمورهم لقطع سلسلة العدوى بالأمراض القاتلة. أساليب ما انفكت تتأرجح بين الشعوذة والإيمان واليأس والعلم، رغم مرور ما يقارب أربعة قرون.

منمنماتٌ تاريخيةٌ صغيرة، وأطلال حكايةٍ، جمعتها الكاتبة الأسترالية التي عملت لسنواتٍ كمراسلةٍ صحفية أثناء زيارتها لديربيشاير في إنجلترا عام 1990: يافطةٌ نُقش عليها «بلدة الطاعون»... أنباء متفرقة عن عدد الضحايا الذي جاوز ثلث سكان البلدة، وبضع رسائل ناجية خطّها كاهن إيام، ذكر في طياتها تدابير الحظر، وخادمته التي سلمت من المحنة، وإصابة زوجته ووفاتها؛ لتلوح مصائرهم في وجدان بروكس مستدعيةً قدرتها الروائية على حبك حيواتهم ومعاناتهم في مواجهة الموت الأسود.

الصور الأثرية التي حرّضت الكاتبة الصحفية على نسج الرواية تموج بغنى بين سطورها، وقد يبدو من الأنيس الاطلاع عليها للتحليق مع عنان الخيال الذي ابتدعته، لتحكي أحداث سنةٍ عجيبة في بلدةٍ مترعةٍ بمفردات ثقافةٍ ترزح تحت ذيول القرون الوسطى في أوروبا، لذا، أُرفقت الرواية بملحقٍ لبعض الصور التي يمكن الرجوع إليها لتذوّق المزاوجة بين أدب بروكس والسجل الواقعي للمكان.

ولن يخفى على القارئ المكانة التي خصّتها المؤلفة للثقافة العربية التي سبقت أوروبا في تلك الحقبة، لتتجلّى ملامحها بالعلوم وأسماء الروّاد والمدن، فيغدو كتاب (الطب) لابن سينا ومدينة وهران الجزائرية في السطور الأخيرة، شمساً تشرق في درب ناجيةٍ من ظلام عامٍ مليءٍ بالعجائب.

المترجمة

ما كُتب عن الرواية

«مستوحاةٌ من قصةٍ حقيقية لقرية إيام ذات التلال الوعرة في إنجلترا. تعدّ رواية (سنة العجائب) بمثابة استحضارٍ لتفاصيل غنية، وللحظاتٍ فريدة في التاريخ. تسرد بروكس الحكاية بذكاءٍ عاطفيٍّ مذهل، وتقدّم بطلةً ملهمة، كما تمزج بين الحب والتعلّم، بين الفقدان والتجديد في قراءةٍ مذهلةٍ لا تُنسى».

مجلة وول ستريت The Wall Street Journal

***

«التألق الروائي... انخراطٌ عميقٌ واسع الخيال عن الكوارث حين تتسبب بتغير البشر».

نيويوركر The New Yorker

***

«(سنة العجائب)... حكاية الأمل والخيال والمواساة المتمايزة في زمن اليأس».

مجلة أوبرا Oprah Magazine

***

«قدّمت بروكس نفسها كروائيةٍ موهوبة، إذ كشفت بمهارة كيف يمكن للجهل والكراهية وانعدام الثقة أن يُهلكوا الإنسان، كما يفعل الفيروس وأكثر... (سنة العجائب) هي العجب بحدّ ذاته».

مجلة بيبول People الأسبوعية

***

«نقرأ في رواية بروكس جنس الأدب التاريخيّ الذي بزغ في أوروبا وأمريكا، والذي يميل نحو الرعب والقوطية. نجد الغنائية والدم والتراب والمعجزات وأقصى درجات الاضطرابات والمحن. تمسي التناقضات الجريئة هي القاعدة، فالموت حدثٌ حسيّ، والجنس خيارٌ نهائي. إنّ (سنة العجائب) لمحة عن غرابة تاريخٍ مكّنتنا من رؤية انعكاسه داخل أنفسنا».

The New York Times Book Review نيويورك تايمز

***

«كلّ شيءٍ حاضرٌ بدهشة في (سنة العجائب): شخصياتٌ قويّة، إحساسٌ هائلٌ بالزمان والمكان والشخصيات».

The Denver Post

***

«الرواية أكبر من أكوام الجثث، أكثر من استعادة ذكريات علاقةٍ مثالية بين امرأتين، أشدّ شغفاً من قصةٍ نابضةٍ بالحماسة تجاه السادية والمازوخية. تخلق (سنة العجائب) خيالاً مذهلاً نابعاً من تراكم صحفيٍّ غنيٍّ بالتفاصيل وموهبة سردٍ طبيعي. أرسلت بروكس أخباراً من أكثر مناطق القتال جهنميةً في العالم؛ لكن مهمتها الأكثر ترويعاً هو نقلها لعالم خيالها التاريخيّ المذهل».

The Guardian الغارديان

***

«تثير بروكس أسئلةً وجوديةً حول دور الدين والسلوك الأخلاقي في عالم تحكمه الطبيعة. إنها تجبر القرّاء على الالتصاق بالحلقات الدرامية على نحو صارخ مؤرق لمتابعة حكاية إنسانٍ متصدّع يائس، بأسلوبٍ مؤثرٍ قوي ملي، بإيقاع نابض، خيالٍ حساس وتحدٍّ للتعقيدات الأخلاقية».

publishers weekly الناشرون الأسبوعية

***

«لم تكن رواية (سنة العجائب) روايةً سهلة الكتابة. إذ توجّب على بروكس إثارة التشويق خلال مدة لا تتجاوز سنةً يعرف الجميع نهايتها مع

هجوم الطاعون. عزفت الكاتبة على وتر التمايز بين شخصياتها التي ارتفع بعضها إلى مستوى التحدي بتفانٍ دون كلل، بينما استسلم غيرها بسهولةٍ للموت. خرافاتٌ وشعوذةٌ وجلدٌ ذاتي على أمل تهدئة إلهٍ غاضب».

موقع Bookpage

***

«إنه عملٌ أدبيٌّ تاريخيٌّ ممتاز، فقد كُتبت الرواية بأسلوبٍ متقن حمل شعوراً كبيراً بالأصالة. لا تقتصر (سنة العجائب) على سرد الأحداث أو كشف النقاب عن الإنسانية في ظلّ الشدائد، وإنما مواجهة الأفكار الدينية والاجتماعية البالية في الوقت ذاته».

وليام تومبسون – كاتبٌ لأدب التأمل

***

«بصراحة لا أستطيع تذكّر آخر مرّةٍ قرأت فيها روايةً ملفتةً للنظر ومؤرقةً وأصيلة كرواية (سنة العجائب). إنها روايةٌ مذهلة وإحدى العجائب».

كريس بوهجاليان –
مؤلف روايتي (القابلات) و(فتيات القلعة الرملية)

***

«تحمل (سنة العجائب) قناعةً مطلقة باعتبارها استحضاراً للمكان والمزاج. أظهرت بروكس المرحلة الحيّة بإبداع في ظلّ حبكةٍ مصاغة بشكلٍ جميل».

هيلاري مانتيل – الحاصلة على جائزة بوكر الأدبية
عن روايتيها (قصر الذئاب) و(أخرجوا الجثث)

***

«روايةٌ من أوائل الكلاسيكيات في القرن الحادي والعشرين».

The Books that Mattered **– فري جيلارد**

***

«(سنة العجائب) لجيرالدين بروكس هي العجب حقّاً: تزواجٌ بين اللّغة والقصة لم أعهده في أيّ كتابٍ قرأته من قبل».

أنيتا شريف – مؤلفة روايتي (زوجة القبطان) و(لقاؤهما الأخير)

***

فليكن ما فعلته كافياً،
يترصدُ الموت الشوارع
سهامه سامةٌ يطلقها
لا تهملُ طيّباً
لا تهابُ شجاعاً.
أحياء بائسون... جنازاتٌ أزلية... لعناتُ أرضٍ منبوذة.
لا يزال القلائل العائدون
يبحثون عن حكمةٍ وطأت أطلال ديارهم.

• من قصيدة

سنة العجائب

(ANNUS MIRABILIS 1666)

للشاعر جون درايدن

أوراق الخريف
1666

-1-

موسم قطاف التفاح

لطالما أحببتُ هذا الفصل من السنة، حين يفوح نسغُ الأخشاب المكدّسة جوار الباب بعبقِ الغابات وحكاياتها، ويشرق القشُّ المركون ذهبياً تحت أشعة شمس آخر النهار، إلى جانب الضوضاء التي يحدثها التفاح المندلقِ داخل صناديق التخزين في الأقبية. مشاهدُ مزدانة بأريجٍ وجلبة، بمؤونةٍ وطعامٍ للرضّع، ودفءٍ يجابه تكدّس الثلوج وتنبؤ عظيم بخيرات العام الآتي. أعشقُ التجوال في فيء أشجار التفاح في مثل هذا الوقت من العام. قشعريرةٌ محببة تنتابني من تهشّم تفاحةٍ يانعة تحت قدمي، من تنسّم العبير العذب الوافر المتسلّل من حباتِ الفاكهة والخشب الرطب. أعوادُ القشّ ناضبةٌ هذه السنة، والحطب شحيحٌ في المنازل، لكن الأمر مختلفٌ تماماً بالنسبة إليَّ.

قاموا أمس بتحميل التفاح بعربةٍ قاصدةٍ القبو الخاص لبيت القسيس[1]. لمحتُ بقعاً بنية لطّخت معظم قطع الفاكهة بما وشى بتأخّر القطاف. همستُ بذلك لسائق العربة الذي أكّد حظوتنا بما حصلنا عليه. أعتقد أنه محقٌّ

1- القسيس: رجل الدين المسيحي وكاهن الكنيسة والأب الروحي، ويعدّ وجوده تطبيقٌ لسرّ «الكهنوت»، أحد أسرار الكنيسة السبعة (المعترف بها لدى الطوائف الأرثوذكسية والكاثوليكية). تتركز مهام القسّ فيما يلي: إقامة الصلوات والطقوس الدينية: مثل صلاة القدّاس الإلهي، وتقديم سرّ التناول (الأفخارستيا)، طقوس المعمودية (سرّ المعمودية)، صلاة الإكليل أو الزواج الديني، صلاة الجنازة على الموتى، صلوات المرضى وتبريك المنازل.

بالفعل، خاصةً في ظلّ غياب المزارعين المنوط بهم مهمة القطاف. في الواقع قلةٌ قليلة من الناس قادرة على القيام بأيّ شيء، أما المتجولون في الأنحاء مثلنا، فبدوا شاردي الذهن غافلين. جميعنا مصاب بإرهاقٍ شديد.

تناولتُ تفاحةً نضرةً طازجة، وقطّعتها إلى شرائح رقيقةٍ كالورق، ثم حملتها إلى حجرةٍ مظلمةٍ حيث يمكث وادعاً صامتاً. أبصرتُ يده مُسندةً فوق الكتاب المقدّس الذي لم يفتحه منذ أمدٍ طويل. سألته عن رغبته بالإصغاء إلى بعض النصوص المقدّسة، فرفع رأسه متمعّناً في وجهي، ما جعلني أرتجف ارتباكاً. إنها المرّة الأولى التي يرمقني بنظرةٍ منذ أيّام. نسيتُ ما كانت تفعله عيناه من أعلى المنبر - أيّ قدرةٍ آسرة لمقلتيه على سوقنا حيث شاء حين تقبضان علينا واحداً تلو الآخر. لا يزال يحتفظ بالعينين ذاتهما، أما وجهه فتغيّر كثيراً، نحُل وشحُب ووُشم بتجاعيد عميقة. سنوات ثلاث مضت مذ تقلّده لمهامه، لا زلتُ أذكر كيف هزئ أهل القرية بنظراته الغضة، وسخروا من فكرة تبشيرٍ يحملها جرو مثله. لكنهم إن رأوه الآن لن ينبس أحد بابتسامة ولو أسعفتهم ذاكرة المسرة.

«لا يمكنكِ القراءة يا آنا».

«بالطبع أستطيع حضرة القسيس، لقد علمتني السيدة مومبليون».

جفل من ذكر اسمها، ثم نحّى وجهه بما أوجب عليّ المسارعة في تقديم الاعتذار. لم يعقد شعره منذ حين مرخياً خصلاته الداكنة الطويلة بما حجب قراءة ملامحه. همس بنبرة هادئة مرة أخرى:

«هل فعلتْ ذلك؟ هل علمتكِ حقّاً؟... حسناً، ربما أصغي لاحقاً كي أشهد مستوى اتّباعك لتعليماتها، لكن ليس اليوم... ليس اليوم. أشكرك يا آنا... يمكنك الانصراف».

لا يجوز لخادمة البقاء حين يتمّ صرفها، لكنني مع ذلك تمهلتُ، مدعية الانشغال بترتيب الوسادة وطيّ الشال. لم يسمح لي بإشعال النار ولا المساهمة بتوفير قسطٍ بسيطٍ من الراحة. اضطررتُ لمغادرته في النهاية بعد نفاد الأشياء التي تظاهرتُ بالقيام بها.

التقطتُ تفاحتين مرقطتين اخترتهما بعناية من الدلاء المركونة في

المطبخ، ثم خرجت إلى الإسطبلات بغية تفقد حصانه. عبرتُ الساحة القذرة المهملة منذ ليالٍ سبع، العابقة برائحة القشّ المتعفن وبول الحصان، ما اضطرني لحزم تنورتي ورفعها عن الوحل. قبل وصولي إلى منتصف الطريق إليه، تناهى صهيلُ الحصان وركلاته إلى مسامعي، فأدركتُ أنه يطوف مختالاً مرتطماً بأنحاء سجنه، ملقياً بالأجزاء المتصدعة أرضاً، خاصة بعد غياب خيّال قويٍّ ماهرٍ بما يكفي لكبح جماحه.

لمحتُ فتى الإسطبل المكلّف بالحفاظ على فناء المنزل مجزوز العشب، غافياً فوق أرضية غرفة الأسرجة. سارع بالقفز حين رآني، ثم أظهر عرضاً رائعاً في القبض على عصا المنجل الذي انزلق من يده أثناء غفوته. ضايقتني الشفرة المثلّمة المركونة فوق الطاولة، والتي طلبتُ منه شحذها منذ فترة لتقليم العشب في أول نموّه، لكن القش اليابس المحمل بالبذور لم يعد ينفع أيّ جزّ معه... أوشكتُ على تأنيبه بقسوة بفعل إهماله وتقاعسه عن تنظيف القذارة في الخارج، لكن وجهه البائس الهزيل والمرهق أجبرني على ابتلاع الكلمات.

تماوجت ذرّات الغبار في جوفِ الشعاع المفاجئ المنبلج مع فتح باب الإسطبل. توقّف الحصان عن الركل رافعاً حافره محدّقاً خلسة نحو الوهج غير المعتاد، ثم شبّ بكل قواه رافساً الهواء، كأنه يقول بوضوح قدر استطاعته: «إذا لم تكن إيّاه، فاخرج من هنا». أجهل تماماً متى وُضعت الفرشاة آخر مرة عليه، لكن سرجه لمع كالبرونز حين مسّه الضوء. لقد شاع مع وصول السيد مومبليون إلى القرية ممتطياً جواده أنه من غير المناسب لخيلٍ أصيلٍ مثله العمل لصالح الكنيسة؛ كما أثار سخط الناس سماعُ القسّ يدعوه بأنتيروس، خاصةً بعد معرفتهم من قبل أحد المسنين البيوريتان[1] أنه

1- التطهيرية أو البيوريتانية (Puritanism أو Puritan): مذهب مسيحي بروتستانتي يجمع خليطاً من الأفكار الاجتماعية والسياسية واللاهوتية والأخلاقية. ظهر هذا المذهب في إنجلترا في عهد الملكة إليزابيث الأولى، وازدهر في القرنين السادس عشر والسابع عشر.
تستند تعاليمهم إلى الإيمان بالكتاب المقدس، كمصدرٍ وحيد للعقيدة الدينية وللحياة الاجتماعية، دون الأخذ بأقوال القديسين ورجال الكنيسة.

اسم لصنم وثني. تملكتني الجرأة لأسأل السيد مومبليون عن ذلك، فأجابني ضاحكاً بأن البيوريتان أنفسهم يجب ألّا ينسوا أن الوثنيين بدورهم أبناء الرب، وما حكاياتهم سوى جزء من خليقته.

وقفتُ أمام الحاجز الخشبي، محاولةً مخاطبة الحصان العظيم بلطف شديد: «آسفة، آسفة للغاية لأنك مسجونٌ هنا طوال اليوم. انظر... لقد أحضرت لك هديةً صغيرة». وصلتُ إلى جيب مئزري ببطء والتقطتُ تفاحة، فالتفتَ برأسه الضخم قليلاً حتى تبدّى بياض إحدى عينيه. حافظتُ على نبرةٍ خفيضة أثناء مواصلة الحديث، كما اعتدت التحدث مع أطفال خائفين أو موجوعين: «ألا تحب التفاح؟ أعرف أنك تحبّه... هيّا خذها». نبش الأرض بحافره من جديد، لكن بقناعة أقل هذه المرة. تأجّجت أنفاسه بتنسّمِ شذا التفاحة ورائحتي، فسارع بمدّ عنقه العريض نحو يدي، أحسستُ بفمه ناعماً كقفازٍ دافئ حين تناول التفاحة بقضمة واحدة. مع وصولي إلى جيبي للمرة الثانية، ماج الجواد برأسه ناثراً عصير التفاح واثباً إلى الأعلى راكلاً الهواء. أدركتُ أن الأمور خرجت عن السيطرة، فرميتُ التفاحة الأخرى على أرضية الحجرة، ثم انزلقت إلى الخارج بسرعة. أسندتُ ظهري إلى الباب المغلق أمسح ما علق بوجهي من رضاب الحصان. حدّق إليَّ فتى الإسطبل مواصلاً إصلاح منجله بصمت.

حسناً، أعتقد أنّ توفير راحةٍ ضئيلةٍ لهذا الجامح البائس أيسر بكثيرٍ من تقديمها لسيده. أدركتُ مع وصولي إلى المنزل بأن القسّ يتنقل بخطًى واسعة في المكان، فقد وشت أرضية البناء القديمة المهلهلة بخطواته المتموجة صادحةً بالصرير جيئة وذهاباً... جيئة وذهاباً... جيئة وذهاباً. ليته يستجيب لاقتراحي بالتنزّه في البستان، فكرة طرحتها ذات مرة، فبدا الأمر كما لو أنني بادرتُ بأمرٍ مستهجن، وكأنه دعوة إلى وايت بيك[1]. مضيتُ لجلب الصحن من غرفته، فوجدتُ شرائح التفاح كحالها لم تمسّها يده، وقد استحال لونها بنيّاً. عليَّ عصر التفاح في الغد، لعلّ القسّ يوافق على شرب

1- وايت بيك (The White Peak) المعروفة أيضاً باسم (Low Peak): هضبة من الحجارة الجيرية، تشكل الجزء الأوسط والجنوبي من منطقة بيك (Peak District) في إنجلترا، وترتفع ألفاً وأربع مئة قدم عن مستوى سطح البحر.

العصير إن فشلتُ بإقناعه بتناول الطعام. لا فائدة من اكتظاظ القبو بفاكهة توشك على التعفن. أمرٌ واحد لا طاقة لي على تحمّله؛ رائحة التفاح الفاسد.

في كل مرة أغادر منزل القسيس في نهاية النهار قاصدةً بيتي، أسلكُ درب البستان الممتدّ عبر التلّ بدلاً من طريقٍ يتيح التقائي بالبشر. بعد كل ما كابدناه معاً، يبدو إلقاء التحية بـ «ليلة سعيدة» سلاماً لا معنى له، أفتقد في الحقيقة أيَّ جَلدٍ لفعل ذلك. يمكن للبستان في بعض الأحيان وليس أكثرها، أن يستحضر لحظاتٍ أخّاذة. إلّا أن ذكريات السعادة مع ذلك، ليست سوى أحداثٍ عابرة وانعكاساتٍ جارية، ألمحها تتهاوى خلال ثانية، ليجرفني بعدها تيار المرارة إلى قاعه. لا أستطيع القول إن البهجة لم تنتبني لاحقاً كما فعلتْ آنفاً. لكن شيئاً ما يجسُّ في بعض الأحيان حيّز الذكريات الآفلة بلمسةٍ خفيفةٍ سريعةٍ كجناح فراشة في الظلام.

لو أغمضتُ عيني في ليلة صيفية أثناء تجوالي في البستان، يمكنني سماع صيحات الطفولة الغابرة... همسات وضحكات... تعثّر خطواتٍ وحفيف وريقات. في هذا الوقت من السنة بالذات لا يخطر ببالي سوى سام. سام فريث مطوقاً خصري بيدين قويتين ترفعاني إلى غصنٍ منخفضٍ منحنٍ لشجرة قديمة. كنت في الخامسة عشرة حين بادرني بعرضه: «هل تتزوجينني؟». لمَ لا؟ فحقل أبي الصغير ليس مكاناً مبهجاً على الإطلاق.

كان والدي يفضّل احتساء الماريجوانا[1] أكثر من عنايته بأبنائه الذين داوم على إنجابهم الواحد تلو الآخر، عاماً بعد عام. كذلك الحال بالنسبة لزوجته أفرا، والتي لم أكن بالنسبة إليها سوى زوج من يدين عاملتين قبل أن أكون كائناً بشريّاً، أحد ما عليه العناية بأطفالها. مع ذلك تلفظتْ بلساني بعباراتٍ سيطرت على قرار والدي، الذي لمّا أزلْ بنظره حينها طفلةً صغيرةً جدّاً على الزواج.

1- الماريجوانا أو الماريغوانا: نوع من العقاقير ذات تأثير نفساني، يستخرج من نبتة القنب الهندي، ويعرف في البلدان العربية بعدة أسماء: (الماريجوانا أو البانجو، أو الزطله، أو غانجا أو حتى التسمية الغربية الشائعة الماريوانا). يستخدم لأسباب طبية، أو كنوعٍ من المخدرات.

«افتح عينيك يا زوجي، وانظر إليها» خاطبته أفرا ذات يوم «إنك الرجل الوحيد في القرية الذي لا يرمق هذه الفتاة. من الأفضل أن تزوجها مبكراً بفريث، بدلاً من أن يأتِها شابٌّ ما بقضيبه الأشد استقامة من أخلاقه».

سام فريث أحد عمال المناجم في البلدة؛ لديه كوخٌ صغيرٌ بحالةٍ جيدة عاش فيه مع زوجةٍ لم تهبه ولداً قبل وفاتها. أما الوقت فلم يستغرق مني الكثير لأنجب له ولدين خلال ثلاثة أعوام... ثلاثة أعوام حسنة... لا بدّ أنها كذلك. سنواتٌ كثيرة مرّت أعجز عن تذكّرها، تفتقر إلى التأمل بسبل السعادة التي حرّمها البيوريتان -القلائل بيننا الآن، بفعل تعرّضهم لاضطهادٍ شديد- ممن أداروا شؤون القرية في ذلك الوقت. لا تزال المواعظ التي نشأنا عليها تطرق مسامعي في كنيسة عارية من الزينة[1]. أما تعاليمهم حول الوثنية فقد كتمت أنفاس السبت وأخمدتْ أجراس الكنيسة، لقد سحلوا المزر[2] من الحانات، والزخارف من الفساتين، والشرائط من سارية مايو،[3] والضحك من الدروب العامة. إلّا أن الفرح الذي أغدقه أبنائي والمعيشة التي قدّمها سام تلاشيا فجأة كفعل أول الربيع بالجليد، حين تحوّل كل شيء إلى كآبة مفرطة. لم يدهشني انتقال ذاكرتي الهادئ إلى تلك اللّيلة الرهيبة، وصلتُ إلى مقبض الباب، فتحته... لاح دخان المشاعل وعجيج الأصوات والوجوه الكالحة لرجال بدوا بلا رؤوس في الظلام. يمكن للبستان لو أطلقتُ العنان لذكرياتي أن يعيد سرد التفاصيل الموجعة كلّها. وقفت عند المدخل مع طفلٍ فوق ذراعي، راقبتُ المشاعل تتمايل ناسجةً خيوط ضوء متشابكة عبر الأشجار. «امشي ببطء» همستُ «امشي ببطء، يجب عليّ الإصغاء إلى الكلمات كي أتقبل واقع ما جرى». ساروا الهوينى بخطى متثاقلة عبر التلّ الذي بدا لهم وكأنه جبلٌ عظيم. متلكئين وصلوا أخيراً كما جاؤوا، متدافعين متخبطين.

1- لا يعترف البيوريتان كسائر الطوائف البروتستانتية بالأيقونات، لذلك تخلو كنائسهم منها، باستثناء صليبٍ خشبيٍّ متواضع.

2- المزر: نوع من أنواع الجعة حلو المذاق، له نكهة الفاكهة. يصنع عادة من نقيع الحبوب كالشعير، ومن حشيشة الدينار.

3- سارية مايو: سارية مصنوعة من جذع خشبي طويل أو من عمود معدني، تنصب وتزيّن عند بعض شعوب أوروبا الشمالية أثناء عدة احتفالات دينية، أهمها يوم مايو.

دفعوا إلى الصدارة أكبرهم... صديق سام. لمحتُ عصيدةً من تفاح فاسد على حذائه. من السخرية ملاحظة ذلك، لكن يتعين عليّ إطراق البصر إلى الأسفل بحيث لا أحملق في وجهه.

استغرق البحث عن جثة سام أربعة أيام من الحفر. حملوها مباشرة إلى رجل الدين بدلاً من إعادتها إلى المنزل محاولين إقصائي عنها، لكنني قاومت بشدة راغبة بتقديم عطيّةٍ أخيرةٍ له. عرفتْ إلينور مومبليون بما جرى فهمستْ للقسيس بنبرتها اللّطيفة: «دعهم يسمحون لها بوداعه». نادراً ما تطلب السيدة شيئاً من زوجها، لكن ما إن فعلت لنفِّذ ما تنطقه على الفور. إيماءةٌ من مايكل مومبليون فرقت الرجال، وأبعدت كبار السنّ جانباً مفسحين لي الطريق.

يا للمسكين سام! لم يبقَ الكثير من جسده المتهتك!

حدث هذا قبل عامين من الآن اعتدت خلالهما رؤية جثثٍ عديدة لأشخاص أحببتهم، أو أناسٍ بالكاد عرفتهم. لكن جسد سام المتضرّر كان الأول بين الجميع. غسلتُ جسده بالصابون الذي أحبّ تضوّع طفليه بعبيره. يا لسام الساذج! لم يعِ أنني قبل عودته إلى المنزل، كنتُ أدعك جسديهما الصغيرين بصابونٍ لطيفٍ على البشرة صنعته من أزهار الهيذر، بخلاف صابونه الذي مزجته بحبيبات الرمل الناعمة لتخليص جلده من الأتربة المعجونة بالعرق. لطالما دفن وجهه البائس المتعب في شعر الأطفال متنسّماً شذاهما المنعش الأقرب إلى قلبه من أريجِ التلال. يا لشقاء رجلٍ هدرَ أيامه في جوف المناجم منذ فجرها حتى الغروب! سام الذي أزهقَ شبابه في الظلام... سلّم للدهماء روحه.

في العتمة؛ يُمضي مايكل مومبليون زوج إلينور أيامه خلف الأبواب الموصدة التي ما أنفكّ أشرعها بين حين وآخر لتلبية احتياجاته. أعرف أنني هالكة في موكب الموتى الطويل، لكنّي لن أتوانى عن خدمته طوال الوقت. لماذا؟ أمن أجلها...! أسأل نفسي...! لمَ عليَّ القيام بذلك إذن، إن لم يكن لأجلها؟

مساء كل يوم مع عودتي، يفغر كوخي بابه على صمتٍ كثيفٍ يشجُّ صدري. إنها اللّحظات الأشدّ غربة على الإطلاق... دقائق تقوّض تمالكي

لنفسي، فأتمتم بما جشّم أفكاري، ثم أصدح بنبرةٍ مرتفعةٍ كامرأة معتوهة تتوق إلى صوتٍ بشريّ قويّ يؤنس وحشتها. حالٌ لا أطيقها، تثير خشيتي من الحدّ الفاصل بيني وبين الجنون، الذي أظنه واهناً كخيط العنكبوت، خاصة بعد كل ما شهدته عيناي من انحراف للأرواح صوب العتمة والبؤس، حتى غدت المرأة التي لطالما تباهت بحصافتها، مسلّمة نفسها لأفعال خرقاء متعمَّدة. تراني أزلقُ قدمي بشدة عساها تثير جلبة بين أدوات الموقد، أتهاوى بجسدي فوق الأرضية بحماقة، أخرجُ لجلب الماء بفوضى، أصفع سلسلة الدلو بحجارة البئر... لعلني أعثرُ في الضوضاء على طوق النجاة من عباب الصمت الجارف.

تخبو الشعلة في الشمعة النافدة، فأبدأ بالتلاوة حتى خمودها التام. الشموع التي سمحت السيدة مومبليون بأخذها من بيت القسّ لمرات عديدة، تسبّبت ندرتها هذه الأيام بإصابتي بذعرٍ شديد. لمَ لا! والخلاص من عبء ذاكرتي الخاصة كامنٌ بساعة تبحرٍ داخل المجلدات التي دعتني لاستعارتها طلباً للنجاة. يتلاشى الضوء فتصير اللّيالي أطول، أحاول الإغفاء فلا أنال مرادي. أتلمس مهجع أطفالي، أرنو بحثاً عن أجسادهم الصغيرة الدافئة، فأرتعد وجلةً حين لا تعثر عليهم يدي.

الصباحات عادة ما تكون أكثر لطفاً من الأمسيات، فهي مخترقة بتغريد الطيور وقرقرة الدجاج والوعود المعلّقة بخيوط الشمس. لديَّ بقرة، وهي نعمة لم ينلها صغيري جيمي حين كان بأمسّ الحاجة إلى الحليب. لقد وجدتها في الشتاء الماضي تتجول هزيلة في منتصف الطريق حاجبة لضرعٍ مهلهلٍ تحت عظام صدرها السفلية. حدّقتْ عيناها الكبيرتان بنظرةٍ خاويةٍ يائسة، لدرجةٍ شعرت أنني أنظر إلى مقلتيّ في المرآة. دفعتها إلى كوخ جارتي المهجور الخاوي، إلّا من اللّبلاب الذي عرش زاحفاً إليه عبر النوافذ، والأشنات التي اكتسحتْ عتباته الرمادية. زوّدتها طوال الأشهر الباردة بالشوفان بإسراف -بالطعام الوفير الذي لا يحتاجه الموتى- ولدت بقرتي بعد فترة دون معين وبلا شكوى، لتأتني بعجلٍ بدا بعمر الساعتين بحلول الوقت الذي رأيته فيه، إذ جفّ ظهره وجوانب جسده، مع بعض البلل خلف أذنيه. ساعدته في رضاعته الأولى بإصبعين وضعتهما في فمه

ثم عصرتُ حلمة الضرع بينهما فوق لسانه الزلق. سرقت في اللّيلة التالية، قليلاً من اللِّبأ الأصفر الغني، لصنع فطيرة بعد خبزه مع البيض والسكر. ثم قدمتها للسيد مومبليون، الذي تناولها بنهم، وذلك ما أبهجني إلى حدّ كبير، كما لو أنه طفلي! لا أنفك أفكر بإلينور... برضاها وسعادتها. صار العجل الصغير أملس الجلد الآن، أما عينا والدته البنيتين فتنظران إليّ بصبرٍ عطوف. أحب أن أتكئ برأسي على خاصرتها الدافئة، أن أتنفس رائحة ضرعها بينما يعجّ الدلو برغوة الحليب الذي أسارع إلى حمله إلى بيت القس لصنع البوسيت،[1] أو الزبدة، أو أخلط القشدة لتقديمها جانب طبقٍ من التوت الأسود، مع أفضل ما أعتقد أنه يثير شهية السيد مومبليون للطعام. بعد ملء الدلاء بما يكفي لتلبية احتياجاتنا الصغيرة أصحبها إلى المرعى، خاصة بعد زيادة وزنها منذ فصل الشتاء الماضي، لدرجة أخشى كل يوم من استحالة خروجها عبر باب الكوخ.

أقف مع دلو في يدي قرب الباب الأمامي لمنزلي، إذ لا ينفك الصباح يمنحني من القدرة ما يكفي لمقابلة أيّ عابرٍ بالمصادفة خارجاً. نعيش هنا على حافة منحدرة فوق الخاصرة الوعرة لوايت بيك العظيمة. نترنّح بشقاء أثناء صعودنا إلى الأعلى، أو نضغط بكدٍّ فوق كعابنا لإبطاء تهاوينا السريع. أتساءل في بعض الأحيان عن حال الناس في مكانٍ لم تُسوَّ الأرض فيه... كيف يتمكنون من السير منتصبين بأعينٍ ترمق الأفق بثبات. حتى الشارع الرئيس في بلدتنا احدودب تعرّجاً، بحيث سار البعض في ارتفاع أعلى من أولئك الماضين صوب السفح.

ليست قريتنا سوى سلسلة رفيعة من المنازل المتلاحقة شرق وغرب الكنيسة، استخدمنا في بنائها ما توفر بين أيدينا من حجارة التلّ الرمادية، وسقفناها بأعواد القش. يتفرع الطريق الرئيس إلى دروب أضيق هنا وهناك تؤدي إلى الطاحونة، ودارة برادفورد، وإلى المزارع الكبيرة والحقول المهجورة. أما الحقولُ المحروثة والمراعي المجزوزة فتمتد خلف الأكواخ

1- بوسيت (posset): مشروبٌ بريطاني يعود إلى القرون الوسطى، وهو عبارة عن مشروبٍ كحوليٍّ سميك، يضاف إليه كلّ ما يتوفر من أنواع التوابل؛ كما يدخل الحليبُ والبيض وكحول الشيري في صنعه.

إلى جانبي الطريق. أراضٍ سرعان ما تنتهي في صعود ما أو تتلاشى في خسفٍ مفاجئ؛ أما الحافة الشمالية بوجهها الصخري الشديد الانحدار، فترسم بحدّةٍ نهاية المساحات الزراعية مستهلّةً الأرض البور، بينما تغرق الجهة الجنوبية في وادٍ مباغتٍ عميق. غبارٌ يثيره صيفاً ووحلٌ يغرقه شتاءً، في حين يأتي الصقيع العالق بآثار العجلات العابرة بمخاطر الانزلاق لأيٍّ سائرٍ غافل... مشهدٌ غير مألوف لشارعنا الرئيس في هذه الأيام، فلا جليد ولا طين ولا غبار، اعشوشب الطريق إلّا في منتصفه بفعل حوافر بقرة واحدة مسحت عن وجهه بعض العشب. ها هي الطبيعة تعود إلى حالها منذ مئات السنين بعد أن هجّرها سكان هذه القرية؛ لكن الأمر استغرقها أقلّ من عام كي تتبرعم الأعشاب في الأماكن من جديد. ثمة غصن نبت من شجرة جوز مكسورة الجذع في منتصف الشارع، يبدو أنه طامح بحجب خطواتنا بالكامل. لمحته منذ وريقاته الأولى وتساءلتُ هل سيقتلعه شخص ما، لكن أحداً لم يفعل، ها هو يعلو بارتفاع ياردة واحدة، بينما تشهد آثار الأقدام بأننا نطوف جميعاً حوله. فكرتُ هل طغت علينا اللّامبالاة، أم أن الآخرين مثلي، منغمسون بالنهايات لدرجة عجزوا عن انتزاع شتلة ضئيلة من قبضة الحياة الواهنة.

شققتُ طريقي إلى بوابة منزل القسيس، وحالفني الحظّ بعدم مقابلة أيّ أحد. لكن سلامي يأبى أن يفارقني، خاصة أنني على وشك مقابلة آخر شخصٍ في العالم رغبتُ في لقائه. دخلتُ عبر البوابة بظهر أدرته إلى المنزل. وبينما أعيد تركيب المزلاج، سمعت حفيف الحرير ورائي. التفتُّ فجأة فاندلق الحليب من الدلو. تجهّم وجه إليزابيث برادفورد حين سقطت قطرة على حاشية ثوبها الباذنجاني.

«خرقاء!» هسهستْ. كدتُ أجابهها كما فعلتُ حين رأيتها آخر مرة قبل عام ونيف بوجهٍ جلفٍ وملامح مكفهرّة؛ لكن التحكم بردود الفعل يزداد مع التقدم في العمر. انحنيت بالتحية دون رغبة في ذلك، قام جسدي بالحركة رغم العزم الراسخ في ذهني للردّ، بالملامح الحادة ذاتها التي ارتسمت على وجه تلك المرأة، التي لا تكلّف نفسها عادةً بردّ السلام.

«أين هو مومبليون؟» سألتُ، «لقد قرعت الباب لأكثر من ربع ساعة. هل تراه خرج في مثل هذا الوقت المبكّر؟».

همستُ بتهذيب حذر متجاهلةً سؤالها: «آنسة برادفورد! إنها لمفاجأة كبيرة وشرف لم يسبق له مثيل أن نراك هنا في قريتنا. لقد غادرتنا على عجل منذ فترةٍ طويلة، حتى إننا يئسنا من بركة وجودك بيننا».

عمل غرور إليزابيث برادفورد العظيم وإدراكها المحدود على تلقيها الكلمات المحجوبة النبرة الساخرة عن مسامعها. «في الواقع...» قالت مومئةً برأسها. «أدركَ والداي اللّذان قاما بتحمل واجباتهما على الدوام، أن رحيلنا سيترك فجوةً لا يمكن ملؤها. لكن الشعور بالالتزام هو ما دفعهما إلى إبعادنا جميعاً عن دارة برادفورد، في سبيل المحافظة على صحة عائلتنا، كي نتمكن من الاستمرار بالوفاء بمسؤولياتنا. لا بدّ أن مومبليون قرأ رسالة أبي الموجهة إلى أبناء الأبرشية؟».

«لقد فعل في الواقع» أجبتها. لم أضف أنه استخدم الرسالة كفرصة للتبشير عبر واحدة من أكثر عظاته التحريضية».

«أين هو إذن؟ انتظرتُ طويلاً بما فيه الكفاية، لقد أتيتُ في أمرٍ ملحّ».

«أودّ إعلامك يا آنسة برادفورد أن القسيس لا يقابل أحداً في هذه الأيام. فالأحداث الأخيرة التي وقعت هنا، جنباً إلى جنب مع خسارته الشديدة، جعلت منه رجلاً مرهقاً وغير متوازنٍ تماماً، لتحمّل أعباء الرعية».

«حسناً، قد يكون الحال كذلك، لو كان الأمر متعلقاً بقضايا الرعيّة؛ لكنه لا يعلم أن عائلتي قد عادت إلى القرية. قومي بواجبك وأخبريه أنني بحاجة إلى التحدث إليه في الحال».

لم أرَ أيَّ جدوى من مواصلة السجال مع هذه المرأة، لكن عليّ الاعتراف بأن الفضول تملّكني لمعرفة ما إذا كانت أخبار عودة عائلة برادفورد ستوقظ غضب السيد مومبليون، أو أنها قد تثير أدنى قدرٍ من أحاسيسه الفاترة. لعلّ الحنق يقوم بما أخفق الإحسان بفعله، أو ربما تسعفه امرأةٌ من هذا النوع.

أسرعتُ الخطى متجاوزة إياها سعياً لفتح البوابة الكبيرة لمنزل القسيس، فلمحتُ شحوباً في وجهها، إذ لم تكن معتادة على الدخول بصحبة الخدم. لا بدّ أنها توقّعت مني الذهاب إلى المطبخ أولاً، ثم دعوتها للدخول وفق الطقوس المعتادة. حسناً، لقد تغيّرت الظروف أثناء غياب عائلتها الموقرة،

ويجب عليها الاعتياد على مضايقات العصر الجديد بأسرع وقت ممكن.

اندفعتْ ورائي للاستدلال على الدرب المؤدي إلى صالة الاستقبال، نزعتْ قفازيها ورمتهما بفارغ الصبر. الدهشةُ ما لاح فوق ملامحها حين رمقتْ عري القاعة المجردة من قطع الأثاث المريحة جميعها. غادرتُها قاصدة المطبخ، بغضّ النظر عن حاجتها الملحّة، سيتعيّن عليها الانتظار حتى يتناول السيد مومبليون فطوره المكون من الشوفان والكعك؛ الوجبة الضئيلة الوحيدة التي أعرف بكل تأكيد أنه سيتناولها.

بعد دقائق عدة صعدتُ إلى الأعلى مع صينية بيدي، فلمحتُ إليزابيث عبر الباب المفتوح تخطو جيئةً وذهاباً، وكأنها غير قادرةٍ على احتواء نفسها. كان جبينها منخفضاً للغاية بحاجبين مقطّبين، كما لو أن شخصاً قد أمسك بذقنها وسحل وجهها نحو الأسفل. في الطابق العلوي، استغرقتُ دقيقة لتهيئة نفسي قبل طرق الباب. لم أرد إظهار المبالغة بالقول أو الإيماء أثناء إعلام القسيس بمن يطلب مقابلته.

«تعالَي» أمرَ دون أن يلتفت، بوجهٍ مطلّ على النافذة التي فتح مصراعيها للمرة الأولى منذ زمن طويل: «لا بدّ من أن إلينور ستشعر بأسفٍ شديد إن علمت بما أصاب حديقتها».

عجزتُ تماماً عن الرّد في البداية. من الجليّ أن التصريح بالحقيقة الواضحة المنطوقة بـنعم، ستغذّي كآبته إلى حدٍّ كبير، أما إنكار قوله فهو بهتان عظيم.

«أتوقّع أنك تتفهم مسبباتِ هذا الإهمال» قلتُ منحنيةً لرفع الأطباق من الصينية، «حتى لو توفرت أيادٍ كافية للقيام بأعمال البستنة من اقتلاع الأعشاب الضارة وتقليم الأغصان اليابسة، ما زلنا نفتقر إلى رؤيتها. إنّ ما أزهر في هذه الحديقة، هو المحبة التي منحتها إلينور لحفنة من البذور الصغيرة أثناء فصل الشتاء... للشتلات المورقة والأزهار خلال الأشهر المضاءة بالشمس. يبدو الأمر كما لو أنها رسمتها مزهرة منذ اللّحظة الأولى».

عندما استقمتُ وجدته ملتفتاً يحدّق إلى وجهي. أصابني الارتعاش مرةً أخرى.

«أنتِ تعرفينها!» قالها كما لو أن العبارة غافلته للتوّ.

لتغطية ارتباكي، أفشيتُ ما كنت آمل أن أنقله بعناية: «الآنسة برادفورد تنتظر في صالة الاستقبال. لقد عادت مع عائلتها إلى دارتهم، وأخبرتني أنها بحاجةٍ إلى التحدث إليك على وجه السرعة».

أذهلني ما حدث بعد ذلك لدرجة أوقعت الصينية من يدي. قهقه...! أطلق ضحكةً عاليةً مبتهجة لم أسمعها منذ فترة طويلة، ضحكة قد نسيتُ صداها في الأرجاء.

«أعلم. لقد رأيتها تقرع بابي كمقلاعٍ إبان الحصار. جزمتُ أنها تنوي كسره بالفعل».

«بماذا أنبئها، حضرة القسيس؟».

«أخبريها أن تذهب إلى الجحيم».

ضحك من جديد متمعّناً في وجهي. لا بدّ من أنه لمح اتساع حدقتي عينيّ المَشْدُوهتين، فمسح دمعة مرحٍ عن خدّه، مكافحاً لاستعادة رباطة جأشه.

«لا...» تابع القول: «ليس حرفيّاً، فأنا أخمن صعوبة حمل رسالةٍ كهذه. ضعي مفرداتها في أيّ جملة تودّينها، لكن انقلي للآنسة برادفورد أنني لن أراها، ثم أخرجيها من هذا المنزل».

جرت الأمور كما لو أن اثنتين مني تهبطان السلالم. إحداهن الفتاة الخجولة التي عملتْ لدى عائلة برادفورد في جوٍّ من الرهبة والخوف مهابة نظراتهم الوحشية وكلماتهم القاسية؛ بينما الأخرى آنا فريث، المرأة التي صمدت بوجه أحداث مروعة أكثر من محاربين عتيدين. إن إليزابيث برادفورد بالمقابل امرأة جبانة، وابنةٌ لأشخاص جبناء. لاقتني بطلعتها الهادرة مع دخولي إلى الصالة، إلاّ أنّ ما أخشاه منها قد تبدّد كلياً.

«أعتذر يا آنسة برادفورد، لكن القسيس غير قادر على مقابلتك في الوقت الحالي». حاولتُ الحفاظ على نبرةٍ ثابتةٍ لصوتي قدر الإمكان، لكن حركة فكّ وجهها الغاضب ذكّرتني ببقرتي حين تقوم باجترار طعامها، شعرتُ بانتقال عدوى نوبة الضحك الغريبة التي أصابت السيد مومبليون. تمالكتُ نفسي وما كان مني بعد ذلك إلّا كبتُ مشاعري والاستمرار بذات النبرة:

«كما قلت لكِ، لا يؤدي القس أيّ واجبات كهنوتية حاليّاً، لا يندمج في المجتمع أو يستقبل أيّ شخصٍ كان».

«كيف تجرئين على التبسم في وجهي أيتها الوقحة القذرة!» صرختْ: «لن يرفض مقابلتي، لا يُقدمُ على فعل ذلك، ابتعدي عن طريقي».

اتجهتْ صوب الباب لكنني خطوتُ بأسرع منها، فقطعت عليها الطريق ككلب رعيٍ ضخم يواجه كبشاً جامحاً. حدّقنا بعضنا إلى بعض لفترةٍ طويلة ختمتْها بالقول: «آه حسناً». التقطتْ قفازيها عن حافة الموقد كما لو كانت تنوي المغادرة. وقفتُ جانباً مفسحة الطريق نحو الباب الخارجي، لكنها دفعتني بدلاً من الخروج قاصدة غرفة السيد مومبليون الذي ظهر فجأة هابطاً السلالم.

«آنسة برادفورد» خاطبها: «لطفاً... ابقي حيث أنت». تحدث بصوتٍ خفيض، لكن لهجته الآمرة سمّرتها في مكانها. بدا وكأنه تخلّص من تقوّس الظهر الذي أصابه طيلة الأشهر الماضية، فاستقام منتصباً طويل القامة. صحيح أنه فقد الكثير من وزنه، لكن حيويته الجليّة في تلك اللّحظات أظهرت أن النحافة لم تؤذه، بل وهبتْ وجهه المزيد من الحذاقة. لو أن الوقت أسعفكم للتحديق إلى عينيه آنفاً، لكنتم ميّزتم ملامح وجهه جميعها، عدا العينين الرماديتين الغائرتين المناضلتين لشرح تعبيرهما؛ عملت تجاويف خديه في هذه الأيام على إبراز المقلتين، بحيث لا يمكنكم صرف نظركم عنهما.

«سأكون ممنوناً لو كففتِ عن إهانة أفراد أسرتي أثناء قيامهم بتنفيذ تعليماتي الخاصة». ثم تابع مطالباً: «كوني مطيعة بما يكفي للسماح للسيدة فريث بمرافقتك حتى الباب».

«لا يمكنك فعل ذلك!» ردّت الآنسة برادفورد بنبرة طفلةٍ صغيرة مُنعت من الحصول على دميتها. ظلّ القس واقفاً فوق منتصف الدرج العلوي، بحيث وجب عليها النظر إليه كمريد.

«والدتي بحاجةٍ إليك».

«عزيزتي الآنسة برادفورد» قاطعها ببرود؛ «الكثير من الناس افتقدوا للمعونة طوال السنة الفائتة. احتياجاتُ كنتِ وعائلتك أقدر على تلبيتها،

لكنكم آثرتم الرحيل والإعراض عن الإغاثة... أستميح والدتك عذراً لعدم مساندتها، فلا يخطر لي الآن سوى ادّعاء أفراد أسرتك الطويل الأمد وتشدّقهم بأدائهم لواجباتهم».

مُسحت ملامحها بالكامل، حتى إن وجهها بدا وكأنه خليطٌ من البقع المتوهجة. ثم وعلى نحو مفاجئ انهارت بالبكاء! يا للغرابة!!

«والدي لم يعد إلى القرية. والدي لن يعود... أما أمي... أمي مريضة جدّاً... إنها تترقب الموت في أيّ لحظة. أكّد الطبيب الحلاق الجراح[1] الذي استدعيناه من أكسفورد أنها مصابةٌ بورمٍ خطيرٍ قاتل. أرجوك حضرة القس المبجّل... إنها تعاني من فوضى أفكارٍ مروّعة تسلبُ منها سُبل الراحة... لا تتكلم إلّا عن رغبتها برؤيتك. السعي لمقابلتك هو السبب في عودتنا إلى الدارة، لعلك تواسيها وتُسْلِيها في مواجهة الموت».

صمتَ طويلاً، فراودتني ثقةٌ تامة أن كلماته التالية ستكون بمثابة طلبٍ لإحضار معطفه وقبعته للمغادرة إلى دارة برادفورد. تكلم فبدا وجهه حزيناً كما عهدته على الدوام، بعكس صوته الذي صدح غريب النبرة متحجر الألفاظ:

«إن كانت والدتك تطلب مني القدوم لمنحها الغفران البابوي، فقد اختارت المضيّ برحلةٍ شاقة طويلةٍ إلى ما لانهاية. دعيها تناشد الربّ مباشرةً لطلب المغفرة عمّا اقترفته؛ لكني أخشى أنها لن تجد منه مستمعاً مبالياً، كما لم يفعل مع الكثيرين منا في هذه القرية». أدار ظهره بهذه الكلمات وصعد الدرج إلى غرفته، ثم أغلق الباب خلفه.

استندتْ إليزابيث برادفورد إلى الدرابزين لتثبّت نفسها حتى تبدت عظام يدها نافرة تحت الجلد، بينما ارتجفت كتفاها أثناء نشيجها بشهقاتٍ كافحتْ لقمعها. سارعتُ إليها بلا وعي بسنوات الكره التي أضمرتُها جرّاء احتقارها لي،

1- الحلاق الجراح: من أشهر أصحاب المهن الطبّية في العصور الوسطى الأوروبية. كان يوجّه رعايته بوجهٍ عام إلى الجنود أثناء المعركة أو بعدها. لم يكن الأطباء في ذلك العهد يجرون عموماً العمليات الجراحية، بل الحلاقون. وعادةً ما كانوا يتخذون موطناً لهم في القلاع، حيث يقدمون المساعدة الطّبية للأثرياء.

ثمّ سمحتُ لذراعيّ باحتضانها كطفلةٍ بائسة. قصدتُ مساعدتها للوصول إلى الباب، لكنّ حالتها المزرية جعلتني أتجاهل رغبة القسّ في طردها، ووجدتُ نفسي أسير بها نحو المطبخ لأُجلسها على مقعد خشبي حيث استسلمتْ لبكاءٍ بلّل منديلها الدانتيل بالدموع. ناولتها منديلاً جديداً، فاستنثرت برعونة وفوضى كمتشردةٍ صغيرة. ثم قدّمتُ لها كأساً من الماء فشربت.

«أخبرتُه أن الأسرة قد رجعت، لكن في الحقيقة لم يعد سواي مع أمي مصطحبتين إحدى الخادمات. لا أعرف كيف يمكنني مساعدة والدتي اليائسة الحزينة التي لم يعبأ أبي بحالها منذ معرفته بحقيقة ما جرى. ليس لديها ورم، لكن ما تحمله امرأة في سنّها داخل أحشائها لا بدّ أنه سيقتلها بالطريقة ذاتها. أبي الذي اعتاد ممارسة قسوته عليها، يتماهى الآن في حقارته وينعتها بأشدّ الصفات فظاعة... لقد دعا زوجته بالعاهرة...» توقّفتْ عند الكلمة الأخيرة حين أدركتْ أنها نطقتْ بأكثر مما أرادت... أكثر بكثير مما ينبغي. شبّت عن المقعد فجأةً كما لو أنه تحوّل إلى موقد يُحرق مؤخرتها النبيلة، سوّت شعرها وهندست كتفيها، ثم سلمتني قطعة القماش المتسخة مع القدح الفارغ دون أن تنبس بكلمة شكر. مضت وحفيف ثوبها يخلخلُ صمت المكان، ثم قالت دون النظر إلى وجهي: «يمكنني العثور على طريقي». لم أتبعها، لكنني علمت برحيلها من صفعة الباب المصنوع من خشب البلوط.

لم أحظَ طوال فترة تواجدها بوقفة دهشة مما فعله السيد مومبليون. من الجليّ أنّ تفكيره بات أشد قتامةً، أمرٌ زاد قلقي، خاصة مع افتقاري إلى معرفة ما يمكنني فعله لمنحه السكينة والسلام. ارتقيتُ الدرج الصاعد إلى غرفته بهدوء قدر استطاعتي واسترقت السمع خارج بابه. تسلّل صمتٌ مهيب من الداخل... طرقتُ برفق، لم يرد، فقمت بفتح الباب. أبصرته جالساً ورأسه بين يديه. أما الكتاب المقدس فكان كما حاله دائماً غير مفتوح قبالته. توقّدتْ في ذهني ذكرى مفاجئة، كان جالساً يومها بنفس الوضعية في مساء أحد أحلك أيام الشتاء الماضي، مع فارق أن إلينور كانت بجانبه ترنّم آياتِ المزامير. تناهى صوتها اللّطيف إلى مسامعي رهيفاً للغاية، متقطعاً مع حفيفٍ ناعمٍ لتقليب الصفحات. لم أطلب الإذن منه، التقطت الكتاب المقدس ومضيتُ إلى مقطع أعرفه جيداً:

«بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ، وكُلُّ مَا فِي بَاطِنِي لِيُبَارِكِ اسْمَهُ الْقُدُّوسَ.
بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ، ولاَ تَنْسَيْ كُلَّ حَسَنَاتِهِ.
الَّذِي يَغْفِرُ جَمِيعَ ذُنُوبِكِ. الَّذِي يَشْفِي كُلَّ أَمْرَاضِكِ.
الَّذِي يَفْدِي مِنَ الْحُفْرَةِ حَيَاتَكِ». [1]

نهض من كرسيه والتقط الكتاب من يدي.

«قرأتِ بشكلٍ جيد يا آنا. أرى أن إلينور، كمدرّسةٍ جيدة أضافت مؤهلاً جديداً إلى فهرسها الخاص بالسمات المتميزة. لكن لماذا اخترتِ هذا؟» أتى صوته خفيضاً جافّاً، ثم قلب بضع صفحات، وبدأ في الترنيم.

«امْرَأَتُكَ مِثْلُ كَرْمَةٍ مُثْمِرَةٍ فِي جَوَانِبِ بَيْتِكَ.
بَنُوكَ مِثْلُ غُرُوسِ الزَّيْتُونِ حَوْلَ مَائِدَتِكَ». [2]

رفع عينيه وحملق في وجهي... ثم ببطء أرخى يديه متعمداً زلق الكتاب من بين أصابعه. قفزتُ نحوه دون وعي للإمساك به، لكنه قبض على ذراعي، ليهوي الكتاب المقدس فوق الأرض بارتطامٍ ثقيل.

تسمّرنا وجهاً لوجه، بيده تشدّ على ذراعي التي كاد أن يكسرها.

«حضرة القسيس» قلتُ محاولةً السيطرة على نبرة صوتي. فأسقط الذراع كما لو أنها وصمة عار، ثم ألقى بيده فوق شَعره. تركتْ قبضته خفقاناً شديداً في قلبي، حاشدة الدموع في عيني. ثمّ سارعتُ بالانصراف كي لا يرى انهمارها دون طلب الإذن بالمغادرة.

1- الكتاب المقدس: سفر المزامير – المزمور: 103

2- الكتاب المقدس: سفر المزامير – المزمور: 128: 3.

ربيع 1665

-2-

إكليلُ الزهور

الشتاءُ الذي أعقب وفاة سام في المنجم والأشدّ قسوة في حياتي على الإطلاق، تلاشى عند عتباتِ الربيع مع طرقات جورج فيغارز لبابي باحثاً عن مسكن. أتى الرجل الذي اعتقدتُ أن الله أرسله لي؛ لكن كثيرين في وقت لاحق أعلموني أن الشيطان من فعل.

ركض صغيري جيمي في ذلك اليوم، بحيوية وحماس متعثراً بخطواته متلعثماً ينادي: «هناك رجلٌ يا أمي... رجلٌ عند الباب».

رفع جورج فيغارز قبعته عن رأسه حين رآني، مطرقاً عينيه إلى الأرض عبر حركةٍ تومئ بالاحترام، في فعلٍ غريب عن هؤلاء الرجال المحدّقين كما لو أنهم يعاينون لحم بقرةٍ في مزادٍ علني. إن كنتِ أرملةً في الثامنة عشرة من عمرك، لا بدّ أنكِ ستعتادين على تلك النظرات وعلى ردّ فعلٍ صارمٍ تجاه مطلقيها.

«من فضلك سيدة فريث، أخبروني في بيت القسيس أن لديكِ غرفة للإيجار».

عرّف عن نفسه بأنه خيّاطٌ متجول، في حين وشتْ ثيابه المهندمة عن مهنيٍّ خبير. بدا رجلاً متواضعاً وهادئاً، أهلَّ نظيفاً أنيقاً بالرغم من عبوره لطريقٍ طويلٍ بعيدٍ عن كانتربيري ما أثار إعجابي. علمتُ أنه حصل للتوّ على عملٍ مع جاري ألكسندر هادفيلد الذي كلّفه بحياكة مجموعةٍ من الثياب ملحّة الطلب؛ ثم أخبرني أنه مستعدّ لدفع ستة بنساتٍ أسبوعيّاً كإيجار عن مكانٍ يشغله في العلية تحت الإفريز. نظرتُ بعين الاعتبار لعرضه، ثم وافقتُ

وإنْ أتاه صاخباً ثملاً أو موشحاً بالوحل كالخنزير. خاصةً أن كل ما تجنيه امرأةٌ بمثل حالتي -انقطع دخل أسرتها منذ وفاة المُعيل- من مجموع مردود القطيع مع نقود الخدمة الصباحية في منزل القسيس، مضافاً إليها أجور العمل الإضافي في دارة برادفورد، لا يبلغ سوى عوائد ضئيلة لا تكاد تكفي لتلبية احتياجات الأسرة المتزايدة، إن الستة بنسات التي سيدفعها السيد فيغارز تعني لنا الكثير الكثير. إلّا أنني مع حلول نهاية الأسبوع الأول فكرتُ بالتوقف عن استيفاء الأجرة، بل لعلّني أدفع لجورج فيغارز الذي أعاد البسمة والحيوية إلى المنزل الحزين. أفكّر في تلك الأيام السالفة... بضحكة جيمي التي لا تزال تصدح في مسامعي خلال نهارات الربيع والصيف المشرقة.

أوكلتُ إلى شابةٍ تدعى جين مارتن مهمة الاعتناء بالرضيع وبجيمي أثناء عملي. كانت فتاةً محترمةً يقظةً تجاه الأطفال، لكنها ذات رأيٍ متشدّد بما يتعلق باللّهو والمرح اللّذين تعتبرهما خارج قواعد الأدب وفق اعتقادها. لطالما عانى جيمي من حزمها لينتظر عودتي بفارغ الصبر، بسعادة يهرول نحوي معانقاً ركبتيّ بيديه عند الباب. فعلٌ تغير كليّاً في اليومِ التالي لوصول السيد فيغارز، حيث افتقدتُ ملاقاة جيمي المعتادة مصغيةً إلى ضحكاته الصغيرة المتموجة حول الموقد. فكّرتُ بجين مارتن متعجبة، كيف تخلّتْ عن صرامتها باللّعب مع الطفل، منحّيةً قواعد الأدب جانباً! لكن مع دخولي وجدتُها تحرّك الحساء بوجهٍ تعلوه النظرة الساخطة ذاتها. أما السيد فيغارز فكان يزحف متجوّلاً في الغرفة، بينما يمتطي جيمي ظهره مطلقاً صيحات البهجة في أركان المكان.

«جيمي! هيا انزل عن ظهر السيد فيغارز!» صحتُ بالطفل. ضحك السيد فيغارز مليّاً ثم صهل محرّكاً رأسه الأشقر. «أنا حصانه يا سيدة فريث، إن لم يكن لديكِ أيّ اعتراض. إنه خيّالٌ جيدٌ للغاية، ونادراً ما يضربني بالسياط». عدتُ في اليوم الذي يليه إلى المنزل ووجدت جيمي متزيّناً كالمهرج، مستخدماً قصاصات الأقمشة الفائضة عند السيد فيغارز. وفي اليوم الثالث، وجدتهما مخيّمين بأكياس الشوفان فوق الكراسي لصنع منزلٍ للاختباء.

حاولتُ التعبير عن مدى تقديري للطفه، لكنه تجاهل شكري بالقول: «آه، إنه ولدٌ صغيرٌ رائع. لا بدّ أن والده فخورٌ به إلى حدٍّ كبير». عملتُ على ردّ

معروفه بالعناية بأصناف الطعام وتقديمها على نحو أشهى وألذّ، ليوافيني بدوره بمديح سخيّ. كانت البلدات المجاورة تفتقد الخيّاطين في ذلك الوقت، ما زاد الأعمال المطلوبة من السيد هادفيلد ومساعده الجديد. لقد أمضى السيد فيغارز فتراتٍ طويلة في الحياكة بحيث استغرقه عمله حتى حلول اللّيل، جالساً قرب الموقد جاثلاً بإبرته حتى نفاد زيت السراج. جاهدتُ في بعض الأحيان التي لا أكون فيها مرهقة، بمسامرته قرب النار المتقدة، ليكافئني بالعديد من الحكايات عن الأماكن التي زارها. أعتقد أن ما صادفه في حياته غنيٌّ، مقارنةً بتجربة شابٍّ في مثل عمره: أما قدرته على الوصف فكانت مثالية، خاصة لامرأةٍ مثلي تُشابه في حالها معظم الناس في هذه القرية الذين لم يرتحلوا مسافة أبعد من سوق البلدة بسبعة أميال. تشيسترفيلد المدينة الأقرب إلينا تقع على بعد يبلغ ضعفي المسافة، ولا سبب لديَّ للسفر إليها. أخبرني السيد فيغارز عن زياراته للبلدات الكبرى في لندن ويورك، وتعرّفه على الحياة الصاخبة في ميناء بليميث، والعلاقات التجارية المتغيّرة لزائري كانتربيري. سررتُ كثيراً بسماع قصصه عن هذه الأماكن وأسلوب معيشة الأشخاص المقيمين هناك.

أمسياتٌ لم يسبق لي منادمتها مع سام، زوجي الذي ما انفك باحثاً عن أنباء عالمٍ ضئيلٍ يهتمّ به. كان يحب الاطلاع على أخبار قرويين عرفهم منذ الطفولة، وأحداثٍ بسيطة وشمت أيامهم. أخبرته عن تملك مارتن هايفيلد لعجلٍ جديد، وعن مغزل الصوف الخاص بأرملة هاميلتون. أرضاه الجلوس، منهكاً بأجزاء من عجيزته خارج الكرسي الذي بدا صغيراً مقارنة بالجالس فوقه، مصغياً لثرثرتي عما سمعته عن القرويين وعن أفعال طفليه، مُجيزاً للكلمات بالانهيال فوقه كالمطر، محدّقاً بنصف ابتسامة إلى وجهي، بغضّ النظر عما أقول. تتسع ابتسامته حين ينفد الكلام محاولاً الوصول إليّ بيديه الكبيرتين المتشققتين بأظافرهما المتفحمة المتقصفة. كانت فكرته عن ممارسة الحب محصورة في التهاوي فوقي بخفة حتى الوصول للنشوة التي يتبعها بنومٍ عميق. أستلقي بعدها تحت وطأة ذراعه محاولة تخيّل تجاويف عقله المدلهمة، وعالمه المقتصر على متاهةٍ رطبة مظلمةٍ من الجروف والمعاول، على عمق ثلاثين قدماً في باطن الأرض. كان سام خبيراً بكيفية تفتيت الحجر الجيري مستخدماً النار والماء؛ ذا درايةٍ بالقدْر اللّازم منهما لانتشالِ طبقٍ من الرصاص، بصيراً

بالشقوق المكتنزة بالمعدن واستحقاقاته على طول الحافة الحجرية قبل إدبار العام. أدركتُ بقدر معرفته بمعنى الحب أنه أحبني، بل منحني أكثر من الحب، خاصةً بعد إنجابي لبنيه. حياته كلّها محصورةٌ في هذه الأشياء.

لم يكن السيد فيغارز محدود التفكير على الإطلاق، حتى إنه أدخل العالم الواسع إلى كوخنا. يعود مسقط رأسه إلى منطقة بيك، أرسله أهله لاحقاً إلى بليميث كأجيرٍ متدرّب، حيث قابل في تلك المدينة الساحلية التجار العابرين لطريق الحرير المشرقي، المتعاملين مع نُسّاج الدانتيل، حتى ولو كانوا من أعدائنا الهولنديين. روى الكثير من الحكايات عن البحارة البربريين الذين غطّوا وجوههم النحاسية بأطراف عمائمهم النيلية الفاخرة. حدّثني عن تاجرٍ مسلم جعل من نسائه الأربع منقّبات، تختلس كلٌّ منهن النظر بعينٍ واحدة عبر برقعها. ليغادر بعد ذلك إلى لندن في نهاية فترة التمهن. أدّت عودة الملك تشارلز للعرش الملكي[1] إلى خلق الرخاء لمختلف الحِرف، حيث أنجز فيغارز الكثير من أعمال الخياطة بين كوادر الخدم... لكن المدينة أجهدته، وفق تعبيره.

«تدعم لندن جيل الشباب والأثرياء، ولا يمكن لأعمال الآخرين أن تزدهر فيها لوقتٍ طويل». ابتسمتُ وأخبرته أنه يبدو بعمرٍ لم يتجاوز العشرينيات بعد، فهو شابٌّ بما يكفي لتفادي قطاع الطرق، والصمود في الحانات حتى وقتٍ متأخر.

«ربما يكون الأمر كذلك يا سيدتي»، ثم تابع بالقول: «لقد سئمت رؤية الجدار الأسود في الجانب المقابل من الشارع، حيث لا يطرق مسامعي سوى ضربات عجلات النقل على الأرض. لطالما تقتُ إلى آفاق واسعة،

1- تشارلز الثاني: الحاكم للممالك الثلاث إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا. أُعدِمَ والد تشارلز الثاني، الملك تشارلز الأول، في وايت هول في أوج الحرب الأهلية الإنجليزية عام 1649. لتدخل إنجلترا بعدها فترة تُعرف باسم فترة انتقال السلطة الإنجليزية بقيادة أوليفر كرومويل، وإلغاء الحكم الملكي في البلاد. هزَم كرومويل تشارلز الثاني في معركة ووستر عام 1651، ليهرب تشارلز بعد ذلك إلى قارة أوروبا ويمضي تسع سنواتٍ في المنفى في فرنسا والجمهورية الهولندية والأراضي الإسبانية. أدّت الأزمة السياسية التي تلت وفاة كرومويل في عام 1658 إلى استعادة النظام الملكي، ودعوة تشارلز للعودة إلى عرش بريطانيا من جديد.

لنسيمٍ عليل. لا يمكنكِ تصديق أن ما يتنفسه الناس في لندن ليس الهواء على الإطلاق، بل الدخان الهارب من حرائق الفحم النافحة بالسخام والكبريت في كل مكان، والتي لوثتِ المياه وأحالت القصور إلى هياكل سوداء قاتمة. باتت المدينة أشبه برجل بدينٍ يحاول أن ينحشر في جركينة[1] تعود لمراهقته. أناسٌ كثيرون انتقلوا إليها بحثاً عن عمل، عشرة إلى اثني عشر شخصاً يقطنون غرفةً لا تزيد مساحتها عن هذه الغرفة التي نجلس فيها الآن. حاولت العوائل الفقيرة بقدر الإمكان أن تضيف بعض المساحات علوّاً إلى مساكنها ومخازنها. فتدلّت أجزاء المباني المشوهة عبر الأزقة مترنحة فوق الأسطح المتفسّخة، والتي مع رؤيتها تثير في نفسك التساؤل حول قدرتها على حمل ذاك الثقل كلّه! أما الصنابير والمزاريب فقد وضعت كيفما اتفق، لتستمر بالتنقيط فوق العابرين، حتى بعد مرور فترة طويلة على هطول الأمطار».

أخبرني بعد ذلك عن تململه من النبلاء الذين يوصون بكسوةٍ لأفراد أسرتهم ليتركوه قيد الانتظار لسنةٍ أو أكثر قبل سداد أثمانها. «يمكنني الاعتراف أنني شعرت في ذلك الوقت بأنني محظوظ لعدم تقاضيَّ أيّ أجورٍ على الإطلاق» قال ذلك مقارناً وضعه بحال زملائه الذين طُردوا عن أبواب زبائنهم المتخلّفين عن الدفع.

مع تيقّنه أنني لستُ بيوريتانية متزمّتة بأيّ حالٍ من الأحوال، شاركني بعض القصص عن العبث والفسق التي شاهدها في المدينة بعد قدوم الملك من منفاه مبحراً إلى البلاد. راودني شعورٌ واثقٌ في البداية أنه يطرّز هذه الروايات بمهارة كما يرقّش الأقمشة بين يديه، لذلك وفي إحدى اللّيالي، تحديتُ صراحته خلال جلسة سمر جلس فيها على الأرض بأرجلٍ طويلةٍ متصالبة، مع قطعةِ قماش من الكتان يخيطها، بينما كنت جالسةً إلى جانب الطاولة أربتُ بأصابع دهنية عجينة فطيرة الشوفان، وأرفع حبائل منها أمام النار لتجفّ.

«لا، يا سيدتي. إن شعرتِ بمبالغة ما، فأنا أبالغ من ناحية عكسية، إذ إنّني حريصٌ على عدم الإساءة إليك». أضحكني ما قاله، ثم أعلمته بعدم إصابتي

1- الجَرْكِينَة jerkin: سترة رجاليّة ضيقة بلا كمين، تصنع عادةً من الجلد وتُلبَس فوق القميص، تعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

بالحرج من سماع الحقيقة، وعن رغبتي بمعرفة ما يدور حول العالم. ربما حثّه الكلام على المضيّ قدماً في السرد، أو لعلّ كأس المزر الثاني الذي سكبته من أجله فعل فعله، إذ انطلق بعدها في رواية بعض الحكايات عن الملك أثناء زيارته متنكّراً لبيت عاهرة ليفرغ ما في جيوبه هناك. فوجئ السيد فيغارز عندما قلت له ضاحكة، إنني آمل إنصاف السيدة المعنية وحظوتها بثروة تعادل حجم الخدمة التي تقدمها، لهذا الرجل ومن هم أكثر شناعة منه.

«ألا تلومينها على جني لقمة عيشها من الشهوة والفجور؟» تساءل رافعاً حاجبه بازدراء.

«ربما أفعل» أجبت، «لكن قبل إلقاء اللّوم عليها، أودّ أن أعرف ما كانت الخيارات المتوفرة لديها في العالم القاسي الذي وصفته لي. حين تجد نفسك عالقاً في قناة من الصرف الصحي، فأول ما يعنيك هو النجاة من الغرق، وليس إزالة الرائحة النتنة العالقة بك». ربما تحدثتُ بصراحةٍ مفرطة بخصوص هذه المسألة، إذ صدمني ما أدلى به بعدها عن ممارسات شاعر الملك المفضل، المدعو إيرل روتشستر، لدرجة أنني أتذكّر حتى الآن الشطر الرئيس من السطور الشعرية التي ألقاها. كان السيد فيغارز مبدعاً في محاكاة الشاعر، حيث قام قبل إلقاء الأبيات بتعديل محياه الصريح الهادئ، ليحاكي ملامح ساخرة محوّلاً صوته اللّطيف إلى نبرة رجل نبيل:

«أقوم في الحادية عشرة، غدائي في الثانية
قبل السابعة أثمل، في طلب عاهرتي أرسل،
خوفاً من السيلان،[1]
أودعه في يدها وأسكبه فوق ركبتها».

منعته من متابعة الإلقاء مسارعةً بإغلاق أذنيّ. عذرتُ نفسي لردّة الفعل هذه، لأنني حقّاً وبالرغم من كرهي الحكم على الآخرين، لكنني نادراً ما أفتخر بأولئك النبلاء المتباهين بتفوقهم، خاصةً حين ينعتوننا بالمنحطين المبتذلين ما يجعلهم يبدون كالملائكة. حين استلقيت مع صغاري في وقتٍ

1- مرض السيلان Gonorrhoea الشائع آنذاك بـ (The clap) وهو عدوى بكتيرية تنتقل بالاتصال الجنسي، وقد تؤدي إلى العقم إن لم يتمّ علاجها.

لاحق فوق سرير القش في غرفتي، أسفت من سلوكي المتسرّع، فلا زلت أتوق إلى التعرّف على الأماكن والأشخاص الذين لا أمل لي بلقائهم، أخشى إن بدوت محتشمةً للغاية بنظر السيد فيغارز، أنْ يتحاشى التحدّث إليّ بحرية.

ما خاب ظني، إذ بدا الرجل المسكين في اليوم التالي قلقاً من قيامه بخدش حيائي على نحوٍ كبير. أخبرته موضحة عن تعاليم قسّنا بأن المعرفة بحدّ ذاتها ليست إثماً، إنما منفعةٌ تحصّن روح الإنسان المعرّضة للخطر. أثنيتُ على دوره في تنوير بصيرتي لإدراك الحالة الواقعية لمجالس بلدنا العليا. ثم عبّرت عن امتناني الجزيل لسماع قصائد أخرى من هذا القبيل، بحجة أننا جميعاً رعايا جلالة الملك المخلصين الملزمين ببذل ما في وسعنا لمحاكاة ملكنا... بهذه العبارة الساحرة أنهيت الموقف. وما إن تبدّد الربيع في أحضان الصيف، حتى وصلنا إلى أريحيةٍ وفيرةٍ في التعامل فيما بيننا.

أحدث وصول شحنة الأقمشة التي طلبها السيد هادفيلد من لندن حماساً عظيماً طاف حولها، كما هو الحال دائماً عند قدوم البضائع من المدينة، إذ يهتمّ القرويون البسطاء برؤية ألوان وزخارف الأقمشة التي يرتديها الناس في المدينة. وصل الطرد مبلّلاً بعد رحلة طويلة قطعها داخل عربةٍ مفتوحة دون وقايةٍ من الأمطار. طلب السيد هادفيلد من مساعده أن ينظر في أمر تجفيفه، فقام السيد فيغارز بنشر القماش على الحبائل الممتدة بين الأبواب الخارجية في ساحات أكواخنا مُعرّضاً إياها للهواء، ما أتاح للجميع فرصةً كبيرة للنظر والتعليق. سارع جيمي بدوره للّعب، راكضاً ذهاباً وإياباً بين الأقمشة المرفرفة، متظاهراً بأنه فارس في إحدى المبارزات.

لا زال السيد فيغارز دؤوباً في عمله على نحو ملفت. فاجئني حين عدت من عملي بعد بضعة أيام من وصول أقمشة لندن، بوجود ثوبٍ من الصوف الناعم مطويٍّ على السرير في غرفتي. كان بلونٍ أخضر مذهّب، يماثل الأوراق الموشّحة بأشعة الشمس، فستانٌ ذو طرازٍ بسيط، لكنه مغرٍ ومحاكٌ بمهنيةٍ عالية، مزركش بالدانتيل المغزول في جنوه[1] عند أطرافه وأكمامه.

1- جنوه: مدينة بحرية شمال إيطاليا، عاصمة إقليم ليغوريا. تعدّ مقاطعة جنوه حاضرة بحرية، ومدينة ذات تاريخ مجيد، وتقاليد عريقة.

لم أحظَ بثوبٍ أجمل منه في حياتي، حتى خلال عقد الزفاف حين ارتديتُ ثوباً استعرته من صديقة. منذ وفاة سام لم أخلع عني ثوباً أسود طويلاً فضفاضاً منسوجاً من القطن الخشن، عارٍ من الزينة وفق الطراز البيورتاني. لطالما ظننتُ أنني سأستمر بهذه الحلة، فلا إمكانياتي ولا رغباتي يدفعونني للتزيّن. مع ذلك، رفعت الثوب الناعم وخطوت صوب النافذة بسعادةٍ غامرة كفتاةٍ صغيرة، في محاولةٍ لإلقاء نظرةٍ على انعكاس ظلّي المرتسم في اللّوح الزجاجي. لمحتُ طيف السيد فيغارز واقفاً خلفي، ما أربكني فأسقطتُ الفستان محرجةً من حالتي غير المحتشمة. علت وجهه ابتسامة واسعة مألوفة، مطرقاً إلى الأسفل باحترام، مراعياً حالة التنسك التي أعيشها.

«اغفري لي، لكنكِ خطرتِ ببالي حالما رأيتُ ذلك القماش، لا يعكسُ لونه الأخضر سوى لون عينيك».

شعرت بالدم يتدفق في وجهي، بينما عملت حيرتي على توقد خديّ واشتعال حنجرتي. «سيدي الطيب، أنت لطيف جدّاً، لكنني لا أستطيع قبول هذا الفستان منك. أنت نزيلٌ أسعدني تواجده في هذا المكان. لكن كما تعرف إنّ وجود رجل مع امرأةٍ تحت سقف واحد أمر محفوفٌ بالمخاطر. أخشى أن اقترابنا من بعضنا فاق حدود الصداقة».

«أتمنى لو يتعداها بالفعل» قاطعني بهدوءٍ وجدية بعينين رفعهما للتحديق إليّ. اشتعلتُ بالقرمزي من جديد جاهلةً تماماً بما عليّ الردّ به. تورّد وجهه إلى حدّ ما، وكنت أتساءل هل يشعر بالخجل مثلي؟ لكن مع خطوة اتخذها نحوي بعد ذلك، ترنّح قليلاً مسنداً يده على الحائط ليوازن نفسه. راودتني موجةٌ من الغضب لظنّي أنه يساعد نفسه للوصول إلى جرة المزر، فتأهبتُ مترقبةً لأيّ سلوكٍ يشوبه الرعونة الناجمة عن المشروب الروحي، والتي أصابتني كلّما احتسيته بعد وفاة سام. لكن السيد فيغارز أبقى يديه بعيداً عن الجرة، رافعاً إياهما إلى جبينه موسّداً كما لو أنه يؤلمه. ثم قال بهدوء: «ارتدي الفستان لأيّ سببٍ ترينه، أقدّمه بمثابة شكرٍ على ترحيبكِ بشخصٍ غريب وتوفير مأوى مريحٍ له».

«سيدي، أنا من يجب عليها تقديم الشكر، لكن تفكيري حول الأمر مشوّشٌ قليلاً». قلت وأنا أطوي الثوب مناولة إياه.

«لماذا لا تطلبين المشورة عند زيارتك لبيت القسيس غداً؟» سأل ثم تابع القول: «بالتأكيد إن لم يرَ قسّك أيّ ضررٍ في قبوله، فلا جدوى من رفضك؟»

التمستُ بعض الحكمة فيما اقترحه ووافقت عليه. إن لم أطلب مشورة القسّ -لأنني أعجز عن فتح قلبي أمامه بشأن مسألةٍ كهذه- فأنا على يقينٍ أن السيدة مومبليون سترشدني إلى الصواب. ثم سرعان ما لحظتُ أمراً أثار عجبي، متعلقاً بامرأةٍ حية بما يكفي داخلي، راغبة بقوة بارتداء هذا الفستان.

«ألن تحاولي ارتداءه لنفسك على الأقل؟ إنّ كل صانعٍ يحب أن يعرف المدى الذي وصلت إليه مقدرته وتمكّنه من مهنته، فإن علمتُ في الغد أنكِ لن تقبلي هذه الهدية بكلّ لباقة، فعلى الأقل كافئي آلامي وأشبعي اعتزازي بجودة العمل حين تسمحين بتفحص ما أنجزت».

هل فعلتُ الصواب، أتساءل الآن، وقد أبديتُ الموافقة بسهولةٍ على اقتراحه؟ وقفت هناك في المدخل قابضةً على الفستان الجميل، بينما يثير ارتداؤه فضولي أكثر من قلقي حول جواز ما أفعله من عدمه. مع تلويحة السيد فيغارز أسفل الدرج منتظراً، حرّرت كتفي من ثوب القطن الخام ليهوي أسفل قدمي. لاحظت لأول مرةٍ منذ شهور كيف تلطّخ الكتان تحته بالعرق وبقع الحليب المصفرّة. بدا من غير الملائم أن أرتدي الفستان الجديد فوق هذه الأشياء غير النظيفة، زلقتها بدورها، ثم وقفت للحظةٍ أتأمل جسدي. لقد سلب العمل الشاق وهزال الشتاء النعومة التي أفقدتني ولادة توم معظمها. كان سام يحبني بدينة، فما الذي يحبه السيد فيغارز يا ترى؟ تساءلتُ فأثارتني الفكرة حتى توهّجت بشرتي وتضيّقت حنجرتي. أمسكتُ الفستان الأخضر وجعلته ينسدل بهدوء فوق جسدي العاري. شعرت بأعضائي تنبضُ بالحياة كما لم يحدث منذ فترةٍ طويلة، كنت على يقينٍ تامّ أن جزءاً يسيراً من هذا الشعور يدين للفستان وحده. تماوجت التنورة مع حركتي، فشعرت بالحاجة إلى التمايل معها، للرقص من جديد كفتاةٍ مفعمةٍ بالحيوية. كان السيد فيغارز مواجهاً الموقد بيدين يدفئهما قرب النار، إلى أن التفت ملتقطاً أنفاسه مع وقع خطاي على الدرج، فأضيء وجهه بابتسامة افتخار. بدأت بالدوران جاعلة من التنورة تطوف حولي، فصفق بيديه ثم مدّهما على نحو واسع على جانبيه.

«سيدتي، كم أرغب بخياطة اثني عشر فستاناً كهذا لعرض جمالك!» ثم غربت اللّهجة اللّعوب عن صوته وتلاشت ليعود أجشّ كما كان.

«أظن أنك تستحقين أن أفيض كرماً معك في جميع الأمور». عبر الغرفة نحوي ووضع يديه على خصري، وجّهني برفق نحوه وقبلني. لن أقول إنني لم أكن أعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك، لولا إحساسي بالحمى التي توقدت بجسده ما أجبرني على الانسحاب.

«لكن حرارتك مرتفعةٌ جدّاً!» صرخت محاولةً الوصول بيدي إلى جبينه كما تفعل الأمهات. وهكذا فُقدت اللّحظة إلى الأبد... للأفضل أو للأسوأ... لا أدري!

«هذا صحيح» قال مفرّجاً عني ممسداً صدغيه مرةً أخرى. «شعرت بألمٍ وقشعريرةٍ طوال هذا اليوم. إنها تزداد الآن مع صداعٍ في رأسي وألمٍ مرعب يسري داخل عظامي».

«دعني أصطحبك إلى سريرك» حدّثته بلطف: «سأقدم لك جرعة مزر منعشة أحتسيها معك، وستتحدّث مجدّداً عن هذه الأشياء في الغد، بعد أن تتعافى».

لا أعرف كيف أمضى السيد فيغارز ليلته تلك، لكنني بتُّ عليلة مضطربة من تداعي الأفكار والمشاعر التي تأججت من جديد، ولما تكن في موضع ترحيبٍ تام لديّ. استلقيتُ لفترةٍ طويلةٍ في الظلام، مصغيةً لأنفاس أطفالي الخفيفة الناعمة والغريزية جواري. أغمضتُ عيني واستحضرت الإحساس بيد السيد فيغارز وهي تهبط برفق على خصري، أنستُ قبضة أصابعها هناك، وبدوتُ مثل شخص نسي الطعام لأيام، ليذكّره العبق المتصاعد من مقلاة الآخرين بأنه يتضور من الجوع. وصلتْ يدي في الظلام إلى كفّ توم وقبضتُ على أصابعه كما لو أنها براعم صغيرة. بالرغم من عشقي للمس أيادي طفليّ الناعمة، إلّا أنني أدركُ أن هناك نوعاً آخر من اللّمسات –صلدة لحوحة– لمساتٍ يتوق جسدي لالتهامها.

نهضت في الصباح الباكر في سباقٍ مع صياح الديك لإنجاز الأعمال المنزلية قبل أن يهبط السيد فيغارز إلى أقمشته. لم أرد مقابلته حتى أتيح لنفسي مساحة أكبر أتفحّص خلالها رغباتي. تركت الصغار في تشابك

غفوتهم بأريجهم المنعش وسلامهم الطفولي، توم الملتف حول نفسه كجوزةٍ داخل قشرتها، وجيمي المسدل ذراعيه النحيلتين خارج السرير. لقد غطى رأسيهما شعر والدهما الأشقر المنسدل بنعومة، البراق في الظلام، بينما لم يكن شعري الداكن الكثيف مختلفاً بتجاعيده عن خصلاتهم الشقراء. أما وجوههم الصغيرة إن أمكن لأحد تمييز السمات، فقد أجمع الجميع أنها لوجهي أكثر من ملامح والدهما. لامستُ بخدي رقبتيهما فتنسّمتُ عبير الحيوية والنضارة، وفكّرت بتحذير الرّب ألّا نحب شيئاً أرضيّاً أكثر منه، لكنه لم يتوانَ بالمقابل عن وضع شغفٍ عظيمٍ في قلب الأم تجاه أطفالها، حتى إنني أقف عاجزةً عن تفهّم الحكمة من اختباره لنا.

قمت بتهوية الجمر في الطابق السفلي وأعدتُ إشعال الحطب، ثم خرجت إلى البئر لملء الدلاء بالمياه؛ وضعت غلاية كبيرة على النار، وهيأت حوضاً للاغتسال بمجرد سخونة الماء. قمت بتنظيف الأرضية الحجرية وتركتها حتى تجفّ، لففت شالاً حولي وأخذت الحساء والخبز إلى المقصورة المشرقة، فلمحت حافة السماء وقد آلت إلى أفقٍ وردي، بينما تصاعد ضبابٌ كثيفٌ من الجدولين الملتفين حول قريتنا الصغيرة.

تتمتع قريتنا بإطلالةٍ ساحرة، أما جوّها فيعبق بشذى صيفي خصب. لقد كان صباحاً مناسباً للتأمل برؤى جديدة، وتساءلت حين شاهدت طائر القليعي الأحمر يصيد دودةً لإطعام صغاره، إن كان عليّ البحث عن مُساعدةٍ في تربية ولديّ.

ترك لي سام كوخاً مع زريبة أغنام. أما عن المنجم فقد قاموا بتمييز آخر تنقيبٍ لزوجي بثلمٍ صخري في اليوم الذي أُخرجت جثته من المنجم. أخبرتهم حينها أنهم لا يحتاجون الانتظار لثلاثة أسابيع أو ستة أو حتى تسعة لإجراء ثلمٍ جديد. فلن أتمكن من وضع دعامات لجدران المنجم وحدي، كما أنني لست في وضعٍ مالي يسمح باستئجار عامل لمتابعة أعمال التنقيب وإخراج الرصاص. حصل جوناس هاو على استحقاق سام الآن، كما امتلك الرافعة[1] الخاصة به. ولأنه رجل صالح وصديق لـزوجي، صرّح بتأنيب

1- الرافعة هي الآلة الوحيدة المستخدمة آنذاك لوضع المعدن الخام في أحواضٍ لرفعها

ضميره من احتياله عليَّ ما أثار استغرابي، خاصةً أن القانون[1] ينصُّ بوضوح: «إن أولئك الذين لا يستطيعون سحب طبق من الرصاص من المنجم عبر ثلاثة أخاديد يثلمها قاضي العمال على جدران المنجم لا يملكون الحق بالاحتفاظ به»[2]. ثم وعد الرجل بأنه سيجعل من ولديَّ عاملي مناجم برعايته حين يكبرا. شكرته على ذلك، مضمرةً الأمل بألّا أراهما يعيشان حياة القوارض، يقضمان مذعورين من الفيضان والنار والسحق الصخري. أعتقد أن مهنة الخياطة بمثابة بوابةٍ أخرى، سأحرص بسعادة على تعليمهما إياها، خاصةً أن جورج فيغارز طيبٌ لمّاحٌ متفهم، استمتعت بصحبته كثيراً؛ كما أنه الرجل الوحيد الذي لم أنقبض مستاءةً من لمسته. لقد تزوّجت سام لسببٍ أقل أهمية بكثير، لكنني لم أعد في الخامسة عشرة من عمري، ولم تعد الخيارات بنهاياتٍ جليّةٍ مشرقة كما كانت.

بعد تناولي طعامي، بدأتُ البحث بين الشجيرات عن البيض لفطور

من المنجم، تُشيد الرافعة من سبع قطعٍ من العوارض الخشبية، قطعتين عموديتين من الخشب تسمى شفرات الرافعة، ويبلغ طولهما نحو قدمٍ واحدة، يتمّ تثبيتهما بمزاليج في منتصف النعل السفلي؛ بينما يغدو الرأس في الأعلى مثلّماً كرأس السهم. إضافةً إلى قطعةٍ من الخشب تسمى المغزل أو القرص الدوار تمرّ بينهما ومن خلالهما وتنتهي بحوض، تُستخدم لسحب المواد الخام ومخلفات الحفر.

1- ينصّ قانون التعدين ذو الرقم 39 الذي صدر عن هيئة المحلفين الكبرى في هاسوب عام 1664 على أن:

«أولاً: أيّ رجل يبرهن لقاضي عمال المناجم بأنه اكتشف كميةً كبيرةً من المعدن الخام، يُسمح له بتملّك منجم والاحتفاظ بحق ملكيته طالما واصل إنتاجه فيه؛ على أن يتمّ دفع حصةٍ يُتفق عليها للعرش الملكي تدعى طَبق الملك.

ثانياً: للتنقيب الأسبقية على ملكية الأرض؛ ولا يمكن لأيّ مالك أرض أو مزارع أن يتدخل بأعمال تعدين الرصاص.

ثالثاً: يقوم كل عامل بتمييز كلّ حيّزٍ ينجزه بواسطة عمق حوض الرافعة».

2- يعمل القاضي الخاص بعمال المناجم على سحب الملكية من عامل المنجم حين يُترك المنجم بدون حفر. إذ يقوم بتفحص المناجم بانتظام، مستخدماً سكينه لثلم آخر حدٍّ وصل إليه حوض الرافعة في أيّ منجمٍ مهمل. بعد ثلاثة شقوقٍ في فترات أسبوعية يمكن نقل الملكية إلى عامل منجمٍ آخَر. تتطلب قواعد التعدين من العاملين في المنجم سحب أوزان الرصاص. أيّ شَخص لا يقوم بذلك يتمّ تجريده من الملكية.

السيد فيغارز وجيمي لأن دجاجاتي صعبة المراس، ولن تضع البيض في قنّها أبداً. عدت بعدها إلى الداخل لأحضّر عجين خبز الغد، وغطيته ليتخمر في وعاء بالقرب من الموقد. قرّرت تأجيل الأعمال المتبقية لفترة ما بعد الظهر، ثم ارتقيتُ الطابق العلوي لإرضاع توم، فتتلقّاه جين مارتن مليء البطن ريثما أعود. وجدته صاحياً لتوّه كما كنتُ آمل، يرسل تحياته بتحديقٍ طويل قبل أن يغلق عينيه ويبدأ طقس رضاعته الصباحي.

نتيجة لاستيقاظي المبكر أتواجد في منزل القسّ قبل تمام السابعة، مع ذلك ألمح السيدة إلينور مومبليون تتجول داخل حديقتها مع أكوام عالية من الأغصان المشذّبة حولها. لا تتردّد السيدة مومبليون -بعكس معظم السيدات النبيلات- بإنجاز كلّ شيءٍ بيديها، خاصةً أنها تحبّ العمل في حديقتها. لم يكن من غير المألوف مصادفة وجهها ملطخاً، كما لو أنها خادمة ترفع شعرها بلامبالاة، فينسدل حرّاً أثناء حفرها وتخلّصها من الأعشاب الضارة.

كانت السيدة إلينور مومبليون في الخامسة والعشرين من عمرها، تتمتع بجمال طفوليٍّ رقيق. أشرق شعرها الأشقر بهالة نورانية حول وجهها ذي البشرة اللّؤلئية الشفيفة عن أوردة تنبض في صدغيها. أما عيناها فكانتا زرقاوين يشوبهما الرمادي كسماء الشتاء. ذكّرتني حين اجتمعتُ معها للمرة الأولى بكرة ناضجة من الهندباء الزغبية الهشة إلى أبعد حدّ، بحيث تحملها زفرةٌ واحدةٌ بعيداً. نظرةٌ تضاءلت بعد معرفتها عن قرب، فالجسم الضعيف يحمل عقلاً مفعماً بالحيوية، قادراً على إثارة الحماسة وتسلّم القيادة والإنجاز. يتراءى لي في بعض الأحيان أن روحاً حلّت بالخطأ داخل هذا الجسد الرقيق... روحاً تدفعه بأقصى قوةٍ حتى ترديه متعباً مريضاً. هناك شيءٌ ما في داخلها لا يمكنه، أو لعلّه لا يرغب بتحسّس الاختلافات التي وضعها الكون للتمييز بين الضعيف والقوي، بين الرجل والمرأة... بين الإنسان والرّب. نثرت الحديقة أريجها في ذلك صباح، مطلقةً عبق اللافندر الزكيّ. يبدو أن ألوان وأنماط الزرع تغيّرت يوماً بعد يوم بفعل يديها الماهرتين، فقد تضاءلت مساحات الوردي الموشح بأزهار الخبازة، كما أُستبدلت أزهار أذن الفأر الغامضة الكئيبة ببراعم العائق اللّيلية الخلابة الغنيّة، بينما توزعت جرار الياسمين والمنثور تحت النوافذ كي تنفث العبير إلى داخل المنزل.

لقَّبت السيدة مومبليون حديقتها بجنة عدن الصغيرة، أعتقد أن الرّب يؤيدها في زعمها، فأصناف الزهور التي تعانقت في كل مكان، فاقت شكيمة الشتاء القاسي على كبح إزهارها فوق سفح الجبل.

في صباح ذلك اليوم، وجدتها جاثية على ركبتيها تقطف أزهار البابونج. بادرتني بالتحية فور مشاهدتي: «صباح الخير يا آنا، هل تعلمين أن مغليّ هذه الزهرة الصغيرة البسيطة يعمل على تخفيف الحمى؟ من الجيد كونك أمّاً، إضافة الإلمام بفوائد الأعشاب إلى معلوماتك، خاصة حين تقتضي الحاجة لاستدعائها إن أصيب طفليكِ بمرض ما». لا تفوّت السيدة مومبليون لحظةً دون محاولة تعليمي، خاصة بعد اكتشافها أنني التلميذة التواقة للمعرفة على الدوام، المستعدة لغرفِ كل ما تجود به. لقد بدأت تجرف العلم إلى دربي بحيوية، كما تسحل روث البقر إلى جذور أزهارها المحببة.

لطالما عشقتُ اللّغة الرفيعة المستوى، أما صورة الطفلة التي تحلّق إلى الكنيسة بفرحٍ غامر ما انفكّت تلوح في ذهني، ليس لأنها مميزة على نحو استثنائي، بل لتطلّعها الصبُّ للإصغاء لمفردات الصلوات الفخمة. «حَمَلُ الله، رَجُلُ أَوْجَاعٍ ومُخْتَبِرُ الْحَزَنِ،[1] الكلِمَةُ صارَ جسداً»[2]. لا تزال روحي تتيه في العبارات المرنّمة. أدركت مرة أن باستطاعتي حفظ مقطوعةٍ نيّرة أثناء طقس القداس، بعد أن أسلمتُ نفسي للتراتيل كلّ أحد، مضيفةً التراانيم الجديدة إلى حصادي كمزارع يجمع غلاله المرجوة. إن تمكّنت في بعض الأحيان من الفرار من عيني والدتي، حرصتُ على البقاء في فناء الكنيسة محاولةً نسخ أشكال الحروف المكتوبة على شواهد القبور. مع معرفتي لأسماء الموتى، أطابق الأشكال المحفورة بأصواتٍ أحسب أنها حروفها، مستخدمةً عصا مدببة كقلم، وفسحة من التراب الأملس كلوحٍ للكتابة.

أربكني حضور أبي ذات مرة مع حمولةٍ من الحطب إلى منزل القسّ، سارعتُ بالنهوض قاصدةً الهروب، فانكسرت العصا واخترقت شظية منها راحة كفي. كان يوشيا بونت رجلاً قليل الكلام إلّا فيما يخصّ الشتائم. لا

1- الكتاب المقدس: سفر إشعياء - الإصحاح 53 الآية 3.
2- الكتاب المقدس: إنجيل يوحنا - الإصحاح 1 الآية 14.

أظنّه سيتفهم توقي الشديد لمسألةٍ ليست من وجهة نظره أكثر من مهارةٍ باليةٍ عديمة النفع. ذكرتُ في السابق أنه يعشق الماريجوانا أكثر من أبنائه، أودّ الإضافة أن المشروب لا يبادله الحبّ، بل جعل منه مخلوقاً فظّاً متوعّداً، يسارع في الضرب لأيّ سببٍ كان بقبضته الضخمة. انكمشتُ حول نفسي في ذلك اليوم بانتظار صفعةٍ لا بدّ أنها ستهوي فوق رأسي. مع ذلك، لم يعاقبني لتهرّبي من أعمالي المنزلية، بل حدّق في الحروف التي رسمتها، دعك ذقنه بأصابعه المتسخة ومضى بعيداً.

في وقتٍ لاحق، وكردّ فعلٍ على سخرية أطفال القرية مني لشدة تعلّقي بالأمر، أسرّ والدي إلى أحد عمال المنجم برغبته في إرسالي إلى المدرسة لو أمكنه ذلك. أعتقد أنه ادعاء عشوائي لن يضطرّ أبداً للوفاء به، فلا مدارس في قرية كقريتنا حتى لتعليم البنين. لكن معرفتي بما يكنّه أثلج قلبي وجعل الأطفال يتوقفون عن مضايقتي، صحيحٌ أنني لم أتلقَّ أيّ كلمةٍ مديح منه، لكنني سُعدتُ أنه بات موقناً بذكائي الذي فاته إدراكه فيما مضى. واقعة وهبتني المزيد من الحرية في التمتمة بمقاطع من المزامير أو بجملٍ من موعظة الأحد. ترانيم ما قصدتُ بها إلّا إرضاء مسامعي، فأكسبتني صيتاً لا أستحقه عن إخلاصي الديني. عملت هذه السمعة كتزكية للعمل في منزل القسّ، والتي فتحت الباب بدورها لنهلِ ما كنت أصبو إليه.

علّمتني إلينور مومبليون الحروف كلّها في غضون عام من مجيئها، بالرغم من أن خطّي سيئ وغير مقروءٍ في بعض الأحيان، إلّا أنني تمكّنتُ من مطالعة أيّ مجلدٍ تختاره من مكتبتها مع صعوباتٍ بالكاد تذكر. لقد داومتْ على المجيء إلى منزلي خلال فترة ما بعد الظهيرة، تدرسني أثناء غفوة توم، ثم تغادرني لأتابع أعمالي، فأرتّل ما تركته من زياراتها الكهنوتية؛ لتدعوني مرةً أخرى إلى منزلها لترى تمكّني مما علّمتني إياه، ولتساعدني في التغلب على أيّ عقبات. كنتُ أتوقف في بعض الأحيان في خضمّ دروسنا ضاحكةً لحماسها الشديد، فتشاركني الضحك بدورها، يبدو أنني أحببتُ التعلّم بقدر حبّها للتدريس.

راودني في بعض الأحيان، شعورٌ بالذنب رافق السّعادة التي حظيت بها. إذ إنّ اهتمامها وفق اعتقادي، ناجمٌ عن فشلها بإنجاب طفل. فمنذ

وصول السيدة إلينور والسيد مايكل مومبليون إلى هنا، ترقّبت القرية بأكملها وانتظرت وليدهما. مرّت الأشهر... تلتها الفصول، لكن خصر السيدة مومبليون بقي نحيلاً ضامراً. في الواقع استفدنا جميعاً -نحن أبناء الأبرشية- من عقمها، حيث تبنّت الأطفال الذين لم يكن لدى أمهاتهم الوقت الكافي لرعايتهم في حقولهن المزدحمة بالعمل الشاقّ، كما اعتنت بالفتية والفتيات الواعدين المفتقرين للتوعية. قدمتِ المشورة للمضطربين وعادت المرضى، كما جعلت من نفسها ملاذاً لا يمكن الاستغناء عنه في أيّ حالٍ من الأحوال لجميع أجناس البشر وفئات المجتمع.

ابتعدتُ تماماً عن التزوّد بخبرة السيدة إلينور بفوائد الأعشاب الطبيّة، إذ إنّه علمٌ يليق بزوجة القسّ أكثر من أرملةٍ مثلي. أعلم كم من السهل أن تمسي الأرامل ساحراتٍ في ذهن العامة إن انجرفن لمثل هذه المعرفة، أما السبب فيعود عموماً إلى اتّهامهن بالتعدّي على مهنة الأطبّاء. كان في قريتنا ساحرة مروّعة عرفتها منذ صغري، اتهمت ذات يومٍ بممارسة السحر والشعوذة، المرأة الماكرة المدعوة بـ ميم غاودي التي سعى إليها الجميع بحثاً عن العلاجات والكمادات والمساعدة في توليد النسوة. كانت سنةً قاسية جاءت بمواسم حصادٍ ضئيلة ومضت بأرواح نساء عديدات، ومع ولادة توأمٍ مشوّهٍ بجسدين ملتحمين عند عظمة الصدر، بدأ كثيرون يتمتمون بأنه سلوكٌ شيطاني، مشيرين بأصابع الاتهام نحو أرملة غاودي، ناعتين إياها بـ «الساحرة» الشريرة. القسّ السابق ستانلي -وكان بيوريتانيّاً- حمل على عاتقه اختبار صحة هذه الاتهامات، فاصطحب ميم غاودي بمفردها إلى الحقل، حيث قضيا ساعاتٍ طويلةً من النقاش الجديّ. لا أدري أيّ نوعٍ من الاختبارات جرّبها، لكنه أعلن بعد مقابلتها أنه يعتقد ببراءتها التامة فيما يتعلق بهذا الشّر، ثم وبّخ الرجال والنساء الذين اتهموها، منتقداً ميم في الوقت ذاته بنبرة قاسية، قائلاً إنها تتحدى إرادة الله في إخبار القوم بقدرتهم على الوقاية من الأمراض، عبر وصفاتها من الشراب وأكياس الطيب والعقاقير النباتية. كان بارسون ستانلي موقناً أن الرّب أرسل المرض لاختبار تلك الأرواح التي سيخلّصها. فإن سعينا إلى الهرب من أقدار الله، سنضيّع الحكمة التي أراد بجلالته تعليمها لنا، ليعاقبنا بالعذاب الأسوأ بعد الموت.

رغم أن أحداً لم يجرؤ بعد تلك الحادثة على التهامس بسوء ضد ميم العجوز، إلّا أن البعض ما زالوا ينظرون بريبةٍ لابنة أخيها الصغيرة إنيس، والتي عاشت معها وساعدتها أثناء توليد نساء القرية، وفي زراعة وتجفيف وخلط عقاراتها. كانت زوجة أبي واحدة من هؤلاء. فقد احتفظت أفرا بثروةٍ من الخرافات داخل عقلها الضئيل، وكانت على استعداد دائم لتصديق إشارات السماء والسحر وعقاقير جذب الحبيب. ذات مرة كنتُ في حقل أبي، عندما حضرتِ الفتاة مع مرهم معالج لعُماص العين، المرض الذي عانى منه جميع الصّغار في ذلك الوقت. اقتربتْ أفرا من إنيس بمشاعر مختلطة من الخوف والرهبة، مع بعض الحسد كما ظننت. ثم فوجئتُ بمقصٍّ مفتوحٍ لأقصاه كالصليب، خبأتْهُ خلسة تحت بطانية غطّتْ بها الكرسيّ الذي دعت إنيس للجلوس عليه. جابهتُها بانتقادٍ شديدٍ بعد مغادرة الفتاة، لكنها تجاهلت ما قلته لتقودني بعد ذلك إلى حجرة صغارها، حيث علّقتْ قلادةً تضمّ مجموعةً من أحجار العرافة[1] ألقتها فوق حافة أسرّتهم، ثم أشارت إلى قارورة الملح المخبأة فوق باب المنزل.

«قولي ما تشائين يا آنا، خطوات تلك الفتاة المغرورة المتبجحة لا تمتّ بصلةٍ إلى فتاةٍ يتيمةٍ فقيرةٍ مثلها» بهذا علّقت زوجة أبي بازدراء، فرددتُ بالقول: «لكنها تحمل معرفةً نجهلها جميعاً». حسناً، ما نطقتُ إلّا بالحقيقة. ألم تكن ماهرةً في معالجة الأمراض؟ ألسنا جميعاً في وضعٍ أفضل بسبب معرفتها تلك؟ أليست إنيس نفسها من جلبت مرهماً لعُماص العين الذي من شأنه تهدئة آلام الأطفال بشكلٍ أسرع بكثير من خرافات أفرا، أو وسائلي غير الناجعة؟ رمقتني زوجة أبي بملامحها الممتعضة.

«ألا ترين الطريقة التي يدور الرجال حولها، كباراً وصغاراً وكأنها مومس مُثيرة. يمكنك تسميتها معالجة كما تحبين، لكنني أعتقد أنها تُخمّر في المنازل ما هو أكثر نجوعاً من الشراب الذي تحضّره في بيتها».

وددتُ لفت انتباهها إلى أن فتاةً شابة ذات قوامٍ ممشوقٍ وملامح جذّابة

1- حجر العرافة hag – stone حجرٌ نادر يُعتقد أنه حجرٌ مقدس، كان يستخدم في السحر وأعمال الشعوذة، كطرد الأرواح والشفاء من المرض.

كـإنيس من الصعب ألّا تثير اهتمام الرجال، خاصةً في ظلّ غياب الأب، أو الإخوة الذين يذكّرونهم بالموضع حيث يتوجّب عليهم التحديق. تجهّمت أفرا مع عباراتي الأخيرة، لا بدّ أنني لامست منبع النية السيئة التي تحملها تجاه إنيس.

كانت أفرا امرأةً عديمة الجمال، بطيئة الفهم. اختارتِ الزواج بوالدي المنغمس بالملذات كأفضل متقدمٍ للزواج بها، خاصةً بعد بلوغها السادسة والعشرين عاماً. قام الاثنان بقضاء أيّامٍ جيدةٍ بما يكفي لحياةٍ لم يتوقعا منها الكثير. استمتعتْ أفرا بدورها بالماريجوانا كوالدي، ليمضي الاثنان نصف حياتهما مخمورَيْن. لكنني أعتقد أن أفرا لم تتوقف في أعماق قلبها عن توقٍ شديدٍ للجاذبية التي تمارسها امرأةٌ كإنيس. وإلّا كيف أفسّر أفكارها السيئة تجاه من لم تفعل سوى الخير لها ولأطفالها؟ صحيحٌ أن هناك نساء أخريات أقل استقامة في هذه القرية الساهرة، لكنهن لم يوسمن بالعار كما كانت عليه حال إنيس، الصعبة المراس غير المبالية بالرجال. لقد وجدتِ الأوهام، التي غمغمتْ بها أفرا، آذاناً صاغية بين العديد من القرويين، ما أثار قلقي على إنيس.

تركتُ السيدة مومبليون تتكلم عن فعالية أزهار البابونج والشيح، وبدأتُ باقتلاع الأعشاب الضارة، عملٌ يتطلّب قوة شدٍّ قد تصيب السيدة مومبليون بدوار إن انحنت لفترةٍ طويلة. ذهبتُ إلى المطبخ لاحقاً لأبدأ كدح النهار الحقيقي في فرك القدور وصنفرة الأواني البيوترية[1] المستعملة منذ ساعات الصبح الأولى. هناك من يتخيل أن عمل الخادمة هو العمل الأكثر رتابةً، لكنني لم أشعر بذلك مطلقاً. إذ لطالما استمتعتُ بالعناية بالمقتنيات الجميلة في بيت القسيس وبدارة برادفورد العظيمة. حين تنشأ في حقلٍ متواضعٍ، تتناول فيه الطعام بملاعق خشبية من الأطباق الخشنة الكبيرة، بالتأكيد

1- الأواني البيوترية: أوانٍ تُصنع من سبائك تتألف بمعظمها من القصدير، بنسبة تتراوح بين 85-99 %، يُضاف إليها نسبٌ متفاوتةٌ من النحاس والإثمد والبزموت، وأحياناً الرصاص أو الفضة. يعود استخدام البيوتر إلى بداية العصر البرونزي في الشرق الأدنى. عثر على أقدم قطعة بيوتر في قبرٍ فرعوني يعود إلى نحو عام 1450 قبل الميلاد.

ستنمو داخلك ملذات صغيرةٌ بالغة الرقة، حين ينزلق كأسٌ ناعمٌ من الخزف الفاخر بين يديك في حوض الصابون، أو يفوح العبق الجلدي لكتابٍ وأنت تصقل بشمع العسل غلافه. إن مثل هذه المهام البسيطة لا تحتاج سوى إلى اليدين فقط، بينما يحلّق العقل هائماً دون قيود في جميع الفضاءات المثيرة للاهتمام. كنتُ في بعض الأحيان، مع تلميع صندوق مومبليون الدمشقي، أتلمس قطع الفسيفساء الدقيقة متسائلة، أيُّ حرفيّ ماهرٍ قصيٍّ صنعه! محاولةً تخيّل تفاصيل معيشته تحت أشعة شمسٍ حارة، يعلوه إله مختلف. كان لدى السيد فيغارز قماشٌ مترفٌ رائع أطلق عليه اسم البروكار الدمشقي، تساءلت إن كان هذا الحرير الطبيعي المغزول بخيوطٍ من الذهب والفضة، قد عُلّق إلى جوار هذا الصندوق الفخم في السوق الشرقية ذاتها، ليسافرا معاً في رحلةٍ طويلة عبر الصحراء إلى سفوح هذه المرتفعات الكئيبة المطيرة. قطعت صورة السيد فيغارز سلسلة أفكاري مذكّرة إياي بإثارة مشكلة الفستان مع السيدة مومبليون؛ لكن حلول الظهيرة نبّهني إلى أن الوقت حان لإرضاع توم الذي لا بدّ أنه يبكي متضوّراً من الجوع. غادرت منزل القسّ على عجل، مؤجلةً نقاش موضوع الفستان والاحتشام مع السيدة مومبليون إلى وقتٍ لاحق.

لكنّ الوقت اللّاحق ذاك لم يأتِ أبداً. إذ مع وصولي إلى الكوخ، تناهى هدوؤه جليّاً كحاله في الأيّام الخوالي التي سبقت انضمام السيد فيغارز إلى منزلنا. لا ضحك فيه أو مرح أو صرخات متسلّلة من الداخل. سارعت إلى المطبخ فلم أجد سوى جين بوجهها المتجهّم تشتّت جوع توم بإصبع مُغمّسٍ بالأروروت[1] والماء، بينما يلعب جيمي المكبوت كليّاً بمفرده بالقرب من الموقد، رافعاً الأبراج من حزم الأغصان، ناثراً شظايا أعواد الإشعال في كل مكان حوله. كانت زاوية الخياطة الخاصة بفيغارز كما تركتها ذلك الصباح، حيث الخيوط والأقمشة المكدّسة تنتظره على حالها منذ اللّيلة السابقة، أما البيض الذي جمعته من أجله، فلا زال في سلّة القشّ بدوره. صاح توم بين

1- أروروت: أو نبات الطاعة، هو نباتٌ معمرٌ طبيٌّ كبير، ينمو في مواطن الغابات المطيرة. تتمّ زراعته من أجل النشاء المكتسبة من الجذمور التي يُطلق عليها أيضاً اسم أروروت.

ذراعي جين مارتن حين رآني فاغراً فمه الدبق كطائرٍ صغير. سارعتُ إليه وأرضعته قبل أيّ استفسارٍ عن السيد فيغارز.

«لم أره في الواقع، اعتقدت أنه غادر مبكراً إلى هادفيلد» أجابت جين، «لكن وجبة الإفطار لم تؤكل» تجاهلتْ جين مارتن ما قلته موضّحةً بطريقة ما عن استيائها من وجود مستأجرٍ ذكرٍ في المنزل. بالرغم من أن القسّ مومبليون أرسل السيد فيغارز إلينا، لكنها ما انفكّت تبدي تحفظاً تجاه استقباله.

«إنه في السرير يا أمي» قال جيمي بنبرة بؤس «صعدت للعثور عليه لكنه صرخ بي: اذهب من هنا».

فكّرت أن السيد فيغارز لا بدّ أنه مريضٌ جدّاً، ويجب عليّ الصعود للاطمئنان عليه، لكنني اضطررت إلى متابعة إرضاع توم أولاً حتى الشبع. قمت بملء إبريقٍ من الماء العذب وقطّعت شريحةً من الخبز، ثم صعدت إلى حجرة السيد فيغارز. سرعان ما تناهى إلى مسامعي صوت أنينٍ بمجرد وضع قدمي على سلالم العلية. فشلتُ في طرق الباب من شدّة الجزع، فتحته بارتباك ودخلت إلى الحجرة المنخفضة السقف.

كدتُ أدلق الإبريق من الصدمة التي صفعتني... غاب صاحب الوجه النضر الجميل الذي سحرني أمس، وحلّ محله آخر في السرير. لقد مال جورج فيغارز برأسه جانباً بفعل كتلةٍ كبيرةٍ يبلغ حجمها حجم خنزيرٍ صغير حديث الولادة؛ ضخمة لامعة، ذات نتوءٍ أصفر أرجواني تعلو اللّحم النابض. أما وجهه الذي أبعدت الدملة نصفه عن ناظري، فكان متوهّجاً قرمزي اللّون، أو بالأحرى ملطّخاً ببقعٍ تشبه بتلات الورود المتفتّحة تحت جلده الشفيف؛ كما تبعثر شعره الأشقر فوضويّاً داكناً فوق وسادته المغمورة بالعرق. رائحة حلوة متوارية داخل جسده المستلقي فاحت في المكان... إنها رائحةُ تفاحٍ متعفّن.

همس: «الماء... من فضلك». وضعتُ الكأس على حافة فمه الجافّ. شرب بشراهة، بينما اعتلى وجهه تشوهات المرارة التي حلّت به. توقّف عن الشرب بفعل نوبةٍ من التشنج والارتعاش والعطس زلزلت جسده، ثم تابع الشرب غارفاً الماء حتى كاد الإبريق أن ينضب. «شكراً لكِ» قال لاهثاً «أرجوك بحقّ الرّب أن تغادري من هنا، لئلّا تصيبك هذه العدوى الخبيثة».

«لا، يجب عليّ العناية بك».

«سيدتي، لا يجوز لأحدٍ فعل ذلك الآن إلّا الكاهن. صلّي للرّب كي يقبل دعوتي بالمجيء، إن كان يجرؤ على ذلك بالفعل».

أجبته: «لا تقل هذا! ستزول هذه الحمى قريباً، وسرعان ما تصبح بحالةٍ جيدة».

«لا يا سيدتي، أنا أعرف أعراض هذا المرض الفظيع. فقط ارحلي من هنا، حبّاً بأطفالك اخرجي».

غادرته كما طلب، لكن إلى غرفتي لأحضر بطانيتي ووسادتي... الغطاء لتدفئته وتهدئة ارتعاشه، والوسادة لتحلّ محلّ تلك المبلّلة تحت رأسه الرهيب. وجدته يئنّ حينما دخلت، حاولت رفعه لوضع الوسادة فصرخ بصوتٍ عالٍ من شدة الألم الناجمِ عن مسّ تلك الدملة المتوهّجة. انفجر الانتفاخ الأرجواني عبر شقّ فجائيٍّ كقرنٍ بازلاءٍ ناضج، دافقاً بصديدٍ قشدي مع نُتفٍ من اللّحم الميت. تبدّد عبق التفاح العفن الحلو لتحلّ محلّه رائحة سمكٍ قديمٍ فاسد. كمّمتُ أنفي وأنا أسارع إلى مسح الفوضى عن وجه الرجل البائس وكتفه وإيقاف نزيف جرحه.

«حبّاً بالرب يا آنا» قال مجهداً حنجرته بصوتٍ متقطّعٍ كطفل، حاولت استجماع قواي، فلم أجد أيّ قوةٍ لأنطق بحرف.

«اخرجي من هنا! لا يمكنك مساعدتي! انظري إلى نفسك!».

خشيتُ أن يقتله أيّ توترٍ جرّاء حالته الضعيفة تلك. سحبتُ أغطية الفراش المتسخة وغادرته وحيداً ليستقبلني في الطابق السفلي وجهان مذعوران... جيمي بعينين مشدوهتين غافلتين، وجين بوجهٍ شاحبٍ عارف، وقبضةٍ على مقبض الباب توشك على المغادرة بعد أن خلعت مئزرها.

«أتوسل إليكِ أن تبقي مع الأطفال ريثما أحضر القسّ، لأنني أخشى أن حالة السيد فيغارز خطيرةٌ جدّاً». شبكت ذراعيها مع توسلي، فأدركتُ أن صراعاً دار بين قلبها الدفيء وعقلها البيوريتاني. لم أتمكن من الانتظار لمعرفة من سيفوز في المعركة بل اجتحتها ببساطة، وألقيتُ بالأغطية والوسادة في الفناء.

كنت أركض وعيناي مسمرتان فوق الطريق لدرجة لم أتمكّن من رؤية القسّ ممتطياً جواده أنتيروس، عائداً في طريقه من مهمة له في هاثرسيج القريبة. التفتَ حين رآني، شدّ لجام حصانه الكبير واتجه نحوي.

«ما الذي حدث يا آنا بحقّ السماء؟» قال وهو ينزلق عن السرج بيدٍ مدّها ليسند قامتي المرتعشة بينما ألتقط أنفاسي. نقلت له خطورة الحالة التي وصل إليها السيد فيغارز.

«كم يؤسفني سماع ذلك!» قال القسّ بوجهٍ اكتسحه القلق. رفعني إلى الحصان دون أن يهدر الوقت بأيّ كلمةٍ أخرى، واعتلاه من جديد.

لا تزال صورة القسيس وأفعاله المؤثرة حيّةً متّقدةً في ذاكرتي... كيف حملَ على عاتقه المسؤولية بشكلٍ طبيعي مهدئاً من روعي، مواسياً السيد فيغارز المسكين. لا أنسى كيف بقي قرب السرير بلا كللٍ طوال فترة ما بعد الظهر؛ ثم كرّر ذلك في اليوم التالي. كافح في البداية في محاولة علاج جسد الرجل، ومع تفتّت بدنه أخذ يصلّي لخلاص روحه. تمتم السيد فيغارز... اهتاج... لام... لعن وصرخ من الوجع. كان الكثير مما قاله غير مفهوم، لكنه ما انفكّ عن الجيشان من وقت إلى آخر فاغراً عينيه على مصراعيهما ليقول بصوتٍ خشن: «احرقي كلّ شيء، احرقي كلّ شيء! حبّاً بالله، احرقيه!».

بحلول اللّيلة الثانية توقف عن التضوع ممدّداً بيأس، كاتماً لنوعٍ من الصراع الصامت. كان فمه يعجّ بالتقرحات، فعملتُ كلّ ساعةٍ على رشّ القليل من الماء على شفتيه ومسحها، كان يتطلّع إليّ بجبينٍ متغضنٍ مجهد للتعبير عن شكره.

فشل رداء اللّيل الطويل الملقى فوقه في منحه إغفاءةً صغيرة، كما أخفق السيد مومبليون في ذلك. لم يهبه الصباح بدوره سوى فترات نوم متقطّعة، تهدّجتْ أنفاسه خلالها مرتعشةً غير مكتملة. وددتُ أن يُصيب تخميني بأنّ انبعاث الضوء البنفسجيّ عبر نافذة العلية، والمترافق مع شدو طيور القُنبرة قد جلب له قدراً بسيطاً من الارتياح عبر هذا التغريد الجميل الصادح في عالم هذيانه.

مات السيد فيغارز قابضاً على ملاءة السرير. قمتُ بفكّ كلّ يدٍ على حدة

برفق، مع تقويم أصابعه الطويلة المرتخية. كانت له يدان جميلتان ناعمتان، باستثناء بقعةٍ واحدة خشّنتها وخزات الإبر على مدار العمر. تذكّرتُ حركتهما المتناغمة على القماش تحت وهج النار، فطفرت الدموع من عينيّ. تخيّلتُ أنني بكيتُ لضياعهما... الأصابع التي اكتسبت الكثير من المهارة لن تصمم المزيد من الثياب المذهلة بعد الآن. في الحقيقة أظنّ أنني كنتُ أنعى فقدان أمرٍ آخر... لزمنٍ غافلٍ... لتأخّرٍ بلا معنى، لماذا انتظرتُ كلّ هذا الوقت كي أشعر بلمسة هاتين اليدين قبيل موته.

طويتهما بأسًى فوق صدره، ثم وضع السيد مومبليون يديه فوقهما واهباً إياه صلاته الأخيرة. أتذكّر دهشتي من حجم يدي القسّ اللّتين بدتا خشنتين كما لو أنهما لرجلٍ كادح، بدلاً من يدين ناعمتين بيضاوين لقسيس. لم يسعفني التفكير فيما بعد بالأسباب الكامنة وراء ذلك. إذ وفق معرفتي فإنه ينحدر من عائلةٍ ذات أصولٍ دينية؛ أما في الآونة الأخيرة، فلم يُشغل راحتيه إلّا بالعمل على كتبه في كامبريدج. فارق العمر بين السيد مومبليون والسيد فيغارز لم يكن كبيراً، حيث يبلغ القسيس ثمانية وعشرين عاماً فقط؛ ومع ذلك، إن نظرت إلى وجه القسّ الشاب عن كثب، تلاحظ الأخاديد وقد حفرت فوق الحاجبين، بينما امتدت خطوطٌ ثلاثة بجانب العينين – علامات التعبير عن وجهٍ تجهّم طويلاً... تأمل وضحك كثيراً. لقد قلت سابقاً إن له وجهاً جاذب المعالم، لكنني أعتقد أن ما قصدته ليس وجهه، بل صوته ما يسلب لبّك.

صوته الذي يقبض على انتباهك بمجرد أن يبدأ الحديث، يغدو مُقنعاً لدرجةٍ تجعلك تركّز على معاني الكلمات أكثر من الرجل الناطق بها. صوتٌ ثريٌّ بالضوء والظلمة... ليس نوراً متألقاً فحسب، بل متوهجاً... ليس ظلام خوفٍ وبردٍ فقط، بل عتمة فيءٍ وراحة.

التفتَ بعينيه نحوي، وتحدّث بهمسٍ عذب وقع فوق حزني كعباءةٍ دافئة. شكرني على المساعدة التي قدمتها طوال اللّيل. لقد فعلت ما بوسعي، جلبتُ الكمادات الباردة والساخنة لتخفيف الحمى والارتعاش، حرّكت الهواء في الغرفة الموبوءة الصغيرة ذات الرائحة الآسنة، حملتُ أحواض البول والأقمشة المبلّلة بالصديد والعرق بعيداً.

«إنه لأمرٌ مفجع، أن يموت رجلٌ بين الغرباء دون أن تبكي عائلته عليه» قلت بأسى.

«الموت قاسٍ على الدوام حيثما بحث عن الإنسان. أما الموت في الوقت غير الملائم فهو الموت الأصعب».

بدأ يرنّم ببطء، كما لو كان يتلمّس ذاكرة الكلمات:

«لأن آثامي قد طمت فوق رأسي. كحملٍ ثقيل أثقل مما أحتمل

قد أنتنت...

لأن خاصرتيّ قد امتلأتا احتراقاً، وليست في جسدي صحة...

أحبائي وأصحابي يقفون تجاه ضربتي،

وأقاربي وقفوا بعيداً...»[1]

«هل تحفظين هذا المزمور يا آنا؟». هززت رأسي بالنفي.

«لا...! أعرف أنه مزمورٌ غير محبب ولا يتمّ إنشاده كثيراً؛ لكنك لم تقفي بمعزلٍ عن السيد فيغارز، ولم تتخلَّي عنه. أعتقد أن الرجل أمضى أسابيع عمره الأخيرة بسعادةٍ بصحبة عائلتك. عليكِ مواساة نفسك بالفرح الذي تمكّنتِ أنت وابناكِ من تقديمه له، والرحمة التي وهبتِها له على وجه الخصوص».

أعلمني أنه سيعمل على إنزال الجثمان إلى الطابق السفلي كي يتمكن القندلفت[2] العجوز من نقله بيسر. إنّ جورج فيغارز رجل طويل القامة، يزن نحو أربعة عشر حجراً[3]؛ لكن السيد مومبليون رفع هذا الجسد الميت كما لو لم يكن شيئاً، ونزل السلالم العلوية مع الجثة المرتخية أوصالها فوق كتفه، ثم وضع جورج فيغارز بلطفٍ على أرضية الطابق السفلي فوق قماشٍ رقيقٍ كأبٍ يمدّد طفله النائم.

اليوم... حين أرمق مومبليون حانياً ظهره في الظلام، بالكاد أتمكّن من تصديق ذكرياتي.

1- من سفر المزامير مزمور 38.

2- القندلفت: خادم الكنيسة والمسؤول عن دفن الموتى.

3- كانت الحجارة وحدة الوزن التي اتبعتها بريطانيا آنذاك وتعادل 14 رطلاً.

-3-

رعدُ صوته[1]

جاء القندلفت مبكراً لنقل جثمان السيد جورج فيغارز. أما الطقوس الخاصة بجنازته فتقرّر إتمامها بعجالة وعلى نحوٍ متواضع، نظراً لعدم وجود أقرباء للفقيد. خاطبني العجوز حاملاً الجثمان إلى عربته: «كلّما سارعنا بدفنه يا سيدتي كان ذلك أفضل. لقد رحل المسكين قبل أن يتسنّى له حياكة كفنه».

طلب السيد مومبليون عدم حضوري إلى بيته في صباح اليوم التالي، آخذاً بعين الاعتبار المشاقّ التي تكبّدتها اللّيلة الفائتة: «خذي قسطاً من الراحة بدل القدوم إلينا» قالها متوقّفاً عند المدخل قبل مغادرته مع أشعة الشمس الأولى. بات أنتيروس ليلته مقيّداً في فناء الكوخ، حارثاً الأرض تحت حافريه، مثيراً أخاديد عارية من الحشائش. أومأتُ برأسي مذعنةً مستحضرةً ما ينتظرني من أعباء ومهام قبل غروب ذلك اليوم... إذ يجب عليّ إعداد العشاء في دارة برادفورد بعد الانتهاء من تطهير المنزل برمته، يليه التصرف بمتاع السيد فيغارز. توقّف القسيس فجأةً كما لو أنه تلمّس ما يجول في خاطري. ربّتَ فوق الحصان قاصداً العودة، ثم مال بجسده قليلاً وهمس: «عليكِ تنفيذ تعليمات السيد فيغارز فيما يتعلق بأشيائه». لا بدّ أن الارتباك الذي غضّن ملامحي أفشى بجهلي بما يقصده بالضبط، فسارع بالقول: «أشار بأن يُحرق كلّ شيء، أعتقد أنها نصيحةٌ مهمة».

ما زلتُ منحنيةً على يديّ وركبتيّ في العلية، أفرك ألواح الأرضية الرثّة مع

1- العبارة مقتبسةٌ من الكتاب المقدس: سفر أيوب - الإصحاح 37: «1 فلهذا اضطرب قلبي وخفق من موضعه. 2 اسمعوا سماعاً رعد صوته والزّمزمة الخارجة من فيه».

طرقات أول زبون قاصدٍ السيد فيغارز. أدركتُ من يكون قبل الشروع بفتح الباب، لا بدّ أنها إنيس غاودي... الفتاة الخبيرة بأنواع النباتات والبلاسم، الماهرة باستخلاص العطور والزيوت الزّكية، والتي يسبق خطوها العبقُ الفتّان والأريجُ الجذاب والنسمات المشبعة بعبير الفاكهة والزهور الصيفية. لم يمنعني صيتها الذائع في القرية من إضمار إعجابٍ شديدٍ بشخصيتها المتفرّدة، فهي فتاةٌ متوقدة الذهن طليقة اللّسان، مستعدةٌ على الدوام للردّ ببراعةٍ بارزة على محاولات التقليل من شأنها بعباراتٍ فطنة تفوت معظمنا لحظة تلقي الإهانة. بغضّ النظر عن مدى محاولاتهم تلويث سمعتها وكمّ التعويذات التي يعلّقونها درءاً لشرّ حضورها، إلّا أن قلّةً من النساء يستغنين عن مساعدتها لهن أثناء مخاض الولادة؛ فاللّطف الذي تأتي به منقطع النظير، ويختلف تماماً عن أسلوبها الحادّ المعتاد. هذا عدا عن مهارتها في تدبير أمور الولادات العسيرة التي أوكلتها عمّتها إليها. عدم اكتراثها بتهامس الناس عنها سمةٌ أثارت إعجابي، إذ إنها تتطلّب الكثير من الثقة والشجاعة، خاصةً في بلدةٍ صغيرةٍ كقريتنا.

جاءت تسأل عن السيد فيغارز للحصول على الثوب الذي أوصته بحياكته قبل بضعة أسابيع. غطّى وجهها الحزن حين أخبرتها بما حدث، ثم لامتني بصرامةٍ قائلة: «لما لم تدعني وعمتي بدلاً من مومبليون؟!.. إن جرعةً من الدواء كانت ستفيد جورج أكثر من تمتمات كاهنك الفارغة».

لطالما أدهشتني إنيس، لكن الصدمة التي تلقيتها منها هذه المرة فاقت سابقاتها جميعاً. لقد أتت بفكرتين مروّعتين في جملة واحدة... الأولى كانت تجديفها الصريح، أما الثانية فهي الحميميّة التي أظهرتها تجاه السيد فيغارز الذي لم أسمح لنفسي يوماً أن أدعوه باسمه الأول. تأجّج تفكيري بحجم المودة بينهما كي تتجرأ على دعوته بـ «جورج»! ثم بدأت شكوكي تلتهب مع رؤيتي للفستان الذي خاطه من أجلها، والذي وجدناه داخل كومة الثياب المُنجزة. طوال سنوات طفولتي التي طغت عليها الطقوس البيوريتانية، لم نرتدِ للخروج إلّا ما أطلقوا عليه «ألوان الحداد» - الأسود أفضلها، يليه البني الغامق الشبيه بأوراق الشجر اليابسة. رغم أن عودة الملك أتت بألوان أكثر إشراقاً إلى معظم خزائن الملابس، لكن العادات التي رافقتنا لزمنٍ طويلٍ ما

زالت تقيّد خيارات معظم القرويين عدا إنيس. يا للثوب القرمزي المفعم بالحيوية المشرق بوهجٍ يغشي العينين! لم يسبق لي أن لمحتُ السيد فيغارز يخيط هذا القماش من قبل، أتراه حرص على إبعاده عني كي لا أقوم بالتعليق أو الاستفسار! لقد أنهى خياطة الثوب بالكامل عدا بطانته، ما يتطلب من إنيس القدوم للمرّة الأخيرة لتجريبه. حين رفعتِ الفستان رأيتُ أن ياقة العنق قد تمّ اقتطاعها إلى الأسفل إلى حدٍّ يكشف الصدر، كما لو أنه ثوب مصممٌ لعاهرة، لم أستطع تأديب أفكاري عندما زلقتِ الفستان فوق جسدها الممشوق الجذاب، لينسدل شعرها العسلي المذهّب الخصلات فوقه، في حين أغلقت عينيها الكهرمانيتين بالكامل؛ تخيّلتُ السيد فيغارز راكعاً عند قدميها مطلقاً أصابعه الطويلة في حاشية الثوب متسلّلاً لملامسة كاحليها، لتسرح بعد ذلك يداه الماهرتان مداعبتين بشرتها الملساء العطرة تحت النسيج الرهيف... إلى الأعلى... رويداً رويداً، تنسلّان ببطءٍ نحو الأعلى...

تورّد وجهي في غضون ثوانٍ ليعكس قرمزي الفستان الملعون، فخاطبتها محذّرة: «أنذرني السيد فيغارز بضرورة إحراق الأقمشة جميعها خوفاً من انتشار عدوى المرض الذي أصابه» قلتُ محاولةً ابتلاع ريقي لتخفيف تضيّق حنجرتي.

«لا يمكنكِ فعل أيّ شيءٍ من هذا القبيل!» صرختْ.

سرعان ما استقرأتُ في استيائها المشاكل التي ستواجهني مع جميع زبائنه. فإن شعرت إنيس غاودي -الخبيرة بخطورة المرض- بالتحفّظ تجاه التحذيرات، فمن الصعب إقناع أيّ شخصٍ آخر بذلك. قلائل هم القرويون الذين يعيشون في ظروفٍ مريحة، لا أحد منهم يحبّ التبذير؛ ولا أعتقد أن أيّ شخصٍ دفع عربوناً للسيد فيغارز سيتوانى عن المطالبة بالثياب التي تخصّه أيّاً كانت حالها. بالرغم من توجيهات السيد مومبليون بحرقها جميعاً، إلّا أنني لا أملك الحقّ بفعل ذلك دون موافقتهم. انتشر خبر وفاة السيد فيغارز كالنّار في الهشيم بعد مغادرة إنيس غاودي مع ثوبها المطويّ أسفل ذراعها، ليطُرق زبائنه بابي مراراً وتكراراً مطالبين بكسوتهم. اقتصر ما أمكنني فعله على نقل توصياته الأخيرة التي لم تقنع أحداً بإلقاء حلّته في النار، حتى لو كانت مجرد قماش مقطوع.

لم يبقَ في النهاية سوى ملابسه الخاصة التي سارعتُ في حرقها. قاومتُ رغبتي مع توقّد الجمرات الأخيرة وأرديتُ فستاني الجديد في الموقد ليتلاشى النسيج الأخضر المذهّب بين ألسنة اللّهب القرمزية المضيئة.

عبر التلال، خطوتُ بمسيرٍ طويل إلى دارة برادفورد حتّى أصابني إرهاقٌ لم يسبق لي الوقوع تحت وطأته. رغم ذلك غيّرت وجهتي وانعطفتُ شرقاً صوب كوخ غاودي، إذ لم أستطع إخراج اسم «جورج»... ولا إنيس... أو ثوبها القرمزي من رأسي. أكره الثرثرة بهذا الأمر، فلا يهمني من أوقع الآخر في شباكه، ولا تعنيني علاقتهما السّرية، خاصةً الآن بعد وفاة السيد فيغارز التي جعلت من الصعب بالنسبة إليّ، أو إلى أيّ شخصٍ آخر التكهّن بأيّ مغامرةٍ نسائيةٍ فاحشة عاشها. لكن هواجسي التي اتّقدت طيلة شهرٍ كامل تواقةٌ الآن لكشف نوعيّة العلاقة التي جمعته مع إنيس غاودي... فضولٌ قتلني لمعرفة حجم الاحترام الحقيقي الذي كنّه لي.

يقع كوخ غاودي في الربوع الشرقية للقرية، تالياً لكوخ الحدّاد، محاذياً لإقطاعية رايلي الكبيرة، بدا مسكناً منفرداً صغير المساحة، مكوناً من غرفةٍ تعلوها أخرى، مبنيّاً بعشوائية، بحيث تدلّى سقف القش على نحوٍ فظيع كقلنسوةٍ متهاوية تغطّي الحاجبين. الكوخ القائم على حافة التلّ الرابض أمام الرياح الشتوية التي تهبّ عبر الأراضي البور، أعلن عن نفسه بعبقٍ يرشدك إليه قبل ظهوره للعيان بمسافة طويلة؛ إذ تراودك مخلفات المنزل الصغير برائحةٍ مثيرة للغثيان، طبيةٍ، ناضحةٍ بعبير الأعشاب المخمّرة والعطور النافذة. أما في الداخل فقد بنيت الغرفتان بسقفٍ وطيء وأضيئتا بأنوارٍ خافتة للحفاظ على فعالية النباتات المُجفّفة. تعمل نساء غاودي في هذا الوقت من العام على اقتلاع أعشابهم الصيفية، وحزمها وتعليقها بين العوارض الخشبية لدرجةٍ يجب عليك الانحناء بشكل كامل بعد دخولك من الباب. أتساءل في نفسي كلّما زرتُهم: كيف يمكن لإنيس -الطويلة القامة- العيش في مكان يمنعها من الوقوف باستقامةٍ تامة! لا تُخمد الحاجة لتركيب العقاقير النارَ في منزل غاودي، أما دخانها المتصاعد عبر المدخنة القديمة المتصدعة فيصبغ الجدران بالسخام. ينفث إكليل الجبل المحروق بدوره عبقاً معطّراً في الأنحاء، والذي -بحسب اعتقادهم-

يطهّر الهواء من أيّ مرضٍ قد ينقله القرويون بغير قصد عند قدومهم طلباً للمساعدة.

لم يجبني أحد داخل الكوخ. فقمت بالطواف حول الجدار الحجريّ المحيط بحديقة غاودي العلاجية التابعة لقريتنا منذ زمنٍ بعيد، والتي افترضتُ أن ميم أول من بدأ بزراعتها، لكن حين ذكرتُ ذلك أمام إنيس سخرتْ مني لشدة جهلي بالحقيقة.

«هذه الحديقة -كما يمكن لأيّ أحمق الملاحظة- قديمةٌ جدّاً حتى قبل مجيء ميم غاودي» قالتْ جائلةً بيدها على طول غصن البرقوق المتفرّع من جذعٍ ثخينٍ كثير العقد «نحن جاهلاتٌ باسم المرأة الحكيمة التي غرست هذه الأشجار للمرّة الأولى، فالحديقة ازدهرتِ قبل وقتٍ طويلٍ من مجيئنا إليها، وستستمر لفترةٍ طويلة بعد رحيلنا... أنا وعمّتي لسنا سوى الحلقة الأحدث في سلسلة النساء الطويلة اللّواتي أوكلن لأنفسهن مهمة رعايتها».

آوت الجدران الحجرية أنواعاً وفيرةً من النباتات التي لم أتعرّف إلّا على عُشرها؛ بينما كشفت المساحات الخاوية لأعشابٍ محصودةٍ حديثاً عن الانتظام الدقيق للحدود الحجرية بين النباتات في خطةٍ لا تفهمها سوى إنيس وعمتها. لمحتُ إنيس راكعةً وسط مجموعةٍ من السيقان الخضراء اللّامعة المنتهية كلّ منها ببراعم تنبس عن بتلاتٍ زرقاء عند حلول منتصف اللّيل. رأتني أنحدر عبر الدرب القشيّ أثناء تقليبها للتربة حول الجذور، فنهضتْ نافضةً التراب عن يديها. سارعتُ بالثناء: «يا له من نباتٍ جميل!».

«جميلٌ وفعّال» أجابت «يدعونه بلعنة الذئب، لكنّ لعنته أشد وحشية من تلك المخلوقات البائسة؛ إن تناول قطعة صغيرة من هذا الجذر يقتلكِ مع حلول الظلام».

«لماذا تحتفظين به هنا إذن؟». لا بدّ أن الذعر لاح إلى حدٍّ كبيرٍ في ملامحي ما أثار سخريتها:

«لن أضيفه إلى حسائك بكل تأكيد! إذ إن النبتة تُطحن وتُمزج بالزيوت وتُفرك بالمفاصل لتسكين آلامها. الكثير من هؤلاء المصابين في القرية يحتاجونها مع حلول فصل الشتاء. لكنني لا أعتقد أنك أتيتِ إلى هنا لتبدي

إعجابك بأزهاري الزرقاء»، ثم أردفتْ مرحّبة: «تفضلي بالدخول كي نحتسي كأساً من الشراب معاً».

دخلنا إلى الكوخ، وضعتْ مجموعة الجذور فوق منضدةٍ مكتظةٍ بالأعشاب ثم أشارت إلى كرسيٍّ قريب: «هلّا جلستِ من فضلك يا آنا فريث؟... يجب عليّ الجلوس بدوري أو تلتوي رقبتي جرّاء هذا الوقوف». حالفني الحظّ بتواجد إنيس وحيدةً في المكان، فلو أنني قابلت ميم العجوز بدلاً من ابنة أخيها لأُجبرتُ على الإدلاء بالسبب الذي قادني إلى هنا، أو لكنتُ تراجعت مع إصغاء عمّتها عن إثارة الموضوع المستعر في ذهني. لكن رغم ذلك أجد صعوبةً في طرح مسألةٍ حساسةٍ كهذه. صحيح أننا متقاربتان بالعمر، لكننا لم ننشأ معاً في بيئةٍ واحدة. لقد ترعرعتْ إنيس في قريةٍ قريبةٍ من دارك بيك ثم أُرسلتْ إلى عمّتها في العاشرة بعد وفاة والدتها المفاجئ. أقلّتها عربةٌ مفتوحة في ذلك اليوم، جلست الفتاة داخلها بهامةٍ مرتفعة، في حين خرجت القرية بأكملها لتحدّق إليها. أتذكّر بجلاءٍ تحديها لأصابع الاتهام الموجّهة إليها، والردّ بعينين حانقتين على كلّ نظرةٍ صُوّبت نحوها. كنتُ طفلةً خجولةً آنذاك، ولو كنتُ مكانها لأخفيت وجهي تحت الخيش، ولتوقف قلبي من شدّة الحرج.

ناولتني كأساً ملأته بمشروب نافذ الرائحة وصبّت لنفسها كأساً. تفحصتُ محتوياته فلاحظتُ سائلاً غير جذّاب ذا لونٍ أخضر باهت مع زبد يعتليه أكثر شحوباً. حدّقتْ إنيس ثم علّقتْ بالقول: «إنه شراب القرّاص، سوف يقوّي دمك، يجب على جميع النساء شربه يوميّاً». حين رفعتِ الكأس تذكّرتُ بضيقٍ كيف كنتُ أنضمُّ إلى الأطفال الآخرين الساخرين من إنيس غاودي كلّما قابلناها على أطراف الدرب أو وسط الحقول تقطف الأوراق الطازجة وتمضغها. يا للعار! كنا نصرخ منهالين عليها بالشتائم: «أيتها البقرة! يا بقرة! يا آكلة العشب!». لتبادلنا التحديق بازدراء وتردّ بثقةٍ قائلة: «على الأقل أنفي غير محشوٍ بالقذارة مثلك يا ميغ بيلي، ولا تعجّ بشرتي بالبثور كوجهك يا جيفري باين». لقد قامت بتعداد عيوبنا واحداً تلو الآخر، بقامةٍ منتصبةٍ تعلو أيّ طفلٍ آخر في سنّها، بينما توهّج جسدها بالصحة من قمة شعرها اللّامع نزولاً حتى أظافر قدميها القوية الجميلة. لم يمضِ زمنٌ طويل حتى زرتها

محرجةً في طلبِ إرشادي لأنواع الأعشاب التي يمكنني جمعها وتناولها كطعامٍ لتقوية جسدي وجسد الطفل الذي أحمله في أحشائي... بدتْ نكهة تلك الأشياء غريبةً جدّاً في البداية، لكنني سرعان ما شعرت بفوائدها الجمّة.

أما شراب القرّاص، فكان ذا طعمٍ جديدٍ بالنسبة إليّ. بدتِ النكهة مع كلّ رشفةٍ خفيفةً وغير مبهجة، لكنها تتركُ تأثيراً منشّطاً على الجسد المتعب. لقد وضعتُ الكأس على شفتيّ لفترةٍ أطول من اللّازم كي أرجئ التحدث بموضوعي العسير. كان عليّ ألّا أظهر أيّ اضطراب...

«أفترض أنكِ تودين معرفة إنْ كنتُ قد ضاجعتُ جورج» هذا ما أعلنته إنيس بنبرةٍ اعتياديةٍ، وكأنّها تسألني عن احتياجي لبعض أوراق القيصوم[1]. ارتعشتِ الكأس في يدي، فاندلق السائل الأخضر مجتاحاً أرضية الغرفة. أطلقت إنيس ضحكةً قصيرة وتابعت: «بالطبع فعلتُ. الشابُّ وسيمٌ بما يكفي لئلّا يُخمد نيرانه بقبضة يده». بالكاد وجدتْ عيناي أفقاً إلى مقلتيها اللّتين كانتا تنضحان بمرحٍ متّقد. «اشربي... ستشعرين بتحسن. لم تكن المسألة لكلٍّ منا أكثر من وجبةٍ لمسافرٍ جائع».

انحنتْ إلى الأمام لتحريك بعض الأوراق المنقوعة في وعاءٍ أسود كبير بالقرب من النار وأردفت: «أما نواياه فيما يتعلق بك فهي بخلاف ذلك، فإن كان هذا ما يشغلك فهدّئي من روعك... لقد أرادكِ زوجة يا آنا فريث، وطلبتُ منه أن يُحسن التعامل معك قبل التحدث في هذا الشأن؛ فقد شهدتُ التغييرات التي أصابتك إلى حدٍّ ما منذ وفاة زوجك سام، واستقرأتُ رفضكِ للزواج. أخبرته أن التقرّب من ولديك سيغدو الفرصة الأفضل للفوز بك. فأنتِ -بخلافي- مكلّفةٌ برعايتهما بحيث لا يمكنك العيش لإرضاء نفسك».

لاح طيفهما في ذهني متجاورين عاريين يناقشان أمراً كهذا. «لكن لماذا؟» أفشيتُ بغير تفكير: «بما أن كليكما متفقان لهذه الدرجة، لماذا لم تتزوجيه أنتِ؟».

«يا آنا، يا أنا!» هزّت رأسها وابتسمتْ كما يفعل المرء مع طفلٍ بطيء

1- يُعرف القيصوم عربياً بالعديد من الأسماء الأخرى: كالغبيراء والشيح البلدي، ويُستخدم لعلاج الملاريا والحمى.

الفهم ما أجّج الدم في وجنتيّ. أثار استمتاعها بجوابي المزيد من حنقي... لا بدّ أنها أحسّتْ بغيظي فتوقفت عن الابتسام، أخذتِ الكأس من يدي ونظرت نحوي بجدّية.

«لماذا أتزوج؟ لست مُجبرةً على التبعية لأيّ رجل. لديَّ عملي الذي أحبّه... أقطنُ كوخاً متواضعاً، لكنه كافٍ لمنحي ملاذاً آمناً... لديَّ سمةٌ تعجز نساء كثيرات عن المطالبة بها... حريتي التي لن أتخلّى عنها بسهولةٍ أبداً». رمقتني بنظرةٍ جانبية عبر رموشها الطويلة متابعةً القول: «تحتاج المرأة أحياناً إلى شرابٍ كالقرّاص لتنشيطها، في أحيانٍ أُخرى تحتاج إلى كوبٍ من منقوع الناردين[1] لتهدئتها. لماذا علينا الاهتمام بحديقةٍ لا نزرع فيها سوى نبات واحد فقط؟».

ابتسمتُ بحيرةٍ كما لو أنني أجاريها في دعابتها، إذ أردتُ من كلّ قلبي إظهار تقبلي لفكرتها كما لو أنني فتاةٌ غير ساذجة بليدة الفهم كما تظن. نهضتْ لتكمل بقية أعمالها، فاضطررتُ إلى مغادرتها بعقلٍ أكثر تشويشاً مما كان. لا تزال إنيس غاودي فتاةً نادرةً من نوعها، ولا أنكر إعجابي الشديد بانقيادها لإحساسها بدلاً من خضوعها لمعيشةٍ محكومةٍ بقناعاتِ الآخرين، لحياةٍ لا تقصدُ خلالها أشخاصاً بغيضين عليها الامتثال لأوامرهم طوال فترة ما بعد الظهر. مشيتُ نحو دارة برادفورد عابرةً أطراف غابات راينّي، حيث تظلّل الطريق بتشابكات الأغصان مع خيوط الشمس الساطعة في ذلك اليوم. ظلامٌ وضوء... ظلامٌ وضوء... ظلامٌ وضوء... هكذا تعلّمتُ النظر إلى العالم مذ أملى البيوريتانيون أفكارهم المفضية إلى أن جميع الأفعال والأفكار تُصنّف ضمن طبيعتين اثنتين: إما إلهية نزيهة، أو شيطانية شريرة؛ طبيعتان أربكتهما إنيس غاودي، إذ ليس لديَّ أدنى شك في فعلها للخير من نواحٍ كثيرة تتعلق بمعرفتها وعمّتها بما يخص الاستشفاء، ممّا يضع المرأتين اللّتين خدمتا أهل القرية في مرتبة تفوق قسّاً في كنيسة. لكن جرأتها وتجديفها في الوقت ذاته يسمانها كآثمة وفقاً لاعتباراتنا الدينية.

[1] - الناردين: نبات يزرعه الإنسان لأغراضٍ طبيّة منذ القدم. استخدمه الطبيب الإغريقي ديسكورايدس، وتمّ اعتماده في القرون الوسطى كمسكّنٍ للألم.

حيرةٌ لم تفارقني حتى وصولي إلى تخوم الغابة الشديدة الانحدار المحاذية لحافة الحقول الذهبية الخاصة بمنطقة رايلي، حيث تجمّع عشرون رجلاً لحصاد عشرين فداناً بالمناجل طوال اليوم. تعاون الأبناء الأقوياء الستة لعائلة هانكوك على حراثة أرضهم، لذلك فهم يحتاجون أثناء مواسم الحصاد لمساعدةٍ أقلّ بكثيرٍ من الآخرين. تبعتِ السيدة هانكوك وكناتها أزواجهن بكلل، ليقمن بجمع نهايات السيقان اللّينة في حزمٍ قشيبةٍ تحت أشعة الشمس. حدّقتُ إلى عيني إنيس بعد ظهر ذلك اليوم، فوجدتُهن مصفّدات برجالهن كخيلٍ مقيّدة إلى شفرة المحراث.

لمحتُ ليب هانكوك -زوجة الابن الأكبر وصديقة طفولتي- تستقيم للحظات كي تريح ظهرها، رفعتْ يدها بعد ذلك مظلّلةً عينيها في محاولةٍ للتعرف على المرأة العابرة أطراف الحقل. لوّحتْ لي، ثم التفتتْ إلى حماتها بكلمةٍ قبل أن تترك العمل وتجتاز الحقل متجهة صوبي.

«هلّا جلستِ معي لفترةٍ قصيرة يا آنا!» قالت: «أعتقد أنني بحاجةٍ إلى القليل من الراحة».

لم أكن في عجلةٍ من أمري للوصول إلى دارة برادفورد، لذلك رافقتها إلى حافة معشوشبة حيث سارعتْ بالجلوس مغمضة العينين، قمتُ بدعك كتفيها قليلاً فتنهّدت بامتنانٍ ثم قالت: «آسفةٌ لما حلّ بنزيلك... بدا رجلاً صالحاً».

«كان صالحاً بالفعل» قلت: «ولطيفاً على نحوٍ استثنائيٍّ مع أطفالي». مالتْ ليب برأسها للخلف ورمقتني بنظرة استهجان، فتابعتُ: «ومعي أيضاً، في الحقيقة كان لطيفاً مع الجميع».

«أعتقد أن حماتي وضعته في اعتبارها كزوجٍ لـنيل». نيل الفتاة الوحيدة في عائلة هانكوك التي ترعرعت بين إخوةٍ كثر متشدّدين لدرجةٍ جعلتنا نظنّ في كثير من الأحيان أنها قد لا تتزوج أبداً؛ فلا يمكن لأيّ رجلٍ المغامرة في سبيل التقرّب للتعرف عليها. ابتسمتُ رغم حزني، بينما تدور الأخبار عن السيد فيغارز في رأسي.

«هل من امرأةٍ في هذه القرية لم تفكر بمضاجعة هذا الرجل؟»

لطالما كانت ليب صديقتي المقرّبة التي تبادلتُ الأسرار معها. أفترضُ أن العلاقة بيننا ما قادني للاعتراف بما يحقّ ولا يحقّ لي إفشاءه آنذاك... أولها التصريح الداعر عن الشهوة التي تملكتني تجاهه، وآخرها الأخبار التي عرفتها للتوّ عن الشقلبة التي مارسها مع إنيس.

«الآن يا ليب» نطقتُ آخر كلماتي كارهةً المضيّ قدماً في طريقي «ضعي في حسبانك ألّا تثرثري بأخباري بين أفراد أسرة هانكوك هذه اللّيلة».

ضحكتْ مما قلته، وداعبت كتفي بيدها:

«أوه، لا أجرؤ على الحديث عن تلك الحركات البهلوانية أمام الأم هانكوك في المنزل المكتظّ بالذكور! فوجهة نظرك عن العائلة الغريبة الأطوار لا تزال كما عرفتِها. التزاوج الوحيد اللّائق للحديث حول طاولة هانكوك يقتصر على كبشٍ يطأ نعجة!». ضحكنا، قبّلنا بعضنا بعضاً ثم افترقنا إلى أعمالنا.

تشابك السياج النباتي على حوافّ الحقل مفعماً بالأوراق البرّاقة الداكنة الخضرة، بينما تهاوت أغصان التوت البريّ مثقلةً بثمارها القرمزية. كانت الحملان السمينة ذات الأصواف الناصعة ترعى بحبورٍ الأعشاب المورقة تحت ضوء الشمس على طول الطريق. رغم ما أقابله من مناظر خصبةٍ مذهلة إلّا أن السرور يسارع إلى مفارقتي منذ نصف الدرب الأخير الذي لا أبلغ نهايته إلّا بجسدٍ مرهقٍ. إنني أكره عائلة برادفورد بجميع أفرادها، ليس هذا فحسب، بل وأخشى من الكولونيل على نحوٍ خاص... كما تسوؤني حالة من الذعر في دارتهم على الدوام. تداولتِ الألسنة في أيّامٍ خلت أن الكولونيل هنري برادفورد جنديٌّ شجاعٌ وذكي بما يكفي لقيادة رجاله ببسالةٍ غير اعتيادية؛ لكنّ نجاحه العسكري جعل منه رجلاً متعجرفاً لا يمكنه التقاعد أبداً، أو التنعم بحياة النبلاء الهادئة. بأيّ حالٍ من الأحوال لا دليل تجلّى حتى الآن عن حكمته في قيادة وإدارة شؤون أسرته.

بدا متلذذاً في التقليل من شأن زوجته -الابنة لعائلةٍ ثريةٍ مفكّكة- التي أثار سحر عينيها السمجتين افتتاناً قصير الأمد في قلب الكولونيل حتى لحظة حصوله على ميراثها. لم يسمح منذ ذلك الحين بتمرير فرصةٍ دون الانتقاص

منها أو من علاقاتها، أو التقليل من ذكائها، حتى بات جمالها هشّاً للغاية، خاصةً بعد مرور سنواتٍ طويلة من معاملته الجلفة. القلق والخشية من عيبٍ يرنو إليه زوجها قاد سلوك السيدة برادفورد، بما جعلها تسعى جاهدةً لبناء نمطٍ عائليٍّ مثالي، حتى صارت أبسط المهام أكثرها مشقة. أما نجل عائلة برادفورد فهو فاسقٌ جالبٌ للعار، ثرثارٌ مخمورٌ على الدوام؛ ولحسن الحظّ أنه يُمضي جُلّ وقته في لندن. أحرصُ على إيجاد الأعذار للتهرّب من العمل في الدارة أثناء تواجده في مناسباتٍ نادرة، وإن عجزتُ أبتعد كلّ البعد عن ناظريه، حذراً من الوقوع في شِباكِ التواجد برفقته وحدي. الآنسة برادفورد -كما ذكرتُ من قبل- شابةٌ مغرورةٌ وفظّة؛ بصيص الخير الوحيد في حياتها نابعٌ من التعاطف الحقيقيّ مع والدتها البائسة، إذ تلعب دور الابنة القادرة على تهدئة أعصاب والدتها وتخفيف شعورها بالحزن، خاصةً أثناء غياب والدها، حيث يمكن للمرء أن يعمل دون خشية التقريع المطوّل ونوبات الغضب. لكن عودة الكولونيل تسبب التوتر للجميع، بدءاً من السيدة برادفورد وابنتها وصولاً إلى خادمة غسل الأطباق، ليبدو كلٌّ منهم مثل كلبٍ منبوذٍ يخشى ركلة حذاءٍ مباغتة.

بوجود الكثير من العاملين لخدمة عائلة برادفورد، انحصرت مهمتي بالاهتمام بطاولة الحفلات الكبرى. يتباهى منزل العائلة بوجود قاعةٍ واسعةٍ أنيقةٍ للغاية، خاصةً مع تحضيرات موائد العشاء، حيث توزعتِ المقاعد الطويلة المصنوعة من خشب البلوط البراق الداكن، ذات الأذرع والظهور المرتفعة، أمام الجدران التي تفوح منها طوال الخريف رائحة لحوم الخنازير المقدّدة المعلّقة في حجرات التخزين خلفها... عبقٌ يزول مع التهام اللّحم كلّه بحلول أواخر الصيف ليتنسّم المكان بنفحاتِ دخانٍ باهتةٍ سائغة عبر أريج شمع العسل والخزامى. لمعتِ الفضة عاكسةً أضواء القاعة الخافتة، بينما توهّج الخمر داخل الأقداح الكبيرة ناشراً الدفء في الأرجاء وفوق سحنات أفراد العائلة الباردة. لم يفكر أحدٌ بالطبع أن يُعلمني بهوية الضيوف الذين ينتظرونهم، لذلك سرّني مقابلة الوجوه الودودة لعائلة مومبليون على الأقل، من بين عشرات الشخصيات المدعوة إلى العشاء في ذلك اليوم.

بدا الكولونيل ممتنّاً لجلوس إلينور مومبليون حول طاولته. أما السبب

الأول فكامنٌ في حضورها الفتّان بعد ظهر ذلك اليوم، حيث ارتدت ثوباً من الحرير القشدي اللّون، بينما أومضت بعض اللآلئ بين خصلات شعرها الأشقر. يتخطّى السبب الآخر جمالها الرهيف وصولاً لتقديرٍ كبير من قبل الكولونيل برادفورد لنسبها الثريّ المنحدر من أصولٍ عريقة، لأكثر الأسر ملكية لأراضٍ واسعة في المقاطعة. أثار رفض السيدة إلينور لخاطبٍ سيمنحها لقب الدوقة واختيارها لغيره جدلاً وضجةً، لن يتمكن رجلٌ مثل الكولونيل برادفورد من فهم أسبابه. مع ذلك لا زال لديه الكثير للمراوغة حوله؛ فما انفكّ يحاول القبض على المعطيات لاستمرار علاقته معها ومع زوجها كي يعزّز مكانته الشخصية التي تهمّه أكثر من أيّ شيءٍ آخر. انحنيتُ لأخذ طبق الحساء من أمام السيدة مومبليون الجالسة إلى يسار الكولونيل، حين لمستْ يدها بخفة ساعد نبيلِ لندن الماكث إلى يمينها بإيماءةٍ أوقفته عن الكلام، ثم التفتتْ نحوي بابتسامةٍ رزينة قائلة: «آمل أن تكوني بخير بعد ليلتك المروّعة يا آنا؟». سمعتُ رنين سكين الزبدة الخاصة بالكولونيل تصفع الصحن مع هسيس استهجانه. حافظتُ على تحديقي إلى الأطباق بين يديّ خشية أيّ مجازفةٍ بإلقاء نظرةٍ تجاهه وأجبت: «أنا بخير، شكراً لك يا سيدتي». غمغمتُ بسرعة وانزلقتُ لرفع الطبق التالي. خشيتُ إن منحتها فرصةً ثانية للتحدث معي أن تتسبّب للكولونيل برادفورد بلفظ أنفاسه الأخيرة من وقع الصدمة.

علّمتني هذه القاعة إجادة الصمت المُطبق والتركيز على القيام بواجباتي فقط، الطفيفة غالباً والمباغتة كتغريد طيورٍ في أجمةٍ بعيدة. ما إن ينتهي الضيوف من تبادل المجاملات الفارغة مع أولئك الجالسين جوارهم حتى تدور محادثاتٌ قليلة حول الطاولة الكبيرة، لتُسمع جلبةٌ خافتة من الأصوات المختلطة، يليها هدوءٌ تصدّعه أحياناً ضحكة الآنسة برادفورد الساخرة المتكلّفة. بعد مغادرتي حاملةً أطباق اللّحم، تغيّرت حال القاعة مع العودة بأصناف الحلويات... إذ أُضيئت الشموع جميعها في أركان القاعة داحرةً الظلمة، متمايلةَ اللّهب مع صوت الشاب اللّندني المجاور للسيدة مومبليون. أبصرته يخاطب الحاضرين منفرداً بأسلوب النبلاء الذين لا نراهم كثيراً في قريتنا الصغيرة، أما نبرته فعاليةٌ جدّاً، تجذب الانتباه إلى وجهه الضيق

المجمّل بالمساحيق، والذي بدا ضائعاً إلى حدٍّ ما بين خصلات شعره المجعدة والرقعة[1] المعلّقة فوق خده الأيمن. أتوقّع أن أيّاً من خُدام برادفورد لو تمكنوا من الوصول إلى طاولة تبرجه لجهلوا كيفية وضع مثل هذه الرقع العصرية التي لا تنفكّ ترفرف بشكلٍ مثيرٍ للإزعاج كلّما مضغ الشاب طعامه. ظننت أنه سخيفٌ حينما لمحته، لكنه بدا ذا شخصيةٍ جليلة أثناء تصفيق يديه المغطاتين بكشاكش الدانتيل كجناحي العث الأبيض، لتنشرا ظلالاً مديدةً حول الطاولة. في حين استدارت الوجوه نحوه شاحبةً مذعورة.

«مشاهدُ لم يسبق لكم مشاهدتها على الطرقات. رجالٌ لا حصر لهم يمتطون ظهور الخيل عابرين بين العربات المكتظة بالأمتعة. نصيحتي لكم: كلّ شخصٍ قادرٍ على مغادرة المدينة فليفعل ذلك أو يخطط للرحيل. في هذه الفترة العصيبة، نصبتِ العائلات الفقيرة الخيام خارجاً في هامبستيد هيث. إن أراد أحدهم المضيّ من هناك فليسلك منتصف الطريق تجنباً للعدوى المتسرّبة من تلك المساكن. ينبغي على الراغبين بالتنقّل بين الأبرشيات الأكثر فقراً أن يغطّوا وجوههم بأقنعةٍ مدببة على شكل منقار طائرٍ ضخم محشوةٍ بالأعشاب والقش والتوابل. يعبر الناس في الشوارع كالسكارى يترنحون من جانب إلى آخر بهدف تجنب المرور بالقرب من أيّ مشاةٍ آخرين. مع ذلك، لا يجوز للمرء أن تقلّه عربةٌ تجرّها الخيول، إذ لعلّ أنفاس من سبقه لا زالت تعجّ بالمرض داخلها». أخفض نبرة صوته محدّقاً بمن حوله مستمتعاً بالاهتمام الشاسع الذي وسم كلماته، ثم تابع حديثه المروّع: «تناهت إلى مسامعي صرخات الموت الصادحة من المنازل التي تحجر المصابين فرادى داخلها، مع علامات صليبٍ أحمر موشومةٍ فوق الأبواب. حتى العرش الملكي في طريقه للرحيل، صدقوني... هناك إشاعاتٌ تشي بأن الملك يخطّط لنقل بلاطه إلى أكسفورد. عن نفسي، لا أجد أيّ سبب للتلكؤ في المغادرة. هُجرتِ المدينة بسرعةٍ فائقة، وبدأتِ المجتمعات

1- الرقعة أو البقعة السوداء: آخر صيحات الموضة في القرن السابع عشر، يتمّ قصها من أقمشة المخمل والحرير بأشكالٍ متنوّعة. كان من المألوف تطبيق عددٍ كبير منها في جميع أنحاء الوجه لأكثر من غرض، منها لإخفاء العيوب، أو لتسليط الضوء على البشرة البيضاء أو ملامح مميزةٍ في الوجه.

الراقية بالفناء، إذ نادراً ما يعثر المرء على رجلٍ بشعرٍ مستعار أو سيدةٍ متبرّجة الوجه، فالثروة والعلاقات لا يمكن لهما ردع الطاعون».

«الطاعون»... أتى وقعُ الكلمة كسندانٍ تهاوى بين مجموعة من الأواني الفضية. سرعان ما أُخمدتِ القاعة المشرقة بأنوارها في عينيّ، حاولتُ استعادة توازني متشبثة بالطبق بين يديّ بغية عدم سكب محتواه. لملمتُ تبعثري ثم جمعتُ أنفاسي المرتعشة. لقد شهدتُ ما يكفي من الأحبة الذين غيّبهم المرض عن حياتي، والذين أصيبوا بأشكالٍ متنوّعةٍ من الحمى التي تقتل على نحوٍ أسوأ من الطاعون. ماذا عن جورج فيغارز الذي لم يطأ لندن منذ أكثر من عام... كيف له التأثر بالوباء المنتشر في المدينة إذن؟ تذكّرتُ أطوال الأقمشة الساطعة التي رفرفت على الحبائل في فناء داري.

تنحنح الكولونيل برادفورد وقال: «كفاك يا روبرت! لا تُقلق السيدات، فأول شيءٍ سيقمن به هو تجنّب الاقتراب منك خوفاً من العدوى!».

«لا تمزح يا سيدي فقد صادفنا على جوانب الطريق الرئيس شمال لندن رعاعاً مهتاجين يلوّحون بالمعاول، وينفضون المَذار منعاً لدخول أيّ مسافرٍ قادمٍ من لندن صوب قريتهم التي ليست سوى مكان مبتذل بأيّ حالٍ من الأحوال، حتى إنني لم أجد ملاذاً ألجأ إليه حتى في أكثر المرابع قذارة، لذلك مضيتُ بفرسي دونما توقف. لن يطول الأمر حتى تفقد استحقاقاتك لكونك لندنيّاً، وسيكون من المفاجئ للعديد منا أن يصطنع تاريخاً ريفيّاً لأصوله. أصغوا إليّ جيداً... ستسمعون قريباً أنني أنحدر طوال السنوات الماضية إلى قرية ويتوانج، وليس إلى مدينة وستمنستر».

ضجّ الحاضرون مع عبارته الأخيرة، فالمدينة التي تبرّأ الشاب منها كانت بالتأكيد أكبر وأفضل من تلك القرية التي استضافته مؤخراً. «حسناً، اختيارٌ موفّق، أليس كذلك؟» قال الكولونيل لإنهاء الجدال: «الهواء نقي، ولا حمى آسنة في المكان».

لاحظتُ ظلالاً مريرة اكتسحتْ ملامح السيد والسيدة مومبليون. حاولتُ مواصلة التهدئة من روعي، وضعت قالب الحلوى الذي حملته ثم عدت إلى الظلام الجاثم قرب الجدار.

«من الصعب تصديق ما يحدث» تابع الشاب حديثه: «لكنّ القلة المقيمة في المدينة يفتقدون الأسباب الموجبة للرحيل. اللّورد راديسون أحدهم -أعتقد أنكم على درايةٍ بسطوته- ظلّ يثرثر بالواجب المنوط به والذي يجبره على البقاء كـ(مثالٍ يُحتذى)!... مثالٌ على ماذا؟... على الموت البائس، أكفلُ له ذلك».

«فكّرْ فيما تقوله» قاطعه السيد مومبليون بنبرةٍ حادةٍ كالحةٍ مرتفعة الرنين نزعت الاستهزاء من ملامح الكولونيل الذي التفت بدوره إلى الشاب رافعاً حاجبه مؤنّباً وقاحته. حاولتِ الآنسة برادفورد في تلك الأثناء إخفاء ضحكتها المكبوتة مصطنعةً سعالاً خفيفاً.

«لو اختار كلّ مقتدرٍ مغادرة موطنه الموبوء بالمرض» تابع السيد مومبليون: «لرافقته بذور الطاعون أينما حلّ، سيزرعها في أرجاء الأرض ملوثاً الأماكن النظيفة، ناشراً العدوى ألف مرّةٍ أكثر وأكثر. إن رأى الرّب حكمة في إرسال البلاء، فأعتقد أن إرادته كامنةٌ في مواجهته بشجاعة، لا بدّ من محاصرة الشرّ قدر الإمكان».

«أوه؟» قال الكولونيل بتغطرس: «إن أرسل الرّب أسداً لتمزيق جسدك، فهل ستقف بوجهه بثباتٍ أيضاً؟... لا أعتقد ذلك. أجزم أنك ستهرب من الخطر كما يفعل أيّ رجلٍ عاقل».

«تشبيهك ممتاز يا سيدي» ردّ السيد مومبليون بنبرته المعهودة الرخيمة القيادية الصادحة، كما لو أنه يعظ أمام الرعيّة «دعنا نوضح الأمر. يجب عليّ بالتأكيد مواجهة الأسد، لأنني إن ركضتُ طلباً للهرب، سيتبعني الوحش صوب أماكن سكن الأبرياء الذين يلتمسون حمايتي لهم».

مع ذكر الأبرياء، أومض وجه صغيري جيمي أمام ناظري. ماذا لو كان الشاب اللّندني على حقّ؟ لقد أمضى جيمي أياماً كثيرة بين يدي جورج فيغارز. رافقه طوال ذلك اليوم قبل ظهور أعراض المرض، متسلّقاً ظهره متقافزاً حوله.

اقتحم الشاب الصمت الذي فرضه خطابُ السيد مومبليون بالقول: «حسناً يا سيدي، أقدّر هذه الشجاعة. لكن عليّ أن أخبركم أن أولئك

الذين يعرفون المرض بشكلٍ أفضل... أقصد الأطباء الجراحين الحلاقين كانوا أوائل الهاربين من المدينة. حتى إن فرصة المرء بالحصول على دواءٍ للسعال أو فصدٍ لمعالجة النقرس، باتت معدومة أيّاً كان ما يملكه من سيادةٍ ومال. الأمر الذي يقودني إلى الاستنتاج بأن الأطباء أوحوا إلينا بوصفةٍ طبيةٍ واضحة تفضي إلى التالي: أفضل علاجٍ للطاعون هو الهروب منه بعيداً. أعتزمُ بدوري اتّباع هذه الوصفة الدينية».

«الدينية قلت...!» علّق السيد مومبليون «لكنني أعتقد أن اختيارك للكلمة ضعيفٌ بعض الشيء، فإن تحدّث المرء من ناحيةٍ (دينية) يجب عليه ألّا يغفل أن الرّب قادرٌ على إبقائه آمناً داخل بؤرة الخطر، أو أن يعرّضه للخطر ليخلّصه، بغضّ النظر عن المسافة التي قطعها أو السرعة التي جرى بها».

«معك حقّ يا سيدي، لكن كثيرين يعتقدون أيضاً أن الجثامين المتعفنة التي تقلّها عرباتٌ ضخمة عابرةً الشوارع قاصدةً حفراً كبيرة...». رفعت الآنسة برادفورد يدها إلى جبينها في حركةٍ لافتةٍ للنظر، للتظاهر بدوارٍ أنكرته عيناها النهمتان. التفت الشاب صوبها مستقرئاً شغفها للحصول على المزيد من التفاصيل، فتابع سارداً: «أخبرني بالحكاية شخصٌ سعى باحثاً عن قريبه بلا جدوى. ذكر أن الجثث تمّ قلبها على وجهها بتقدير يوازي ما يناله كلبٌ ميت. فقد كُوِّمت الأجساد بعضها فوق بعض، لتلقي المجارف بعض التراب عليها. المزيد من الجثث تهوي وتستلقي هناك كوجبة حلوياتٍ أخيرة». قال مشيراً إلى الكعكة المتعدّدة الطبقات التي وضعتُها على الطاولة ما أجفل السيد والسيدة مومبليون كليهما، لكنه سرعان ما ابتسم بذكاءٍ ملتفتاً إلى القسيس «هل أُنبئك بمن سارع باللّحاق بالجرّاحين الحلاقين هروباً خارج المدينة يا سيدي؟ إنهم القساوسة الإنجيليين، مثلك تماماً. العديد من منابر الوعظ في لندن أُتخمت بالمنشقين جرّاء ذلك».

أطرق مايكل مومبليون برأسه إلى الأسفل متفحّصاً يديه. «إن كان ما تقوله صحيحاً يا سيدي فأنا آسفٌ بالفعل لما جرى، ولن أنكر إن حدث ذلك حقيقةً أن إخوتي في الإيمان أثبتوا أنهم واعظون بغير جدوى». نظر إلى زوجته ثم تابع متنهّداً: «لعلّهم يؤمنون أن الّرب يبشّر بالمدينة الآن، ولا نفع لكلامهم المتواضع أمام *رعد صوته*؟».

من حسن حظّي أن القمر استدار بدراً في تلك اللّيلة، وإلّا لكنت قد علقتُ في إحدى الحفر على طول الدرب المتعثّر إلى المنزل. بالرغم من إنهاكي الشديد سارعتُ راكضةً واهبةً الأشواك فرصةَ تمزيقِ كاحلي، ولثمارها الجافة التشبث بتنورتي. عند وصولي بالكاد استطعت التحدّث إلى الشابة مارتن حين قامت بتثاقلٍ من مضجعها المحاذي للموقد. رميتُ معطفي وهرعتُ مرتقيةً السّلالم. نظرتُ إلى الجسدين الغضين المغمورين بمربعٍ فضيٍّ مشرق. كلاهما يتنفس بسهولة، بينما لفّ جيمي ذراعاً حول أخيه. لمستُ جبينه مذعورةً من أفكارٍ أقلقتني، ثم مسحتْ أصابعي بشرته الناعمة باطمئنان.

«الحمدُ لك...» قلت.

«آهٍ، الشكر لك أيّها الرّب».

-4-

فخ الجرذان

بشّرتِ الأسابيع التي تلت وفاة جورج فيغارز بجوٍّ لطيفٍ رافق شهر سبتمبر أيلول كلّه، طقسٌ ما انفكّ يلوح في بالي على الدوام، رغم أن البعض في هذه القرية يعتقد بكآبة الريف الممتدّ على سفح الجبل. يمكنني معاينة الأمر كما يبدو لهم؛ إذ تنزّ الأراضي البور بعمّال المناجم ورافعاتهم المنتصبة حول أكوام التراب المبعثرة والتي تعوق المدّ البنفسجي الباهت لنبات الخلنج. المكان هنا لا يمتّ للحيوية بصلة. فلا نملك من الألوان سوى الأخضر؛ لوننا الوحيد الطاغي المستعمرُ لكل فيء ترتديه الطحالب الزمردية المخملية، واللّبلاب المعرش الداكن البرّاق الذي يدثّر الربيعُ براعمَه الغضة بالسندس المذهّب. نموجُ فيما بقي ضمن مزيجٍ من الرماديات. بدءاً من نتوءات الصخور الجيرية القاتمة الضاربة إلى البياض، مروراً بحجارة البناء المشيِّدة لأكواخنا بالرماديّ المصفر الدافئ، إلى لون السماء المعتم؛ حيث تتمايل الغيوم المكفهرّة بين قمم التلال منحدرةً إليك غامرةً يديك بنعومتها.

لكنّ أسابيع هذا الخريف فاضت بأشعة شمسٍ غير معهودة، فلم تخلع السماء زرقتها وصفاءها على مدار الأيام. أما النسمات فتدفقت دافئةً جافة لا تلوّح بأيّ صقيع. شعرت بارتياحٍ كبير لأن صغيريّ لم يصابا بالحمى، واستمتعتُ بسلامٍ لا يُضاهى. لكن جيمي كان حزيناً لفقدانه صديقه العزيز فيغارز. في الواقع كان موت والده أسهل عليه، لأن سام قضى جلّ وقته في المنجم خلال ساعات استيقاظ جيمي، ما قلّل الوقت الذي أمضياه بعضهما برفقة بعض. أما فيغارز فقد أصبح خليلاً لا غنى عنه في الأشهر القصيرة

التي عاشها معنا. لقد ترك موته فراغاً جاهدتُ في تعويضه بتحويل الأعمال المنزلية البسيطة إلى نوعٍ من التسلية حتى لا يشعر جيمي بالفقد الشديد.

في أواخر تلك الأيام وددت أن أتأكد أن كل نعجةٍ ترعى بأمانٍ مع حملانها دون تعرضهم لخطر الوقوع بين الأشواك أو الحفر، لذلك قمتُ باصطحاب جيمي لتفقّد القطيع في فترة ما بعد الظهر. تسكّعنا على طول الطريق، توقفنا بين فينةٍ وأخرى باحثين عن حكايةٍ بين أكوام الحجارة أو سرٍّ داخل الأشجار المجوّفة. بات صفّ الفطر الصاعد على طول الغصن المتهاوي –في حكايتنا– السلّمَ الواصل إلى عرزال الجنيّة الجميلة، بينما صارت قشرة ثمرة البلوط فنجاناً نسيه أحد فئران الغابة بعد انتهاء حفلتهم ليلة أمس.

أملك قطيعاً صغيراً يصل عدد أغنامه إلى واحد وعشرين رأساً فقط. اتخذتُ قراراً منذ زواجي بـسام أن أحصل على لحم الضأن من كل نعجةٍ تُثبت أنها أمٌّ غير كفء، لتُضحي النتيجة ولاداتٍ ميسّرة في طقسٍ يختار أن يكون حليفنا، وهذا ما حدث خلال الربيع الفائت؛ لذلك كان لقاء نعجةٍ في حالة مخاض آخر ما أتوقعه في ذاك النهار. لكنه حصل بالفعل. ولحسن الحظّ، وجدتها مستلقيةً على جانبها تحت ظلّ شجيرة غبيراء بدت أوراقها الصهباء مع الطقس الحارّ بغير موسمها أيضاً. كانت تشخر وتخرج لسانها من شدّة الإجهاد. أبعدتُ توم ووضعته على رقعةٍ من البرسيم، بينما وقف جيمي خلفي عندما جثوت وأدخلت يديَّ في مؤخرة النعجة محاولةً مساعدتها. استطعت تلمّس المنخر وأحد الحوافر القاسية، لكنني بالكاد تمكنّت من إدخال كلّ أصابعي لأمسك بالحمَل.

«أمي... هل أستطيع تقديم العون؟» سأل جيمي. نظرتُ إلى أصابعه الصغيرة وقلت نعم. أجلسته أمامي عند عجيزة النعجة المتّسعة كزهرةٍ متفتّحةٍ براقة، زلق يديه الصغيرتين بسهولةٍ داخل الجوف الرطب الأملس، وصاح عندما تلمّس ركبتي حمَلَها المقلوب. تشبثتُ بعقبيّ قبالة النعجة وقمنا بشدّه معاً. قبض جيمي على الركبتين بقوته الضئيلة بينما سحبتُ الحافرين، لتندلق فجأةً كتلةٌ من الصوف المبلّل مع دفقٍ من الماء، ما دفَع كلينا إلى الوراء فوق العشب. لقد كان خروفاً جيداً، صغيراً لكنه قوي، يا لها من هبةٍ غير متوقعة! بدتِ الأمّ نعجةً فتية في خضم تجربة ولادتها الأولى،

وقد سررتُ لرؤيتها تنظّف وجه طفلها مباشرةً، فيما كافأها حملها على الفور بعطسٍ مدوٍّ أثار ضحكاتنا ووسّع حدقتي جيمي بالفخر والبهجة.

تركنا الأمّ تلعق البقايا الصفراء العالقة بصوف ابنها الناعم، واتجهنا نحو الجدول لنغسل الدماء والوحل عن أيدينا وملابسنا. كانت المياه تتدفق صادحةً بصليلها فوق طبقات السّجيل، أما أشعة الشمس الدافئة والمجهود الذي بذلناه فقد أصابانا بحرٍّ شديد. نزعتُ ملابس جيمي وتركته عارياً تماماً كي أغسل جلبابه ومئزري من بعده، ثم علقتهما على شجيرة ليجفّا. حللت دبوس ياقتي وخلعت غطاء رأسي ونزعت جوربي، ثم ثنيت تنورتي إلى الأعلى وجلست على صخرةٍ مسطّحة لأرضع توم، تاركةً مياه الغدير تغمر أصابع رجلي. بينما كنت أداعب شعر توم الجميل الأملس وأراقب جيمي وهو يطرطش الماء البارد. بلغ ولدي عمراً يكشف أنه لم يعد صغيراً بل فتًى مكتمل النموّ. فقد تحوّلت انحناءات جسده إلى خطوطٍ طويلةٍ رشيقة، استطالت الساقان السمينتان المطويتان لتصيرا أطرافاً ممشوقة، وتغيّرتِ البطن المستديرة لتصبح جزعاً نحيلاً منتصباً، كما صُقل الوجه الذي أصبح فجأةً قادراً على أداء مختلف التعابير بطريقةٍ مغايرةٍ لتلك الذقن المتغضنة والخدين المكتنزين. راقني التحديق إلى جسد جيمي الجديد، بنعومة بشرته، وبانحناءة عنقه وميلان رأسه الذهبي، متأملةً بفضول أعجوبةً جديدة في عالمه.

كان يقفز من حجرٍ إلى آخر، ملوحاً بيديه بقوة ليسيطر على وقفته خلال مطاردة اليعاسيب، وبينما كنت أراقبه حطّ يعسوبٌ على غصنٍ بالقرب من يدي، وقد أضيئت حوافّ أجنحته الشفافة بألوانٍ قزحية لتغدو كنوافذ كنيستنا الملونة. وضعت إصبعي برفقٍ على الغصن فأحسست بالاهتزاز الخفيف وسمعت طنيناً خافتاً من أجنحته الملوّحة، ثم حلّق منقضاً على دبورٍ نافق بأرجلٍ واهيةٍ كالخيوط، إلّا أنها لاحتْ كمصيدةٍ حديدية صفّدت الدبور، أطبق بفكيه القويين على الحشرة أثناء تحليقه والتهمها. فكّرت بشرود: إذن هكذا تسير الأمور... ولادةٌ وموت، وكلاهما على حين غرّة.

أسندت ظهري مقابل ضفة الجدول وأغلقت عيني، ويبدو أنني غفوت للحظة، وإلّا لما فاتني سماع وقع الأقدام الآتية عبر الأشجار. أبصرته حين

فتحت عيني بقامةٍ منتصبة فوقي تماماً ممسكاً بكتابٍ مفتوحٍ بيده. قفزتُ مرتبكةً متلمّسةً السبيل إلى صدريتي، بينما صرخ توم بسخط فاتحاً فمه الوردي لأنني قطعت طعامه.

رفع القسيس يده مبتسماً بلطف، وقال: «لا بدّ أن رضيعك يعترض على تطفّلي... لا تضطربي يا آنا، آسفٌ لأني فاجأتكم على هذا النحو، لكنني كنت مستغرقاً في كتابي خلال النهار اللّطيف، ولم أدرك أن أحداً غيري يجلس في هذه الوهدة».

راودني شعورٌ بالدهشة إلى جانب الخجل من ظهور القسيس المفاجئ، فعجزت عن النطق بأيّ ردٍّ لائق. ما زاد من عجبي أنه لم يبتعد حينها، بل جلس فوق صخرةٍ قريبة ونزع حذاءه ودلّى قدميه في الجدول، مدّ يديه بعد ذلك نحو المياه الصافية الباردة، رشّ وجهه ومرّر أصابعه عبر شعره الأسود الطويل، ثم رفع رأسه المبلّل نحو أشعة الشمس مغمضاً عينيه.

«كم من اليسير الإحساس بنعمة الرّب في يومٍ كهذا!» همس ثم أردف: «أحياناً أتسأل لماذا نلجأ إلى الكنائس؟ ماذا عساه المرء أن يفعل بعد كلّ شيء أكثر من أن يشعر بالحضور الإلهي في مكانٍ كهذا؟».

حافظتُ على صمتي الأبله، غير قادرةٍ على ضبط أفكاري لأنبس بأيّ إجابة. واصل توم بكاءه بصوتٍ مرتفع، فنظر السيد مومبليون إليه وهو يتلوّى بين ذراعي فتقدم ليأخذه. أعطيته الصبي بذهولٍ ازداد مع الطريقة المتمرسة التي حمله بها، مربّتاً بقوةٍ على ظهره بعد وضعه مواجهاً لكتفه ما جعل توم يتوقف فوراً عن البكاء متجشّئاً بقوة. ضحك القسيس قائلاً: «تعلّمت أثناء الاعتناء بأخواتي الصغار أن المرء إن لم يكن أمّاً أو مرضعةً عليه أن يحمل الأطفال على هذا النحو، بجعلهم منتصبين كي يوقف بحثهم عن الطعام».
لا بدّ أنه كشف الحيرة التي اكتست ملامحي ما جعله يضحك ويتابع القول: «عليكِ ألّا تظني أن الكهنة يقضون حياتهم بالكامل بين الكلمات المنمقة الصادحة من المنابر». أدار بصره نحو جيمي الجاثي داخل الجدول، المنشغل ببناء سدٍّ من العصي كي يقطع مجرى النهر، ما جعله بالكاد يرفع رأسه ليلاحظ وجود القسيس. فعلّق: «جميعنا بدأنا كأطفالٍ عراة نلعب بالوحل».

أعاد توم إليّ وتقدم عبر مجرى الجدول باتجاه جيمي، وفي منتصف الطريق داس بقدمه على حجرٍ طحلبيٍّ أملس، فلوّح بيديه بطريقةٍ جنونية محاولاً التوازن ليقفز جيمي في الماء ضاحكاً بفظاظة طفلٍ عابثٍ ذي سنواتٍ ثلاث. نظرتُ بشزرٍ وسخطٍ نحو جيمي، لكن مايكل مومبليون ألقى برأسه إلى الأعلى مجارياً إياه في الضحك، ثم شقّ عباب الماء الفاصل بينهما ناثراً قطراته بقوة حوله ليختطف طفلي الصارخ ويقذف به نحو الهواء. استمر الاثنان باللّعب لبرهة، ثم عاد مايكل مومبليون تجاهنا أنا وتوم، وجلس مجدّداً على ضفةٍ قريبة متنفّساً الصعداء، ليغلق عينيه مرةً أخرى راسماً على ثغره ابتسامةً خفيفة.

«إني أشفق على سكان البلدات الذين لَم يدركوا هذا الحبّ كلّه... عبقُ الأعشاب الندية الفواح ومعجزات الخلق اليوميّة. هذا جزءٌ مما كنتُ أقرأه عندما قاطعتكم، هل تودين سماع بعض العبارات منه؟».

أومأت برأسي موافقة، فأمسك كتابه وخاطبني موضّحاً: «هذه بعض كتابات أوغسطين أسقف هيبو[1]، إنه ناسكٌ أبدع تأملاته اللّاهوتية العميقة على ساحل أفريقيا البربري[2]، يسأل نفسه هنا... ماذا نعني عندما نتحدث عن المعجزات؟».

1- أوغسطين أسقف هيبو أو القديس أوغسطينوس: كاتبٌ وفيلسوف من أصلٍ أمازيغي، ولد في طاغاست (حالياً سوق أهراس، الجزائر). يعدّ أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. تعدّه الكنيستان الكاثوليكية والأرثوذكسية قديساً وأحد آباء الكنيسة البارزين، ويعتبره قسمٌ من البروتستانت أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي حول النعمة والخلاص. لا تزال مؤلفاته مقروءة في شتى أنحاء العالم - بما فيها الاعترافات، والتي تعدّ أول سيرة ذاتية في الغرب. أما هيبو فهي مدينة عنابة الجزائرية حالياً.

2- ساحل أفريقيا البربري Africa's Barbary Coast: المصطلح المستخدم من قبل الأوروبيين من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر في الإشارة إلى المناطق الساحلية الوسطى والغربية من شمال أفريقيا وتشمل المغرب والجزائر وتونس وليبيا، حيث اشتق الاسم من البربر في شمالي أفريقيا. كما أن الاسم اقترن لدى الأوروبيين بتجارة العبيد بين أوروبا وجنوبي الصحراء، وأعمال القرصنة في البحر المتوسط وشمالي الأطلسي.

أذكر مقتطفاتٍ مما قرأ، لكني لا أنسى إيقاع كلماته المتماوج مع خرير الجدول: «التأمل في تعاقب النهار واللّيل... سقوط أوراق الأشجار وعودتها مع ربيعٍ مقبل، القوة السرمدية في البذور... أخبريني... أيّ امرئٍ يمكنه أن يرى ويختبر هذه الأشياء للمرة الأولى ولا يزال باستطاعتنا الجدال معه... لا بدّ أنه سيكون مذهولاً وغارقاً في هذه المعجزات».

شعرتُ بالأسف عند توقّفه عن القراءة، ولولا الرهبة التي غزتني جرّاء صمته لطلبتُ منه المتابعة. صحيحٌ أنني أعمل في منزله يومياً لكن التواصل مع زوجته كان أكثر يسراً من تعامله الجافّ، إذ غالباً ما أغرقته الشؤون العامة وشغلته عن الأمور الصغيرة داخل بيته، لذلك بذلتُ قصارى جهدي في المجيء والذهاب وإنجاز واجباتي دون إثارة انتباهه، وأستطيع القول بشيءٍ من الفخر أنه في مناسباتٍ عدة وجد سبباً ليلاحظني. مكثتُ جواره صامتةً أرنو إلى الغدير، ما أثار اعتقاده أنه تأمّلٌ يفضي لتململٍ أو سأم، فسارع بالنهوض على نحوٍ فجائي لينتعل حذاءه قائلاً إنه فرض عليّ ما يكفي، وحان وقت متابعة أعماله.

وجدتُ سبيلاً لصوتي كي ينطق بنبرةٍ خفيضة معبّرة عن امتناني العميق لمشاركته تلك الأفكار العظيمة معي: «من الرائع أن أتقاسم مع مفكّرٍ جليل هذه الأشياء الدافئة عن الأرض والفصول».

ابتسم بلطفٍ قائلاً: «تُحدّثني السيدة مومبليون عن وعيك، وتعتقد أن هذا نوعٌ من التميز، وأشاطرها الرأي بدوري». استأذن بعدها بالانصراف عائداً إلى مسكنه لأبقى هناك مع طفليّ لبعض الوقت أفكّر بأن الحقيقة بالنسبة لأوغسطين، الحقيقة ذاتها لقسيسنا، أما الغرابة فكامنة في السبب الذي أتى بهذا الرجل المنفتح واللّطيف جدّاً إلى كنيستنا.

ناديت جيمي بعد برهةٍ من الزمن للعودة بدورنا، فتراكض على طول الدرب كطائر السنونو جامعاً ما التقطته يداه من بتلات الزهور المتفتحة. مع اقترابنا من الكوخ طلب مني الانتظار قرب الباب بينما دخل صارخاً بحماس: «أغلقي عينيك يا أمي». أطعته مترقّبة دافئةً وجهي بين يدي، متسائلةً عن أيّ لعبةٍ يخطط لتنفيذها. سمعته يصعد الدرج مهرولاً على عجلةٍ من

أمره، متسلّقاً بأطرافه الأربعة كجروٍ صغير. مرّتْ لحظاتٌ قليلة، ثم سمعتُ صرير فتح باب الطابق العلوي. «حسناً يا أمي، انظري نحو الأعلى!». رفعت رأسي وفتحت عيني لأجد نفسي وسط هطولٍ مخمليٍّ لبتلات الزهور وعبق النعومة العذب المنسكب فوق وجنتي. أزحت غطاء رأسي ولوّحت بشعري الطويل تاركةً البتلات تحطّ على ضفائره المتشابكة. خرخر توم الصغير ببهجةٍ ضارباً بيديه المكتنزتين الفيض الزكيّ المخضّب بالورديّ والأصفر الداكن، بينما اتكأ جيمي على العتبة العلوية نافضاً البتلات القليلة المتبقية عن زاوية الورقة.

«في هذه اللّحظة...» فكّرت باسمةً في وجهه: «في هذه اللّحظة تكمن معجزتي».

هكذا مرّت أيام سلامنا العجائبية، كنت مشغولةً بتحضيرات فصل الشتاء التي يصعب تصورها خلال تلك الفترات البليدة من بعد الظهيرة، حين يندفع النحل بطنينه داخل الخلايا المترعة بالعسل العابق بالخلنج. أما سلالم التفاح فمغروزةٌ بين الأشجار، والدعائم الثلاثية منتصبةٌ في كلّ مكان بانتظار يومٍ باردٍ بما يكفي لتعليق الخنازير المذبوحة. رغم أنني لا أربي الخنازير، إلّا أنني اعتدت على مساعدة جيراني من آل هادفيلد مقابل الحصول على حصةٍ من شرائح الخنزير المقدّد. كان ألكسندر هادفيلد رجلاً مرهفاً فضّل غرز الإبرة في الثياب وحياكتها على غرز السكين في اللّحم والعظام، حتى إنه لا يلوّث ثيابه الخاصة بالحياكة خارجاً بأيّ شكلٍ من الأشكال؛ لذلك اعتاد ابن ماري الأكبر من زوجها الأول على أعمال الذبح والجزارة. كان جوناثان كوبر شابّاً ضخماً -كوالده الراحل- يقوم ببعض الأعمال، فيما ركض أخوه الأصغر إدوارد مع جيمي في الجوار، متهرّبين من أداء الواجبات الصغيرة التي أوكلناها إليهما. في كلّ مرةٍ نرسلهما لجلب حزمةٍ من الأخشاب لإيقاد النار تحت المرجل كانا يتواريان خلف الحطب مقهقهين من الضحك باللّعبة التي ابتدعاها.

في النهاية توقفت ماري كوبر عن غسل الأحشاء الملتصقة بأغشية النقانق وذهبت لترى أيّ ضربٍ من الأذى يبتدعه الاثنان، لتعود ساحبةً إدوارد من أذنه، بينما مدّت يدها الأخرى بعيدةً عنها قدر الإمكان، وقد تدلّى منها شيءٌ

أسود لامع مربوطٌ بخيط. اقتربتُ أكثر فتبيّن أنه جرذٌ نافق، جيفةٌ صغيرةٌ مسكينة بدتْ مبلّلةً بالكامل بعينين دامعتين ودمٍ قرمزيٍّ حول الفم. دنا جيمي خلف ماري باستحياء يحمل شيئاً مماثلاً. ألقت المرأة ما تحمله في النار، وأكرهت جيمي على فعل ذلك أيضاً.

«هل يمكنكِ تصديق ذلك يا آنا؟! كلاهما يلهوان بهذه الآفات المقزّزة كما لو أنهما يلعبان بالدمى. على ما يبدو أن الحطب يعجّ بها، ومن النعم القليلة التي حلّت علينا أن جميعها نافقة»، وبما أننا لم نكن قادرين على قطع عملنا، طلبت ماري من ألكسندر أن يتعامل مع فخّ الجرذان. تهامسنا ضاحكتين، فقد كانت المساعدة بجزارة الخنازير أقلّ وطأةً بكثيرٍ من التعامل مع مجزرة القوارض النافقة. بطريقةٍ ما خفّف مظهره وهو يقوم بتلك المهمة جزءاً يسيراً من كدّنا، لنتسابق مع ما تبقى من ضوء النهار المتواري على نزع اللّحم والدهن وتقديده. كان عملاً شاقّاً وبغيضاً كالعادة، لكنني تخيّلت رائحة لحم الخنزير المقدّد في مصفاتي، وكيف سيتلذّذ بها جيمي بعد أسابيع قليلة.

توشّحتِ السماء بالغيوم الداكنة ما بعث الطمأنينة في نهاية يوم شاقّ، وغسل المطر الغزير الأفق مما أراح العيون. لكنّ الرطوبة التي تلت الطقس الحارّ استدعت جمهرةً من البراغيث لم أشهدها من قبل. إنه لأمرٌ غريب، كيف يمكن لجميع أنواع الحشرات اللّاسعة أن تفضّل مذاق أحدهم دون الآخر؟! نهشتِ البراغيث جسد طفليّ الرقيقين في المنزل، فغطّتهما بالندب بشكلٍ جنوني. أحرقتُ قشّ الأسرّة بالكامل للتخلص منها قبل الذهاب لرؤية غاودي بغية إحضار المراهم. كم أملتُ بمقابلة إنيس وحدها هذه المرّة أيضاً، لأنني تقتُ إلى مزيدٍ من الأحاديث التي تسهب عن إدراكها للكون، أو تعلّم سبل إدارة أموري كامرأةٍ وحيدةٍ في هذا العالم، لأتقبل نفسي وأفخر بها كما فعلتْ بالضبط. لقد سبق ولمّحتْ بصراحةٍ عن عشّاقها الكثر، ووجدت نفسي شغوفةً بمعرفة طرائق تعاملها معهم وطبيعة مشاعرها تجاههم.

شعرت بخيبة أمل حين التقيت بميم العجوز، وقد أوحى تلفّحها بوشاحها أنها ماضيةٌ في طريقها للخروج، أما استعجالها فجعلني أظنّ أنها ذاهبةٌ لحضور ولادةٍ ما. لكنها لم تترك مجالاً لأتذكّر أن جميع النساء اللواتي أعرفهن لم يكنّ على موعدٍ مع ولاداتهنّ قبل شهرٍ من ذلك الوقت.

«آه، يمكننا أن نترافق معاً يا آنا، أنا في طريقي إلى منزل آل هادفيلد. لقد أصيب إدوارد كوبر الصغير بحرارةٍ مرتفعة جرّاء الحمى، وعليّ أخذ الشراب له». رجعتُ ماشيةً معها، مضطربةً من سماع هذه الأخبار. رغم كبر سنّها الذي وشى به شعرها الفضيّ المتسلّل من غطاء رأسها القاتم، إلّا أن ميم لا تزال تتنقّل بحيوية بقامةٍ منتصبةٍ ورشيقة كعود الذرة الأخضر كما لو أنها امرأةٌ شابة. أسرعنا نحو مسكن هادفيلد وكان عليّ أن أوسع خطوي كي أجاريها. عند وصولنا إلى الكوخ صادفنا حصاناً مرقّعاً غريباً مقيداً بحوض السقاية. لاقتنا ماري أمام الباب وقد بان الارتباك والقلق على محياها، كان الموقف محرجاً. «شكراً لكِ... شكراً جزيلاً لمجيئكِ يا ميم، ولكن السيد هادفيلد أرسل لـبيكويل في طلب الحلّاق الجراح، وهو الآن مع إدوارد. أمتنُّ لحكمتك وقدرتك على العلاج في هذه المسائل، لكن السيد هادفيلد أبدى رفضه البقاء مكتوف الأيدي، خاصةً أن والد إدوارد –رحمه الله– ترك له ما يكفي من المال لتدبّر النفقات».

ردّت ميم بوجهٍ متجهّم، فلم تكن وجهة نظرها عن الحلاقين الجرّاحين أفضل حالاً من رأيهم بنساءٍ ماكراتٍ أمثالها، ورغم أن ميم قدمتِ العون لنا على قدر استطاعتها لقاء بنسٍ واحد، أو أجرٍ يتناسب مع حال كلٍّ منا، لكن الحلاقين الجراحين لا يقومون بأيّ حركةٍ ما لم يسمعوا خشخشة النقود داخل جيوبهم. انسحبت ميم ببرودٍ مبتعدة، لكنني كنت فضولية، فبقيت حتى أشارت إليّ ماري باللّحاق بها. طلب الحلاق الجرّاح جلب الطفل إلى الطابق السفلي، وأرجّح أنه لا يودّ التنازل والصعود إلى الغرفة العلوية المليئة بالفوضى. كان السيد هادفيلد قد نظّف طاولة الخياطة ووضع إدوارد الصغير مكشوفاً فوقها. في البداية لم أستطع مشاهدة الطفل المحجوب بقامة الجرّاح الضخم الواقف في وجهي، لكنه عندما تنحّى جانباً ليحضر حقيبته، جفلتُ لرؤية الصغير المسكين مغطًى بعلقاتٍ ملتوية، أجزاؤها الماصة مغروزةٌ بذراعيه الناعمتين وعنقه، أما أقسامها السفلية المخاطية فكانت تنتفض وترتعش أثناء امتصاصها لدمه. فكّرت أنه من حسن الحظّ أن إدوارد قد ذهب بعيداً بهذيانه المحموم كي لا يدرك ما الذي يحيق به. تقطّب وجه ماري بالعبوس والغمّ وهي تمسك ذراعي الطفل الضعيفتين،

بينما وقف السيد هادفيلد بجانب الجرّاح ممسكاً حقيبته ليزوّده بالأدوات مطيعاً لكلّ كلماته وإيماءاته.

قال الحلاق الجرّاح للسيد هادفيلد الذي كان يمسك أكتاف إدوارد: «إنه طفلٌ صغير، لذلك لا نستطيع سحب الكثير كي نحافظ على نسبة السوائل في جسده». بعد مضي ما وجده كافياً من الوقت طلب خلّاً، ثمّ وضعه على الكائنات المحتقنة التي انتفضت بقوةٍ أكبر مرخيةً فكوكها، كما لو أنها تسعى للهروب من مصدر الإزعاج. ثم بشدٍّ متعاقبٍ بارع قام بسحبها ليتدفق النجيع، أوقف النزف بعد ذلك مستخدماً القصاصات الكتانية التي زوّده السيد هادفيلد بها. غسل كلّ علقةٍ بكوب ماء، ثم أسقطها حيةً تتلوى بحلقاتها داخل جعبةٍ جلدية. «إذا لم يتحسن الطفل مع حلول اللّيل، عليكم منعه عن الطعام ودفعه للتبرز. سأعطيكم وصفةً كنقيعٍ يساعد على تليين الأمعاء».

لملم الرجل أغراض حقيبته بينما شكرته ماري وزوجها بحرارة. تبعته إلى الطريق حتى تأكدت أنه لم يعد بإمكانهما سماعنا، فتجرأت واستفسرت عن أمر كان يؤرقني: «لو سمحت يا سيدي... هل يمكن أن يكون المسبب لحمى الطفل إصابته بالطاعون؟».

لوّح الرجل بقفاز يده نافياً دون أن يكلّف نفسه الالتفات نحوي مجيباً: «لا مجال لذلك، بفضل الله لم نعهد الطاعون في هذه السنوات، ولا يبدو على جسد الطفل أيّاً من أعراض الطاعون. إنها حمى التعفن[1] فقط، وسينجو لو اتبع أهله تعليماتي».

كان يضع رجله في مهماز الحصان بصبرٍ نافد ليرحل، ثم أصدر السّرج الجلديّ صريراً عندما ركبه بمؤخرته الثقيلة فصحت: «ولكن يا سيدي...» تابعتُ غير مصدقةٍ للوقاحة التي أبديتها: «إذا لم نشهد وباء الطاعون منذ عشرين عاماً هنا، فعلى الأرجح أنك لم تعاين أيّ حالةٍ غزاها، لتحكم على وضع الطفل بشكلٍ صحيح».

1- حمى التعفن (Putrid Fever): تسميةٌ أُطلقت سابقاً على أيّ نوعٍ من الحمى تُعزى إلى التعفن أو التقيّح، أو مصحوبةً برائحةٍ آسنة. عُرفت فيما بعد بالحمى النمشية أو التيفوئيد.

«امرأةٌ جاهلة» ردّد دافعاً حصانه دون اكتراث، ملوّثاً ثوبي برذاذ الوحل المتطاير من بقايا المطر. «هل تقصدين أنني لا أتقن مهنتي؟!» صاح ضارباً المهماز مبتعداً بحيث لم أستطع اللّحاق به أو القبض على لجام الحصان، فصرخت: «أليست الدمامل المتقيحة على الرقبة والحلقات الوردية على الجسد بعلامات للطاعون؟».

كبح خيله فجأةً في وجهي لأول مـرّةٍ مستفسراً: «أين رأيـتِ هذه العلامات؟»

أجبته: «على جسد نزيلي الذي دُفن قبل أسبوعين».

«وأنتِ... هل تقيمين بالقرب من آل هادفيلد؟».

«في المنزل المجاور لدارهم».

عندها رسم إشارة الصليب على نفسه قائلاً: «إذن ليحفظك الله ويحفظ هذه البلدة. أخبري جيرانكِ ألّا يدعونني أبداً». مضى متّجهاً أسفل الطريق، وكاد حصانه أن يصطدم أثناء عدوه بعربة التين الخاصة بـ سيث ميلر إلّا أنه انعطف بزاويةٍ حادةٍ بقوة متفادياً حانة سواعد عمال المناجم[1].

توفي إدوارد كوبر الصغير قبل مغيب الشمس، ثم مرض شقيقه جوناثان في اليوم التالي، تلاهما ألكسندر هادفيلد بعد يومين، لتصبح ماري هادفيلد في نهاية الأسبوع أرملةً للمرّة الثانية في حياتها. رقد ولداها في فناء الكنيسة بجانب والدهم المتوفى. لم أحضر الدفن وقتها لأنني كنتُ في حدادٍ جرّاء ما ألمّ بي.

يرحل الصغار بلطفٍ ومن دون شكوى. يمضون بعض الوقت معنا ما يجعلهم يتمسكون بالحياة بهشاشةٍ مفرطة. لطالما تساءلتُ عن السبب، هل هو كامنٌ في ذكرياتهم الخاصة بالسماء والتي ما زالت حيّةً داخلهم! ألهذا لا يخشون الموت فيغادرون الحياة بسلاسة، كما لا نفعل نحن الذين فقدنا

1- حانة سواعد عمال المناجم (Miner's Arms) حانةٌ عتيقة ذات جدرانٍ حجريةٍ سميكة وعوارض منخفضة. شهدت هذه الحانة الرائعة التي تعود إلى القرن السادس عشر أطواراً عدة عبر التاريخ، فتارةً كانت محكمة ومكاناً للتحقيقات، لتصبح بعد ذلك مخبأً للمهرّبين ومنزلاً ذا سمعةٍ سيئة. من المفترض كذلك أن رهباناً ومهرّبين تردّدوا على النفق السريّ أسفل الحانة في العصور القديمة.

يقيننا بالأمكنة التي تمضي أرواحنا إليها. لا بدّ أنها رحمةٌ يهبها الرّب لهم ولنا، حين ينعم علينا بالكثير من الأطفال الصغار ليقيموا فتراتٍ قصيرةً بيننا.

ارتفعت حرارة توم فجأةً أثناء تواجدي في بيت القسيس. لترسل جين مارتن في طلبي على الفور وتصطحب جيمي معها إلى منزل والدتها كي أستطيع تركيز جهودي وأفكاري على توم. في الحقيقة أشعر بامتنانٍ كبيرٍ لما فعلته. بكى لبرهةٍ بعد فشله في الرضاعة، ثم رقد بين ذراعيّ محدّقاً إليّ بعينيه الواسعتين متنهّداً بين الحين والآخر. مضى بعد ذلك بنظراته غير الثابتة إلى مكانٍ بعيد ليغلق مقلتيه في النهاية ببساطة مطلقاً زفيراً طويلاً. جلستُ قرب الموقد حاملةً إياه، متأملةً بالوقت الذي فاتني مذ نما جسده الصغير... متى كبر متجاوزاً مرفق ساعدي، منسلّاً بأطرافه خارج محيطهما؟ خاطبته هامسةً: «ستكون قريباً برفقة والدك... لا يزال قادراً على احتضانك بهذه الطريقة حيث سترقد بسلامٍ بين ذراعيه القويتين». زارتني صديقتي ليب هانكوك ومعها جبنٌ طازج عزفتُ عن تناوله، همستْ بكلماتٍ معزّية جالتْ كالهراء في رأسي. بينما جاءت زوجة أبي أفرا في فترة ما بعد الظهيرة لتقوم بواجبها، ما زلتُ أتذكّر كلماتها التي أحرقتني...

«آنا... هل أنتِ بلهاء؟».

حدّقتُ بذهول مشيحةً نظري عن وجه توم الصغير لأول مرّةٍ في ذلك اليوم. رنوت عبر دموعي إلى ملامحها المتجعّدة اللّوّامة، وعرفت أن قولها كان تعبيراً عن السخط والغضب.

«لماذا تتركين نفسك متعلقةً برضيعٍ على هذا النحو؟ لقد حذّرتك... أليس كذلك؟... قوّي قلبك تجاه ما يحدث». لعلّها كانت محقّة، فقد شهدت أفرا وفاة ثلاثةٍ من أطفالها قبل إتمام عامهم الأول... قضى الأول بالحمى، والثاني بالإسهال، والآخر -وهو صبيٌّ مفعمٌ بالحيوية- توقّف عن التنفس في فراشه دون ظهور أية عوارض مرضية عليه. لقد وقفتُ إلى جانبها خلال تلك الوفيات، متعجّبةً من عينيها اللّتين لم تدمعا.

«من الحماقة وسوء الحظ أن نتعلّق بطفلٍ ما لم يمشِ وينمو، كما ترين الآن، تماماً كما ترين».

حاولتْ تخفيف نبرة التوبيخ في صوتها حين لمحت الدموع تملأ عيني. مدّتْ يدها وربّتت على كتفي، فسحبته منتفضةً وقلتُ لها: «جعل الرّب قلبك قاسياً يا خالتي، وقد تشكرينه على ذلك؛ لكنه لم يعطف عليّ بمثل هذه النعمة، فأنا أحببت توم منذ اللّحظة الأولى التي ولدته بها ولمست رأسه المغطى بالدماء والسوائل».

بكيتُ بعدها ولم أستطع متابعة الحديث، لكني رغم ما قلته كنت أعرف أن مخاوفي من فقدانه سارت جنباً إلى جنب مع حبي لكل لحظةٍ من الزمن القصير الذي عاشه معي. أعطتني أفرا بعد ذلك حجر العرافة متمتمةً ببعض الكلمات الغريبة عليه، ثم قالت: «عليكِ أن تعلّقيه فوقه كي يُبعد الأرواح الشريرة عن روحه». أخذتُ الحجر منها وتركته بيدي حتى غادرتِ الكوخ، ثم رميته في الموقد.

تناهى إلى مسامعي بعد برهةٍ خطو أقدامٍ في الفناء، شتمتُ في سرّي، إذ كنت أعرف في داخلي أن الوقت المتبقي لأقضيه مع توم يسارع بالنفاد، ولم أرغب بمشاركته مع أحد. لكنّ قرع الباب اللّطيف والتحية الهادئة التي سمعتها وشت عن إلينور مومبليون. دعوتها للدخول، وبخطواتٍ قليلةٍ ناعمة كانت تجثو بقربنا لتعانقنا بذراعيها. لم تلمني على بكائي بل شاركتني الحزن، ما هدّأ من نحيبي واهتياجي. وضعتْ بعد ذلك كرسياً قرب النافذة وقرأت لي بعضاً من كلمات الرّب عن محبة الأطفال الصغار[1] حتى أصبح النور خافتاً تماماً. أصغيت إليها كطفلٍ رضيعٍ يسمع تهويدة. لم أفهم المعنى تماماً[2]، لكنني شعرتُ بالسكينة المتسلّلة من صوتها. أعتقد أنها كانت تنوي البقاء اللّيل كلّه ما لم أخبرها أنني سأقلّ توم إلى سريري.

رنّمتُ له وأنا أصعد الدرج وأمدّده على الفراش، حيث رقد كما وضعته تماماً بيديه المبسوطتين بالكامل. اضطجعت بجانبه واحتضنته. أوهمت

1- إشارة إلى ما قاله السيد المسيح عن الأطفال في الإنجيل المقدس، كقوله: «دعوا الأطفال الصغار يأتون إليّ، ولا تمنعوهم أبداً، إن لمثل هؤلاء ملكوت السماء. إن لم تقبلوا ملكوت الله كالأطفال الصغار لن تدخلوه أبداً».

2- كانت الكتب المقدسة تُقرأ باللغة اللاتينية فقط، حيث لم تتخلّ الكنيسة عن لغتها الرسمية حتى أواخر العصور الوسطى المتأخرة والفترة الحديثة المبكرة.

نفسي أنه سيستيقظ في ساعةٍ متأخرة بصراخه القوي المعتاد طلباً للحليب. لوهلةٍ سمعت قلبه الصغير ينبض بسرعة؛ لكن مع حلول منتصف اللّيل أصبح النبض متقطّعاً وضعيفاً، ليرتعش ويتلاشى في النهاية. أخبرته كم أحببته وأنني لن أنساه أبداً، طوّقت طفلي الميت بجسدي وبكيت بحرقة، لأغفو للمرّة الأخيرة محتضنة إيّاه بين ذراعي.

تدفّق الضوء عبر النافذة فاستيقظتُ مع رطوبةٍ غريبةٍ في الفراش، وسرعان ما صدح المكان بعويلي... يا للهول فقد رشح جسد توم الغض دماءً حيّةً من حلقه وأحشائه ملطِّخاً ثوبي حيث احتضنه. رفعته عن الفراش المطلي بالدم وهرعت إلى الشارع. كان جيراني واقفين هناك بوجوههم المعتمرة بالحزن والخوف شاخصين نحوي... اغرورقت أعين بعضهم بالدموع، بينما دوّى صوت نحيبي.

-5-

علامة السّاحرة

لطالما أصغيتُ في طفولتي لحكاياتِ والدي عن مرحلة صباه التي أمضاها في تعلّم الملاحة. قصصٌ مترعةٌ بالجَلد بالسياط والإغراق بالماء المالح، سردها كلّما أسأنا التصرف بهدف إخافتنا لتحسين سلوكنا. روى مرّةً عن رجلٍ جُلد ثم حُلّ وثاقه ليُغمر بعدها في برميلٍ طافحٍ بمياه البحر اللّاذعة. أوضح حينها أن الجَلد أقسى أصناف التعذيب الوحشيّ الذي اتبعه البحّارة، لأنّ السّوط يضرب المرة تلو الأخرى بذات الموضع حتى يسلخ الجلد تاركاً جروحاً طوليّة. في الحالات الأكثر ألماً -بحسب زعمه- كانت ضربات السّياط تتركز على عضلةٍ بعينها حتى تتكشّف عنها العظام.

غدا الطاعون متوحّشاً بالطريقة ذاتها. يضرِبُ المرة تلو الأخرى، بوجعٍ فوق الوجع، وقبل أن تنعى شخصاً تحبّه يُصيب شخصاً آخر بين يديك. كان جيمي يبكي أخاه بحرقةٍ حين استحالت دموعه إلى نشيج المرض المحموم، مع ذلك تعلّق صغيري المرح بحياته مصارعاً بشدّةٍ للتشبث بها. أفضلُ ما أتذكّره عن تلك الأيّام واللّيالي القاتمة العونَ الذي تقدّمتْ به إلينور مومبليون إلى جانب صوتها العذب.

«عليّ إخباركِ يا آنا أن السيد مايكل يشكّ بوباء الطاعون منذ لحظة زيارته للسيد فيغارز خلال مرضه. تعرفين أنه كان في الآونة الأخيرة طالباً في جامعة كامبريدج، لذا راسل أصدقاءه على الفور يسألهم، مستفسراً من الأطباء الكبار المدرّسين هناك بهدف إعلامه بآخر الإجراءات الوقائية والعلاجية، وقد جئتكِ ببعض الردود». أخرجتِ الرسالة من جيبها متمعّنةً

بها، بينما ترصدتُها من فوق كتفها محاولةً الفهم قدر استطاعتي، بدتِ الكتابة أنيقةً جدّاً إلّا أن معرفتي المتواضعة بخط اليد صعّبَ عليّ قراءتها. «إن الكاتب صديقٌ عزيز للسيد مومبليون، لذلك كما ترين يطيل بعبارات التحية آملاً بأن يكون السيد مومبليون مخطئاً فيما يتعلق بشكوكه حول طبيعة المرض الذي ظهر بيننا؛ لكن ها هو يصل أخيراً إلى بيت القصيد، موضحاً أن الأطباء يعلّقون آمالاً كبيرة على هذه الطرائق الحديثة في مكافحة الطاعون». هكذا جرت الأمور، بثقةٍ كبيرة ونوايا طيبة، ليعاني طفلي المسكين الأمرّين من بعض العلاجات، التي ما كانت في النهاية سوى تمديدٍ لفترة آلامه.

حين أُصيب السيد فيغارز بالمرض تقرّحت دملة الطاعون قرب عنقه، بينما تنامتْ بالمقابل كتلةٌ تحت إبط جيمي متسببةً بآلامٍ مبرحة أبكته طويلاً، ودفعته لإبعاد ذراعه النحيلة عن جانبه كي لا يؤذي نفسه بالضغط عليها. جرّبتُ وصفةً مكوّنةً من الملح البحري مع دقيق الشعير المعجونين بصفار البيض، ثم ضمّدتُ الدملة مستخدمةً قطعةً من الجلد الناعم؛ لكن الورم المتكتّل كجوزة تضخّم لحجم بيضة إوز دون أن ينفجر. كتب لنا صديق السيد مومبليون عن علاجٍ من كلية الطب، وبمساعدة السيدة مومبليون قمتُ بتحضيره. وجب شيّ حبات البصل الكبيرة في الجمر وتجويفها وحشيها بالتين والسذّاب المقطّع مع درهمٍ من العسل الأسود. ولحسن حظنا -كما اعتقدتُ حينها- وجدتُ لدى ميم غاودي التين المجفّف إضافةً للعسل الأسود الذي كانت تحضّره من خلط العسل مع مكوناتٍ نادرة تجعله ممدّداً ومتماسكاً.

لم يكن من السهل وضع البصل المشوي المحشو على اللّحم المتورّم، ما جعل طفلي يصرخ وينتفض ويرشح عرقاً من شدّة الألم. أصعبُ ما في الدنيا أن تتسبب بالوجع لطفلك، حتى لو ظننتَ أن ما تفعله من أجل خلاصه. نحبتُ وأنا أضغط تلك الضمادات البغيضة، ثم حملته وهززته لأخفّف عنه قدر استطاعتي، محاولةً صرف انتباهه بكلّ الأغاني والقصص التي أحبَّها، وبقدر ما تمكّن تفكيري المحطم أن يستحضر ويخترع.

همستُ له في الساعات الأولى من اللّيل شاعرةً بالحاجة الشديدة لكسر

صمت الظلام المدقع بدفقٍ مستمرٍ من اللّغو: «منذ زمنٍ بعيدٍ جدّاً كان هناك صبيٌّ صغيرٌ صالحٌ لكنه مسكينٌ أيضاً، عاش طوال حياته في غرفةٍ مظلمة حيث وجب عليه أن يعمل بكدٍّ وجهد كادحاً طوال النهار واللّيل حتى أمسى منهكاً بالكامل. كان لتلك الغرفة بابٌ وحيد لم يجتزه الصبيُّ مطلقاً، ولم يدرك ما يخفى خلفه. ولأنه لم يكن يعرف خشي ما يخبئه ذلك الباب، تاق في الوقت نفسه إلى رؤية العالم خارج الظلمة، لكنه لم يتجرّأ على رفع يده وتحريك المقبض وتحقيق مراده. في يومٍ مشرق ظهر ملاكٌ للصبيّ الصغير ثم خاطبه: ها قد حان الوقت، فقد أبليت حسناً وأنجزت عملك بشكلٍ رائع. يمكنك الآن أن تدعه جانباً وتأتي معي... ثم فتح الملاك الباب ليعاين الطفل أجمل حديقةٍ مشرقة شاهدها على الإطلاق. رأى أطفالاً يمرحون ويلعبون فيها، أخذوا الصبيَّ الصغير من يده وعرّفوه على أعاجيب عالمه الجديد. عاش وابتهج في حديقة النور تلك إلى الأبد، ولم يؤذه شيءٌ بعد ذلك على الإطلاق».

رمش بجفونه ومنحني ابتسامةً شاحبة، فقبّلته وخاطبته هامسةً: «لا تجزعْ يا عزيزي، لا تخفْ».

في الصباح، أحضرتْ إنيس غاودي شراباً أخبرتني أنها استخلصته من أزرار البابونج مع بعض الشيح في خلطةٍ محلّاة. وضعتْ يدها بلطفٍ على جيمي قبل أن تقدم له الجرعة - كما اعتادت عمتها أن تفعل حين تجب الدواء، ثم دمدمت بهدوء: «فلتوجّه الجهات السبع هذا الدواء بفعالية، ليكن هذا إرضاءً لجداتي القدامى، ولتكن المشيئة»[1]. جلبتْ معها مرهماً مبرّداً معطّراً بالنعناع، أخبرتني أنها ستضعه على جسد طفلي لتخفيف الحمى؛ ثم جلستْ على الأرض بظهرٍ أسندته إلى الجدار، طوت ساقيها ممدةً جسده الصغير فوق فخذيها، حيث استقر رأسه على ركبتيها وقدماه عند وركيها. دلّكت جسمه برقةٍ وانتظام، ومسّدت جانبيه بلمساتٍ طولية حتى أسفل أطرافه؛ ثم شدتْ بأنغام أغنيةٍ هادئة: «أتى ملاكان من الشرق، أحدهما جلب

1 «لتكن المشيئة» أو «وهذا ما يجب أن يكون»، وهي ترجمة لعبارة «So mote it be» التي كان الماسونيون يختمون بها صلواتهم الطقسية بحسب أقدم الوثائق الماسونية في إنجلترا، وهي موازية لعبارة «آمين» في الطقس المسيحي.

النار، والآخر أتى بالصقيع، وقفتْ بين النار والصقيع جميع أطياف الأمهات الشفيقات». اضطرب جيمي ونشج، لكنه استكان مع أغنيتها مثبتاً عينيه بعينيها بنظرةٍ مترصّدة، وظلّ هادئاً تحت لمساتها.

بقيت إنيس تدلّك جيمي وتدندن له حتى نام بوداعة، حين رفعته عن حضنها وأرقدته في الفراش كان اللّون الشاحب والحرارة العالية قد تلاشيا عن جلده. شكرتها من أعماق قلبي على ما بذلته كي تجلب الارتياح له. إلّا أن إنيس –الجلفة على الدوام والمتجاهلة لشكري أو مديحي– بدتْ لطيفةً على غير عادتها في ذلك الصباح، أمسكتْ بيدي الممدودة نحوها وقالت: «أنتِ أمٌّ صالحة يا آنا فريث»، ثم أردفتْ مظهرةً كلَّ تقديرٍ واحترام: «لن تظلّ يداكِ فارغتين إلى الأبد، تذكّري ذلك كلّما تراءتِ الطريقَ قاتمةً أمامكِ».

عرفتْ إنيس جيداً أن علاجها سيجلب الراحة لولدي لكن لفترةٍ وجيزة. إذ مع مرور الوقت، ساعةً تلو الأخرى ارتفعتِ الحمى بعد ظهر ذلك اليوم حين تلاشت آثار العلاج والمرهم، وبدأ جيمي بالهذيان.

«أمي إن توم يناديكِ» تمتم على عجلٍ بصوته الغضّ المتصدّع، رافعاً ذراعيه المرتجفتين كما لو أنه يطلب العونَ مني.

«أنا هنا يا عزيزي، قل لتوم إنّي هنا» حاولتُ إخفاء دموعي وحشرجة صوتي، لكن ثدييّ المحتقنين شرعا مع ذكر توم بنزّ الحليب حتى تبرقعت حمالة صدري مسرّبةً بقعاً داكنة.

أحضرتْ إلينور مومبليون حقيبةً حريريةً صغيرةً لجيمي ملفوفةً بشريطٍ ناعم، أوضحت: «إنها تحوي مسكناً للآلام، أرسلها أحد معارف القسيس في كامبريدج، وقد أوصى بتعليقها فوق عنق الطفل المتألم، لتكون على صدره قريبةً من القلب، كما ترين».

سألتها مستبشرةً الخير: «ولكن ما الذي في داخلها؟».

«آه، حسناً، لقد استفسرتُ عن المحتويات ولم أقتنع بالفائدة الجمّة التي يمكن أن تحدثها... لكن الرجل الذي أرسلها طبيبٌ مرموق أكد أنه علاجٌ تم التفكير فيه مليّاً من قبل أطباء فلورنسا الذين لديهم خبرةٌ طويلة مع مرض الطاعون».

سألتها مجدّداً: «لكن ما الذي تحويه؟».

أجابت: «إنها تحوي ضفدعاً مجفّفاً»[1].

بكيت رغم معرفتي بنواياها الطيبة، لكنني لم أستطع تمالك نفسي.

جلبت السيدة مومبليون الطعام الذي لم أقدر على تناول شيء منه. جلستْ بجانبي ممسكةً يدي هامسةً بكلماتٍ ظنّاً منها أنني أحتمل سماعها، لكنني أدركتُ لاحقاً أن أفكاري المنصبّةَ على شجوني أصابتني بالصمم. إذ غادرت إلينور بعد ساعاتٍ قضتها بجانبي قاصدةً جارتي ماري هادفيلد لتواسيها في والدتها التي أصابتها عدوى المرض أثناء زيارتها لابنتها لتخفيف مصابها الكبير؛ ستعبر الطريق بعد ذلك متجهةً نحو عائلة سيدل التي أُصيب منها ثلاثة أشخاص، ومن هناك إلى آل هوكسورث، حيث مرضت جين الحامل إلى جانب زوجها أيضاً.

عانى جيمي لخمسة أيّامٍ لاحقة قبل أن تحين ساعته أخيراً ويفتقده الرّب. تفتّحتْ حلقاتٌ غريبة في جسده في يوم وفاته... بدت في البداية قرمزيةً فاقعة تحت الطبقة العليا من جلده، وبعد ساعاتٍ تحوّل لونها بنفسجيّاً ثم اصطبغت بالأرجواني القاتم، تصلّبت بعد ذلك وبدأت بالتقشّر. بدا أن جسده مات من الداخل لكنه ما زال يتنفس، وسرعان ما اندفع لحمه المتعفّن متقرّحاً خارج جسمه المتهالك. أتى السيد مومبليون برفقة زوجته مع أخبار ظهور العلامات الجديدة للطاعون، فوجدا جيمي ممدّداً على فراشٍ قرب الموقد. أشعلتُ بعض النيران تجنّباً لبرد المساء، ثم جثوتُ عند مقدمة الفراش أوسّد رأس طفلي في حضني ماسحةً جبينه. ركع القسيس على الأرضية الحجرية الصلبة وشرع بالصلاة. انسحبتْ زوجته عن الكرسي بهدوء وجثت بجانبه. سمعتُ تضرعه كما لو أن كلماته آتيةٌ من بعيد:

«أيّها الإله القدير، يا أبانا الرحيم... أنصتْ لصوت تضرعنا... وانظر بعين رأفتك إلى بؤس شعبك... ها نحن ذا نناديك طالبين رحمتك، أبقِ

1- كان يعتبر تعليق ضفدعٍ مجفّف حول عنق المريض بالطاعون في تلك العصور ضرباً من أنواع العلاج، إذ ساد اعتقادٌ بأن للضفدع ككائن سام حتى في موته، قدرةٌ على سحب الأبخرة الضارة من صدر المريض إلى جسده المجفّف.

ذراعيك مفتوحةً ولا تطلق سهم الهلاك على هذا الصغير، أعذْ ملاك الموت من حيث أتى، واحمِ هذا الطفل من قبضة الطاعون الرهيب الذي يفتك بنا».

ألقت نيران الموقد وهجها الدافئ فوق رأسي الزوجين المتجاورين الراكعين المنحنيين في جوٍّ مظلمٍ مهيب. رفعت السيدة مومبليون عينيها حين أنهى القسيس صلاته ونظرتْ نحوي. هززتُ رأسي والدموع تذرف بغزارةٍ من مقلتي، معلنةً أن صلاة زوجها لم تجدِ نفعاً.

لا يمكنني التحدث عن الأيّام الفظيعة التالية التي بدأت بشجارٍ مع القندلفت حين جاء لأخذ جثمان جيمي، حين بكيتُ باهتياج محاولةً تمزيق الكتّان الذي كفّنه به، خشية أن يختنق داخله. أذكر أنني ذهبت إلى فناء الكنيسة لمراتٍ عدة، زرتُ جيمي الراقد بقبره إلى جانب توم، كما شاهدت قبور والدة هادفيلد وثلاثة من أبناء سيدل وجين زوجة هوكسورث، وبعد فترة قبر رضيعها المولود حديثاً، والذي توفي بعد ولادته بيوم. وقفت بجوار ليب هانكوك خلال دفن زوجها وكلتانا تعانق الأخرى غارقتين في حزننا. لكن لا يسعني تذكّر ما قيل في الكنيسة أو عند المدفن باستثناء سطرٍ واحد: «في خضم الحياة نقيم نحن في الموت»، هذا ما بدا حقّاً الوصف الكامل لمحنتنا آنذاك.

بعد يومٍ أو يومين وجدت سبيلاً للمضيّ مجدّداً إلى العمل، بيدين لم تخطّا شيئاً مما أنجزتاه في ذاكرتي، رغم مرور الأيام والليّالي على مدار أسبوعين. بدا الأمر كما لو أن ضباباً كثيفاً هبط فوقي وأحاط كلّ شيءٍ من حولي، كنتُ أتلمّس طريقي من عملٍ إلى آخر دون إبصار الأمكنة بوضوح؛ لأسارع في حال انتهائي من واجباتي إلى فناء الكنيسة كي أمضي جلّ نهاري هناك. ليس عند لحدي طفليّ كما قد تعتقدون، إذ لم يعد بوسعي المجيء إلى مرقد الموتى الذين أحببتهم، بل اخترتُ المكوث في ركنٍ هادئ خلف الكنيسة، حيث تتوزع ناصيات قبورٍ قديمةٍ فوق أرضٍ وعرةٍ محفورة ارتفعت وتهاوت في سفوح التلال المعشوشبة، بينما تناثرت الزهور البريّة مشرقةً وفيرةً بين شواهد القبور المحتوتة التي بالكاد يمكن قراءة أسماء قاطنيها. كان بوسعي السُّكنى في ذلك المكان الموشّح بفقدان ومعاناة أناسٍ لا أعرفهم ولا أشاركهم آلامهم... هناك حيث لا تبلغ مسامعي ضربات رفش

القندلفت، ولا أرى أفواج القبور الجديدة الفاغرة فاهها لاستقبال جثمانٍ جديدٍ لأحد الجيران.

هناك بين القبور العتيقة انتصب صليبٌ عظيمٌ نُحت بمهارةٍ بالوسائل الغابرة لأولئك الراحلين عبر التلال بعيداً في الذاكرة. يقولون إنهم جلبوه إلى هنا عبر المسار الوحيد المحاذي لقمة وايت بيك، ليرتسم الآن مرتفعاً كزائرٍ غريبٍ مهموم فوق تضاريس الأرض التي سويناها. كنت أتكئ مقابل الصليب مسندةً جبهتي على رخامه الخشن بفعل تعرية الرياح، مستحضرة آياتٍ للصلاة سرعان ما قاطعتْها أفكاري المشوشة فتلاشت معظم عباراتها: «*ها أَنَذَا أَمَةُ الرَّبِ...*» لماذا لا أزال عصيّة على الموت، حيّة بين عداد الموتى؟... لقد مات زوجي ولم أمت، توفي نزيلي وما زلت على قيد الحياة، رحل جيراني بدوني، طفلاي... حبيباي... نور عينيّ!.. ضغطتُ بوجهي على الحجر متنسّمةً عبق الطحالب الندي المنعش. «*لِيَكُنْ لي بحسب قولك*»[1]. تلمّستُ بأصابعي الانحناءات المتقوّسة المحفورة على كلا الجانبين متخيّلةً الأيدي الماهرة التي نحتتها، متمنيةً الحديث مع ذلك النحّات الماهر الذي صنعه منذ زمنٍ بعيد، وددت الاستفسار عن أفراد شعبه، كيف واجهوا المحن التي اختبرهم الرّب بها في ذلك الحين. ملائكةٌ نُحتت على الصليب ومخلوقاتٌ غريبة لم أميّز طبيعتها. أخبرتني السيدة مومبليون مرةً أن الصليب حُمل في الفترة التي كانت فيها العقيدة المسيحية حديثة العهد في بريطانيا، حين كان عليها تحدّي عبادة الأوثان الحجرية والذبائح الدموية. تساءلتُ فيما لو عاش النحّات صراعاً فكريّاً للتغلب على بقايا النُّصب الحجرية الأقدم... هل نحت هذا الصليب بدافع الإيمان الصلب الراسخ آنذاك؟ أم تلبيةً لمشيئة الرّب بعيداً عن الحب والخوف اللّذيْن تأمر بهما الكتب المقدسة، أليسَ هذا الصليب رمزاً لفيضٍ معاناتنا السرمدي؟... «*لِيَكُنْ لي بحسب قولك*». لمَ على الكلمات الإلهية أن تصدح قاسيةً على الدوام؟

1- العبارات المذكورة في هذا المقطع جواب مريم العذراء للملاك جبرائيل عندما بشّرها بأنها ستلد السيد المسيح بحسب (إنجيل لوقا 1: 38). أصبح هذا النص جزءاً من طقس صلوات العديد من الطوائف المسيحية فيما بعد.

أعتقد أنني استسلمت كليّاً للحزن والاضطراب، كما لو كنت حملاً تاه عن القطيع في الأراضي البور. أسابيع ثلاثة مرّت بعد وفاة جيمي قبل أن أدرك أنني أهملتُ قطيع الخراف، بل ونسيت رعايتها منذ أمدٍ طويل، حتى إن بعضها خرج بحثاً عن كلأ أفضل. تلبّدت السماء بغيومٍ رمادية بعد ظهر ذلك اليوم، ثم هبّ الهواء لاسعاً حاملاً ندف الثلج المبكر. بدا الخطو مهمة شاقة تفوق استطاعتي، لكن ليس أمامي سوى المضيّ بحثاً عن أغنامي. تتبّعتُ ما أملت أن يكون أثر بعرها على طول الوادي الضيّق عند حافة المروج، متضرعةً أن أجدها وأُعيدها بأمان قبل حلول الظلام، حين تناهى إلى مسامعي صراخٍ مروع قادم من جهة المنجم، استغاثة عجوزٍ مختلطٍ مع جلبةٍ ما يقارب ستةً أصغر سنّاً.

وجدتُ عشرة أو اثني عشر شخصاً في ما يشبه الحلقة، متدافعين مترنّحين، شاتمين بأصواتهم المرتفعة، كما لو أنهم خرجوا لتوّهم من حانة سواعد عمال المناجم. كانت ليب هانكوك بينهم، تتعثر تحت تأثير الشراب الذي عرفتُ جيداً أنها لم تعتد عليه. مُدّدت ميم غاودي في الوسط على الأرض بذراعيها الهزيلتين المصفّدتين أمامها بحبلٍ مهترئ. كان براد هاميلتون يجثو فوق صدرها، أما ابنته فيث فقبضت على شعر العجوز الفضي المتناثر بيدٍ، بينما تصفع بالأخرى وجنتيها بأغصان الزعرور الشائكة صارخة: «ستحصلين على المزيد من هذا أيتها الساحرة». ناحت ميم محاولةً رفع يديها المقيّدتين إلى وجهها كي تصدّ ضرباتها. «سيغسل دمك الوباء عن جسد والدتي»[1]. لمحتُ جود الفتى الأكبر لعائلة هاميلتون في وسط الحشد حاملاً أمه بكلتا ذراعيه، فاركاً يديها بوجنة ميم المخدوشة النازفة، بينما وقفت فيث مترنّحةً تطلي بدماء العجوز عنق والدتها المصابة بدملة الطاعون المتقرّحة.

سارعتُ بالانزلاق نحوهم عبر الجانب المنحدر من الوادي والحجارة

1- اختبار تبنّاه المجتمع الغربي في العصور الوسطى لإثبات صفة السحر على المتهمين به؛ وهو «الجرح»، حيث تتقدم الضحية إلى الساحرة وتخدشها حتى تنزف منها الدماء. كان يُعتقد أن هؤلاء المصابين بالسحر سوف يشعرون بالارتياح إذا خدشوا الشخص المسؤول عن آلامهم.

تتدحرج بصليلها حولي، فيما انفصلت ماري هادفيلد عن الحشد وطرحت بنفسها قرب ميم المسكينة، اقتربتْ بوجهها من أذن المرأة فاقدةً صوابها من شدّة الغضب ثم صاحت: «لقد قتلتِ عائلتي أيتها العجوز الشمطاء!» تلوّتْ ميم محاولةً الإيماء برأسها بالنفي. «سمعتك تلعنينه لأنه أحضر الطبيب لصغيري إدوارد! سمعتك حين خرجتِ من بيتي!... لقد جلب خبثك الطاعون لزوجي وأمي وأولادي!».

«ماري هادفيلد» صرختُ مجاهدةً ليُسمع صوتي وسط جلبة السكارى. تلفّتتْ بعض الوجوه حين شققت طريقي مستهجنةً لاهثةً بين الحشد: «لم تفعل ميم أيّ شيءٍ من هذا القبيل! لمَ تقولين ذلك؟ كنتُ برفقتها عند عتبة داركم حين زاركم ذلك الطبيب الدجّال، وقد غادرتْ دون أن تنبس ببنت شفة. الأحرى أن تقولي إن الطبيب عجّل في موت إدوارد بأدواته ومطهراته العديمة النفع، بدل شتم هذه الإنسانة الطيّبة!».

«لِمَ تدافعين عنها يا آنا فريث؟ ألا تتفسخ جثتا طفليك تحت التراب بسبب لعنتها؟ ينبغي عليكِ أن تكوني في صفّنا، وإلّا فارحلي إن أردتِ إعاقتنا».

«هيّا فلنغرقها!» صرختْ بصوتٍ مخمور «ولنرَ بعدها إن كانت ساحرةً بالفعل أم لا!».

«أجل هيّا!» صرخ أحدهم، وسرعان ما بدؤوا بسحل جسد ميم التي بدت فاقدةً نصف وعيها تحت وطأة الكدمات. سحبوها نحو مدخل المنجم الذي غمرته مياه الفيضان. مزق الجرُّ ثوبها الرّث المرتوق، كاشفاً عن حلمة ثديها الذابلة وقد استحالت أرجوانيةً لشدّة اللّكمات والخدوش[1]. كان المنجم عميقاً وقد تمكّنتُ من رؤية الحجارة الملساء تنحدر نحو القاع المظلم.

«إن قمتم برميها هناك ستمسون قتلة!» صرختُ محاولةً اعتراض براد

1- في العصور الوسطى ساد اعتقادٌ في الغرب أن الساحرات يضعن حمالات صدر مصنوعةٍ من النحاس، وأنهن يورثن السحر بالرضاعة؛ وأن حلمات أثدائهن تختلف عن شكلها الطبيعي بالضمور، أو أن الساحرات لديهن «حلمة ثالثة» في أجسادهن، كما اعتبروا أيّ نتوءاتٍ جسَديةٍ زائدة علامة سحر؛ لذا، كانوا يبحثون عن العلامة في الجسد ويقومون بخدشها لاختبار إحساس صاحبتها بالألم، فالسحرة وفق اعتقادهم لا يتألمون؛ كانت مثل هذه الأشياء كفيلة بإعدام صاحبتها في حالة إدانتها بالسحر.

هاميلتون الذي بدا الرجل الأكثر عقلانيةً بينهم؛ لكن عندما أمسكتُ ذراعه ذكّرني وجهه المسربل بالحزن والثمل أنه دفن ابنه جون في اليوم نفسه. طرحني جانباً، فتعثّرتُ وتهاويت ليرتطم رأسي بكومةٍ من الأحجار الجيرية؛ حاولتُ النهوض لكن الأرض دارت بي وتحوّل كلّ شيء حولي إلى ظلام.

لا بدّ أنه مرّ عليّ بضع دقائق قبل أن أستعيد وعي ويصل عويلُ ماري هادفيلد إلى مسامعي.

«إنها تغرق! تغرق! لم تكن ساحرة! فليسامحنا الرّب... لقد قتلناها!». أبصرتها تشدّ الرجال واحداً تلو الآخر، محاولةً دفعهم نحو مدخل المنجم. أمسك جود نهاية الحبل المهترئ الموثوق بميم محدّقاً بخيوطه الممزّقة كما لو أنه يبحث عن جواب. جاهدتُ لأقف وحدّقت إلى القاع المعتم، لكنني لم أرَ سوى انعكاس وجهي البائس الملطخ بالدماء على صفحة المياه الراكدة. حين تيقنتُ أن أيّاً منهم لن يقوم بردّة فعل، دفعتهم جانباً وألقيت بقدمي فوق أول دعامةٍ خشبية لحافة المنجم؛ لكن الخشب المتفسّخ تهاوى حين حاولت التوازن عليه وانهار، تعلّقت بأحدهم قبل لحظةٍ من سقوطي في هوة المنجم، ولم أستطع في البداية تمييز من أمسك بذراعي وسحبني إلى الأعلى.

إنها إنيس غاودي، كانت تتنفس الصعداء جرّاء ركضها عبر تلال البلدة، بدا جليّاً أن أحدهم أخبرها بما جرى إذ لمحتُ في حوزتها حبلاً جديداً معقوداً حول خصرها، لم تُضيّع الوقت بالكلام بل سارعت لتعليقه فوق جذع شجرةٍ قديمة وأوثقته برافعة المنجم، ثم انزلقت مباشرةً عبر الظلام الموحل إلى الأسفل. تراجع البقية مبتعدين عنها ثم عادوا منحنين إلى الأمام محدّقين نحوها. ترّنح أحدهم أمامي وبعزمٍ ثقل جسده الثمل أوقعني فوق صخرةٍ صدمت ركبتيّ، دفعتُه بمرفقي بكلّ قواي لأعيده إلى الوراء، ثمّ مسحتُ الدماء عن جفنيّ مجاهدةً لأرى عبر هوة المنجم، وبالكاد استطعتُ تمييز شعر إنيس البرّاق وسط طرطشة المياه الداكنة من حولها، شرعتْ بعدها بالصعود حاملةً جسد عمتها النحيل على ظهرها. لحسن الحظ كانت بعض العوارض الخشبية لا تزال سليمةً بما يكفي لتحمل هذا الوزن، ومع اقترابها من فم المنجم قمتُ مع ماري هادفيلد بإمساك ذراعيها وسحبها إلى الأعلى مسافة الأقدام القليلة المتبقية.

مددتُ بمساعدة ماري جسد ميم على الأرض، ثم ضغطتْ إنيس على صدرها عدة مرّاتٍ حتى خرجتِ المياه الموحلة من فمها، بينما تسمّر المعتدون متفرجين في الدقائق الأولى دون أن يفعلوا شيئاً. لم تكن المرأة العجوز تتنفس، فناحت ماري قائلةً: «لقد ماتت!» ما جعل المجموعة المضطربة تهيج بالصراخ من جديد. دفعتهم إنيس جانباً غير آبهة، ثم جثتْ فوق جسد عمتها، مطبقةً ثغرها على فمها ونفخت فيه. جثمتُ قربها أعدُّ النفخات حتى توقفت إنيس بعد الزفرة الثالثة ليرتفع صدر ميم غاودي من تلقاء نفسه، سعلت وبصقت وتأوّهت فاغرةً عينيها. لم أشعر بالارتياح إلّا للحظة سرعان ما تصدعت بعويل ليب بنبرةٍ جنونيةٍ ناحبة: «إن إنيس غاودي تحيي الموتى! إنها مشعوذة! أمسكوا بها!».

«ليب!» صرختُ مغادرةً ميم بتثاقل ممسكةً صديقتي بكلتا ذراعيها: «لا تكوني مغفّلة! من منا لم يضع فمه على الحمَلِ المولود حديثاً إن لم يتنفس؟».

«أطبقي فملكِ يا آنا فريث!» صاحت ليب هانكوك مقتربةً نحوي مبعدةً يدي بشزرٍ ينبثق من عينيها قبل أن تستطرد: «لقد أخبرتِني بنفسك أن هذه المشعوذة قد عاشرت ابن الشيطان الذي جلب الطاعون إلى هنا! ألم تعرفي أن فيغارز كان ساحراً وليست إنيس سوى وعاءٍ لفيضِ شرّه؟!».

«ليب!» صحتُ بينما أقبض على كتفيها وأهزّها بقوة: «لا تقولي هذا الكلام عن ميّتٍ بريء! ألا تعلمين أن السيد فيغارز المسكين مدفونٌ في قبره تماماً كحال زوجك العزيز؟». حدّقت إنيس بحقد بعينيها الباردتين اللّامعتين.

تعالت صرخاتهم تنعت إنيس بالعاهرة والفاجرة والزانية صادحةً من كلِّ فمٍ ملتوٍ، ثم اندفع الحشد نحو الفتاة الجاثية جوار عمتها واثبين فوقها خادشين بعنفٍ جسدها، بينما تراجعت ماري هادفيلد وحدها بوجهها المنكوب. دفعتُ ليب عن طريقي محاولةً الوصول إلى إنيس مع هبوب رياح الشمال العاصفة المدوّية التي ندعوها كلاب جبرائيل الضارية[1]. صارعتهم

1- كلاب جبرائيل Gabriel's Hounds: معتقدٌ شعبيٌّ قديم أُطلق على صوت الرياح الصماء في بعض دول أوروبا، حيث كان يُعتبر فألَ موتٍ أو محنة.

إنيس بشراسة، وحاولتُ مساعدتها دافعةً الواحد تلو الآخر بغية إبعادهم عنها حتى بدأتُ أشعرُ بالدوار مجدّداً، ثم صرختْ يوريث جوردون:

«لا أرى انعكاس وجهي في عينيها! إنها دلالةٌ على أنها ساحرة! إنها علامة سحر! لقد سحرتْ زوجي لينام معها!»، ثم انبطح جون جوردون فوق إنيس كرجلٍ ممسوس. أمسكتُه بساعده لأبعده عنها، لكن الدماء النازفة من جرح صدغي غطّت وجهي بالكامل بفعل الكدمات التي انهالت فوق رأسي محيلةً كلّ شيء لضوءٍ وظلام، نورٍ وعتمة، لأدرك سريعاً عجزي عن إيقاف هيجانه. «يجب إحضار مومبليون» كانت هذه آخر فكرةٍ راودتني، وحين حاولتُ الركض ضربني أحدهم فسقطت.

تأوّهتُ مجاهدةً للوقوف ثانيةً، لكن قدميّ لم تطاوعاني. أبصرتهم بعد ذلك يعقدون الحبل الذي بحوزة إنيس حول عنقها بغية شنقها عبر تعليقها برافعة المنجم. ثم حدث ما لم أكن أتوقعه، إذ توقفت إنيس غاودي عن مجابهتم منتصبةً بقامتها قدر استطاعتها، رافعةً رأسها العاري من حجابه المنسدل بضفائر منداة كأفاعٍ ذهبيةٍ رهيبة، ثم صدحت بصوتها العميق الغريب عبر شفاهها المتقطّرة بالدماء:

«أجل... إنني رَجسٌ من الشيطان... تذكّروا كلامي... سينتقم الشيطان لروحي!». تراجع الرجال القابضون عليها خطوةً إلى الوراء راسمين إشارة الصليب على أنفسهم، بينما تمتم الآخرون بتعاويذ قديمة لدرء خطر السحر القوي.

صرختُ: «إنيس! لا تقولي أشياء تعلمين أنها محض هراء!».

نظرتْ نحوي حيث كنتُ ممدّدةً على الأرض ومنحتني طيف ابتسامة تناقضت مع الإدانة المرسومة في عينيها، المعاتبة للساني الثرثار الذي ساهم في خيانتها وفضح سرّها، أشاحت بصرها بعد ذلك محدقةً إلى مضطهديها.

احتشدت أشعة الشمس فوق الأفق متدفقةً عبر ثلمٍ ضيقٍ بين الغيوم المكفهرّة، منسكبةً بخيط ضوءٍ وحيدٍ مفاجئ أنار منحدرات التلال، مروراً بكل شجرةٍ وحجر حتى استقر على إنيس، متوهّجاً فوق جسدها لتبدو كما لو أنها تحترق، ساطعاً على عينيها الكهرمانيتين بوميضٍ ذهبي لتغدوا كعيون القطط.

«لقد اضطجعتُ معه... أجل! لقد عاشرت الشيطان. إن عضوه ضخمٌ وباردٌ كملمس الجليد... منيّه باردٌ أيضاً وغزيرٌ كنهرٍ جرى بين أفخاذنا... أجل... فلم أضاجعه وحدي! أبداً! دعوني أعلمكم الآن جميعاً... رأيتُ زوجاتكم يعاشرنه! زوجتك يا براد هاميلتون، وامرأتك يا جون جوردون، وكذلك زوجتك يا مارتن هادفيلد!». صدح عويل النساء وصراخهن بفعل الإهانة التي تلقينها، لكن رجالهن المشدوهين بإنيس لم يلتفتوا نحوهن.

«لقد أبهجنا فعل ذلك، كلّنا معاً وبدون خجل، الواحدة تلو الأخرى ولمراتٍ عدة، كنا نجتمع أحياناً اثنتين أو أكثر في الوقت ذاته، نلعقه متى شاء ونولجه أينما أراد. لا يملك رجلٌ قضيباً بحجمه الهائل. إنه كفحل الخيل بالمقارنة مع الخصيان أمثالكم» عندها ضحكتْ مثبتةً نظرها على الرجال الذين ذكرتهم وقد بدوا جافلين. «أعلمتني كلُّ زوجةٍ من زوجاتكم أنها وصلت لذروة نشوتها بما يفوق متعتها المتواضعة مع أيٍّ منكم!» قهقهتْ مع تفوّهها بعبارتها الأخيرة كما لو أنها عجزت عن ضبط نفسها. حينها ثار الرجال كالثيران وشدّوا الحبل بقوة فلجمها بعنفٍ قاطعاً ضحكتها، أخذت تركلُ بساقيها الطويلتين حين دفعوها نحو هوة المنجم.

رمى جون جوردون الحبل بينما لا تزال إنيس تحرك قدميها على ذلك النحو، حملق بزوجته بوحشية ما دفعها للهرب زاعقةً بهلع، لحقها وبصفعةٍ طرحها أرضاً، أخذ يجرّها من شعرها رافعاً وجهها عن الأرض، ثم بدأ بدحرجتها كصرة طعامٍ صارخاً: «هل هذا صحيح؟» منهالاً عليها باللكمات: «هل نمتِ مع الإبليس؟» وقبل أن تتمكن من الردّ عليه وجّه لكمةً ساحقة إلى وجهها، فتدفقتِ الدماء من أنفها، ثم رفع قبضته ليضربها مجدّداً...

صوتٌ مدوٍّ هدر عبر الوادي، أعظم وأشد من عصف الرياح، إنه مايكل مومبليون: «ما الذي فعلتموه هنا بحقّ الرّب؟».

هبط جون جوردون بذراعه إلى جنبه ملتفتاً إلى القسيس، بينما لم يجرؤ أيٌّ منا على رفع بصره نحوه. كان يحمل مشعلاً في يده أضاء وجهه من الأسفل، فبرقت عيناه شزراً. فكّرتُ -وأنا ممدّدةٌ هناك غارقةٌ في أصفاد العي- أنها الطريقة التي تترصّد بها البومة فريستها قبل لحظةٍ من غرس

مخالبها في لحمها، إذ اندفع على صهوة أنتيروس هابطاً عبر سفحٍ شديد الانحدار لتتطاير الحجارة تحت وقع حوافر حصانه. لمحتُ ماري هادفيلد تتشبث بالسرج خلفه مرتعدةً، فأدركتُ أنها من فطنت لإحضاره إلى هنا. انقضّ بدايةً على براد هاميلتون الأقرب إلى الرافعة، ليسارع الرجل برفع كلتا يديه محاولاً الدفاع عن نفسه، لكن أنتيروس شبّ كجوادِ معركةٍ قاذفاً إيّاه إلى الخلف. أدار القسيس الحصان وترجّل عن صهوته رامياً مشعله ليهسهس داخل الطين. استلّ خنجراً من حزامه متجهاً نحو إنيس، أسندها بإحدى ذراعيه قاطعاً الحبل بالأخرى. بات يصعب التعرّف على وجهها الجميل بعد تورّمه وتلطّخه بالبنفسجي، بينما تدلّى لسانها من فمها ككلبٍ مسعور. نزع العباءة عن جسده وغطّاها.

قام أحدهم -مارتن هايفيلد على ما أعتقد- وكان لا يزال تحت تأثير الثمل والخبل الكافيين لمحاولة الدفاع عما اقترفوه، فقال شاتماً ببلاهة: «إنها... إنها اعترفت بذلك، لقد صرّحت بأنها ضاجعتِ الشيطان».

هدر مومبليون بصوته: «آهٍ أجل بالفعل، الشيطان حاضرٌ هاهنا اللّيلة! لكن ليس بإنيس غاودي أيّها الحمقى! أيّها التعساء الجهلة! لقد جابهتكم إنيس غاودي بالسلاح الوحيد الذي كان بحوزتها... بأفكاركم القبيحة وشكوككم الشريرة ببعضكم! اجثوا على ركبكم في الحال!».

امتثلوا فاعلين راكعين كشخصٍ واحدٍ على الأرض. «تضرّعوا إلى الرّب كي يحفظ أرواحكم البائسة برحمته اللّامحدودة». أخذ نفساً بعد ذلك متنهّداً، ثم استأنف الحديث وكأن الغضب قد تلاشى من صوته، لكن كلّ كلمةٍ تفوّه بها حملت صفير الرياح وأنينها. «أليس لدينا ما يكفي من المعاناة في هذه البلدة؟ ألا يكفيكم الموت الحاضر بيننا فيقتل بعضكم بعضاً أيضاً؟... اضبطوا أنفسكم وصلّوا إلى الله كي لا يحاسبكم على ما تستحقونه لقاء أفعالكم الشريرة في هذا اليوم».

سرعان ما ارتفعت الأصوات... بعضها في تمتمةٍ متلعثمة، والأخرى في صرخات مناشدةً الرّب، بينما بكى الآخرون ضاربين على صدورهم. اعتقد كلٌّ منا أن الله كان منصتاً إلى دعائه في ذلك الوقت.

-6-

دماءٌ مسمومة

الثلوجُ التي عصفت بالقرية في تلك اللّيلة ألقتْ على كاهلنا صمتاً عميقاً. إذ بدا القرويون المنصرفون إلى أعمالهم في الصباح محدودبين متلثّمين بأوشحتهم عبر الشوارع المتّشحة بالبياض، وكأنهم يتخفون من خطرٍ محدقٍ بهم، يتهامسون بالأنباء المفاجئة السيئة عن دماء العرافة التي لم تقدم أيّ عونٍ لنجدة غريس هاميلتون من الطاعون الذي أودى بحياتها خلال الأسبوع نفسه، تاركةً ولدها جود وابنتها فيث لمقاساة المرض. أحالتني الصدمة جرّاء الضربة التي تلقيتها على رأسي إلى جانب الصداع الشديد قعيدة الفراش، كما ذهبتْ بقدرتي على النهوض، فقضيتُ يوماً كاملاً بنهاره وليله قبل أستعيد توازني من جديد، وأستأنف البحث عن قطيع أغنامي التائه. سرعان ما عثرتُ على الخراف مجتمعةً حول بعضها في مرعًى محاصر بحلقةٍ من النتوءات الصخرية المغطاة بانجرافٍ كثيفٍ من الثلج الذي جمّدها بالكامل. دفنتِ العاصفة أغنامي المفقودة مقلّصةً تعدادها إلى الثلث في حادثةٍ ساقت ذهني المعتل إلى فكرة تقديم الامتنان للأحياء القلائل الذين يجب عليّ رعايتهم.

أقام مايكل مومبليون جنازةً مهيبة لإنيس، مجتهداً في تنظيم موكبٍ عظيمٍ مشرِّفٍ خلف جثمانها قدر استطاعته. كان مأتماً وقوراً لم تحضره ميم غاودي لتشهد الإكرام الذي نالته ابنة أخيها، فقد أُصيبت بنوبة سعالٍ بعد حادثة غرقها الوشيك، فاضطجعتْ فاقدةً الوعي في منزل القسيس، حيث حرصت إلينور مومبليون على رعايتها بنفسها هناك. عنايةٌ لم تثمر نفعاً أكثر من الجلوس بقربها والإصغاء لحشرجة أنفاسها. لقد أوصتنا قبل

فقدانها لقدرتها على الكلام بدهن وجهها الجريح بمرهمٍ مركّب من عشبة الشّاغة[1]، ثم حاولنا بصعوبة تضميد وجنتها الغائرة بشرائط الكتان، وتمسيد بشرتها الشاحبة الملطخة بالبنفسجي المصفر كأوراق الخريف الجافة إثر الرضوض الناجمة عن الكدمات التي تلقفتها. أشرفتْ ميم في ما مضى من الأيام على ولادة طفليّ، إذ قامت بالتهدئة من روعي وتيسير لحظات المخاض المضنية بيديها القويتين الماهرتين. تؤسفني رؤية أصابعها الهشة، وقد استحالت رقيقةً كأطراف عصفور الدوري، يُخشى عليها التهشم بفعل أيّ ضغطٍ خفيفٍ.

يومها الأخير كان الأصعب على الإطلاق، فمع اقتراب أجلها توقّفت أنفاسها كليّاً لعدة دقائق، ما جعلني أعتقد أنها أخيراً رقدت بسلام؛ لكن حلقها غرغر بعد ذلك مجاهداً لاستنشاق الهواء، ثم ارتفع صدرها وانخفض بتعاقب لهاثٍ سطحيٍّ سريع، ليتباطأ بعدها ويضعف حتى توقفت عن التنفس مجدّداً. حدث ذلك لمراتٍ كثيرة فاقت قدرتي على العدّ. ثم أمست فترات انقطاعها عن التنفس في كلِّ مرةٍ أطول وأطول في انتظارٍ غير محتمل. لا بدّ أنها قضت نحبها في غفلةٍ مني، إذ ما زلتُ جالسةً مكاني أترقّب الحشرجة التالية التي ستعيد الدورة من جديد، مصغيةً لناقوس ساعة منزل القسيس يشير إلى مرور ربع ساعة، تلته نصف ساعةٍ أخرى دون أنفاسٍ جديدة. استدعيتُ السيد مومبليون وزوجته أخيراً لأعلمهما بوفاة ميم. لقد ماتت بعد مرور خمسة أيّامٍ فقط على وفاة إنيس، وبرحيلهما فقدنا أيادي خبيرة، لطالما اعتمدنا عليها لتوفير فرصة نجاةٍ لنساءٍ وأطفال كثيرين في القرية.

لم يتخذ القضاء أيّ إجراءٍ حيال جريمة قتل المرأتين، فقد رفض قاضي باكويل الاقتراب من بلدتنا، أو الأمر بالقبض على أيّ شخصٍ متورّط، إذ رأى أنه من غير المجدي اعتقالهم في الأبرشية قبل جلسات المحاكمة القادمة. قلّةٌ من أولئك الغوغائيين الذين لم يصبهم الطاعون تواروا بيننا

1- نبات الشاغة، والذي يعرف بالإنجليزية أيضاً باسم كومفري (Comfrey): هو نبات مزهرٌ معمّر ينمو في الأراضي العشبية الرطبة في غرب آسيا وأوروبا. يُعتقد أنّ المركبات الموجودة في نبات الشاغة، تمتلك خصائص معالجة، ومخفّفة للالتهابات عند استعمالها موضعياً على الجلد.

منهكين مضطربين منتظرين محاكمة الرّب. بحلول الأحد التالي وعند حافة الوادي، اجتمع خمسة أصحاء منهم من أصل الاثني عشر ملقين ملابس التوبة[1] على أجسادهم بغية المسير حفاة الأقدام إلى الكنيسة لتأدية صلواتهم طلباً للغفران.

بياضٌ كسا الأمكنة بعد رحيل العاصفة في صباح الأحد الموعود، سرنا متثاقلين هنا وهناك، بينما تصدّع الثلج المتجمد تحت وقع أقدامنا. بدا جون جوردون أحد أولئك الغارقين في أوجاع الندم... مضى دون النظر في عيون أحد، متكئاً بجَزَعٍ على ذراع زوجته يوريث التي كشف زيّها الأبيض عن الكدمات البنفسجية حول أنفها المكسور المتورّم. لمحتُ ليب هانكوك هناك أيضاً، وقد تجاوزتني إلى مقعدٍ آخر في الكنيسة دون أن تلتفت نحوي.

أخذنا أمكنتنا وقد خيّمت على الجميع ظلالٌ من الشحوب والصمت والحزن والندم. يصل تعداد سكان هذه البلدة نحو ثلاث مئةٍ وخمسين نسمة، دون الأطفال وكبار السن الضعفاء -القلة المحتاجون إلى العون حتى في يوم الرّب[2]- إضافة إلى حفنة من الكويكرز[3] وغير الملتزمين المقاومين للاضطهاد داخل مزارع محدّدة جعلوها مركزاً لاجتماعاتهم.

1- ملابس التوبة: أزياء خاصة تخفي الوجه. اعتاد الناس على ارتدائها في الطقوس الدينيّة المسيحية في العصور الوسطى تعبيراً عن التوبة، وغالباً ما كانت بيضاء اللون. اقتبس من هذا التقليد لاحقاً فكرة توحيد ملابس الأسرى في السجون.

2- أخذ المسيحيون هذا التقليد عن اليهود باعتبار يوم الرّب يوم راحةٍ مقدّس لا يجوز فيه العمل، لأن الله تعالى خلق الكون في ستة أيّام واستراح في اليوم السابع أو يوم السبت، لكن المسيحيين جعلوا من يوم الأحد يوم الرب ارتباطاً بيوم قيامة السيد المسيح.

3- الكويكرز أو جمعية الأصدقاء الدينيّة Quakers: جماعةٌ من المسيحيين البروتستانت نشأت في منتصف القرن السابع عشر في إنجلترا، وأُسست على يد جورج فوكس. ادّعى الكويكرز أنهم يسترشدون بالروح القدس وأنبياء الكتاب المقدس ورسل المسيح و«النور» أو «الصوت» الداخلي الذي زعموا أنه يهديهم إلى الحقّ الروحي؛ لذلك تخلّلت اجتماعاتهم الدينيّة فتراتٌ من الصمت الجماعي بشكل أساس ينتظر من خلالها كلّ فردٍ أن ينال الإرشاد من الله. تحدّوا السلطة الكنسية ورفضوا مظاهر الأبّهة والطقوس الشكلية فتعرّضوا للغضب الشعبي.

أما عدد الأشخاص المجتمعين في كنيستنا على نحوٍ ثابتٍ أسبوعياً فيقارب مئتين وعشرين متعبّداً. اعتدنا الجلوس في أماكننا منذ مدةٍ طويلة، لذلك أصبح غياب أحدنا جليّاً كالأسنان المفقودة. لقد تركت قائمة الموتى والمرضى المتزايدة في ذلك الأحد العديد من الأماكن الفارغة.

حرص السيد مومبليون طوال الأسبوع الفائت -خلال جنازة إنيس والأيّام التي تلتها- على تفقّد ميم على مدار الساعة. بدا وكأنه يجاهد لكبح غضبٍ عارمٍ داخله، مُطْبِقاً شفاهه بغيظ كخيطٍ متقّوس؛ إذ أقلع عن تناول عشائه المعتاد برفقة إلينور معظم المساءات، منعزلاً للكتابة في غرفة مكتبه، ما جعلني على يقينٍ أنه يحضّر لعظةٍ حادةٍ جارحة. بعد رحيل العاصفة في إحدى ليالي أواخر الأسبوع، وبينما كنت أسلك الطريق محنيةً مترنّحةً تحت حِمل تبنٍ للخراف، لمحته يمشي عبر أشجار البستان برفقة شخصٍ مطأطئ الرأس تحت سماء انقشعت غيومها المحملة بالثلوج لتبرق النجوم بسناها فوق الحقول البيضاء. استغربتُ خروج القسيس مع أحدهم في ليلةٍ باردةٍ كهذه، لكن مع معرفتي بهوية الشخص، أدركت لماذا حرص على سريّة هذا اللّقاء.

لمحتُ السيد مومبليون يتشاور مع توماس ستانلي، البوريتاني الذي غادر أبرشيتنا منذ أكثر من ثلاث سنواتٍ خلت في يوم القديس بارتيميلي[1] سنة 1662 من ميلاد السيد المسيح. أخبرنا بارسون ستانلي في ذلك الحين أنه لا يستطيع مخالفة ضميره بالخضوع للأوامر القاضية باستخدام «كتاب الصلاة المشتركة»[2]، ليمسي بفعل قراره، واحداً من مئات الكهنة الذين اعتزلوا منابرهم

1- يوم القديس بارتيليمي Saint Bartholomew's Day: يوم وقوع المذبحة البروتستانتية في فرنسا عام 1572، والتي راح ضحيتها بين خمسة آلافٍ إلى ثلاثين ألفاً من البروتستانت قتلوا على يد الكاثوليكيين المتشدّدين، وبعد ظهور ما عُرف بالكنيسة الموحدة في إنجلترا فرض البرلمان عام 1662 استخدام كتاب «الصلاة المشتركة»، فرفضه عددٌ كبيرٌ من البروتستانت، وتمّ عزل الوزراء البروتستانتيين من مناصبهم في الرابع والعشرين من شهر آب أغسطس من العام نفسه، فعُرف هذا اليوم أيضاً بالطرد العظيم.

2- كتاب الصلاة المشتركة: هو كتاب الصلاة الرسمية لكنيسة إنجلترا والكنائس الإنجيلية في بلدانٍ أخرى. ظهرت أول نسخةٍ كاملة من كتاب صلاة مشتركة عام

في تلك الفترة. من غير المعتاد أن تُقحم بلدتنا الصغيرة في القضايا الكبرى الخاصة بالملك والبرلمان والكنيسة. أما بالنسبة لامرأة مثلي -نشأت في زمنٍ معاصر للأحداث الكبرى كإعدام ملكٍ ونفي آخر ومن ثمّ عودته ثانية- فمن المستهجن جهلها بالأحداث الجارية، لكن بلدتنا قصيّةٌ عن الطرقات المهمة أو شؤون المدنِ الحيوية، أما رجالنا فيمنحون قيمةً للتنقيب عن الرصاص تفوق سبل استخدامه. بالكاد وصلت الأحداث العظيمة إلى سفوح جبالنا، ولما تطَلْ أيّاً منّا أثناء جريانها، بما فيها مسألة كيف ومع من نصلي.

كان السيد ستانلي دمثاً ونقيّاً غير متزمتٍ على نحوٍ غير مألوف بالنسبة لرجلٍ بوريتاني، لكنه بقي متشدّداً باعتبار السبت يوم قيامة السيد المسيح بدلاً من يوم الأحد[1]؛ أما كنيسته فظلّت مكاناً كئيباً عارياً من الزخارف والنحاسيات، فاترةً حتى بصلواتنا المحببة[2]. بعد انقضاء مدةٍ ليست بالطويلة على معارضته صدر قانونٌ ينصّ على نفي رجال الدين المنشقين لمسافةٍ تبعد خمسة أميالٍ على الأقل بعيداً عن أبرشياتهم القديمة كي لا يشعلوا الخلافات؛ ثم صدر قانونٌ آخر تضمّن عقوباتٍ قاسية تشمل الغرامات والسجن وحتى الإقصاء بحقّ كلّ تجمّع دينيّ للصلاة يضمّ أكثر من خمسة أشخاص باستثناء الصلاة المشتركة. انتقل السيد ستانلي إثر ذلك من منزل القسيس، مغادراً قريتنا دون كاهنٍ مقيم لمدة سنتين تقريباً حتى مجيء السيد مومبليون. توفيت بعد ذلك زوجة ستانلي لتتركه وحيداً بين الغرباء؛ لكن الطبيعة الخيّرة للسيد مومبليون الرافضة لعزل القسيس عن محبيه، دفعته لدعوته للإقامة في قريته بين الأناس

1549 في وقت الإصلاح في عهد إدوارد السادس؛ وفُرض استخدامه إلزامياً من قبل البرلمان.

1- تضمّنت بعض المعتقدات التي سادت في إنجلترا إبان العصر التطهيري البيوريتاني استعمال اللغة العبرية كلغةٍ للصلاة في الكنائس، ونقل يوم ذكرى قيامة السيد المسيح من يوم الأحد إلى يوم السبت اليهودي.

2- وجّه البيوريتانيون بالحدّ من دور القساوسة في الكنيسة، وذهبوا إلى أن الكنائس المسيحية ينبغي أن تنظّم من قبل مجالس مشيخية بدلاً من الأساقفة - كما هو الحال في كنيسة إنجلترا. ونادوا بقراءة الإنجيل، وتبسيط الطقوس، والاعتماد على الصلوات الخاصة، بدلاً من الصلوات الرسمية. كما حثّوا على العفة والتقوى والصلاة ومحاسبة النفس بوصفها وسائل لنيل الفضائل الدينية.

الذين عرفهم جيداً. لا أعرف تماماً ما قيل أو ما اتُّفق عليه، لكنه عاد ليعيش بيننا مجدّداً في حقلٍ صغير تابعٍ لإقطاعية بيلينغ التي تملكها العائلة المنشقة عن الكنيسة. عامٌ مضى قبل انتشار الطاعون على إقامة الرجل المسنّ مع مستشاره الشخصي بخصوصيةٍ شديدة بعيداً عن شؤون البلدة؛ فإن اجتمع خمسة أشخاصٍ مرتين أو حتى ثلاث مرات من حين إلى آخر في دارة بيلينغ لا يكترث أحدٌ منا بمعرفة الغرض من ذلك.

لكن على ما يبدو أن السيد مومبليون من يسعى وراء السيد ستانلي الآن، جهلتُ بمعرفة السبب حتى حلول صباح يوم الأحد حين اعتلى السيد مومبليون درجات المنبر مُقبلاً بملامح هادئة مسحت العبوس عن جبينه المقطّب طوال الأسبوع الفائت. شرع بعظته التي أقرّت بقدرنا المحتوم، والتي مضى بأكثر من نصفها قبل أن يدرك أحدٌ من المتواجدين في الكنيسة الوجهة التي يقودنا صوبها.

«لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يبذل أَحَدٌ نَفْسَهُ في سبيل أَحِبَّائِهِ»[1] قال هذه الكلمات المألوفة محني الرأس تاركاً بقية العبارات تحوم في أفقٍ من الصمت الطويل، لدرجة أني توجستُ من نسيانه لما أراد قوله؛ لكن حين رفع رأسه لاح وجهه متوهّجاً موشّحاً بابتسامةٍ منحت الكنيسة دفئاً مفاجئاً، لتنساب كلماته بعدها كإيقاعِ قصيدةٍ شعرية. لقد تحدّث بشجنٍ شاخصاً إلى عينيّ كلّ واحدٍ منا عن محبة الرّب والآلام التي تحمّلها ابنه لأجل خلاصنا... جعلنا نتلمسُ قوة الحب ذاك، نتأمل كيف غمرنا جميعاً وفي الأزمنة كلّها. أثملنا القسّ بكلماته، سما بنا عالياً بغبطةٍ غريبة، وحلّق بخيالنا إلى فضاءٍ بعيد حيث نخبّئ أعذب ذكرياتنا.

وصل أخيراً إلى ما أراد قوله... «ألسنا ملزمين بإعادة هذا الحب إلى إخوتنا من البشر؟ حتى لو تطلّب الأمر منا بذل حياتنا إن كانت تلك مشيئة الله؟». لم يذكر وباء الطاعون حتى اللّحظة، حتى إنني غفلتُ تماماً أثناء حديثه الدافئ عن الموضوع الذي شغل تفكيري بإلحاح لأسابيع عدة، ما أثار دهشتي.

1- (إنجيل يوحنا 15: 13).

«أيها الإخوة والأخوات الأعزاء» قال بنبرةٍ مترعةٍ بالمودة: «نعلم أن الله أحياناً يخاطب شعبه بصوتٍ رهيب، فالمصيبة ليست سوى افتقادٍ إلهي. الطاعون أحد تلك المصائب الفظيعة -السمّ المتسلّل إلى الدماء- من منّا لا يخشاه ببثوره المتقيّحة وتقرحاته المتهيّجة؟... إنه الموت الزؤام، سلطانُ الرعب النهم الزاحف على عقبيه. رغم هذا فإن الرّب بحكمته السرمدية الفائقة لإدراك البشر، خصّنا باستضافة هذا الوباء دون غيرنا من أهالي القرى الأخرى في المقاطعة. إنه امتحانٌ أخضعَنا له... متأكدٌ من ذلك. لقد وهبنا حبّ الرّب العظيم فرصةً نادرة، لا يحظى بها سوى قلة من قاطني الأرض. نلناها في هذه القرية -نحن المساكين بالروح- كي ننشد رحمة إلهنا... فمن منّا يضيّع فرصةً كهذه؟! أعزائي... أؤمن بوجوب قبول هذه العطية. إنها جعبةٌ من الذهب! دعونا نغمس أيدينا حتى المرافق ونغرف الكنز!».

أخفض صوته بعد ذلك كما لو أنه يبوح بسرٍّ جليل: «قد يعتقد بعضكم أن الرّب لم يرسل لنا الطاعون حبّاً... بل غضباً، وأن سبب انتشار هذا الداء بيننا جزاءٌ عن خطايانا. أليس أول طاعونٍ في تاريخ البشرية جمعاء، كان الذي أرسله الرّب لضربِ مصر؟[1] ألم يكن قَصاصاً لعصيان فرعون لربّه حين انتزع أولادنا البكر منا في جنح الظلام، ألم يُحِل مملكته العظيمة بوراً؟...».
صمت هنا متنقّلاً بنظراته بيننا حتى رمقني بعينيه المتلألئتين ثم تابع القول: «من الأسهل حينها أن نؤمن بانتقام الرّب بدلاً من رحمته... لكني لا أعتقد أن الله أرسل لنا وباء الطاعون بدافع الغضب. لا أظن أنه يرانا في هذه القرية الصغيرة كما نظر إلى فرعون. آه أجل، لقد أخطأنا بحيواتنا بكلّ تأكيد، كما تلطخت أيدينا بالذنب لمراتٍ كثيرة. ألم نصادف الشيطان محاولاً الإيقاع بنا كطائر زقزاقٍ ينشد بالإغواء والزهو ليبعد عقولنا عن إله خلاصنا؟! أحبائي، لا بدّ أنّ كلّاً منا انصاع لتلك الدعوات الفاتنة، لا يوجد بيننا من تمنّع، من

1- «فَحَدَثَ فِي نِصْفِ اللَّيْلِ أَنَّ الرَّبَّ ضَرَبَ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ بِكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بِكْرِ الأَسِيرِ الَّذِي فِي السِّجْنِ، وكُلَّ بِكْرِ بَهِيمَةٍ. وكَانَ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي مِصْرَ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ مَيْتٌ» (سفر الخروج 12: 29، 30).

لم يسقط، من لم تتقاذفه أفكاره بالنزوات المحرّمة. لكن إلهنا باعتقادي لم يرسل هذا الطاعون كعقابٍ على ذنوبنا[1]... أبداً!».

بعدها جال بعينيه بين المصلين بحثاً عن عمال المناجم وعائلاتهم ليخاطبهم على وجه التحديد: «مثل المعادن الخام التي يجب صهرها وتحويلها بالكامل إلى سائل لاستخراج المعدن النقيّ منها، كذلك يجب علينا الذوبان في نيران تنور هذا الوباء؛ كما يؤجّج العامل فرنه طوال اللّيل إن لزم الأمر لاستخلاص المعدن الثمين، كذلك يفعل الرّب بنا كي يقطن جوارنا... قريباً جدّاً، ربما أقرب من أيّ وقتٍ مضى أو آتٍ في حياتنا».

لمحتُ آلان هوتون -القاضي المحلي لعمال المناجم- وكان يجلس أمامي بخمسة مقاعد، يرفع رأسه الأبيض ببطء لينتصب بين منكبيه العريضين مع تسلّل كلمات القسيس إلى عقله. اغتنم القسيس اللّحظة ومدّ يده نحوه وقال: «لذلك لا تجعلونا نُخفق، لا تدعونا نفشل! لا تختاروا الضعف وظلام اليأس، بينما يريد الله بنا الضياء!».

«آمين!» تمتم هوتون بصوته الأجش، لتصدح كلمة «آمين» من أفواه عمال المناجم الآخرين.

التفت القسيس نحو مقاعد آل هانكوك وميريل وهايفيلد وباقي عائلات المزارعين مخاطباً: «أحبائي، إن المحراث الذي يحفر عميقاً في أرضكم لن يفعل ذلك على الدوام. تعلمون كم من الأبدان عُطبت في سبيل انتزاع الجذور العالقة والجذوع العنيدة من تربة الحقول، تعرفون كم من أيادٍ نزفت لجرّ الصخور ورصفها في حدودٍ تفصل الأراضي المحروثة عن البراري. لا يثمر المحصول الجيد دون معاناةٍ وكفاحٍ وكدّ، وبكل تأكيد... من غير تضحية. لقد بكى كلّ واحدٍ منكم المحاصيل التي أفسدها الجفاف أو الآفات. بكيتم لأنكم أديتم واجبكم واعتنيتم بكلّ غرسة وحرثتم الأرض لتجديد تربتها راجين قدوم موسمٍ أفضل. قد نبكي الآن يا إخوتي، لكن الأمل حاضرٌ أيضاً... لا بدّ سيتبع زمن الطاعون أيّامٌ أفضل إن وضعنا ثقتنا بالله ليُظهر معجزاته!».

1- «لَمْ يَصْنَعْ مَعَنَا حَسَبَ خَطَايَانَا، ولَمْ يُجَازِنَا حَسَبَ آثامِنَا». (سفر المزامير 103:10).

أخفض بعدها وجهه إلى الأسفل مجففاً قطرات جبينه بيده، بينما ساد هدوءٌ تام في الكنيسة. كنا شاخصين جميعاً إلى المنبر نحو الرجل الطويل المنتصب بقامته هناك، المنحني برأسه وكأنه يستجمع قواه ليكمل خطابه.

«أحبائي...» قال أخيراً: «يعتزم بعض أهالينا الرحيل إلى أقاربهم في الجوار والذين سيحتضنونهم بكلّ ترحاب. آخرون لديهم أصدقاء يلوذون بهم، في حين إنِ قلةً منا تملك وسيلةً للرحيل بعيداً عن هنا... ومهما كان خيارنا...».

تشتت تركيزي مع حركة أفراد عائلة برادفورد الجالسين في المقعد الأول «... لكن كيف سنردّ معروف استضافتنا إن نقلنا عدوى الطاعون إلى بيوتٍ آوتنا؟... أيُّ حملٍ ثقيلٍ إن مات المئات من الأحياء بسببنا؟ لا! دعونا نقبل هذا الصليب، ولنحمله باسم الرّب المبارك!» بدأ صوته يزداد حدةً حتى غدا كقرع الجرس؛ ثم ما لبث أن عاد إلى نبرته الوجدانية الهادئة كحبيبٍ يخاطب عشيقته: «أيّها الأحبة، نحن هنا، وهنا يجب أن نبقى. فلنجعل من حدود قريتنا عالمنا الكامل. لن ندع أحداً يدخل أو يغادر طالما ظلّ هذا الطاعون في ضيافتنا».

انتقل بعد ذلك لشرح تفاصيل مخططه لخضوعنا لحصارٍ طوعي، والذي بدا أنه فكّر ملياً بكافة إجراءاته. أخبرنا أنه كتب إلى إيرل[1] تشاتسورث هاوس التي لا تبعد مسافة أميالٍ كثيرة عنا، مبيّناً اقتراحه وطالباً العون، وأعلمنا بتعهّدِ الإيرل في حال انعزالنا عن غيرنا، بتوفير احتياجاتنا الأساسية من طعامٍ ووقودٍ وأدوية من ماله الخاص؛ والتي سيتمّ وضعها على الحدود الحجرية عند الطرف الجنوبي الشرقي لقريتنا، شرط ألّا يتمّ جمعها إلّا بعد أن يبتعد سائقو العربات الذين جلبوها لمسافةٍ آمنة. أما الذين يرغبون بشراء سلعٍ أخرى فيجب عليهم ترك النقود في المياه الضحلة التي تغذيها الينابيع شمال غابة رايت، حيث سيزيل تدفق المياه عدوى الطاعون؛ أو

1 الإيرل أو الزعيم: يعود أصل اللقب إلى الكلمة الإنجليزية القديمة «eorl»، والتي تعني «رجل ذو مولد أو رتبة نبيلة. لقبٌ إنجليزي أدنى من المركيز وأرفع من الفيكونت، ويعني الزعيم الذي تمّ تعينه للحكم نيابةً عن الملك؛ لم يتطور لفظ أنثوي للإيرل؛ بدلاً من ذلك، يتمّ استخدام لفظ الكونتيسة.

يرمونها داخل الصخور المقوّرة قرب الحدود الحجرية، والتي ستُملأ بالخل المعروف بقتله للعدوى.

«أحبائي، تذكّروا كلمات النبي إشعيا: بالرجوع والسكينة تخلصون، بالطمأنينة والإيمان تكون قوتكم»[1]. توقّف لبرهةٍ مكرّراً العبارة: «بالهدوء والثقة تكون قوتكم»، أعادها هامساً، ثم أتبعها بصمتٍ مهيب: «في الطمأنينة والإيمان... أليس هذا جلّ ما ننشده جميعاً؟». نعم بالطبع... أومأنا برؤوسنا. لكنه عاد بعدها مجلجلاً بصوته مبدّداً السكون الرهيب الآنف: «لكن الإسرائيليين لم يؤمنوا ولم يطمئنوا. يخبرنا إشعيا بذلك فيقول: لكنكم لم تمتثلوا، بل أجبتم: لا! على خيلٍ نهرب... وعلى جيادٍ سريعة نركب... يهرب ألفٌ من زجرةٍ واحدة، ومن زجرةٍ خامسة تهربون، حتى إنكم تبقون كساريةٍ على رأس جبل، وكرايةٍ على أكمة.

حسناً يا أحبائي، أقول إننا لن نهرب مثل بني إسرائيل الذين فقدوا إيمانهم! أبداً، لا من الزجرة الخامسة، ولا حتى العاشرة، ولا من قرع نواقيس الموت. الوحشة تترقب أولئك الفارين... الوحشة التي تخفق وحيدةً كرايةٍ فوق جبل. الوحشة والعزلة... العزلة التي كانت على الدوام نصيب المجذومين. الوحدة والانعزال والخوف. خوفٌ سيؤول رفيقهم الوثيق، وسيلازمهم في النهار واللّيل.

أيّها الأحبة، أسمعُ قلوبكم المرتعشة بذعرٍ دفين، لعلّنا بالفعل مرتعدون من هذا المرض ومن الموت الذي يجلبه، لكن الجَزَع لن يهجركم إن لذتم بالفرار، إذ سيرافقكم حيثما ذهبتم، وأينما حللتم؛ بل إن ذعركم سيستحضر مخاوف أعظم... إن مرضتم في منزلٍ غريب فقد يطردكم أصحابه منه بعد التخلّي عنكم، وقد يحجرون عليكم لتموتوا في عزلةٍ رهيبة. سيصيبكم العطش ولن يروي ظمأكم أحد... ستصرخون لتتلاشى صيحاتكم في الفراغ. جلّ ما ستلقونه في بيت الغريب هو الملامة... سيؤنّبونكم بكلّ تأكيدٍ على جلب المرض إليهم، وسيغدو لومهم منصفاً! سينهالون عليكم بالكراهية والحقد في وقتٍ تكونون فيه بأمسِّ الحاجة للعطف والحب!».

1- يقتبس القسيس في هذا المقطع من العهد القديم (سفر إشعيا 30: 15-16-17).

«ابقوا هنا...» استكان صوته وهدأ: «في المكان الذي تعرفونه والأرجاء التي أنست بكم. ظلّوا هنا... على قطعة الأرض التي أطعمتكم من سنابلها الذهبية ومن خيرات معادنها البراقة. امكثوا هنا... حيث يعيش كلٌّ منّا لأجل الآخر. لا تبرحوا أرضاً فاضت بمحبة الله لأجلنا. ابقوا هنا يا أحبائي وأعدكم أنني لن أترك واحداً في هذه البلدة يواجه الموت وحيداً».

نصحنا في نهاية عظته بالتأمل والصلاة، معلناً انتظاره لقرارنا بعد برهةٍ وجيزة. نزل عن المنبر وأخذ يتجوّل بيننا مجيباً بهدوء عن كلّ استفسار برفقة إلينور التي بدت لطيفةً مشرقةً قربه. تسمّرت عائلاتٌ في مقاعدها متفكّرةً خاشعة، بينما نهض أشخاصٌ متململين هائمين قلقين، يطلبون النصيحة من أصدقائهم وأحبّتهم. عندها تنبّهتُ إلى حضور توماس ستانلي داخل الكنيسة متخذاً من المقعد الأخير مكاناً له، تقدّم وتحدّث بدماثة مع ذوي السرائر المتدينة المتشدّدة، أو ممن واجهوا صعوبةً بالوثوق بالسيد مومبليون، معلناً بمنتهى الهدوء دعمه الكامل لخليفته الأصغر سنّاً. أصواتٌ معارضةٌ تعالت بين الجدالات المتهامسة... إيماءاتٌ وحركات رؤوسٍ رافضة لخطّة القسيس. لمحتُ أبي وأفرا واقفين بحنقٍ بين أفراد تلك المجموعة المرتابة التي سرعان ما تحرّك السيد مومبليون صوبها، ثم تبعه السيد ستانلي. كان والدي وزوجته قد تنحّيا لمسافةٍ قصيرة، فاقتربتُ منهما محاولةً استراق السمع لما كانا يسرّانه بعضهما لبعض.

«فكّر في قوتنا يا زوجي! إذا خرجنا مَنْ سيطعمنا؟ سنتضوّر جوعاً أينما ذهبنا. إنه يؤكد على أننا سنحصل على الطعام هنا».

«آه، لقد صرّح بذلك بالفعل... وأنا أُعلمكِ بأنك لن تقتاتي من أقواله... كلماتٌ رائعة لا تحشو سوى أجواف السذّج... أنا واثقٌ بالطبع من أنه سيحصل وزوجته على الطعام من حضرة الإيرل، لكن هل سيكون الطعام المخصص لأمثالهم كالفتات الذي سيُرمى لنا؟».

«أين فطنتك يا زوجي؟ لن يصونوا الوعود التي قطعوها محبةً بنا، بل حرصاً على صحة جلودهم. من المؤكد أن الإيرل يريد أن يبقي مقاطعته بمنأى عن الطاعون، وهل هناك طريقةٌ أفضل من منحنا سبل المكوث هنا.

بضعة قروشٍ لقاء خبزنا كلَّ يوم تبدو مقايضةً رابحةً بالنسبة إليه... من ناحيتي سألتزم». كانت زوجة أبي امرأة ذكية بالرغم من إيمانها بالخرافات. حين لمحتني دعتني كي أساعدها في دعم موقفها، لكنني لم أرغب بتحمّل وزر أيّ مسؤولية متعلّقة باتخاذ أيّ شخصٍ لقراره بالبقاء أو الرحيل، لذلك التفتُّ بوجهي بعيداً.

بعد وصول السيد والسيدة مومبليون إليّ حيث أقف، أمسكتُ إلينور مومبليون ذراعيَّ بلطفٍ بكلتا يديها، بينما تحدّث القسيس مستفهماً: «وأنتِ يا آنا؟». حدّق بنظراتٍ حادة لدرجة اضطرّتني لأن أشيح بوجهي عنه. «أخبرينا أنك ستمكثين معنا، إذ بدونك سأكون والسيدة مومبليون بوضعٍ سيّئ. في الواقع لا أعرف ما عسانا فعله إن غادرتِنا». لم أشعر بأيّ اضطرابٍ أو حيرة، فقد اتخذت قراري، لكنني لم أملك السطوة على صوتي لأجيبه، فاكتفيت بإيماءة. احتضنتني إلينور مومبليون بعدها وعانقتني طويلاً. توجّه القسيس بعد ذلك بنبرةٍ خفيضة متحدّثاً إلى جارتي ماري هادفيلد التي كانت تبكي مرتبكةً بحالةٍ يرثى لها. ارتقى المنبر شاخصاً نحونا من جديد مزيحاً بالتعاون مع السيد ستانلي الريبة من الأفئدة جميعها.

أقسم الحاضرون في الكنيسة في ذلك اليوم أن يبقوا وألّا يهربوا مهما حلّ بالقرية. أدّى الجميع اليمين باستثناء آل برادفورد الذين انسحبوا من الكنيسة دون أن يلحظهم أحد لاستكمال التحضيرات لمغادرة دارتهم إلى أكسفوردشاير.

-7-

السجن الأخضر الفسيح

غادرتُ الكنيسة ذلك الصباح بغبطةٍ غريبة اعترتني وحبورٍ بدا أننا تقاسمناه جميعاً؛ فالوجوه الموشّحة بالبؤس والشحوب أشرقتْ بدفءٍ وحيوية، متبادلةً نظراتها بابتسامٍ وامتنانٍ واعٍ للنعمة المشتركة التي جلبها إلينا قرارنا. مع اقترابي من بوابة كوخي داهمني حنقٌ مباغت لماغي كانتويل الطبّاخة في دارة برادفورد، والتي لم تتواجد في الكنيسة معنا آنذاك. قابلتها مسمّرةً تنتظرني بمئزرها الأبيض الفضفاض الذي ترتديه عادةً أثناء الطبخ، وقد كاد الدم ينزّ من وجهها الممتلئ الممتقع بالإنهاك، بينما ارتمت صرّة أغراضها فوق الثلج بالقرب من قدميها.

«لقد تخلّوا عني يا آنا! طردوني بعد ثمانية عشر عاماً دون سابق إنذار!».

جهلتُ إن كانت ماغي -المنحدرة بأصولها لعائلةٍ مقيمةٍ في باكويل- تنوي الذهاب إليهم أو لعلّهم يستقبلونها إن فعلتْ. تساءلتُ مع ذلك إن جاءتْ إليّ بحثاً عن مأوى رغم علمها بالصيت السيّئ الذائع لكلٍّ من منزليْ وكوخيْ هادفيلد وسايدل كمنازل للطاعون. دعوتها للدخول، لكنها أومأت بالرفض قائلة: «شكراً لكِ يا آنا، لا أقصد التقليل من احترامك، لكنني أخشى أن أغامر بدخول منزلك وأعرف أنك تتفهمينني. قصدتكِ لإيداع أغراضي القليلة لأن آل برادفورد يتأهبون للرحيل في غضون ساعة، وقد أنذرونا جميعاً بالمغادرة والإذعان لأوامرهم بعدم الرجعة بعد إغلاق الدارة وحراستها. اعتقدتُ طوال تلك السنوات أن الدارة ليست سوى ملاذٍ لنا، لكنها لفظتنا بلا رحمة، بلا سقفٍ يأوينا أو وسيلةٍ نقتات بها». كبحتُ

غضبها ورفعت يديها البدينتين اللّتين كانتا تعتصران أطراف مئزرها لتمسح الدموع عن وجنتيها.

«هيّا يا ماغي ليس لدينا وقتٌ لهذا الآن» قلتُ محاولة التهدئة من روعها: «لا تقلقي، أغراضك بمأمنٍ هنا. سأحضر عربة اليد من المتبن كي نتوجّه مباشرةً لجلب ما تبقى منها في الدارة». وهكذا انطلقتُ مع ماغي التي تجاوزت الأربعين من العمر وأمست بدينةً جدّاً بفعل تلذّذها بطهيها الشهي، ما جعلها تجاهد لاهثةً عندما شققنا طريقنا بصعوبةٍ عبر الثلوج المتكدّسة على ظهر التلة قاصدتين الدارة.

«تخيّلي يا آنا» قالت بنفسٍ متقطّع: «كنتُ أتبّل قطعة اللّحم لعشاء الأحد، حين هرعوا قادمين من الكنيسة أبكر من عادتهم، تساءلتُ بجزعٍ عمّا سيحدث إن لم تكن أطباق الطعام مرصوفةً فوق الطاولة حين الطلب، فاندفعت مضطربةً إلى كيرين الخادمة المعنيّة بغسل الأطباق وبراند صبي حُجرة المؤن طلباً للمساعدة مع اجتياح الكولونيل للمكان، وليس عليّ إخبارك بأن قدمه لم تطأ المطبخ حتى هذا اليوم بالذات. لقد قام بطردنا جميعاً ببساطة دون أن يتفوّه بشكرٍ أو تساؤلٍ عن كيفية تدبيرنا لأمورنا، أمرنا بوضع الطعام على المائدة ثمّ الرحيل».

رغم أننا ما زلنا بعيدين عن الدارة، إلّا أن الجلبة الدائرة هناك تناهت لمسامعنا بوضوحٍ تام. لم يكن هروب العائلة من المزرعة التي ضجّتْ كخلية نحل موسوماً بالسرية على الإطلاق، حيث جُهّزت الخيول للمسير، بينما تهادى الخدّام والخادمات دخولاً وخروجاً ناقلين الصناديق الثقيلة. دخلنا عبر المطبخ ووقعُ الأقدامِ ينهال فوق رؤوسنا، يتخلّله الصدى الحاد لأوامر أملتها سيدات العائلة بتعالٍ وخيلاء. لم أرغب بأن يراني أحدٌ من آل برادفورد، فتسلّلتُ وراء ماغي صعوداً عبر الأدراج الخلفية الضيقة تجاه العلية التي تقاسمتْها مع الخادمات. كان للحجرة سقفٌ مائلٌ بشدة وشباكٌ مرتفعٌ صغير ينسكب عبره ضياء الثلج المنعكس ونفحاته الباردة، بينما حُشرتْ ثلاثة أسرّةٍ في المكان الضيق. لمحتُ جيني -الفتاة ذات العينين الواسعتين- جاثمةً على قدميها تحاول مضطربةً بوجهٍ شاحب وصبرٍ نافد حزم ثوبها مع القليل من مقتنياتها المتواضعة داخل الصرة، لكن دون جدوى.

«يا إلهي أيتها الطباخة، لقد أمرتنا السيدة بمغادرة المزرعة خلال ساعة دون منحنا الوقت اللّازم لتدبر أمورنا. لم أعد أشعر بقدميّ من شدة الإجهاد، فقد أحضرتُ ونقلتُ الأغراض ووضبتُ الأمتعة وفق رغبتها، لكنها ما انفكت تستبدل غرضاً بآخر مراراً وتكراراً. أعلمونا أنهم لن يصطحبوا معهم أيّاً منا، ولا حتى جين خادمة السيدة برادفورد الشخصية التي لازمتها منذ طفولتها كما تعلمين. لم يلقَ نحيب جين أو توسلاتها أذناً صاغية لدى السيدة التي أعرضتْ بالقول: بالطبع لن ترافقيني... تجولتِ والبقية كثيراً في القرية، ومن المرجح أن أحدكم قد التقط عدوى الطاعون.

لقد عزموا بلا رأفة على تركنا نموت في الشارع، دون أن يجد أيٌّ منا مكاناً يلجأ إليه!».

«لن يموت أحد، ولن تَبِتْنَ في الشارع بكلّ تأكيد» قلتُ ذلك بأناةٍ قدر استطاعتي. حاولت ماغي سحب صندوقٍ مصنوعٍ من البلوط احتفظت به تحت السرير، لكن بدانتها منعتها من الانحناء بما يكفي للوصول إليه، فجلبتُه ريثما طوتْ ملاءةً غزلتها لها شقيقتها. غادرنا معاً مع كيسٍ خيشيٍّ صغيرٍ ضمّ حصيلة سنوات عمرها هناك؛ ثم استطعنا بقليلٍ من الحذر المناورة بالصندوق حتى تمكنّا من إنزاله عبر الدرج الضيق، حيث وقع على عاتق ماغي حمل معظم وزنه بينما قمتُ بالتوجيه من الأعلى بأفضل ما بوسعي. توقّفتْ في المطبخ لبرهة، فاعتقدتُ أنها تلتقطُ أنفاسها، لكن عينيها سرعان ما اغرورقتا بالدموع مجدّداً، جالت بكفّيها المتوردتين الضخمتين فوق لوح المنضدة الخشبية المشطّب المشيّط، وتحدثت بنبرةٍ خفيضة: «هي ذي حياتي... أعرف كلّ أثرٍ... كلّ حَزٍّ... كلّ علامةٍ هنا؛ أذكر كيف وُشموا وثُلموا بسكيني الميمونة. ها أنا أدير ظهري وأرحل بعيداً دون أيّ شيء». نكستْ رأسها فعلقت دمعةٌ بخدها الممتلئ للحظة ثم انهمرت فوق منضدة ذكرياتها.

سمعتُ ضوضاء قادمة من فناء الدار، فنظرتُ عبر باب المطبخ نحو الخارج لأرى مايكل مومبليون ممتطياً صهوة أنتيروس وسط الحجارة المتناثرة. وثب عن الخيل مقبلاً قبل أن يتمكن السائس من قبض الرسن المنفلت، ودون أن ينتظر أحداً للإعلان عن مجيئه.

«أيها الكولونيل برادفورد» صاح منادياً بصوتٍ عالٍ عند مدخل الدارة بما أوقف صدى الضوضاء في الحال. كانت ملاءات الغبار قد فُرشت للتوّ فوق قطع الأثاث الضخمة. فتسلّلتُ محتجبةً خلف ملاءةٍ كبيرة غطّت أحد المقاعد الخشبية القريبة، بحيث استطعتُ رؤية الكولونيل عبر ثنايا الغطاء واقفاً عند باب مكتبه وبيده مجلّد بدا من الواضح أنه يفكّر في حزمه، بينما قبض على ورقةٍ بيده الأخرى. وقفت الآنسة برادفورد مع والدتها متردّدتين عند قمة الدرج، متوجستين من مواجهةٍ غير متوقعة قد تتجاوز حدود اللّباقة المعهودة.

«القسيس مومبليون!» أجاب الكولونيل حريصاً على الردّ بصوتٍ هادئ في تباينٍ متعمّد مع هدير القسيس، ثم أردف بلهجةٍ متهكّمة: «ما كان عليك أن تزعج نفسك وتسارع بالقدوم إلينا، فقد كتبتُ هذه الرسالة لوداعك أنت وزوجتك الفاضلة»، ومدّ الورقة إلى مومبليون الذي أخذها بشرود دون التمعّن بها وقال: «لا أريد وداعكم، بل جئت لأحثّكم على إعادة النظر بمسألة رحيلكم. إذ إنّ عائلتكم ما انفكّت الأكثر قدْراً في أعين أهالي البلدة، فإن سلكتم درب الجبناء، كيف لي أن أطلب من البقية التحلّي بالشجاعة؟».

«لستُ جباناً...» أجابه الكولونيل بفتور «إنني أفعل فقط ما يجب على أيّ رجلٍ ذي عقلٍ فعله: حماية أهل بيتي».

تقدّم مومبليون نحوه خطوةً فاتحاً يديه: «ولكن فكّر بأولئك الذين ستعرّضهم للخطر».

تراجع الكولونيل محافظاً على المسافة بينه وبين القسيس، مجيباً بنبرةٍ خفيضةٍ باردة كما لو أنه يهزأ من إلحاح مومبليون: «أعتقد يا سيدي أننا سبق وأجرينا حواراً في سياقٍ مفترض عن المرض هنا، في هذه القاعة بالذات... وبما أن ما خشيناه قد حدث بالفعل، أعلمك بأنني ما زلتُ عازماً على الرحيل للنجاة بحياتي وحياة عائلتي التي تهمني أكثر من أيّ خطرٍ محتمل قد يتعرضُ له الغرباء».

لم يحاول القسيس معارضة ما قاله الكولونيل، بل هرع نحوه متشبثاً بذراعه: «حسناً... إذا لم يغيّر ابتلاء الآخرين قرارك، فكّر بالخير الذي

يمكن أن تقدّمه لبلدتك ولأهلها الذين يعرفونك ويقدّرونك، خاصةً في ظلّ المحن التي تستوجب حسن التدبر لمواجهتها. الكلُّ على بيّنةٍ بإقدامك منذ زمانٍ طويل، فلمَ لا تضيف فصلاً جديداً إليه؟... لطالما تزعّمت الرجال في الحروب ببسالةٍ وبراعةٍ بما يكفي كي تقودنا جميعاً عبر هذا الشظف. علاوةً على ذلك، فأنا –نظراً لكوني وافداً جديداً إلى هذا المكان– لا أعرف القرويين كما تعرفهم أنت وعائلتك المقيمة هنا منذ أجيالٍ كثيرة. سأنهل من مشورتك لأبذل قصار جهدي مع تعاظم الوقائع علينا. أتعهّد بفعل ما بوسعي لأهِبَ المواساة والسكينة لهؤلاء الناس، لكن لا تزال أصغر إيماءةٍ مما تمنحه أنت وزوجتك والآنسة برادفورد تعني الكثير الكثير».

كتمت الآنسة برادفورد ضحكتها على بسطة السلّم، فرمقها والدها بنظرة تهكّم متواطئة، وهتف بسخرية: «يا له من إغواءٍ عظيم! كم شرفّتنا بتبجيلٍ وفير! يا سيدي العزيز، أنا لم أربِّ ابنتي لأجعلها ظِئراً رؤوماً لأولاد الرعاع، وإن كنتُ راغباً في إغاثة المنكوبين لأصبحتُ كاهناً مثلك».

أفلت مومبليون ذراع الكولونيل في الحال، كما لو أنه يقبض على شيءٍ قذر، ثمّ صاح زاجراً: «لا يجب على المرء أن يكون كاهناً كي يصير رجلاً!».

ثم التفتَ متّجهاً نحو الموقد، حيث عُلّق سيفا الكولونيل الخاصان بالمراسم فوق الرفّ على نحوٍ متصالب راسمين قوسين برّاقين. لا يزال القسيس ممسكاً بالرسالة التي تغضّنت تحت وطأة قبضته مع وصوله إلى الموقد واستناده إليه بجسدٍ متثاقل. حاول تمالك نفسه رغم ملامحه الحانقة، ثم تبيّن لي حين أخذ نفساً عميقاً وزفره أنه ينوي فرد الخطوط العميقة التي غارت حول حاجبيه وفكّه. بدا الأمر كمشاهدة شخصٍ يضع قناعاً لإخفاء وجهه الحقيقي، ثم ما لبث أن استدار بتعابير هادئة مواجهاً الكولونيل من جديد: «إن كان عليك إرسال زوجتك وابنتك بعيداً، فإني أناشدك أن تبقى وتؤدّي واجباتك».

«لا تفرض عليّ واجباتٍ لم أملِها عليك يوماً. مع ذلك، أقترح الاهتمام بشؤون زوجتك اللّطيفة».

عندها تلوّن وجه مومبليون قليلاً قبل أن يجيب: «سأعترف لك يا سيدي

أنني طلبت من زوجتي الرحيل عن هذه القرية منذ مخاوفنا الأولى قبل وقوع الواقعة. لكنها أبتْ مصرّةً على واجبها بالبقاء، قانعةً بالقرار الذي التزم به أهالي البلدة، لا يمكن أن أطلب أمراً صعباً من الآخرين لم يقوَ أقربُ الناس إليّ على فعله».

«إذن، فإن زوجتك بارعةٌ في اتخاذ القرارات السيئة، وها هي تنفّذ أحدها».

كانت الإهانة وقحةً للغاية لدرجةٍ حبستُ أنفاسي؛ أما مومبليون فأطبق قبضتيه، لكنه بقي محافظاً على نبرة صوته المعتدلة: «قد تكون محقاً، لكنني أعتقد بالمقابل أن القرار الذي اتخذتَه اليوم غير صائبٍ، بل إنه خطأٌ فادح. إن أقدمتَ عليه ستلطّخ سمعة عائلتك بالسوء في كلِّ مكان، ولن يغفر الناس تخلّيك عنهم».

«أوَتظن أنّي أبالي برأي أناسٍ من أمثال عمال المناجم الصعاليك القذرين؟».

عندها أخذ مومبليون نفساً حادّاً وسارع بالتقدّم نحوه. صحيحٌ أن الكولونيل ضخم البنية، إلّا أنّ السيد مومبليون فاقه بطول القامة، ورغم أنني لم أستطع معاينة وجهه من مكاني، لكنني تخيلته متجهّماً تماماً كما غدا ليلة مقتل إنيس عند أطراف الوادي. رفع الكولونيل يده وانحنى بكفّه إلى الأسفل في لفتة تهدئةٍ ثم خاطبه بالقول: «اسمع يا رجل... أنا لا أنتقص من الجهود التي بذلتها اليوم، فالعظة التي ألقيتها رائعةٌ بالفعل وتستحق كلّ الإطراء؛ كما أنني لا أتهمك باقتراف الخطأ حين أقنعت رعيتك بالمكوث اتّباعاً للبرّ والتقوى... بل على العكس، أظنّك فعلتَ عين الصواب بمنحهم بعض الطمأنينة، فلا خيار آخر أمامهم».

(لا خيار آخر أمامهم)... شعرتُ أني أهوي مَن أوج الغبطة... من علياء الطمأنينة التي شيدتها عظة مومبليون في ذلك الصباح... فأيُّ سبيلٍ أمامنا بعد كلّ شيء؟ ربما لو أن طفليَّ على قيد الحياة لاتخذتُ قراراً ما، لعلّ أفكاري المضطربة قادتني برحلةٍ بائسة إلى وجهةٍ غامضة؛ لكن لا... أشكُّ في ذلك، لأن اختياري سيرسو عند تحذير أفرا لأبي من أهوال التخلّي عن سقفٍ يأوينا ورغيفٍ يسدّ رمقنا، ومن المخاطرة بالمضيّ في دروبٍ

مجهولة تحت وزر الشتاء دون ملاذٍ واضحٍ نقصده. لم ترحّب القرى يوماً بالمشردين في هذه الأنحاء من البلاد، بل خذلت قاصديها على الدوام. أيّ ازدراءٍ سنلقاه بمجرد تفوهنا باسم البلدة التي جئنا منها؟ لا بدّ أن الهروب من الخطر سيعرّض طفليّ لظروفٍ أسوأ من مكوثهما بين ثناياه. لكن مرقدهما في فناء الكنيسة الآن يذهب بحجة الرحيل بعيداً عن الطاعون الذي انتزع مني أغلى ما أملك، أما ما تبقى من حياتي فبالكاد يستحق عناء النجاة. أيقنتُ بعد ذلك أنه لا فضل لي بقسم البقاء، لأن رغبتي بالعيش باتت يسيرة ولا مكان آخر أذهب إليه.

ابتعد الكولونيل عن القسيس متّجهاً نحو مكتبه من جديد، محملقاً برفوف الكتب هذه المرة، متابعاً حديثه بغير اكتراثٍ مُفتعل: «لكن لا يزال لديَّ الخيار الذي أترك لفطنتك الحادة الأخذ به... فهلّا سمحت لي بالإدلاء باقتراحاتٍ عظيمةٍ ملائمة! يمكنك على سبيل المثال الحصول على درايدن[1] أو ميلتون[2]. لعلّ ميلتون الأفضلٍ! فموضوعات درايدن طموحة، لكن أشعاره تنحو بقُرّائه نحو الملل إلى حدّ ما، ألا تعتقد ذلك؟».

«أيها الكولونيل برادفورد» صدح صوت مومبليون في القاعة: «تنعّم بكتبك... تنعّم بها الآن، فالكفن لا جيوب له! قد لا تبالي بقدَرِ هذه البلدة، ولا تكترثْ لأمر هؤلاء الناس، لكن لا يزال هناك من يهتمّ بهم ويحبّهم بسخاء. تأكّد أنه وحده من عليك مواجهته. أتوانى عادةً عن التطرّق لتأديب الرّب، لكنني أبشّرك أن جام غضبه سيحلّ عليك، ستتجرّع كأس انتقامه الرهيب!.. اجزع لذلك أيها الكولونيل! فمهابة العقاب أشدّ بكثيرٍ من الإصابة بالطاعون!».

التفت القسيس عائداً نحو فناء الدارة، امتطى أنتيروس وعدا مبتعداً.

1- جون درايدن John Dryden (1631-1700) أحد أشهر شعراء وأدباء إنجلترا خلال عصره، كما كتب في مجالات أخرى كالمسرح والنقد الأدبي والترجمة، لمع خلال عصر عودة الملكية. يتبع المذهب الكاثوليكي الروماني، وكان من أشد الناس دفاعاً عن الدين والكنيسة الكاثوليكية.

2- جون ميلتون John Milton (1608-1674) شاعرٌ وعالمٌ وكاتبٌ إنجليزي، يعدّ من أبرز شعراء الأدب الإنجليزي إلى جانب جيفري تشوسر وويليام شكسبير.

لم يهمس أحدٌ في الشارع عندما خرجت عربة برادفورد من القرية متجهةً صوب طريق أكسفورد. رفع الرجال قبعاتهم وانحنت النساء كما فعلن على الدوام، فهذا ما اعتاد الجميع القيام به، باستثناء الحوذي الذي كان من المقرّر التخلّي عنه مع وصولهم إلى أكسفورد. لم يُبقِ آل برادفورد على أيٍّ من خدمهم داخل الدارة، كما كلّف الكولونيل في ذلك الصباح اثنين لم يعملا لديه من قبل من أولاد هانكوك بمهمة الحراسة. أخبرهما عن عدم ثقته بخدمه وخشيته ألّا يُبقوا زملاءهم بعيداً عن المزرعة المقفلة لأجلٍ غير مسمّى. مشهدٌ طال وانتهى بركوع أولئك النسوة المفتقدات لأيّ مكانٍ يذهبن إليه، المتشبثات بعربة برادفورد وبأطراف معاطف سيداتهن، متوسّلاتٍ يقبّلن أقدام الكولونيل. بدت السيدة برادفورد مع ابنتها على وشك الإذعان لمطالب خادماتهن، فطلبتا من الكولونيل فيما لو كان بالإمكان أن يأوي اثنتين أو ثلاث من الشابات في الإسطبلات أو في الغرفة المشيّدة فوق البئر، لكن الكولونيل برادفورد عارض ذلك بشدّة.

كما يحدث عادةً، الجيوبُ الغنية شحيحةٌ بالخير ضنينة، فيما يبسط الفقراء بالعطاء أيديهم. مع حلول اللّيل، حظي جميع خدم آل برادفورد بالترحيب والإقامة في منازل عائلات عدة من أهالي البلدة، جميعهم باستثناء ماغي وبراند صبي المخزن المنحدرة أصولهما لـ باكويل، واللّذين قرّرا العودة إليها أملاً بأن يستقبلهما أبناء جلدتهما، خاصةً وأنهما لم يُلزما بما بتنا ندعوه «يمين الأحد». قام القسيس بتحميلهما رسائل كتبها إلى القرى والبلدات المحيطة، كي يعرف الجميع في أقرب وقتٍ ممكن أسلوب المعيشة الذي عزمنا على المضيّ فيه. كان هذا جلّ ما رافقهما، إذ بعد مسارعة ماغي لجمع قفافها، قرّرت في النهاية أن تتركها وراءها تجنّباً لخوف أقربائها من تسلّل عدوى الطاعون إليها. غادرتْ ماغي البدينة بذراعٍ متكئةٍ إلى كتف براند النحيل سيراً على الأقدام. أشكُّ بأن قلةً من أهالي القرية لم يغزوهم الحسد حين التفتا ملوّحين عند أطراف الحدود الحجرية.

اقتنع من بقي منّا بالعيش داخل السجن الأخضر الفسيح الذي اخترناه. غدا الطقس دافئاً في ذلك الأسبوع مذيباً الثلوج في الطين اللّزج. من شأن اليوم الذي يعقب انصهار الجليد عموماً، أن يجلب ضوضاء الازدحام إلى

الشوارع، خاصةً وأن الثلوج تُعطّل عربات السائقين وتؤخّرهم عن نقل البضائع والمسافرين الراغبين بالتوجه إلى مكانٍ ما عبر طريق البلدة؛ لكن ذوبان الثلج هذه المرة لم يحمل أيّ جلبةٍ أو صخب. هدوءٌ بدأ يوضّح عواقب القسم الذي حملناه على عاتقنا.

يصعب عليّ شرح كم أثقل اليمين كاهلي، فقد اعتدتُ المغامرة لستِّ مراتٍ في السنة بغية تجاوز البقعة التي أُحتجزنا داخلها في هذه الأيام؛ مع هذا وجدت نفسي في صباح الاثنين، أخطو صوب الحدود الحجرية المتاخمة للقمة المرتفعة، تماماً عند الحافة التي ينحدر النتوء الصخري أسفلها بشدة وصولاً إلى سفح التلة التابعة لقرية ستوني ميدلتون. لطالما ضجّ المكان بضوضاء خطواتنا الصغيرة في أزمنةٍ خلت. كم أحببنا العدو عبر المرج المنحدِر بتهورٍ طائش، لتتعثّر أقدامنا من زخم الاندفاع وينتهي المطاف بنا متخبطين بالقاع الموحل بأذرعنا النحيلة ورُكَبنا المخدوشة، كنتُ في كثيرٍ من الأحيان أعاود تسلّق الارتفاع الصخري الصلد رغم معرفتي بأني سأواجه الضرب المبرح لتلويث ثيابي وتمزيقها. ها أنا ذا أعتلي المكان بقلبٍ يتوق للعدو في المنحدر المحظور.

جردتِ العاصفة الأوراق عن أشجار الزان البرونزية وأجمة البتولا الصفراء، فتبعثرت متعفّنةً داكنة، وانجرفت مع الثلوج الذائبة إلى حوافّ الطريق. لمحتُ البنّاء مارتن ميلن ينقّبُ بعض الصخور ويوسّع حُفَرها لتيسير طريقتنا الجديدة الغريبة في تلقي السلع ودفع أثمانها. لقد صدح طرق إزميله برنينٍ وصل إلى القرية باكراً كقرع الجرس، ما جلب القرويين لمراقبة العمل وترصّد العربة المحمّلة بالبضائع عند السفح مع سائقها، يتقدمها بغل انحنى برأسه ليرعى. قام السيد مومبليون بتوجيه السيد ميلن بحفر الصخور عميقاً بما يكفي لملئها بالخل ووضع النقود المعدنية داخلها. بدا من الجليّ أن رسائل القسيس فعلت فعلها، لأن السائق لم يحرّك ساكناً بانتظار تلقّي إشارة البدء بأول عملية تسليمٍ للبضائع الأساسية، كالدقيق والملح والسلع الضرورية، مضافاً إليها حاجياتٌ شخصية طلبها بعض أهالي القرية ضمن قائمةٍ مدوّنةٍ وضعها القسيس قرب الصخرة مرفقةً بلائحةٍ منفصلة لأسماء القرويين الذين لقوا حتفهم، بغية إعلام الأقرباء والأصدقاء من أهالي القرى

المجاورة المتألمين لمصابنا. تضمنت قائمة اليوم الأول ثلاثة أسماء: مارثا براندز ابنة صاحب النزل، جود وفيث هاميلتون، الأخ والأخت المعتديان على عائلة غاودي واللّذان دُفنا في قبرين متجاورين.

حين أُنجز كلّ شيء لوّح السيد مومبليون لسائق العربة، ثم تراجعنا جميعاً لمسافةٍ آمنة حتى قاد الرجل حمولة بغله إلى أعلى المنحدر، حيث أفرغها بالسرعة الممكنة، ثم أخذ النقود والقوائم والتفت نحونا وصاح ملوّحاً: «فلتحلّ صلواتنا ودعواتنا رحمةً عليكم جميعاً! وليرأف الرّبُّ بصلاحكم!». ثم ركب بغله وقاده مبتعداً بأمان.

تنفّس السيد مومبليون الصعداء جانبي، لكنه سرعان ما تلمّس الحزن الذي أغرقنا جميعاً، فاستجمع قواه باسماً وخاطبنا بنبرةٍ مرتفعةٍ كي نسمعه: «كما ترون... جميع البلدات من حولنا تصلّي لأجلنا الآن. لقد بتّم نموذجاً للصلاح أيّها الإخوة الأعزاء! وسيصغي الرّب بكلّ تأكيد لهذه الدعوات ويتغمدنا برحمته!». التفتتِ الوجوه المكفهرّة إليه بملامح صارمة، إذ لا زال لدينا الوقت الكافي للتفكير في جديّة قرارنا والتفطّن فيما ينتظرنا. أما السيد مومبليون -أقرُّ له بالبراعة- فقد أدرك قبلنا هذا الأمر. حين طفقنا عائدين عبر طريق القرية لينجز كلٌّ منا المهام المختلفة الموكلة إليه، تنقّل القسيس من مجموعةٍ صغيرةٍ إلى أخرى واهباً عبارات الدعم، رافعاً معنويات معظم الأشخاص بعد التحدّث إليهم.

بلغنا الدرب الرئيس المؤدي إلى القرية، فتوقّف البعض ممن رافقونا إلى الحدود الحجرية للحديث مع الغائبين لإعلامهم عن طريقتنا الجديدة الغريبة في الحصول على السلع. أما عني فكان عليّ إنجاز الأعمال الصباحية في منزل القسيس، لذلك سرتُ مع السيد مومبليون الذي غرق في أفكاره طوال الطريق، فالتزمتُ الصمت كي لا أزعجه.

استقبلتنا إلينور مومبليون عند الباب وقد وضعت شالاً على كتفيها استعداداً للخروج. أعلمتني أنها بانتظاري لأساعدها في إنجاز مهمةٍ في مكانٍ ما، ثم أخذت ذراعي بنفاد صبرٍ وقادتني مندفعةً عبر الطريق قبل أن يتمكّن القسيس من التقاط أنفاسه ليسألها عن طبيعة العمل أو المكان الذي نقصده.

لطالما مشتِ السيدة مومبليون بخطواتٍ سريعة، لكنها كانت تعدو هذه المرة فأخبرتني على عجل بما حدث: «أتى راندول دانيال هذا الصباح وأعلمني أن زوجته في حالة المخاض، ومع رحيل نساء غاودي لم يعرف ممّن يطلب المساعدة... لذلك وعدته أننا سنوافيه في الحال».

توجّستُ لسماع هذا، إذ كنتُ في الثالثة من عمري حين شهدتُ والدتي تعاني من المخاض لأربعة أيّام، حاولتْ خلالها ميم غاودي عبثاً أن تغيّر وضعية الطفل الذي تمدّد في أحشائها عرضيّاً. في النهاية فقدت أمي وعيها من شدة الإنهاك، فيما مضى والدي في طريقه إلى شيفيلد ليعود أخيراً مع حلّاقٍ جرّاحٍ اصطحب صبيّاً برفقته. بدا لي الرجل الذي لفحته الرياح وتقشّر وجهه مرعباً، ولم أستطع أن أصدق أن يديه القاسيتين ستلمسان جسد والدتي الرقيق.

استخدم الحلاق الجرّاح نصلاً حادّاً لم يشعر والدي الثمِل إزاءه بالخوف، ولم يفطن لأنّ يبعدني عن الغرفة التي هرعتُ داخلها مع صرخات والدتي من شدّة الألم الذي أعاد لها وعيها. أمسكتني ميم وحملتني بعيداً، لكن ليس قبل أن ألمح ذراع أختي الصغيرة الميتة. في الحقيقة ما زالتْ تتراءى صورتها أمامي... بجلدها الشاحب المتغضّن وأصابعها المكتملة المنبسطة كزهرةٍ غضةٍ ممتدّةٍ نحوي. ما انفكتْ رائحة الدماء تعبق بأنفاسي مع مشاهد القذارة التي لطّختْ ذلك السرير الرهيبَ، يضاف إليهما الذعر الذي رافق مخاضي بطفليّ.

شرعتُ بإخبار السيدة مومبليون بعدم قدرتي على مرافقتها، وعن جهلي بمزاولة المهام الخاصة بمهنة القبالة، لكنها قاطعتني بالقول: «إن القليل الذي تعرفينه يفوق معرفتي بكلّ الأحوال... أنا التي لم أختبر المخاض بنفسي من قبل، ولا شهدت حتى ولادة نعجة، لكنكِ فعلتِ يا آنا وتعرفين ما يجب عليكِ فعله، وأتعهّد بتقديم المساعدة قدر استطاعتي».

- «سيدة مومبليون! الولادة شيء والقبالة شيءٌ آخر يفتح الباب على مهاراتٍ كثيرة. كما أنها ليست نعجة بالمخاض، بل روحٌ بشريةٌ حيّة. إنكِ لا تدركين حجم ما تطلبينه مني، خاصةً أنّ المسكينة ماري دانيال تستحق من هنّ أفضل خبرةً منّا!».

- «ذلك صحيحٌ دون شكٍّ يا آنا، لكنها لا تملكُ أحداً لمساعدتها سوانا. آه... لعلّ السيدة هانكوك تفوقنا خبرةً بفعل ولاداتها السبع، لكن ابنها الثاني أصيب بالمرض البارحة، ولا أعتقد أن بإمكانها تركه والمجيء. ليس من الحكمة في الوقت ذاته المخاطرة بحمل عدوى طاعونٍ حديثة إلى حجرة المخاض، لذلك سنبذل قصارى جهدنا لمساعدة ماري دانيال، فالمرأة فتيةٌ قوية البنية وستظلّلها رحمة الرّب لتيسير أمر ولادتها».

ربّتتْ على سلة القشّ التي حملتها إلى خاصرتها وأردفت بالقول: «أحضرتُ بعض الخشخاش لتسكين أوجاعها».

هززتُ رأسي مخالفةً رأيها وعلّقتْ: «لا أظن أيّتها السيدة مومبليون أنه عليها تجرّع الخشخاش، فالولادة لا تحدث كيفما اتفق، بل تستدعي جهداً حقيقيّاً من الأمّ كي تدفع طفلها حتى الخروج. سنكون في وضعٍ حرجٍ إن غاب وعيها تحت تأثير الخشاش المخدّر».

«أرأيتِ يا آنا! لقد قدّمتِ للتوّ المساعدة لي وللسيدة دانيال. لديكِ من المعرفة أكثر بكثيرٍ مما تعتقدين».

مع اقترابنا من كوخ عائلة دانيال سارع زوجها المتلهّف المترقّب إلى فتح الباب على الفور. وجدنا ماري وحيدةً فوق فراش القش العائد لحجرة النوم في العلية. إذ قام راندول خشيةً من الطاعون بإبعاد الجارات والصديقات اللّواتي كن سيملأن الغرفة كما جرت العادة. كما أغلق النوافذ والأبواب، وعلّق ملاءةً فوق المدخل ما أخمد أضواء الغرفة بالكامل لدرجة استغرق الأمر بضع لحظاتٍ قبل تمكّني من رؤية ماري الجالسة في فراشها بظهرٍ أسندته إلى الحائط وركبتين ضمتهما إلى صدرها. بدتْ هادئةً جدّاً، لكن حبيبات العرق التي تقطّرت على جبينها والأوردة المشدودة في عنقها الفتيّة جعلتني أدرك أننا في خضم موجة مخاضٍ عنيفة.

حرص راندول على إشعال نارٍ قوية في الموقد لدفع البرد القاسي عن الغرفة، فطلبتْ منه السيدة مومبليون تسخين الماء وإحضار قليلٍ من الزبدة المخضوضة الطازجة، والتي عبقت بأنفاسي أثناء ولادتي الأولى؛ أما في المخاض الثاني وبغياب الزبدة عن كوخنا، طلبتْ ميم غاودي بعضاً من

خلاصة شحم الدجاج الذائب كي تستخدمه في تدليك وتلين موضع خروج الرأس الكبير لطفلي دون تمزيقي؛ ظلّتْ رائحة شحم الدجاج تفوح مني ومن توم طوال أسبوعٍ بعد ولادته. تمنّيتُ ألّا تلحظ ماري ارتعاش يديّ في الضوء الخافت، لكن بمجرد اقترابي منها قلبتْ عينيها نحو الداخل وأغلقتهما. تنبّهتْ إلينور مومبليون لجزعي، فوضعت يدها على كتفي لطمأنتي. جثوتُ ورفعتُ الغطاء عن ركبتي ماري، وبلطفٍ شديد أبعدتُ قدميها براحة يدي، أدركتِ المرأة مبتغاي فأبقتهما منفرجتين. ردّدتُ تعاويذ إنيس التي لم أفهم معانيها: «فلتوجّه الجهات السبع هذا الدواء بفعالية...». رمقتني إلينور بنظرةٍ غريبة لكنني تجاهلتها متابعةً الترتيل: «ليكن هذا إرضاءً لجداتي القدامى، ولتكن المشيئة».

كانت ماري دانيال امرأةً شابة مفعمةً بالحيوية، تبلغ من العمر نحو عشرين عاماً، شعرتُ بعضلات جسدها القويّ السليم تحت ملمس يديّ. هناك اختلافٌ كبيرٌ -كما قلت- بين غرز اليد بعجزِ نعجةٍ ولّادة وبين انتهاك جسد امرأةٍ حيّة. حاولتُ إقصاء الفكرة المتماوجة بحدةٍ بين الحياء والاعتداء، وأخذتُ نفساً عميقاً بدلاً من ذلك. استحضرتُ امتناني الجزيل لأيادي نساءٍ قدّمن لي العون، وجربتُ التحلّي بالثقة والهدوء اللّذين ميزا ميم وإنيس غاودي خلال إشرافهما على ولادة طفليّ. لستُ قابلةً هادئةً أو واثقة، ولا أملك مهارات التوليد، لكن عندما ولجتْ أصابعي داخل ماري شعرتُ أن جسدها مألوفٌ بالنسبة إليّ كما لو أنه جسدي. رغم أن السيدة مومبليون قرّبت شمعة، لكن الجسّ ما أرشدني في عملي وليس النظر. كانت الأنباء التي نقلتها أصابعي جيدةً في البداية وسيئةً فيما بعد. تلمّستُ حافةً صغيرةً قاسية عند عنق الرحم أعلى المهبل، فهمستُ لماري بغبطةٍ بأننا تجاوزنا الجزء الأصعب من المهمة. تأوّهتْ بأنينٍ سمعناه لأول مرّة، ثم رسمتْ ابتسامةً طفيفةً على محياها، سرعان ما غابت مع اشتداد موجة المخاض التالية، أبقيتُ أصابعي في مكانها، بينما مسّدتْ إلينور مومبليون شعرها حتى انتهائها.

أقلقني ما تلا الانقباض ذاك، إذ كان من المفترض -حسب علمي- تلمّسُ جمجمة الجنين الصلبة، إلّا أنني بدلاً من ذلك شعرتُ بلحمٍ طريٍّ

للطفل الموشك على الخروج، ولم أميّز بدايةً إن كان ذلك الجزء يعود للمؤخرة أو الظهر أو الوجه. سحبتُ يديّ وتحدّثتُ بلطفٍ مع ماري مشجّعةً إياها على المشي إن استطاعتْ. اعتقدتُ أن الحركة تحرّض الطفل فيعدّل وضعيته في الاتجاه الصحيح. أسندتها السيدة مومبليون من الجانب الأيمن بينما أمسكتُها من الطرف الأيسر، وشرعنا بالصعود إلى العلية الصغيرة والنزول منها مرة تلو مرة. شرعت السيدة مومبليون بدندنة أغنيةٍ إيقاعية بلغةٍ لم أعرفها فأوضحت بالقول: «أغنية من كورنويل[1]... كانت مربيتي الكورنويلية تغني لي دائماً عندما كنتُ طفلة».

مرّ الوقت... ساعة وربما ساعتان أو ثلاث ساعات. تلاشى من الحجرة المظلمة أيّ إحساس بالضوء أو بانقضاء النهار الذي توارى على مهلٍ لما بعد الظهيرة. أما الشعور بالزمن فقد ارتبط بموجات الألم المتزايدة التي قاستها ماري وأردتها منهكةً فوق الفراش. انتظرتُ قدوم موجة تقلصاتٍ جديدة فدسستُ أصابعي بسرعةٍ داخلها لاستشعر عنق الرحم وقد اتسع إلى أقصاه، لكنني لم أعثر على أيّ طرفٍ للطفل، فأدركتُ دون أيّ شك أنه استدار بشكلٍ عرضي ليتصاعد هلعٌ مريعٌ إلى رأسي مع صورة حافة النصل المُدمّى العالق في ذاكرتي.

ثم -وعلى نحو مفاجئ- تراءتْ لي إنيس المشاكسة، وقفتْ بجانبي وهمستْ بأذني بصبرٍ نافد: «ذلك الرجل لم يكن سوى حلّاق للبحّارة، يقتلع الأسنان ويبتر الأطراف، لا يعرف شيئاً عن أجساد النساء... لكنكِ تعرفين... باستطاعتكِ القيام بذلك يا آنا... استخدمي يدي الأم الرؤوم».

بلطفٍ بعد ذلك... بغاية الرّقة... استشعرتُ ملامح جسد الطفل الصغير الذي لم يولد بعد، تلمّستُ التكتلات والانحناءات لأرى إن كان بمقدوري التعرّف عليها، اعتقدتُ أن ما أحتاجه هو الإمساك بالقدم، فإن استطعت تحريك القدمين ستنزلق الأرداف إلى موضعها الصحيح بكلّ تأكيد، وسأتمكّن عبر الردفين من القبض عليه بإحكام. التقطتُ ما بدا قدماً، لكني خشيت من أن تكون يداً بدل ذلك، فاليد كانت آخر ما أريده، لأن سحب اليد

1- كورنويل Cornwall: مقاطعة إدارية سابقة في جنوب غرب إنجلترا.

بالخطأ لن يحرّر الكتف ما لم يتهشم، فتنزلق عظامه متصدّعةً بعضها فوق بعض. لم أحتمل التفكير في ذلك، لكن كيف بوسعي التيقّن أن ما ألمسه هو القدم؟ فلا اختلاف كبير بين أصابع طفلٍ حديث الولادة وبين براعم قدميه اللّحمية الصغيرة.

لاحظتْ إلينور مومبليون تجهّمي وأحسّت بتردّدي، فسألتني بصوتٍ خفيض: «ما الخطب يا آنا؟»، فشرحت لها مأزقي فأجابت: «تحسّسي الإصبع الخامس بالعد... حاولي الآن ثنيها، هل تقاوم كإبهامٍ أم لا؟».

صرختُ مذعورة: «لا!»، ثم بثقةٍ أكبر: «إنها إصبع قدم!»، سحبتها فتحرّك الطفل قليلاً... وبالعمل رويداً رويداً مع انقباضات جسد ماري أخذتُ أجرّه صوبي. واجهتْ ماري القويّة الوجع الفظيع بشجاعةٍ بالغة، ومع تدلي القدمين أخيراً عبر عنق الرحم المفتوح، تسارعت الوتيرة وجرى كلّ شيءٍ على عجالة. كنتُ على يقينٍ أنه لا يجوز بأيّ حالٍ من الأحوال خروج الحبل السّرّي قبل رأس الوليد، لذلك أدخلتُ يدي بصعوبةٍ بالغة وأرجعتُ الحبل خلف وركيه، فصرخت ماري منتفضةً من حدّة الألم. شعرتُ بالعرق الحارّ يتصبب وينساب على طول ظهري... سيولد الطفل خلال الدقائق القليلة القادمة، كنتُ واثقةً من ذلك مع خشيتي من رجوع الرأس للخلف فيُحصر في الداخل؛ لذا حاولتُ خلال الانقباض التالي تلمّس الفم الصغير، وأدخلتُ برفقٍ إصبعاً فيه لأمسك الذقن وأشدّها إلى الأسفل كي ينثني الرأس. تلوّتْ ماري تحت وطأة أوجاعها المبرحة، ثم استسلمتْ يائسةً محجمةً عن بذل مجهودٍ أخير حتى كاد الطفل أن يتراجع للخلف ثانيةً... صحتُ بوجهها لأحثّها على الدفع والضغط بقوة، فاستجابت دافقةً بالدماء والسوائل البنية. انزلق الصبي الصغير أخيراً وأخذ يصرخ بعد لحظةٍ من تحرّره.

اندفع راندول عبر الملاءة التي أغلقت الباب مع سماعه لصوت ابنه المفعم بالحياة، وبيد عامل المنجم الضخمة شرع كالفراشة يربّت مرّةً على رأس الطفل المندّى وتارةً على وجنة زوجته المتورّدة، وكأنه لم يدرك أيّاً منهما بحاجةٍ إلى لمساته أكثر من الآخر. فتحتْ إلينور مصارع النوافذ بينما كنت أجمع الخرق الملطّخة، وحالما تسلّل الضوء الخافت إلى الغرفة تذكّرتُ أننا لم نقطع حبل السرة، فأرسلنا راندول لإحضار سكينٍ وخيط

ريثما تنفث ماري مشيمتها. قطعته السيدة مومبليون ثم ربطتْ جزأه العلوي. نظرتُ إليها فرأيتها بحالةٍ يُرثى لها وقد لطّختها الدماء، لا بدّ أن مظهري بدا أكثر سوءاً، ثم انفجرنا ضاحكتين واحتفلنا بالحياة لساعةٍ من الزمن سرقناها من موسم الموت القاتم.

أيقنتُ في نهاية النهار وجوب ترك الصغير ليرضع من ثدي أمه والعودة إلى كوخي الصامت الخاوي، حيث تستقبلني أشباح طفليّ الفقيدين.

قبل مغادرتي لمنزل آل دانيال لمحتُ قارورة الخشخاش في سلة السيدة مومبليون، نشلتها بخفّة لصٍّ متمرّس وأسقطها خلسةً في ردن ثوبي.

-8-

عاجلاً سنكون تراباً[1]

ضبابٌ نديٌّ كثيفٌ غطّى وجه الوادي في ذلك الصباح البارد، ما حجب الرؤية عن العربة التي تقدمت ببطءٍ صاعدةً التل. لقد عادتْ ماغي كانتويل إلى القرية تقلّها عربة جرٍّ يدوية وقد انحنى خلفها شخصٌ نحيلٌ تحت وطأة الحمل الثقيل.

هرع يعقوب ميريل -الأرمل القاطنُ بالقرب من الحدود الحجرية- من مسكنه ملوّحاً من بعيد لسائق العربة، متكهّناً أنه على وشك ملاقاة بائعٍ متجولٍ مسكين ضلّ طريقه مقبلاً من بلدةٍ بعيدة، جاهلاً بالخطر المحدق بهذا المكان؛ لكن الصبيّ تابع الخطو متثاقلاً حتى تراءى ليعقوب في النهاية أن الحمولة ليست سوى جسدٍ بشريٍّ منهارٍ بالكامل؛ أما ملامح سائق العربة، فكان من العسير تمييزها حتى بعد انقشاع الضباب. اقترب الفتى خائر القوى ملطّخاً بآثار الفاكهة المتعفنة البنيّة من رأسه حتى أخمص قدميه، فتمكّن يعقوب من التعرّف عليه... إنه براند، صبيّ المخزن التابع لدارة برادفورد.

تعثّر براند بالحجارة والشّوك فتهاوى واهناً فوق قدميه المطويتين. أدرك يعقوب خطورة وضع العائدَيْن، فسارع على الفور بإرسال ابنه الأصغر لإخبار القسيس، ثم قام بتسّخين مرجلٍ من الماء طالباً من ابنته الكبرى جلب ثيابٍ ريثما ينظّف براند نفسه. كنتُ في منزل القسيس مع وصول الولد حاملاً الأخبار، فساعدتُ القسيس في ارتداء معطفه وقلنسوته، ثم طلبت مرافقته لتقديم العون

1- «بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزاً حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ». (تكوين 3: 19)

لصديقتي المسكينة. لمحتُ ماغي التي لم يقوَ يعقوب على حملها، ممدّدةً في العربة وقد دثّرها برداء حصانه لتدفئتها. أول ما خطر في بالي حين رُفع الغطاء أنني أمام جثةٍ هامدة، فقد اصطبغ جسدها بالزرقة من شدّة البرد، بينما تموضعتْ أطرافها بنسقٍ غريبٍ جدّاً... من الجليّ أنّ العربة الضيقة لا يمكن أن تتسع لجسدها البدين، لذا تدلّت ربلتا ساقيها السمينتان وذراعاها الثقيلتان خارج الألواح الجانبية. كما تمزّق أحد جوربيها بمساحةٍ كبيرة، لينكدفع اللّحم عبر الشّق كلحم نقانق متسلّلٍ عبر غلافه. أما وجهها فكان أكثر ما أثار روعي.

لطالما أحببتُ أثناء فترة مراهقتي تصنيع الدمى لصغار أفرا، أشكّل أبدانها من ضفائر سيقان الحبوب، ثم أعجن الطمي الأصفر المتشكّل عند سفوح الأراضي المحروثة، لأثبّت الرأس وأنحت ملامح الوجه. إن لم يرضني عملي في بعض الأحيان، كنتُ أقوم بسحق الوجه بيدي لأبدأ من جديد، محاولةً خلق ملامح أقرب إلى السمات البشرية. بانتِ الجهة اليسرى من وجه ماغي كانتويل نابضةً بالحياة، لكنها ملطّخة ببقايا الفاكهة المهروسة. في حين بدا الجانب الأيمن شبيهاً بمسحة صلصال مشوّهة صفعها صانع فخّار نافد الصبر حتى طمس ملامحها، كانت عينها مغلقةً بالكامل تنزّ فوق وجنتها الذابلة، بينما سال الزبد غزيراً من فمها نصف المفتوح. جاهدتْ ماغي للالتفات برأسها كي ترانا بعينها السليمة، ارتعشتْ قليلاً حين وقع بصرها عليّ وأطلقتْ صوتاً أشبه بالأنين، ثم مدّت يدها اليسرى المرتجفة نحوي. أمسكتُ يدها وقبّلتها هامسةً بأن كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، رغم معرفتي باستحالة ذلك.

لم يُضع السيد مومبليون الوقت في الحديث، بل عجّل مع يعقوب ميريل بنقل ماغي المسكينة من العربة إلى داخل الكوخ، وقد استنفدا كامل طاقتهما لفعل ذلك بالطريقة الصحيحة، إذ بالرغم من أن ماغي لم تفقد وعيها إلّا أنها بالكاد تشعر بما حولها، عاجزةً عن التحكّم بأطرافها. قرفص السيد مومبليون خلفها ثم لفّ ذراعيها حول صدرها وأحاط بهما، بينما أمسك يعقوب بساقيها البدينتين. تحدّث القسيس إليها بهدوءٍ محاولاً التخفيف من شعورها بالهوان أثناء حملها إلى الداخل. بان الفتى براند نظيفاً الآن، ملتحفاً ببطانيةٍ خشنة قرب النار. قدمت له تشيرتي –ابنة يعقوب ميريل– كوباً مغليّاً من مرق اللّحم، فأمسكه بشدّةٍ بيديه كلتيهما لدرجةٍ ظننتُ أنه سيكسره. رفعتِ الابنة

بعد ذلك ملاءةً علقتها كستار حين جردتُ ماغي من ردائها المتسخ، ثم قمت بغسلها. جلس السيد مومبليون بجانب براند مستفسراً بلطفٍ عمّا حدث.

بدأت رحلتهما هادئةً عبر قرية ستوني ميدلتون، فقد عبّر الناس لهما أثناء مرورهما هناك عن دعواتهم الطيبة مع إبقائهما على بعد مسافةٍ آمنةٍ، حتى إنهم تركوا لهما بعضاً من كعك الشوفان وقـارورةً من المِزر عند شاهدة الطريق؛ كما سمح لهما أحد المزارعين بالمبيت ليلاً بين أبقاره في حظيرةٍ دافئة. إلّا أن المشاكل بدأت تنهال عليهما في بلدة باكويل الكبيرة، وذلك منذ لحظة وصولهما وقت الظهيرة في يوم التسوّق، حيث الشوارع مكتظة بالبائعين والمشترين؛ فجأةً! تعرّف أحدهم على ماغي وأخذ يصرخ: «احذروا! احترسوا من هذه المرأة القادمة من قرية الطاعون!».

ارتعش براند بعد ذلك وتابع سرد ما جرى: «فليسامحني الرّب، لأنني هربت وتركتها في مواجهتهم وحدها. كنت على يقينٍ أن أحداً لن يتعرّف عليّ، فقد خرجتُ من باكويل مذ كنتُ صبيّاً صغيراً، وتغيّرتُ كثيراً منذ ذلك الحين. ظننتُ أنه يمكنني التوجّه صوب عائلتي بأمان إن فارقتُ ماغي». لكن براند لم يبتعد كثيراً قبل أن تعيده طيبة قلبه. «سمعتُ صراخاً، فأردتُ التأكد إن كانت بخير. فلا أنسى معاملتها الرحيمة لي في تلك الدارة الجلِفة... آه، صحيحٌ أنها ضربتني مرةً أو اثنتين بالملعقة الخشبية لمعاقبتي على عدم إنجاز عملي على النحو الصحيح، لكنها وقفت إلى جانبي في أحيانٍ كثيرة أيضاً؛ لذلك رجعتُ متسلّلاً واختبأتُ وراء كشكٍ لبيع الخضروات لأراقب ما يحدث. كانوا يلتقطون التفاح الفاسد الملقى في معلف الخنازير ويرمونه على ماغي، يصرخون ويهتفون: اخرجي! اخرجي! اخرجي! صدقوني... لقد حاولتْ مغادرة البلدة بأسرع ما أمكنها، لكنكم كما تعرفون لا يمكنها التحرّك بخفة، هذا عدا عن ذهولها وارتباكها من عويل الحشود وضوضائهم ما أدّى إلى ترنّحها من جهةٍ إلى أخرى. هرعتُ إليها آنذاك واختطفتُ ذراعها، وبدأنا نجري بينما استمروا برشقنا بالثمار الفاسدة... ثم أصابها عجزٌ تامٌ عن الحركة من شدّة الهلع، حتى إن قدمها اليمنى طُويت على نحوٍ مفاجئ وكأنّها منسوجةٌ من الخيوط. فصرختْ مستنجدة: ساعدني يا إلهي، أشعرُ وكأنّ خنزيراً من الرصاص موثوق بساقي. كانت تلك العبارة الأخيرة

التي سمعتها منها، إذ انهارتْ في منتصف الطريق، ما شجّع الجموع على التنكيل بنا على نحوٍ أفظع، طفلٌ أو اثنان قاما برجمنا بالحجارة... فكّرتُ لو حذا الجميع حذوهما، لا بدّ ستُعلن نهايتنا بلا أدنى شك.

أيّها القسيس مومبليون لن تُسرّ كثيراً لسماع ما فعلتُ بعد ذلك... فقد سرقتُ العربة من أقرب كشكٍ للبيع، وبطريقةٍ ما استجمعت قواي لأضع ماغي داخلها. لم يقم صاحب العربة بمطاردتي رغم أن شتائمه لاحقتني لمسافةٍ بعيدة. لعلّه اعتقد أن العربة باتت ملطّخةً بالطاعون، ففضّل عدم استعادتها. منذ ذلك الحين ونحن نسارع في طريقنا مذعورين من أيّ توقّف، متحاشين الاختلاط بأيّ حشدٍ آخر قد يتعرّف علينا». خرّ بعدها منهكاً وبدأ بالنشيج.

طوّق مايكل مومبليون أكتاف الفتى المرتجفة بإحكام مهدّئاً من روعه بنبرة دافئة: «لقد أبليت حسناً يا براند حتى بأخذك للعربة التي يمكنك إعادتها في يوم ما بعد أن تنقضي هذه المحنة... فليطمئن قلبك حيال ذلك. لكن لا تفكّر في الأمر حتى مجيء ذلك الوقت، كن متيقناً أنك فعلت عين الصواب. لقد استطعتَ الهرب بحثاً عن برّ الأمان، وأرشدك قلبك الطيب إلى إيجاد مخرجٍ بهذه الطريقة». تنهّد بعدها متابعاً: «الطاعون سيجعل منا جميعاً أبطالاً، سواء أردنا ذلك أم لم نرد، أما أنت فأول أبطالنا».

أحضرت تشيرتي طبقاً من مرق اللّحم لماغي. حاولنا سندها لتجلس، ثم سكبتُ القليل منه في الجانب السليم من فمها، لم يُجدِ ذلك نفعاً، لأن لسانها لم يقوَ على البلع أو الحركة لتمرير الحساء إلى الحلق، فخرج منساباً أسفل ذقنها. جرّبتُ غمس قطعةٍ صغيرةٍ من كعك الشوفان في الحساء وإطعامها لكن دون جدوى، فالمرأة المسكينة ليست قادرة على المضغ بأيّ حالٍ من الأحوال. اغرورقت عينها السليمة بدمعةٍ انهمرتْ وانسابت ممزوجةً بالحساء المنسكب على ذقنها. مسكينةٌ ماغي! لطالما كان الطعام سبيل عيشها وحياتها، ما الذي سيحلّ بها إن لم تستطع الأكل؟

«لعن الله برادفورد» خرجت العبارة من فمي دون أن أشعر أني تفوّهتُ بها، فالتفت القسيس مومبليون نحوي، وقال دون توبيخ توقّعته: «لا تزعجي نفسك يا آنا... أنا على يقينٍ أنه واقعٌ تحت وطأة اللّعنة التي يستحق».

لا بدّ أن رعاية ماغي كانتويل تشكّل عبئاً كبيراً على كاهل يعقوب ميريل

المسكين، الذي يكدّ لتربية ابنته التي بلغت العاشرة وابنه الذي لم يتجاوز السادسة بعد في مزرعةٍ صغيرة لا تحتوي إلّا على غرفةٍ واحدة، لكنه عرض تقديم المأوى لبراند ريثما يتمكّن الفتى من العثور على مكانٍ أفضل. رأى السيد مومبليون ضرورة اصطحاب ماغي إلى بيته، لكنني فكّرتُ كم سينهك السيدة مومبليون الاعتناء بمريضةٍ عاجزة، إضافة إلى تلك الواجبات الصعبة الملقاة على عاتقها، فاقترحتُ استضافتها في كوخي إن استطعتُ تأمين وسيلة نقلٍ مناسبة تقلّها إلى هناك. خمّنتُ أن ماغي في حالتها وظرفها الراهن لن تكون مسرورةً على الإطلاق بالإقامة في مكانٍ جثم الطاعون فيه يوماً؛ ثم عزمنا على تركها في منزل ميريل حتى صباح اليوم التالي كي تنعم بالراحة والدفء طوال اللّيل.

عندما امتطى مومبليون أنتيروس عائداً إلى بيته، طفقتُ سيراً على الأقدام في الاتجاه المعاكس، قاصدةً حانة سواعد عمال المناجم، علّني أجد عربة خيلٍ هناك لاستخدامها في نقل ماغي في اليوم التالي. كان الجوّ قارساً جدّاً لدرجةٍ تدفّق البخار حارّاً من فمي، فهرولت في درب وجهتي كي أمنح جسدي بعض الدفء. إنّ حانة سواعد عمال المناجم بناءٌ عتيقٌ جدّاً، لعلّه الأقدم في بلدتنا بعد الكنيسة؛ إلّا أنّ مبنى الكنيسة بأركانه القائمة الضخمة يختلف عن الحانة المنتفخة الرابضة الوطيئة تحت سقفٍ من القش. إنها المبنى الوحيد الذي لم يُصنع من الحجارة، بخلاف الأبنية الأخرى في هذه القرية، بل من الجذوع الخشبية المكسوة بالألواح المقطّعة المطلية بالكامل بملاط شعر الحصان[1]. انحنت العوارض وتقوّست مع مرور السنين، ما جعل واجهة المبنى تبرز إلى الأمام شبيهةً ببطونِ الرجال المتدلية الذين يرتادونها لاحتساء الكثير من المِزر. صحيحٌ أن الحانة والكنيسة تعتبران مكانين يضمّان لفيفاً من ذوي الشأن، لكن الحانة لا تزال ملاذاً للباحثين عن ملذات سكرهم، إضافةً إلى كونها مضافةً لاجتماعات هيئة عمال المناجم ومحكمة التعدين، حيث تُقرّر جميع المسائل الحيوية المتعلقة بالتنقيب والملكية والتسويق لمعدننا الخام المُختلف عليه.

تضمّ حانة عمال المناجم قاعة محكمةٍ كبيرة وخمّارةً فسيحة الأرجاء

1- أُضيف شعر الحيوانات قديماً إلى اللصقات الجيرية المُستخدمة في البناء لمنحها صلابةً أشد.

ذات سقفٍ منخفضٍ جدّاً، لدرجة أن معظم عمال المناجم عليهم أن يحنوا رؤوسهم لدخولها. وجب عليّ في يومٍ مريرٍ كهذا المسارعة إلى دخول الخمّارة حيث تتوقد نار الموقد ملتهبةً ناشرةً الدفء في أركانها. احتشد جمعٌ غفيرٌ من الأشخاص في المكان خاصة أنه يوم العطلة، من بينهم والدي الذي بدا وكأنه قد احتسى الكثير من الشراب منذ فترة طويلة، خاطبني بالقول: «ابنتي هنا! تبدين أكثر برودةً من حلمة ثدي الساحرة![1] دعيني أقدم لك المِزر لأعيد بعض اللّون إلى وجنتيكِ، فالشراب يهَبُ المرء دفئاً أكثر من المعاطف المبطّنة، ما رأيك؟».

أومأتُ بالرفض موضّحة انشغالي بالأعمال التي يجب عليّ إنجازها في منزل القسيس، دون سؤاله عمّا يفعله هنا، في حين تنتظره في كوخه أربعة أفواهٍ جائعة.

«آه، بحقّ دم المسيح[2] يا فتاة! إن والدك من يدعوكِ للشراب، يمكنك التخلّي عن بعض الحكمة التي تلقفتِها من ذلك الكاهن الثرثار. ستخبرينه أنك تعلمتِ اليوم الكثير عن برميل الشراب... أن الخير الذي يأتِي به أكثر مما تحمله الأناجيل الأربعة. ستقولين إن الجعة تسوّغ مشيئة الرّب للإنسان أكثر من الكتاب المقدّس! نعم، ستبلغينه بذلك... ستعلمينه أنكِ مكثتِ عند قدمي أبيكِ لتنهلي منه أموراً كهذه وأكثر!».

لا أعلم لماذا لم أستطع منع نفسي من الردّ عليه، رغم أنني -كما قلت سابقاً- لست متزمتةً دينيّاً، حتى لو كنتُ كذلك، علمتني عشرة والدي ألّا أنتقده أمام رفاقه. لكن رأسي -كما ذكرتُ أيضاً- مترعٌ بكلماتِ الكتابِ المقدس، يبدو أن بعض الأسطر من أفسس[3] تدفّقت من فمي من تلقاء نفسها ردّاً على تجديفه:

1- تعبيرٌ استخدم في الإنجليزية القديمة في منتصف القرن السادس عشر للإشارة إلى شدّة البرودة.

2- بحقّ دم المسيح: قسمٌ استخدم منذ العصور الوسطى، عوضاً عن اليمين باسم الرّب الذي كان محرّماً، حسب الوصية التي قالها السيد المسيح في إنجيل متى 5: 34-35: «وأما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا البتة، لا بالسماء لأنها كرسي الله، ولا بالأرض لأنها موطئ قدمه». ويشير هذا القسم إلى دماء السيد المسيح المسفوكة على الصليب.

3- إشارة إلى رسالة القديس بولص إلى أهالي أفسس، وهي إحدى رسائل العهد الجديد في الكتاب المقدس.

«لا تخرج كلمةٌ رديةٌ من أفواهكم، بل كلّ ما كان صالحاً للبنيان»[1]. لقد تعلّمتُ هذه الآية منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً، قبل أن أعرف ما تعنيه كلمة «بنيان».

كان الرجال حوله يقهقهون لكلامه ساخرين مني، لكن قهقهتهم انقلبت عليه حين سمعوا إجابتي الصاعقة.

قال أحدهم: «آهٍ يا يوش بونت، إن صغيرتك تجيد اللّدغ!»، لمحتُ النظرة التي ارتسمت على وجه أبي فأردتُ إسكاتهم جميعاً. صحيحٌ أن والدي وغدٌ محتالٌ في صحوه، لكنه يصبح خطيراً حينما يثمل. عرفتُ أننا دنونا من تلك المرحلة حين تغيّر لونه وتحوّلت ابتسامة ثغره الساخرة إلى الزمجرة.

«لا تظنّي أنكِ بارعة جدّاً باقتباساتك الفاخرة التي لقّنكِ إيّاها ذاك الكاهن وزوجته» قال ما قاله بيدٍ تقبض على كتفي، ملطّخاً ياقة ثوبي بالأوساخ العالقة بأصابعه، ثم أجبرني على الركوع أمامه، لتتسلّل الرائحة النتنة لسرواله القذر إلى أنفي.

«أترين؟ لقد أخبرتكِ أنكِ ستتعلمين عند قدميّ، وستمتثلين ملعونةً لما أمليه عليكِ... ستقولين إن أحدهم لجمني بلجام المرأة الثرثارة [2] ليكبح لساني السليط!».

ضحك الرجال ثملين، بينما ارتعدتُ خوفاً وقد تراءى لي وجه أمي محجوزاً خلف قضبان لجام التأديب، لاح اليأس المنضوي داخل عينيها البائستين جنباً إلى جنب مع الأصوات الوحشية الصادحة من حلقها حين تضغط الشكيمة الحديدية لسانها بشدّة. لقد كبّلها والدي باللّجام بعد أن شتمته علناً، مؤنّبةً إيّاه لإدمانه على الشرب؛ ثم جعلها ترتدي الخوذة في اللّيل والنهار، وقادها خلفه في القرية بقصد إذلالها، ضاغطاً السلسلة بعنف حتى تمزّق لسانها. لطالما أرعبني مظهر رأس أمي داخل القفص المريع،

1- هذه العبارة مقتبسةٌ من الكتاب المقدس (أفسس 4: 29).

2- استُخدم لجام المرأة السليطة أو الثرثارة أو لجام التأديب –الذي كان يوضع على شكل كمامةٍ أو خوذةٍ أو قناعٍ معدنيٍّ موثوقٍ بسلسلة– كعقابٍ للمرأة في العصور الوسطى على الجرائم المتعلقة بالكلام، كالكذب أو التشهير أو الشتم، بحيث كان يمنع المرأة من الكلام والطعام، ويتمّ وضعها في الأماكن العامة بغرض الإذلال العلني، كان اللجام يُثبّت اللسان بقطعةٍ حديدية، بحيث تؤدي أيّ محاولةٍ في تحريكه إلى تمزيقه.

وكثيراً ما هربتُ من رؤيتها واختبأت. قام أحد الطيبين في نهاية المطاف بقطع الطوق الجلدي الذي قيّد فكيها برفق، مستغلاً ثمل والدي الذي أفقده إدراكه يومها. كُشط لسان أمي وتورّم، وتطلّب الأمر أيّاماً قبل أن تستعيد قدرتها على الكلام.

اعتصر والدي كتفي بأقصى قوته، فشعرتُ كما لو أنه يطوق عنقي ليخنقني. ضاق الجزء الخلفيّ من حلقي فراودتني حاجةٌ للتقيؤ، ثم تجمّع كمٌّ كبيرٌ من اللّعاب في فمي، تمنيتُ بشدّةٍ أن أبصقه عليه؛ لكنني تمنّعت عارفةً بطباعه النزقة، لا بدّ أنه سيضربني دون رحمة إن فعلتُ ذلك على مرأى من ندمائه في الحانة. إن أحد الأسباب التي تردعني عن التعاطف مع أفرا كما ينبغي، هو عدم حجبه عني في مواقف كهذه، إذ كانت تقف متفرجةً سامحة ليديه بضربي مرةً تلو المرة... إلّا في أحيانٍ قليلة حين كان يصفعني على وجهي فتصرخ بالقول: «لن نتمكّن من تزويجها أبداً إذا شوّهتَ وجهها».

لم ينتزعني من معيشتي التعسة التي دامت لسنواتٍ طوال سوى سام فريث. كان يداعبني ذات مرة، حين لمس كتلةً متموضعة بالقرب من كتفي الأيمن، حيث التأمتْ عظام قاعدة عنقي المتهشّم على نحوٍ دميم. لعلّي ارتكبتُ خطأً إذ أخبرته عن تلك الحادثة عندما ضربني والدي الثمل بالجدار في موجة غضبٍ عارم، كنتُ حينها في السادسة من عمري. ساقني سام -الهادئ في كلّ شيء حتى في غضبه- لأسرد له عن الحوادث التي تعرّضتُ جرّاءها لتعنيفِ والدي. فجأةً وبينما كان مستلقياً بجواري في جنح الظلام، مصغياً لذكرياتي البائسة، استشاط حنقاً ثم قفز من الفراش غاضباً، لم يتريث حتى في انتعال حذائه، بل حمله في يده وخرج من المنزل متّجهاً على الفور إلى كوخ أبي، رفع قبضته الكبيرة في وجهه قائلاً: «هذه من طفلةٍ كانت أصغر من فعل ذلك بنفسها...»، ثم لكمه بقوةٍ فطرحه أرضاً.

لم يعد سام موجوداً الآن. شعرتُ بتدفّقٍ مفاجئ لماءٍ دافئٍ بين فخذي... خانني جسدي المرتعد تماماً، مثلما فعل حين كنتُ طفلة. انهرتُ بخزيٍ عند قدمي والدي متلمسةً العفو بصوتٍ خفيض. قهقه عالياً وقد استعاد كبرياءه عبر إذلالي أمام الجميع. خفّف من ضغط يديه ثم رفع مقدمة حذائه بوجهي ودفعني بقوةٍ فوق البول التي خلفّتُه على الأرض. خلعتُ مريلتي

ونظّفت بها القذارة قدر المستطاع، هرعتُ بعدها خارج المكان مرتبكةً أحاول العثور على صاحب الحانة لأتدبّر أمر العربة؛ ثم سارعتُ بالعودة مرتجفةً متعثّرةً بدموعي. مع إغلاق باب الكوخ خلفي سارعتُ بخلعِ جميع ملابسي المتّسخة وبدأت بتنظيف جسدي وفركه بقسوة حتى ازرقّ فخذاي، كان النحيب لا يزال يرتعش بأوصالي حين طرق سيث الصغير الباب ليعيدني إلى ماغي.

حالما وقعتْ عيناي عليها وتأملتُ في وضعها الصعب، شعرتُ بالخجل من إشفاقي على نفسي. لن تحتاج ماغي كانتويل إلى العربة في الصباح، فقد تعرّضت أثناء تواجدي في الحانة لموجة تشنجاتٍ أخرى أتلفتْ جانبها السليم. إنها تضطجع الآن فيما بدا كنوم عميقٍ غريب، لا يمكن لأيّ كلمةٍ أو لمسةٍ أن تنتشلها منه. أمسكتُ يدها الممدّدة على غطاء السرير، الملتوية حول نفسها بمظهرٍ مشوّه، كما لو أنها منزوعة العظام. قمتُ بتقويم أصابعها الموشومة بندبٍ هنا وهناك... بآثارٍ بيضاء لجروحٍ قديمة خطتها سكين، وتغضّنٍ ورديٍّ لحرقٍ مندمل، تأملتُ يديها اللتين اكتسبتا قوةً من تدليك العجين وحمل الأواني الثقيلة. تفكّرتُ في المواهب المتعدّدة التي تحلّت بها ماغي كانتويل كما فعلتُ مراراً جوار سرير جورج فيغارز، وميم غاودي من بعده... لقد أجادت هذه المرأة المكتنزة اقتطاع اللّحم عن جسد الطرائد، كما أتقنتْ صنع الأنواع الشهية من حلوى السكر. كانت طاهيةً مدبّرة لم تهدر ولو قدراً ضئيلاً بحجم حبة البازلاء، دون أن تضيفه إلى المرق المغلي لاستخلاص أيّ فائدةٍ غذائيةٍ قد يحتويه. تساءلتُ لماذا الرّب شديد التبذير بخليقته؟ لماذا جبلنا من التراب لنكتسب المواهب الحسنة والمفيدة، كي يعيدنا إلى التراب سريعاً قبل أن تدركنا السنوات النجيعة؟ لماذا تضطجع هذه المرأة الطيبة محتضرةً هنا، بينما يعيش رجلٌ خسيسٌ كوالدي مبدّداً عقله في الشراب؟

لم يكن لديَّ الكثير من الوقت لأمعن النظر في تلك الاستفسارات المحيّرة، فقد رحلتْ ماغي كانتويل قبل حلول منتصف اللّيل.

-9-

خشخاشُ ليثي[1]

لا أعي متى تداعينا وانزلقنا عن الرابية؟! كيف زُلّت أقدامنا بغفلةٍ منا؟! أيّ صخرةٍ مقلقلة وأيُّ خُث[2] مهلهل وطئناه؟! التوت الكواحل وانثنت الركب، ثم خرّت أجسادنا على حين غرّةٍ متهاويةً فاقدةً السيطرة، لنجد أنفسنا منكبّين على وجوهنا بإذلالٍ في قعر الهاوية. يبدو التحدّث عن السقوط مناسباً جداً هنا، فالخطيئة بدورها، تبدأ هاويتها السحيقة بزلةٍ صغيرة، ثم تندفع بنا إلى آخرةٍ غامضة. كلّ ما نعلمه أثناء الانحدار أننا سنصل ملطّخين مكدومين وعاجزين عن استعادة مكانتنا السابقة إلّا بشقّ الأنفس.

تعرّض سام -مثل معظم عمال المناجم- للعديد من الكوارث قبل الحادثة التي أودت بحياته. في إحدى المرات، وأثناء قيامه بتوسيع

1- ليثي: كلمة يونانية تعني النسيان. تحكي الأساطير الرومانية والإغريقية أن نهر ليثي أو نهر النِّسيان، هو أحد الأنهار الخمسة في العالم السفلي، أما الأنهار الأربعة الأخرى فهي «نهر ستيكس» أو نهر الكراهية، و«نهر أكرون» أو نهر الحزن، و«نهر كوكايتس» أو نهر الرثاء، و«نهر فلاغيثن» أو نهر النار. وتقول الميثولوجيا إن الشُّرب من نهر ليثي يجعل أرواح الموتى تتقمص أجساداً جديدة تجعلها تنسى ما حدث لها في حياتها السابقة في العالم السفلي. ومن ثم فإن هذه الأنهار الخمسة تشكّل حدوداً فاصلة بين أرض الأحياء وأرض الأموات.

2- الخُث: يسميه البعض البيتموس أو البطموس، إلّا أن الكلمة العربية المرادفة له هي الخث؛ وهو نباتاتٌ تتعفّن ببطء في الطور الأول لتكوّن الفحم، وتتركّب من الحزازيات ونباتات المستنقعات القصبية كالغاب والبوص.

عرقٍ من الرصاص في الصخر داخل المنجم، أسقط حجر ضفدعٍ[1] كبير فوق كاحله فانكسر. أعادت ميم غاودي جبر العظم المتهتّك بمهارةٍ فائقة لدرجةٍ أدهشتِ الجميع، خاصةً بعد مشاهدة سام يخطو باستقامةٍ تامة؛ لكن المهمة كانت صعبة إذ كان عليها ضغط العديد من العظام المتأذّية لإعادتها إلى مكانها السليم، لذا، أرسلتْ إنيس لإحضار جرعةٍ من الخشخاش، لعلّها تخدّره فيتحمل أوجاع التجبير. أخبرتني بعد ذلك أن الخشخاش الذي استخدمته نُقع بالماء لستة أسابيع[2] متواصلة. أما سام الذي لم يرغب يوماً إلّا بالقليل من شراب المزر، فقد أجفلته الملاعق الخمس التي ناولته إيّاها غاودي. أفشى إليّ في وقتٍ لاحق أن الأحلامَ التي راودته آنذاك كانت مذهلةً بالمقارنة مع حياته الواقعية.

في اليوم التالي لمرافقة إلينور مومبليون إلى منزل السيدة دانيال ومساعدتها في إنجاب طفلها، قرّرتُ التوبة من ذنبي وإعادة قارورة الخشخاش التي سرقتُها إلى منزل القسّ، ما يعني زلقها ببساطة داخل سلّة القشّ الخاصة بالسيدة مومبليون قبل ملاحظتها لفقدانها. لكنني كلّما أتيحت لي الفرصة، افتقرتُ إلى الإرادة القوية لفعل ذلك. قمت في النهاية بحملها إلى المنزل وخبّأتها في آنيةٍ من الفخار. ليس أمامي أسابيع ستة، ولا أعرف الطريقة الصحيحة لتركيب الوصفة، لكنني في اللّيلة التي ماتت فيها ماغي كانتويل، تأملتُ قطعةً صغيرة من صمغ الخشخاش الأصفر الباهت، متسائلةً عن الجرعة التي سأحتاجها لاختلاق بعض الأحلام المبهجة. نزعتُ جزءاً لزجاً ومضغته داخل فمي في محاولةٍ لإزالة مرارته؛ ثم شطرت المضغة إلى نصفين بهيئة كرتين صغيرتين، غلفتهما بالعسل بالكامل، ثم ابتلعت إحداها مع كأسٍ من المزر. أشعلتُ النار في الموقد، وجلستُ أحدّق إلى حصته الضئيلة من الضوء.

1- حجر الضفدع Toadstone: يُعتقد أنه تشكّل في رأس أو جسم الضفدع، وكان يتمّ ارتداء أجزاءٍ صغيرةٍ منه سابقاً كسحرٍ أو ترياق للسم.

2- استعمل الخشخاش في العصور الوسطى لإزالة الآلام، ولإحداث حالة الانسجام، والشعور بالارتفاع عن الواقع. يستخرج الأفيون من ثمرة نبات الخشخاش عبر تشريطها في الصباح الباكر وهي على الشجرة، لتخرج منها مادة لبنية لزجة تتجمد ويصبح لونها داكناً.

تحوّل الزمن إلى حبلٍ انحلّت جدائله، فتناثرت لولبية الهيئة بليدة الخفقان. امتدّت إحدى الضفائر رحبةً عبر الأفق، فانزلقتُ معها وحلّقتُ بسهولة كورقةٍ يحملها النسيم المهاجر. انبلجتِ النفحاتُ الغربية التي حملتني عليلةً دافئة، سموتُ بين أمواجها صعوداً فوق وايت بليك، تلمّستُ الغيوم الرمادية وارتقيتُ صوب موطن الشمس، نحو الوهج المبهر الذي أغلق عينيّ. صدحتْ بومةٌ في مكانٍ ما، امتدّ نئيمها وتراجع بنغمةٍ لانهائية، كنداءٍ متصاعدٍ لبوق صيادٍ تلته مجموعةٌ من الأبواق الشادية معاً بانسجامٍ لا مثيل له. أشرقتِ الشمس فوق الآلات الغفيرة، لمحتُ العلامات الموسيقيّة[1] المسبوكة مذابةً هاطلة كمطرٍ ذهبي. تمنّعتْ قطراتها عن التبعثر حين لمستِ الأرض، لتتجمع بدلاً من ذلك واثبةً بعضها فوق بعض من جديد. تعالتِ الجدران وارتفعتِ الأقواس لتشيّد مدينةً مشرقةً بأبراجٍ مذهلة، سَمقَ برجٌ تلاه شموخُ برجٍ ولحق به آخر كبراعم قوية تسنّمت من آلاف السويقات. بدت المدينة بيضاء مذهّبةً، منحنيةً داخل قوسٍ واسع تطوف حول بحرٍ من الياقوت. أطرقتُ برأسي نحو الأسفل، فوجدتني أنجرف بين الطرقات المتعرّجة بعباءةٍ تتلاطم طياتها خلفي. كان طفلاي يختبئان داخلها متشبثين بيدي يطفران فرحين حولي. توهّجتِ الشمس فوق الجدران البيضاء المترفة، نابضةً خافقة كلسان الجرس.

استيقظتُ على ناقوس كنيستنا الذي أنَّ بروحٍ ناحبة. تدفق إصبعٌ شاحبٌ من ضوء الشتاء عابراً النافذة المثلجة ملامساً بغزارةٍ وجهي المنكبّ فوق الأرضية الحجرية. لا بدّ أني استلقيتُ هناك طوال اللّيل بعد انزلاقي عن الكرسي. أحسستُ بنخرٍ داخل عظامي من شدّة البرد، لدرجة بالكاد تمكّنتُ من الارتفاع بجسدي عن الأرض. كان فمي جافّاً كالرماد بمذاقٍ مرٍّ كالعلقم. تحرّكتُ بتثاقلٍ لإشعال النار بمزاج عجوزٍ شمطاء منكّد.

لكن يا للعجب! فعقلي بات أكثر صفاءً مما كان عليه في ذلك اليوم

1- استخدم فن الطباعة في نسخ العلامات الموسيقية نحو عام 1476، حيث طبع ألريخ هاهن Ulrich Hahn في روما كتاباً كاملاً للصلوات بالعلامات الموسيقية المتنقّلة والسطور؛ وفي عام 1501 بدأ أوتاڤيانو ده پتروتشي Ottaviano Petrucci في البندقية بأعمال الطباعة التجارية للأناشيد الدينية.

الدافئ -آه! كم يبدو ذلك بعيداً جدّاً- جلستُ قرب الغدير نهارها، مغرقةً أصابع قدميّ في مياهه الباردة، كنتُ أرضع توم بينما تتماوج ضحكات جيمي جواري - علمتُ مع تسارع انحراف الشمس أنني نمتُ لعشر ساعاتٍ في أول إغفاءةٍ مستمرةٍ منذ دهر. بحثتُ عن القطعة المتبقية من صمغ الخشخاش، فانتابني ذعرٌ شديد حين عجزتُ عن إيجادها. سقطتُ بخمولٍ أحبو على يديّ وركبتي في محاولةٍ يائسة لتلمّس الأرضية الحجرية لمعرفة مكان وقوعها. حين أغلقتُ يدي على المضغة، شعرتُ بارتياح المُحرّر من كلّ قيد. وضعتها بعنايةٍ في القارورة من جديد، وأخفيتها في الوعاء الفخّاري. كان مجرد التفكير أنها ماكثةٌ هناك بانتظاري يدفئ أوصالي كما يفعل شراب البوسيت والنار المتّقدة فعلهما في تسخين عظامي الآن.

غسلتُ وجهي بالماء الدافئ وشرعت في تسريح شعري. لم يكن بإمكاني فعل الكثير فيما يتعلق بحالة ردائي المتغضّن، لكنني حرصتُ على المضيّ بمئزر وأيدٍ نظيفة قدر الإمكان. كان جانب وجهي لا يزال موشوماً ببصمات الحجارة، لذلك قمتُ بفرك خدي بشدّة، آملةً أن تنثر النسمات الباردة بعض اللّون الوردي فيه بحلول الوقت الذي أصلُ فيه إلى منزل القسيس. لا زلتُ متشبّثةً بآخر خيوط الصفاء التي تركها المخدّر في دماغي حتى خروجي إلى الشارع، كما يتمسّك رجلٌ سقط في البئر ببقايا خيوط الحبل المتداعي. لم أمضِ أكثر من خطواتٍ ست حتى وقعتُ من جديد في ظلمة واقعنا الجديد.

لمحتُ سالي ماستن -ابنة جارتي الصغيرة ذات السنوات الخمس- واقفةً عند مدخل كوخها بثوب نومٍ رقيق، تحدّق صامتةً بعينين واسعتين، قابضةً على فخذها الملطّخ بالدم، بينما أزهرت جبهتها كوردةٍ تفتّحتْ بتلاتها بتقرحات الطاعون. سارعتُ صوبها واحتضنتها بين ذراعي.

«لا بأس عليكِ يا صغيرتي»، ثم قلتُ والدموع تغرق عيني: «أين أمك؟».

لم تنبس بأيّة إجابة، ثم سقطتْ مغشيّاً عليها. حملتها عبر المدخل ودخلتُ كوخها المعتم. بدتِ النار في الغرفة خامدةً منذ اللّيلة الماضية، مسلّمةً الدفة لبردٍ لا يُحتمل. استلقتْ والدة سالي على لوحٍ خشبي، شاحبةً باردة، مغادرةً الحياة منذ ساعاتٍ طويلة، بينما تمدّد والدها على الأرض غائباً عن الوعي

بجانب زوجته، وقد التفّت يده حول يديها بارتخاء. وجدته مصاباً بالحمى بفمٍ يتأوّه متوهّجاً بالتقرّحات، وصدرٍ يكافح سعياً لالتقاط أنفاسه. سمعتُ رضيعاً يئنُّ بصوتٍ خفيض في سريرٍ خشبيٍّ وضع جانب الموقد.

هل يمكن ليومٍ واحد أن يلوّث ساعاته بحدثين من البؤس المطلق؟ ذلك اليوم فعل، بل قام بالمزيد. ما انفكّ الموت قبل غروب الشمس، يزور عائلات عدة، ويحصد أرواح الأطفال والآباء والأمهات بالمنجل ذاته، بلا هوادة ودون رحمة. جال كلٌّ من السيد والسيدة مومبليون بين مشهدٍ مفجعٍ وآخر... القسيس يتلو صلاة مسحة المرضى[1] على المحتضرين، يكتبُ وصاياهم ويواسيهم قدر الإمكان، بينما أقوم بمساعدة السيدة مومبليون في الرعاية والإطعام وإيجاد الأقرباء الراغبين في الاعتناء بالمكلومين حديثاً، أو بمن أوشكوا على فراق والديهم. لم تكن المهمة بالأمر السهل أبداً، خاصةً إن كان الطفل مريضاً بالطاعون. وُزّعتِ المهام على هذا النحو: القسيس يهتم بالأعمال المتعلقة بالموت، بينما قمتُ بالتعاون مع زوجته بإدارة شؤون أولئك الذين انعطف الوباء عن أجسادهم فتركهم أحياء.

اقتصر عملي يومها على الاهتمام بأطفال ماستون إلى أقصى حدّ، وتهيئة جسد والدتهم حتى وصول القندلفت. لم أستطع فعل الكثير للأب الذي رقد بأنفاسٍ متقطّعة. وصل العجوز البائس جون ميلستون مع عربته، بالكاد سمعتُه يجدّف بصوتٍ خافت حين وجد أن الرجل لم يمت بعد، لا بدّ أنه شعر بنظرتي الصارمة، فأزاح قبعته المتّسخة خلف رأسه ومسح بيدٍ جبينه.

«آه، اغفري لي يا سيدتي، لكن هذه الأوقات العصيبة أحالتنا جميعاً إلى وحوش. إنني متعبٌ للغاية، لا يمكنني تحمّل فكرة تسريج حصان العربة مرتين لتسخيره لمهمةٍ واحدة». دعوته للجلوس ثم ذهبت إلى كوخي لإحضار كوبٍ من الحساء لتقديمه إلى الرجل العجوز الذي يعمل بما يفوق طاقته. بحلول الوقت الذي عدت فيه، بين تسخين الحساء وارتشافه له... جثمانان نُقلا إلى عربته.

1- صلاة مسحة المرضى: من طقوس الصلوات المسيحية التي يتلوها الكاهن على المرضى المحتضرين.

أصغيتُ إلى طلبه بالذهاب وتسوية حال ليلةٍ مقفرةٍ أخرى، كما لو أنني مجرد حارسةٍ للموت. بدا الرضيع بالكاد متمسّكاً بالحياة، أما سالي فغلبها السعال لتتقلّب محمومةً في فراشها. حضرتِ السيدة مومبليون في وقتٍ مبكرٍ من المساء، ووقفت عند الباب بوجهٍ شاحبٍ للغاية تجلّى شفافاً كلوحٍ بلوريٍّ مكسوٍ بالجليد.

«آنا...» نادت: «عدتُ للتوّ من مزرعة هانكوك. منزلهم يستضيف الموت هذه اللّيلة. لقد توفي سويذين، الابن الأصغر، أما ليب فقد اضطجعت في حالةٍ حرجةٍ للغاية. أعلم أنها عزيزةٌ جدّاً عليك يا آنا. سأبقى هنا إن شئتِ كي تتمكني من عيادتها».

لم أرغب بمغادرة الطفلين، ولم أشأ إلقاء حملٍ جديد على كاهل السيدة مومبليون لأيّ سببٍ كان؛ لكن الشرخ في العلاقة بيني وبين ليب سبب لي الكثير من الوجع الذي تقتُ إلى تخفيفه. بحلول الوقت الذي سارعتُ فيه إلى مزرعة هانكوك، بات حال صديقتي القديمة أسوأ بكثير من قدرتها على الكلام. جلستُ بجوارها، مسّدتُ وجهها محاولةً إيقاظها، لعلّها تنطق بكلمةٍ واحدةٍ فقط، أو تصغي إلى عبارةٍ ترتق التصدع بيننا. لكنني حُرمتُ من أمنيتي الضئيلة تلك. زيارةٌ صامتة أمضيتها مع صديقتي الأقدم، لم تكن سوى حزنٍ مترعٍ بثقل الفجيعة في قلبي.

كان الوقت متأخّراً حين عدتُ لاستلام مهامي عن السيدة مومبليون في كوخ ماستون، مع ذلك كان زمن وصولي ملائماً لمغادرتها في الوقت المناسب، فانهمار الثلج لا يزال في أوله، وأعتقد أن لديها ما يكفي من الوقت لتصل بأمانٍ إلى داخل جدران منزل القسيس الدافئة.

إنه ثلجٌ بربريّ الهطول، من النوع الذي يعصفُ بقوةٍ على الكوخ، فيهبُّ من كلّ فلعٍ حجرٍ فيه. أعدت إيقاد النار في الموقد، وغطّيتُ الأطفال بكلّ قطعة قماشٍ وجدتها. عواصفُ كهذه العاصفة هي جلُّ ما نخشاه معظم أوقات الشتاء. كنا نترقّب وننتظر لنرى حجم هطوله وسماكة ارتفاع تراكمه في ممراتنا الضيقة، متسائلين هل سيغلق الدروب. ارتفعت الأكوام البيضاء إلى أقصى حدّ؛ أما طرقنا فهي مغلقةٌ بكلّ الأحوال في هذه الأيام.

أفرغتِ العاصفة ضراوتها بسرعة، أما الريح فتهاوت بعد وقتٍ قصيرٍ من منتصف اللّيل. توفّي الطفل تحت وطأة صمتٍ عميق، بينما قاومت سالي الصغيرة حتى فترة ما بعد ظهيرة اليوم التالي، لتسلم روحها مع بداية تلاشي ضوء الثلوج البارد. غسلتُ جسدها النحيل ولففتها بملاءةٍ نظيفة، ثم تركتها مستلقيةً بمفردها حتى يجد جون ميلستون الوقت المناسب لأخذها. «آسفة يا صغيرتي» همستُ «يجب عليّ المكوث معك هذه اللّيلة، لكن لا بدّ من ادخار بعض القدرة للاهتمام بأحياء كثيرين. ارقدي بسلامٍ يا حملي الوديع».

وهكذا عبرتُ الدرب الدَّيْجُور إلى منزلي المجاور. لم أتوقّف عند الأغنام سوى لفترةٍ كافية لنثر بعض التبن أمام أعداد القطيع المتضائلة. وتحاشيتُ أيّ عناءٍ في تحضير طعامٍ لي، لكنني سكبت الماء المغلي على قلفونة الخشخاش المتبقي، مزجته مع نصف كوبٍ من شمع العسل المعطّر، لعلّه يخفي مرارته اللّاذعة، ثم حملت الكوز إلى سريري. في تلك اللّيلة؛ أطلقتِ الجبال أنفاسها في أحلامي كوحوشٍ غافيةٍ بسلام، بينما ألقت الرياح بظلالها الزرقاء الكثيفة حولها. حصانٌ مجنّحٌ حلّق بي في سماءٍ مخمليةٍ قاتمة، عابراً حقولاً من النيازك المتساقطة فوق صحارٍ زجاجيةٍ مذهّبةٍ براقة.

استيقظتُ في الصباح بهدوء. لا ضير أنّ الصفاء الناجم عن الخشخاش لا يدوم لفترةٍ طويلة. لم يكن الرعب الخارجي ما أغرقني في مياه الواقع المتكدّرة، بل إدراكي الشخصي... الوعي المستلقي بجواري في الفراش، والذي لا وسيلة لتأمين سلوانه بغير الخشخاش. استلقيتُ هناك، بعينين محدقتين في عوارض السقف المائلة مستحضرةً زيارتي الأخيرة إلى كوخ غاودي - تذكّرتُ حزمات الأعشاب المجفّفة المعلّقة فوق شعر إنيس العسلي المذهّب. لا بدّ من توافر بعض ثمار الخشخاش المعلّقة هناك بين أعشاب خاتم الذهب[1] والأرقطيون[2]! ربما تمّ تحضير بعض الصبغات

1- خاتم الذهب Goldenseal: نبات عشبي معمّر، يسمى أيضاً الجذر البرتقالي، يعتبر خاتم الذهب مضاداً حيوياً.

2- الأرقطيون Burdock: نبتةٌ معمّرة ذات فوائد صحية جمة. موطنها الأصلي آسيا وأوروبا. تعتبر جذورها المصدر الرئيس لمعظم المستحضرات العشبية، حيث يكون الجذر ناعماً عند المضغ، ولذيذ المذاق، ولزج الملمس.

بعناية ووضعت في الخزائن! لعلّ صمغ الخشخاش محفوظٌ في قارورة كحاله بعدما سرقته من السيدة مومبليون! عقدتُ العزم على الذهاب مباشرةً إلى هناك ورؤية ما يمكنني تأمينه لنفسي.

تراكمتِ الثلوج إلى جانب الصخور والأشجار الواقعة في مهبّ الرياح، فبانت لامعةً كطلاءٍ ناصع. تجمّعتْ دجاجاتي في زاويةٍ خاليةٍ من الصقيع في فناء الدار، وقد نفشت ريشها لدحر البرد، واحتفظتْ بساقٍ لتسخينها تحتها، بينما ارتكزتْ على ساقها الأخرى للوقوف. قبضتُ على حفنةٍ من القش وحشوتها في حذائي للحفاظ على قدميّ جافتين ودافئتين خلال رحلتي عبر الدرب النديّ الطويل.

تدلتْ من السماء غيومٌ رماديةٌ داكنة متوعّدةً بالمزيد من الثلوج. أما المروج فرُشقت بلطخاتٍ بيضاء وصفراء، حيث أذابت أعواد القش المنتصبة الثلوج عن سطحها لتهوي بها عميقاً بين الأخاديد. تراءى الدرب نحو مزرعة رايلي من أعلى الهضبة جليّاً، حيث لا تزال أكوام التبن المتبقية من الحصاد موزّعةً في الحقل، متعفّنةً عديمة النفع.

تقضي عاداتنا بضرورة قرع نواقيس الكنيسة لثلاثة آحاد على مكادس سيقان القمح والشعير المحصودة قبل جلب المحصول إلى المنزل؛ لكن بدلاً من ذلك قُرعت نواقيس الجنائز لمراتٍ تعدّت الثلاث بكثير. لقد دَفنتِ السيدة هانكوك -منذ موسم الحصاد حتى اليوم- زوجها وثلاثةً من أبنائها وزوجة أحد أبنائها. ها هي تدفن الآن سويذن وليب. فاق التفكير بمعاناتها احتمالي، لذلك شققتُ طريقي عبر التلال المتجمّدة، محاولةً تجنّب البقع الطينية الزلقة بفعل ذوبان الجليد؛ ثم لاحظت شيئاً غريباً! من المفترض في هذه الساعة من النهار أن ينبعث الدخان الأسود الناجم عن الإشعال الأول لنيرانِ الكور داخل دكان الحداد تالبوت، حيث يعمل الهواء البارد على العصف بالدخان ودحرجته كضبابٍ قاتمٍ نحو الوادي. لكن الكور نفسه بدا بارداً، بينما أطبق الصمت على كوخ تالبوت. وضعت قدمي بتثاقلٍ على المسار المؤدي إلى منزل الحداد بوعيٍ مطلق لما سأجده هناك.

فتحت كيت تالبوت الباب بينما تضغط بقبضة يدها بشدّةٍ أسفل ظهرها

الموجوع. أثقلها حملها بطفلها الأول المنتظر مجيئه قبل موسم أيام المرافع.[1] كما توقّعتُ... فقد وصلتْ إلى أنفي نفحات التفاح الفاسد فواحة بالمنزل... العبق ذاته الذي جذبني لأعوامٍ بات حبيس غرف المرضى مثيراً لغثياني. رائحةٌ آسنة انتشرت بدورها في منزل تالبوت مشابهة لصنانِ لحمٍ مشويٍّ. أجلتُ النظر في الأنحاء فلمحتُ ريتشارد تالبوت -أقوى رجلٍ في قريتنا- ضَنيكاً مستلقياً فوق سريره، ناشجاً كطفلٍ رضيع، باسطاً فخذه المسودّ المحترق، بينما انبلجت العضلات المكتوية نازّةً بالصديد المخضر العفن.

لم أستطع الابتعاد بعينيّ عن هذا الحرق الرهيب. رمقتني كيت فهزّتْ بقوةٍ يديها هامسةً بصوتٍ خفيض: «لقد طلب مني أن أفعل ذلك، دعاني قبل ليلتين لإيقاد النار في الكور، ثم مواراة قضيب تذكية النار فيه حتى التوهّج القرمزي. خانتني القوة يا آنا لوضعه على مكان التقرح، لكنه انتزعه من يدي بوهنٍ شديد وكوى الأعراض البادية على جسده. ما زال صراخه الرهيب يُدوّي في أذنيّ حتى الآن. آهٍ يا آنا، إن زوجي ريتشارد تعرّض لركلاتِ الخيول وضرباتِ المطارق، احترق لمراتٍ عدة بالمكاوي الساخنة والجمرات المتهاوية؛ لكن الألم الذي اصطلى به بملء إرادته... لا ريبَ أنّه عذاب الجحيم. رقد بعد ذلك لساعةٍ من الزمن مرتعشاً متصبّباً بعرقٍ بارد. ظن أنه لو أضرم تقرحات الطاعون بالنار، فإن المرض سيتلاشى من جسده، لكن العكس ما حدث، فقد ساءت حالته منذ تلك اللّيلة، ولا أعرف كيف أساعده». تمتمتُ ببعض الكلمات الفارغة لراحة نفسه، مع إدراكي التام أن ريتشارد تالبوت سيموت من تفسّخ جرحه بدلاً من مقتله بالطاعون، أظنه سيفارق الحياة قبل حلول الظلام.

لأنني أفتقر إلى مزيدٍ من الكلمات تلفتُّ حولي بحثاً عن مهمةٍ أخرى.

1- يعتبر المسيحيون في البلدان الكاثوليكية الفترة الممتدة من الأحد السابق للصيام الكبير وحتى أربعاء الرماد -أول أيّام الصيام- موسماً احتفاليّاً سنويّاً يدعى أيام المرافع أو شروفيتيد Shrovetide، وهي فترة التحضير وإعداد المؤمن استعداداً للصوم. ويسمى الثلاثاء الذي يسبق الصيام بالثلاثاء البدين أو ثلاثاء المرافع أو ثلاثاء الاعتراف، حيث يتمّ الأكل فيه بكل شراهة.

كانت الغرفة باردة، حيث لم تتمكن كيت بفعل آلام ظهرها الحادة من حمل أكثر من عود حطبٍ واحدٍ إلى الداخل؛ في حين خمدتْ ألسنة اللّهب تاركةً الموقد لقليلٍ من الجمرات. أحضرتُ حزمة حطبٍ من المكدس، ثم رأيت كيت أثناء دخولي إلى الغرفة منحنيةً فوق ريتشارد، مُغلقةً يدها على رقٍّ مثلثٍ صغير وضعته بالقرب من جرحه؛ لكن بالسرعة ذاتها التي حاولتْ إخفاءه لمحتُ بوضوح ما قد كُتب فيه. إنها تعويذةٌ نُقش عليها التالي:

أبراكدابرا أبراكدابرا أبراكدابرا

آكادا

كاد

آ

«كيت تالبوت!» لا بدّ أنكِ أذكى من تصديق مثل هذه الخرافات الشريرة!»، اصفرّ وجهها المتعب وبدأت دموعها بالتساقط.

«لا أقصد إهانتكِ» قلتُ على الفور نادمةً على قسوة نبرتي، ثم اندفعتُ لاحتضانها.

«أعتذر عما قلته يا عزيزتي. أعلم أنك تلجئين إلى مثل هذه الأشياء لجهلك بما ينبغي لكِ فعله».

«آهٍ يا آنا» نحبتْ «أنا لا أعتقد بصحتها من أعماق قلبي، لكنني اشتريتُ هذا السحر لأن من أؤمن به خذلني. كان ريتشارد رجلاً طيباً على الدوام... لماذا حطّمه الرّب هكذا؟ صلواتنا في الكنيسة لم تأتِ بأيّ خلاصٍ لنا، ولم أعد أسمع سوى همس الشيطان في أذني: إن امتنع الرب عن مساعدتِك... لعلّني من يفعل...».

لم تذكر في البداية كيف أتتْ بالسحر، لأنّ المشعوذ الذي احتال عليها بشلن مقابل التعويذة، أخبرها أن لعنة الموت ستصبّ فوق رأسها إن وشتْ باسمه. لكنني ضغطتُ عليها، في محاولةٍ لجعلها تعي أن كلّ ذلك ليس سوى خدعة خبيثة لسلب أموالها، ابتلعتْ ريقها بصعوبة ونطقتْ أخيراً:

«لا يا آنا، لا حيلة هنا. الأشرار يحتالون نعم، الجشعون ربما يفعلون، لكن السحر حقيقةٌ لا ريب فيها. إذ إنّ من جلب التعويذة هو شبح إنيس غاودي».

«هراء!» صرختُ في وجهها، فابيضّ من الذعر كالثلج المتراكم في الخارج. سألتها بلطفٍ أكثر: «لما تقولين ذلك؟».

«سمعتُ صوتها في مهب الريح اللّيلة الماضية عندما خرجتُ لجلب الحطب. إذ طلبتْ مني وضع شلن على العتبة مقابل الحصول على سحرٍ قويٍّ عند حلول الصباح».

«كيت» قلتُ بلطفٍ قدر استطاعتي: «إنيس غاودي ماتت ورحلت. حتى وإن كانت على قيد الحياة كما أتمنى من أعماق قلبي، وقادرةً على مساعدتنا، فإنها لن تأتي بتعويذةٍ لا قيمة لها، فأنت تعلمين أن علاجاتها كانت عمليةً على الدوام، مركّبةً من حشائش النباتات الحقيقية التي تشفي الأمراض بمساعدة حكمتها ودرايتها. ارمِي هذه الورقة بعيداً يا كيت... ألقِي هذه الأفكار السامة الغبية جانباً. فأنا متأكدةٌ من وجود شخصٍ ما في هذه القرية، حيٌّ يرزق، جشعٌ وطمّاع، له علاقةٌ بهذه الخرافات، أما ما سمعتِه في تلك اللّيلة العاصفة، فليس سوى صوته».

فتحتْ يدها على مضض وأفلتت الرّق ليتهاوى بين أعواد الحطب في الموقد. قمتُ بالنفخ على الجمر فوثبت ألسنة مضيئة أودت به. «ارتاحي الآن، سألتفتُ إلى إنهاء أعمالك المنزلية هنا. قد تجدين العالم أكثر إشراقاً مع بعض الراحة». استجابتْ وانخفضت بجسدها المنتفخ واستلقت عند أسفل سرير زوجها. خرجتُ لأجلب المزيد من الحطب، ثم سمعت خواراً بائساً صادراً من الحظيرة. شعرتِ البقرة بأصابعي تحاول إعانتها على التخلص من الحليب الفائض في ضرعها، فالتفتتْ وحدّقت إلى وجهي بامتنان. جمعتُ بعد ذلك بضع بيضاتٍ من القنّ ومزجتها مع الحليب الطازج، لعلّ كيت تحتسيه بعد استيقاظها. فعلتُ ما بوسعي كي أتمكّن من متابعة رحلتي الخاصة.

هبّتْ رياحٌ عنيفة أثناء تواجدي في منزل عائلة تالبوت، فأدّتْ إلى تكسير الأغصان الجافة المتجمدة في سلسلة من الأكمة ذات الأطراف الحادة. أما

الثلوج فتراكمت في الدرب المؤدي إلى منزل غاودي لتشكّل علوّاً أغرق ركبتيّ، فعبرتُ بصعوبةٍ كما لو أنني أخوض في نهرٍ عميق. توقّفتُ لحظاتٍ عند الباب أحاول كبح شعوري بالذنب وأنا أغزو ممتلكات الموتى. ما زلت واقفةً هناك أستجدي الجرأة، حين هوت أصابع جليدية من السقف المصنوع من القش وقبضتْ على رقبتي. بدأتُ باستجماع قواي لأصارع الباب المنتفخ بفعل الرطوبة، لكن يديّ المثقلتين بالبرد خذلتاني. تمكّنتُ في النهاية من مواربة الدفتين بتصدّعٍ ضئيل. شبحٌ رمادي اللّون أغشى بصري، قفز على نحوٍ مباغتٍ وبسرعة لدرجةٍ أجفلتني وأردتني أرضاً أمام الباب الخشبي. لم يكن سوى قطّ عائلة غاودي العجوز، الذي وثب عن السطح يموء باصقاً محتجّاً على اقتحامي للمنزل. دفعتُ ودفعتُ حتى تزحزح الباب أخيراً، وانفتح بمقدارٍ يسمح بدخول قامتي. تلمّستْ خطواتي طريقها في الظلام... شيءٌ خشنٌ كنس وجهي فأثار ذعري من جديد، كان مجرد ورقة إكليليَة المروج[1] حرّرتْ نفسها من باقتها المعلّقة عند الباب.

كانت الرياح تنوح في أرجاء المنزل بتفجّعٍ وتأوّه، كما لو أنه مسكونٌ بمئة روح. بدأ جسدي بالارتعاش، فأقنعتُ نفسي أن ذلك بفعل البرد المتسرّب من الفتحة السماوية الواقعة تحت الإفريز التي كان آل غاودي -الفقراء جدّاً لابتياع نوافذ زجاجية- يسارعون لحشوها منذ الأيّام الباردة الأولى لفصل الخريف. تطلّبتْ ثيابي المبتلة وجسدي المتجمّد إضرام النار للتزوّد بالإنارة والدفء، لكن المكان بدا معتماً للغاية في الغرفة الملطّخة بالسخام لدرجة أني اضطررت لتحسس كلّ شيء حول الموقد بحثاً عن الصوان والصوفان[2]. عثرت عليهما، لكن ارتعاش يدي منعني من إيقاد شرارةٍ واحدة رغم محاولاتي الكثيرة.

ضوءٌ مفاجئٌ توهّج خلفي. «ابتعدي عن الموقد يا آنا».

1- إكلِيلِيّـة المروج أو ملكة المروج: نباتٌ عشبيٌّ معمّر من الفصيلة الوردية، يكثر في المروج الرطبة والخنادق وعلى حافات الجداول. للأزهار فوائد طبية عدة في طرد السم من الجسم وحالات الحمى.

2- الصُّوفانُ: نباتٌ عشبيٌّ له زغبٌ يشبه الصُّوف. يُحكُّ على حجر الصوان لإضرام النار.

قفزتُ وجلةً إلى الأعلى، فهوى حجر الصوان من يدي، وعلقتْ قدمي بإحدى فراغات الموقد الحجري ما شدني إلى الخلف، فانزلقتُ منكبّةً على وجهي. رفعتُ بصري بهلع واستدرت برأسي، فأُعميتْ عيناي بالنور المنبعث من شبح إنيس غاودي. كانت تحوم في الهواء فوقي بثيابٍ بيضاء برّاقة.

«هل أنتِ بخير؟» سألت إلينور مومبليون، نازلةً من السلم العلوي مع شمعةٍ معلّقةٍ بيدها.

الصدمة والارتياح والشعور بالعار انقضّت عليّ في آنٍ معاً، انهارت قواي وانفجرتُ بالبكاء. «هل آذيتِ نفسك؟» اقتربت السيدة مومبليون منحنيةً صوبي، بينما تألق وجهها بمحيط الشمعة المتقدة متغضناً من القلق. رفعتْ جانب مئزرها الأبيض لمسح جبهتي المتضرّرة.

«لا، لا» قلت مجاهدة للسيطرة على نفسي: «يؤلمني معصمي قليلاً فقد هويت فوقه. لم أتوقع أن أجد أحداً هنا اليوم، فأدهشتني رؤيتك».

«يبدو أننا نتشارك الفكرة ذاتها»، اعتقدتُ لشدّة اضطرابي أن البحث عن الخشخاش هو سبب مجيئها أيضاً. وقبل أن أبوح بسوء فهمي تابعتْ بالقول: «لقد جئتُ إلى هنا منذ ليلة أمس، إذ من وجهة نظري وإيّاكِ... ضرورة الحصول على هذه الأعشاب والعلاجات بعد مغادرة آل غاودي المكان. أنا على قناعةٍ بأن مفتاح هزيمة الطاعون لا بدّ أنه موجودٌ هنا... بين النباتات التي يمكن استخدامها لوقاية الأشخاص الأصحاء. يجب علينا تقوية أجسادنا كي نتمكن من الاستمرار في مقاومة العدوى». ثم اتخذتِ السيدة إلينور مكاني قرب الموقد، قطّرتِ القليل من الشمع الذائب فوق أحد الأعواد التي شبّت بلهبٍ ضئيل.

«أغرقني العمل في فرز النباتات وتسميتها لدرجةٍ بالكاد لاحظت تلاشي ضوء النهار، أما الثلج فقد بدأ يتساقط بحلول وقت العودة إلى المنزل. رأيتُ أنه من الأفضل قضاء اللّيلة هنا بدلاً من تحمل مشاقّ الطريق الطويل إلى منزل القسيس في مثل هذا الطقس. لا بدّ أن مايكل سيُعزي سبب غيابي إلى حاجة مريضٍ ما لخدمتي. في الحقيقة، استغرقني النوم في هذا

الكوخ الهادئ عميقاً لولا مجيئك الذي أيقظني. ينبغي علينا متابعة العمل الآن، لعلّك يا آنا لا تعلمين كم من الثروات هنا!». تأملتُ النظر في قائمة ما حدّدته من الأعشاب حتى اللّحظة، وتأثيرات المستحضرات التي يمكننا صنعها وتوزيعها.

بعد استماعي لخططها الناكرة للذات، المخضّبة بالأمل، شعرتُ بوضاعة نواياي الأنانية للهروب إلى غياهب النسيان.

«سيدة مومبليون، أنا...».

«إلينور» قالت مقاطعة إيّاي: «لا يمكننا القيام بهذا العمل الإنساني معاً، مواصلين التعامل وفقاً لأعراف الألقاب البالية. خاطبيني بـ إلينور».

«إلينور... لديَّ أمرٌ أودّ الاعتراف به أمامك. أتيتُ إلى هنا بغرضِ البحث عن الأعشاب... في الواقع ليس بغية مساعدة الآخرين، بل لأجلي فقط».

«بلى» قالت بهدوء: «لقد جئتِ من أجل هؤلاء». وصلتْ بيدها إلى أعلى السقف بأقلّ جهدٍ ممكن، وقبضتْ على حزمةٍ من الرؤوس المجفّفة المحمّلة بالبذور متابعةً الشرح: «أطلق عليها الإغريق اسم خشخاش ليثي. هل تذكرين؟ قرأنا عنه معاً. ليثي... نهر النسيان لدى الإغريق؛ بمجرد أن ترتشف أرواح الموتى مياهه ينسون حيواتهم السابقة. النسيان حاجةٌ طبيعيةٌ يا آنا، خاصةً حين تمرّ الأيّام مترعةً بالحزن؛ لكن الأرواح بدورها تنسى أحباءها. لا بدّ أنكِ لا ترغبين بذلك، صحيح؟ لقد سمعتُ في إحدى العظات بأن الرّب يريدنا أن ننسى موتانا، لكنني أعجز عن التسليم بالفكرة، إذ أعتقد أن الله منّ علينا باستعادة الذكريات كي لا ننفصل تماماً عمن منحونا الحبّ يوماً. عليك أن تعتني بذكرياتك مع طفليكِ يا آنا حتى تقابليهما في السماء مرة أخرى».

«لقد نشلتُ الخشخاش من سلتك في كوخ دانيال» قلتُ معترفة،

«أعلم» أجابتْ ثم سألت: «وهل جلب لك أحلاماً سعيدة؟».

«نعم» همستُ: «أجمل الأحلام التي رأيتها على الإطلاق».

أومأتْ برأسها، فأبرق شعرها الناعم كهالةٍ في ضياء النيران؛

«نعم» قالت: «أتذكّر ذلك جيداً».

«حتى أنتِ؟» سألتُ بدهشة: «تناولتِ هذا الشيء؟»

«نعم يا آنا، حتى أنا. مرّ وقتٌ مثقلٌ بالذكريات التي رغبتُ في نسيانها. الخشخاش الذي أخذتِه مني بدا مواسياً في ذلك الحين؛ لذلك لا أزال أحتفظ به كما ترين رغم مرور بضع سنواتٍ بعد لجوئي إليه. لكنه صديقٌ غيور، لن يمنحك الفرصة للتنازل عنه بسلام». وقفتْ بعد ذلك، ووصلتْ إلى آنية فخّارٍ في الزاوية، عادلتْ كمية البابونج المفتت في الوعاء، ثم سكبتْ ما يكفي من الماء المغلي من الغلاية المعلقة فوق الموقد، لإعداد منقوعٍ مركّز.

«هل تتذكرين يا آنا ما أخبرتكِ به في طريقنا إلى آل دانيال... أنني لم أنجب طفلاً مطلقاً؟»

أومأتُ ببلاهة مع جهلٍ تامّ بما تودّ الوصول إليه.

«لكنني لم أشر أنني لم أحمل بطفلٍ أبداً».

لا بدّ أن ارتباكي بان جليّاً، فقد عملتُ مع السيدة مومبليون، وغسلتُ ملابسها وغيّرتُ بياضاتها منذ اليوم الذي وصلتْ فيه إلى قريتنا كعروسٍ جديدة. لو أنها حملتْ بطفلٍ لكنتُ أول من عرف ذلك مثلها تماماً. في الواقع، كنت أترقّب ميعاد دورتها الشهرية، كحالها تماماً.

مدّتْ يدها إلى ذقني وأزاحته صوبها كي أنظر إليها بملء عينيّ: «الطفل الذي حملته يا آنا لم يكن طفل مايكل».

حين لمحتِ الصدمة في وجهي رفعتْ من جديد أصابعها الناعمة -الدافئة بفعل الإناء الساخن- ربّتت على خدي كما لو أنها تعيدني للوعي، ثم هوت بها وصولاً إلى يدي الملقاة في حضني، شبكتْ أصابعها النحيلة مع أصابعي المتشققة الخشنة وأوضحت: «إنها قصةٌ مليئةٌ بالألم، لكنني أخبركِ بها الآن لأنني أودّ أن تعرفيني أكثر. سألتكِ الكثير يا آنا، وقد تزيد طلباتي قبل نهاية هذا الوقت العصيب. أريدكِ أن تتعرفي إلى المرأة التي تثقل كاهلك بكلّ هذه الأعباء».

استدارتْ بوجهها إلى الموقد، والتفتُّ بدوري نحوه متابعتين تبادل الحديث بنظراتٍ تلتهمُ اللّهب. بدأتِ القصة التي كشفتْ عنها في مقاطعة

ديربيشاير[1] الواسعة الجميلة، داخل قصرٍ ذي قاعاتٍ افترشها سجادٌ يدويٌّ صوفيٌّ أنيق، وغرفٍ فاخرة تتأمل بجمالها العيون المتّقدة في صور الأجداد. كانت الابنة الوحيدة المحبوبة لرجلٍ ثريٍّ جدّاً، دلّلها إلى حدٍّ مفرط، خاصةً بعد وفاة والدتها. إلّا أن والدها وشقيقها الأكبر -الغائبين على الدوام- أوكلا برعايتها إلى مربّيةٍ تفتقر إلى الثقافة بقدر افتقارها إلى الحكمة.

أمضتْ إلينور طفولةً مميزة، اكتسبت خلالها الكثير من المعرفة والبهجة اللّذين توازيا بالنسبة لها من حيث الأهمية. «أخجل يا آنا من قول ما سأقوله، وأنا عالمةٌ بما ظفرتُ به مقارنةً بالهبات الهزيلة التي قدمتها لكِ الحياة. أما بالنسبة لي، فأيّ رغبةٍ لتعلّم أيّ شيءٍ كان... اليونانية واللاتينية والتاريخ والموسيقى والفن والفلسفة الطبيعية... فما كان عليّ سوى التعبير عمّا أريده حتى تُوضع هذه الكنوز بين يدي. تعلّمتُ العلوم بمعظمها، لكن فاتني يا آنا تعلّم الكثير عن الطبيعة البشرية».

ظنّاً من والدها بحمايتها من العالم الخارجي، قام بمنعها من مغادرة المقاطعة أو زيارة غيرها، لتمضي مراهقتها محاصرةً ضمن مجتمعٍ محدود. كانت في الرابعة عشرة من عمرها حين بدأ جارهم بملاحقتها، وهو شابٌّ يبلغ عشرين عاماً من العمر، ووارث دوقيّة.

«عندما عاد والدي بعد فترةٍ وعلم بأمر خروجنا معاً وحدنا على نحوٍ يومي، طلب مني التوقّف عن مقابلة الشاب في الحال. آه، ليته كان صارماً معي -ربما لو أظهر حزماً أكثر لامتثلتُ لأمره دون تردّد... لا أعتقد من ناحيةٍ أخرى، أن أيّ أسلوبٍ سيتبعه كان سيجدي نفعاً: فقد فتنني هذا الرجل يا آنا، وغمرني بنشوةٍ لا توصف من فرط اهتمامه. لقد غازلني بكلّ أسلوبٍ يمكنكِ تخيله، ورسم ضحكتي على الدوام؛ كما قام باستجواب كلّ شخص في المنزل، مستفسراً عمّا يعجبني أو يزعجني، مُطوِّعاً تصرفاته كي يزيد من رضاي. لقد حذّرني والدي من مغبة الانغماس في أيّ صداقةٍ قوية نظراً لصغر سنّي، وأعلمني بالعديد من الخطط لقضاء وقتٍ ممتعٍ معه... منها حضور العرض الفني في البلاط الملكي، إضافةً إلى اصطحابي برحلةٍ

1- هي إحدى مقاطعات شرق ميدلاندز في إنجلترا.

لزيارة مدن العالم القديم الكبرى. لكن لم يسعفني تفكيري آنذاك إلّا بعصيانه وتخيّل المتعة الهائلة التي سأزور فيها هذه الأماكن متأبطةً ذراع تشارلز- حبيبي الشاب. لم يتطرّق أبي إلى شكوكه التي تدور حول تشارلز نفسه، ولم يشرح عن ريبته الخطيرة من شخصيته، والتي أثبتتِ الأحداث اللّاحقة صحتها. ربما لم يرغب في مواجهة عبارات الاستفهام التي سأثيرها ردّاً على معلوماتٍ من هذا النوع. أو لعلّه لم يشأ زعزعة الهدوء الآمن الذي يحميني من العالم القذر الذي عرفه والدي وأخي -وتشارلز- على نحوٍ جيد».

حاولتْ إلينور -المحبّة لوالدها- إطاعته في البداية؛ لكن أثناء انشغاله بشؤونه خارج المقاطعة لشهرٍ آخر، جدّد الشاب ملاحقته للفتاة بشكلٍ مضاعفٍ هذه المرة. «لقد توسّل إليّ أن أهرب معه، وعدني أنه سيحلّ الأمر مع أبي فيما بعد، والدي الذي -وفقاً لتعبيره- لن يقف معارضاً عندما يعرف تفاصيل حياتي الجديدة المشرقة. كشفتْ مربيتي الخطة، وكان بإمكانها إحباط ما سنقوم به لولا تضرعي الحادّ، ومحاولاتُ تشارلز لإقناعها، انتهت أخيراً بقلادةٍ من الياقوت اشترتْ صمتها... عرفنا لاحقاً أنه سرقها من صندوق أمّه. لقد ساعدتنا في تنفيذ ما كنا نصبو إليه، وأبقتْ أبي جاهلاً بالأمر لأطول فترةٍ ممكنة.

«تسلّلنا بمساعدتها بعيداً في جنح اللّيل. كيف يمكنني شرح ما فعلته الآن؟ لماذا كان عليّ التورّط بحكايةٍ من هذا القبيل؟ كنت مثل أستروفيل في قصيدة الشاعر سيدني أستروفيل وستيلا[1]: «*فَسُد عقلي الفتي، أوقعتني من أعشقها في الفخ*». كانت الخطة كما أعلمني: الوصول إلى الأسطول البحري، حيث يمكننا عقد القران في أيّ وقت، دون الحاجة إلى ترخيص؛ ثم اقترح تشارلز زيارة لندن أولاً بقصد الترفيه والنزهة، لندن التي لم أزرها قط من قبل، لم أتردّد في الموافقة على الفور... «نعم، نعم، دعنا نفعل كلّ شيء».

1- السير فيليب سيدني (1554-1586) شاعرٌ ورجل بلاط وجندي، إبان حكم الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا. اشتُهر بكتابة النقد الأدبي والنثر والشعر. أكبر أعمال سيدني هو أستروفيل وستيلا (النجم وعاشق النجم) الذي يتألف من 108 قصائد و 11 أغنية. يعدّ هذا العمل المتتالي، واحداً من أروع الكتابات خلال العصر الإليزابيثي لقصائد السوناتة المتتالية.

«لا بدّ أنكِ تخمنين ما حدث لاحقاً: عشنا اتحاد الجسدين دون مباركة الكنيسة». هذا ما همستْ به إلينور بنبرةٍ خافتة: «أصبح من الواضح لاحقاً، يوماً بعد يوم، حتى بالنسبة إليَّ، أن ريتشارد لا يعتزم الزواج الكنسيّ على الإطلاق... تقصّدتُ الاعتراف لكِ بكلّ شيءٍ يا آنا... لقد تهتُ عن الدرب القويم منشغلةً بنيران شهواتي، الدرب التي لم أهتم كثيراً لنهايتها».

خنقتْ إلينور رغبتها بالبكاء، محاولةً قمع انهمار العَبَرات من مقلتيها الواهنتين. قمتُ برفع يدي في محاولة مسح دمعةٍ ناجية، لكن الاحترام الذي انغرس بي منذ الولادة أعاد يدي حيث كانت؛ لكن إلينور رفعتْ عينيها بنظرةٍ أوحتْ للمستي بأنها موضع ترحيب.

مسستُ خدها بأطراف أصابعي. أمسكتْ يدي وقبضت عليها، ثم أكملتْ حكايتها عن تشارلز الذي عاشت معه لأكثر من أسبوعين حتى...

«ببساطة؛ أخفق في إحدى الأمسيات بالعثور على طريق العودة للنزل حيث كنا نختبئ»...

لقد هجرها.

«عدة أيّام مضتْ لم أسمح لنفسي بتصديق فكرة تخلّيه عني، بل أقنعتها بشتى أنواع الأكاذيب... لعلّ مرضاً أصابه في مكان ما، أو أنه استدعي لمهامٍ سرية عالية المستوى في المقاطعة. لقد مرّ بعض الوقت قبل قدرتي على مواجهة حقيقة دماري، لألوذ في النهاية إلى أولئك الذين ما زالوا يحبونني بطريقةٍ ما». جاء والدها وشقيقها -اللّذان كانا يبحثان عنها بجنون- ثم أعادوها إلى منزلها، المكان الذي من المفترض أن تلقى بين حناياه السكينة والهدوء... لكنها دخلته حاملاً.

فقَدَ وجهها نضارته أثناء استعادتها للذكريات، وبانَ هزيلاً للغاية. تدفقتِ الدموع بحريةٍ الآن، لكنها ما زالت تتمنّع عن البكاء، محاولةً إخفاء ما انهمر بباطن كفها. بدا الأمر كما لو أن الحكاية تُكرهها على النحيب بمجرد الشروع بسردها.

«كنتُ يائسةً ومشوشة»، ثم أردفت: «فقمتُ بانتهاكِ جسدي بقضيبِ تذكية النار».

أطلقتُ مع عبارتها تنهيدةً عميقة، مخبّئةً وجهي بين يدي. لم أتحمّل تخيّل

معاناةٍ كهذه؛ لكنني عجزتُ في الوقت نفسه من منع عقلي عن استحضار صورٍ فظيعة لما قامت به. مددتُ يدي بلا وعي واحتضنتُ يدها من جديد.

«دعا والدي أفضل طبيبٍ لمعالجتي... تمّ إنقاذ حياتي بالفعل، لكنّ رحمي لم ينجُ يا آنا، أخبروني أنه لم يبقَ منه سوى كتلة من الندوب. وصفوا الخشخاش في البداية لتخفيف الألم، ثم تجرّعته لاحقاً للتهدئة من روعي. لا أزال أتجوّل تائهةً بين أزقة تلك الأحلام الواهية، لولا حضور مايكل إليها».

وهكذا علمتُ أن مايكل مومبليون لم يكن -كما اعتقدتُ دائماً- سليل عائلةٍ من رجال الدين البارزين. صحيحٌ أن والده رجل دين، لكنّه مجرد مساعدٍ لكاهن. أما مايكل -أكبر أبنائه الثلاثة- فكان فتًى صغيراً أثناء اندلاع الحرب الأهلية الإنجليزية.[1] لقد جرفتِ الاضطرابات والده، فقام بجمع البارود والكبريت، والقوة العسكرية والسلاح. ثم، بدلاً من توجيه الناس إلى صلاتهم، قادهم إلى الحرب بتكليفٍ من البرلمان. أبلتْ قواته بلاءً حسناً أول الحرب، لكن بعد فرار الملك من أيدي الجيش ساءت المرحلة الثانية من الحرب، لينجح الفرسان بهزيمة أبرشيته، وقاموا بنهب كلّ ما أمكنهم حمله من نحاس وبيوتر وقماش. فرّ والد مايكل على عجل من صفوف القوات لإنقاذ حياته. وفي اليوم التالي، حين حاول العودة إلى منزله، أصابه أحد رجاله بالخطأ بجروحٍ قاتلة.

تسبب فقدان الأب بحالة فقرٍ مدقع للعائلة من بعده، فتعيّن إرسال مايكل -كونه الأكبر سنّاً- للعمل والوفاء باحتياجات أسرته الثكلى. حين بلغ من العمر ما يكفي للقيام بمهام مفيدة، تمّ وضعه بعهدة القهرمان[2]

1- الحرب الأهلية الإنجليزية (1642-1651): سلسلةٌ من الحروب الأهلية والمكائد السياسية دارت بين البرلمانيين والملكيين الفرسان بشأن حكم إنجلترا. حرّضتِ الحربان الأولى (1642-1646) والثانية (1648-1649) أنصار الملك تشارلز الأول ضد أنصار البرلمان، بينما شهدت الحرب الثالثة (1649-1651) قتالاً بين أنصار الملك تشارلز الثاني وأنصار البرلمان المتبقي. انتهت الحرب بانتصار البرلمانيين في معركة ورسيستر عام 1651.

2- القهرمان: القائم والوكيل والحافظ لما تحت يده، وهي كلمةٌ فارسية تعني أمناء الملك، أو القائم بالأمور.

الخاص بعائلة إلينور. وهكذا، فإن كلّ ما تعلمه خلال طفولته كان على يد حذّاء الخيل وصانع البراميل ومراقب الطرائد[1] والمزارعين المستأجرين. لقد ترعرع في حرث الأرض وحصد أعواد القش وترويض المهور وتحذية الخيول، كما تعلّم كلّ التفاصيل المتشابكة الخاصة بالمقاطعة.

«لم يمضِ وقتٌ طويل حتى أعرب مايكل عن اقتراحاتٍ عدة لإدارة المقاطعة على نحوٍ أفضل». لا بدّ أنها فخورةٌ بأحداث ذلك الجزء من القصة، إذ بدأتْ برفع نبرة صوتها. «لفت ذكاؤه انتباه والدي الذي أخذ على عاتقه تعليم مايكل. فألحقه بأفضل المدارس التي برع فيها، ثم انتقل إلى الدراسة في جامعة كامبريدج. مع عودته إلى المقاطعة، وجدني ضعيفةً بفعل مرضي الطويل. كانوا يقومون بحملي إلى الحديقة كلّ يوم لأجلس هناك، غارقةً في الحزن والحسرة والندامة، لدرجةٍ لم أقوَ فيها على النهوض عن الكرسيّ. عرض مايكل صداقته يا آنا... ولاحقاً تقدّم بحبّه».

ارتسمتِ البسمة على شفتيها مع الكلمة الأخيرة. «لقد أعاد السطوع إلى عالمي المعتم. لا ريب أنّ المعاناة التي طغت على حياته ساهمت في تفهّمه العميق للآخرين. لقد قام باصطحابي إلى الحقول المستأجرة في مقاطعة عائلتي، علّمني كيف أطّلع على حياة الناس، لأكشف النقاب عن أشجانٍ أسوأ بكثير من أشجاني، وآلامٍ أعمق من آلامي. أخبرني أن الانغماس بالندامة على حدثٍ لا يمكننا تغييره، ما هو إلّا سلوكٌ عقيم، وأن التكفير عن الذنوب مباركٌ حتى لو كانت الآثام عظيمةً... مثل آثامي يا آنا».

مع تشجيعه؛ استعادت إلينور تدريجيّاً بعض قواها البدنية. تبعها السلام الروحي على مهل. «في البداية استعرتُ بريقه كي أنير طريقي، ثم يوماً بعد يوم، تخلّيتُ عن عادة النظر إلى العالم عبر وهجه، فالضياء أضرم سناه أخيراً في قلبي». تزوجا بعد فترةٍ قصيرةٍ من تخرّجه. عبّرتْ عن ذلك بلطف: «بدا للعالم بأسره، أنني من تنازلتُ للزواج به؛ لكن كما ترين الآن، إن من قدم التضحيات الحقيقية، ليس سوى عزيزي مايكل».

1- مراقب الطرائد: الشخص الذي يدير منطقةً ريفية للتأكد من وجود طرائد أو أسماك كافية للصيد والمطاردة، كما أنه يدير مناطق الغابات أو المستنقعات أو المجاري المائية أو الأراضي الزراعية، لمراقبة الطيور والغزلان والأسماك وغيرها من الحيوانات البرية.

جلسنا لفترةٍ من الزمن صامتتين نحدّق إلى ألسنة اللّهب، حتى تهاوت قطعةٌ من الحطب فجأة باعثةً الشرر فوق الأرضية الحجرية. استقامت إلينور آنذاك على نحوٍ مباغت ممسّدةً مئزرها الأبيض الطويل. «والآن يا عزيزتي آنا، هل ستتابعين العمل معي بعد معرفتك بكلّ شيء؟».

لهول الصدمة ممّا سمعته، عجزتُ عن النطق بكلمة، لذلك نهضتُ ببساطةٍ عن الكرسي، وصلتُ إلى يديها وقبّلتهما. فكّرتُ كم تغدو معرفتنا ضحلةً بالأشخاص الذين نعيش بينهم. لا يتعلّق الموضوع بالقدرة على سبر أغوار ومشاعر شخصين كانت محطتهما في الحياة بعيدةً عني كما تتوقعون. لكن خبرتي المتواضعة أضلّتني، فاعتقدتُ أنه من خلال العمل في منزلهما، وتلبية احتياجاتهما، ومراقبة مجيئهما وذهابهما وسبل تعاملهما مع الآخرين، أنني تعرّفت عليهما جيداً... معرفةً تبدو الآن يسيرةً للغاية. الكثير من الأشياء حول القسيس تجلّتْ تفاسيرها بوضوحٍ أمامي... قوته الجسدية، مهارته في أنواع الحرف كافة، وبراعته في التعاملِ مع فئات الناس. كذلك فعلتْ إلينور عبر شخصيتها الدمثة، وعدم رغبتها في الحكم على آثام الآخرين.

«نظّمتُ قائمةً بأسماء جميع من استسلموا للطاعون حتى الآن، ووضعتها فوق خريطة المنازل التي تسلّل إليها. أعتقد أننا بهذه الطريقة يمكننا فهم كيفية انتشار الوباء، ومن تكون فريسته التالية».

سحبتني إلينور بأكمامي بإلحاح. «انظري إلى أسماء الضحايا. ما هو أول شيءٍ تلاحظينه؟». حدّقت ببلاهةٍ إلى الخريطة. «ألا يمكنكِ ملاحظة أن الطاعون لا يميز بين الرجل والمرأة؟ كلاهما أصيبا بتقرحاته تحت الجلد بلا تحيّزٍ. لا ريب أنه يميّز، فهو يختار الصغار دوناً عن الكبار في السنّ. إن ما يقارب نصف من خطفهم الموت هنا، لم يبلغوا السادسة عشرة من أعمارهم بعد؛ أما الباقون فأشخاصٌ ما زالوا في ريعان شبابهم، لا أحد منهم تسلّل الشيب إلى رأسه. لماذا يا آنا؟ لماذا؟ سأتلو عليكِ ما أعتقد أنه السبب: إن كبار السن في هذه القرية والمحاربين القدماء إن جاز التعبير، قد اكتسبوا مناعةً ضد المرض منذ أيّام الحرب؛ لذا ما يجب علينا فعله هو تسليح الأطفال وتقوية مناعتهم... منحهم الأسلحة اللّازمة للقتال. لقد حاولنا معالجة المرضى دون جدوى، وفشلنا في دحر الطاعون. من بين جميع

الذين أصيبوا بالوباء، امرأةٌ واحدة فقط -مارغريت بلاكويل- تمكّنت من مقاومته لأكثر من أسبوع».

مرضت مارغريت -زوجة بلاكويل صانع البراميل- بالتزامن مع أفراد عائلة سيدل، وبالرغم من معاناتها، بدا الأمر كما لو أنها متعايشة مع محنتها. لذلك بفعل استمرار حياتها، شكّك البعض بإصابتها بالطاعون. لكنني رأيتُ التورّم في فخذها، وكنتُ من اعتنى بها حين انفجر ونزّ بسائلٍ قيحيٍّ متعفّن. ادعى آخرون أنه مجرد دملّةٍ عادية أو كتلةٍ كيسيةٍ فحسب. لعلّني وددتُ التمسّك بالأمل جرّاء ما حدث لها، فشخّصته تقرحاً طاعونيّاً، معتبرةً أن مارغريت التي لا تزال على قيد الحياة أول ناجٍ من الوباء القاتل.

«بالنسبة إلى معظم الناس» تابعت إلينور: «إن مطلع المرض يدل على خاتمة الحياة. ما يجب أن نفعله هنا في هذا الكوخ الصغير البائس، هو العثور على جميع الأعشاب ذات التأثير الفعّال في المناعة، ومن ثم خلطها معاً كمستحضراتٍ لتحصين الأصحاء». وهكذا نقّبنا في الكتب التي حملتها إلينور من بيت القسيس حتى نهاية ذلك اليوم... بحثنا أولاً عن أسماء النباتات المعروفة بتعزيز مناعة أجزاء الجسم التي يهاجمها الطاعون عادةً. مضتِ الساعات مضنية، إذ نُقشت كتب القسيس بحروف اللّغة اللّاتينية أو اليونانية، وكان على إلينور ترجمتها لي. اكتشفنا في النهاية أن أفضلها كان مجلداً من قِبل طبيبٍ يدعى ابن سينا،[1] وهو طبيبٌ مسلمٌ قام منذ سنواتٍ عدة بتضمين ما تعلّمه كلّه داخل مؤلفاتٍ عظيمة. حصلنا على أسماء النباتات، ومررنا بباقات الأعشاب، محاولتين بصعوبةٍ مطلقة مطابقة الأوصاف الموجودة في الكتب مع الأوراق المجفّفة والجذور الجاثية أمامنا. بحثنا بعد ذلك، في الحديقة الذابلة بفعل الثلوج الأخيرة، عن أيّ نباتاتٍ قويّة يمكن اقتلاع جذورها قبل تجمّد التربة. أنهينا بحلول فترة ما بعد الظهر، جمع الأسلحة لترسانتنا... نبات القراص للدم... الأزهار النجمية[2] وأوراق البنفسج

1- ابن سينا (980-1037 م) أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، عالمٌ وطبيبٌ بخاري، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. عُرف باسم الشيخ الرئيس، وسمّاه الغربيون أمير الأطباء وأبا الطب.

2- الأزهار النجمية: تتميز بسيقانها الرخوة التي تظلّ فريشة الأرض ما لم يعقْها شيء،

للرئتين... عشبة الإوز لتبريد الحمى... الخردل للمعدة... الطرخشقون للكبد... عشبة الخفاش للغدد ونبات الفيربينا[1] للحنجرة.

اعتقدت إلينور أن آخرها كان أكثرها أهمية. أطلقتْ عليها اسم العُشبة المقدّسة نسبةً للقديس يوحنا، ثم تلتْ ابتهالاً يُقرأ عادةً على هذه العشبة قبل اقتلاع جذورها.

«فلتتقدسي يا فيربينا، وأنتِ تعلين فوق الرابية.
في جبل الجلجثة[2] لأول مرةٍ عثروا عليكِ،
عالجتِ منقذنا ورقأتِ نزيف جراحه.
باسم الأب والابن والروح القدس أقتلع جذورك من الأرض».

قمنا بجمع كلّ الحزم العشبية التي أمكننا حملها في أكياسٍ من الخيش لنقلها إلى مطبخ بيت القسيس. كنت على وشك إخماد نار الموقد، حين التفتت إلينور وأوقفت يدي. «ماذا عن هذا يا آنا؟... ماذا سنفعل به؟» رفعت ثمار الخشخاش عالياً: «القرار عائدٌ إليكِ».

شعرتُ بالهلع يطوف بين حناياي «لكننا نحتاجه بالتأكيد لنجدة الكثيرين من المصابين هنا» قلتُ ذلك مع أفكارٍ سارعت على الفور بإسعاف رغباتي الخاصة بدلاً من احتياجات المحتضرين.

ولا تنتصب إلّا بحثاً عن النور فتعلو. أشار إليها الطبيب النباتي البارافي كنيب إلى أنه نباتٌ مهدّئٌ لحساسية الجهاز التنفسي.

1- الفيربينا أو رعي الحمام Verbena officinalis: عشبةٌ بريّةٌ علاجيّة، موطنها الأصلي في البراري الأوروبية، ولكنّها منتشرة النموّ في آسيا وأفريقيا. ارتبطت عشبة رعي الحمام منذ زمنٍ بعيد بالقوى الإلهية وغيرها من القوى الخارقة للطبيعة. كانت تسمّى «دموع إيزيس» في مصر القديمة، ولاحقاً «دموع جونو». وكانت تُهدى في الحضارة اليونانية القديمة إلى إيوس إريجينيا (Eos Erigineia). ونصّت الأسطورة الشعبية في أوائل العصر المسيحي على أنه تمّ استخدام نبات رعي الحمام الطبي لإيقاف نزيف جروح السيد المسيح بعد إنزاله عن الصليب. وسمّيت بعد ذلك بـ «العشبة المقدّسة».

2- الجلجثة: مكانٌ يقع خارج مدينة القدس القديمة، يعتقد بحسب الإنجيل أن يسوع صلب عنده. تعود تسمية هذه المنطقة إلى الآرامية جاجولثا גגולתא بمعنى موقع الجمجمة.

«كانت عائلة غاودي حكيمةً يا آنا، بحجم الخطر الذي يحمله هذا الشيء. إذ لديهم القليل منه هنا، ما يكفي لتخفيف أوجاعِ قلّةٍ من الحالات الخطيرة. كيف علينا الاختيار بين من نحرمه ليعاني، ومن نكرّمه فيحظى بالسكينة؟».

مددتُ أصابعي إلى الحزمة بفمٍ مغلق موشكةً على رميها في النار، لكنني افتقدتُ الإرادة لفتح يدي. جلتُ بأُنملة إبهامي فوق الثمرة اليانعة، فلمحتُ النسغ الأبيض يرشح ببطءٍ من شقٍّ داخلها. أردتُ أن ألعقه بلساني بنهم... أن أتجرّع المرارة وأتيه في تأثيرها اللّذيذ. وقفتْ إلينور ساكنةً بانتظاري. حاولتُ القبض على ما يجول في رأسها، لكنها مضتْ مبتعدة.

كيف سأتمكن من مواجهة الأيّام واللّيالي القادمة بدون الخشخاش؟... لن أظفر بأيّ راحةٍ بعد الآن؛ ها أنا أحتضن بين يدي الفرصة الوحيدة للهرب من أوجاع القرية وأحزانها، ومن ذكرياتي. لكنني سرعان ما أدركت أن هذا ليس صحيحاً تماماً، إذ لا يزال ينتظرنا عملٌ كثير. لقد تلمّستُ بعد ظهر اليوم كيف تاهت نفسي بين أعشابه. هناك فقدانٌ للذات، نسيانٌ من نوعٍ خاص لا تكتنفه الأنانية على الإطلاق. لا ريب أن البحث في طب الأعشاب واستخداماته سيأتي بنتائج جيدة؛ لكنني بالتأكيد سأعجز عن تركيبها دون جلاءٍ ذهني. قبضتُ بقوةٍ على الحفنة وألقيتها في النار. هسهس النسغ للحظة، ثم انفجرت الثمار، فتساقطتْ شرذمات بذورها الصغيرة واحتُجبت بين الرماد.

بحلول الوقت الذي أغلقنا فيه الباب العنيد خلفنا، كانت الرياح قد سكنت وهدأت برودة الجوّ. سأحاول أن أكون المرأة التي أرادتها إلينور؛ لكنني إن فشلت، يكفيني ما تعلّمته من عملنا في ذلك اليوم، لأعرف أين أعثر على ثمار الخشخاش الشاحبة المخضرة، فأخطو لاهثةً مع قدوم الربيع عبر الدرب قاصدةً حديقة غاودي!

-10-

بين المنزلقين إلى الهاوية

مع اقترابنا من بيت القسيس لمحنا مايكل مومبليون في فناء الكنيسة نازعاً معطفه، رافعاً الأكمام العريضة لقميصه الأبيض حتى العضدين، منهالاً بعزم ساعديه وقد تقطّرت خصلات شعره بحبّات العرق. ثلاثة قبورٍ طويلةٍ مشرّعة اصطفتْ بجوار قبرٍ رابعٍ يحفره.

سارعت إلينور إليه محاولةً مسح جبينه المندّى، فتراجع إلى الخلف مبعداً يدها بملامح كساها الكرب والشجن، وجسدٍ أعياه التعب؛ ثم انحنى من جديد بتثاقلٍ فوق المجرفة. توسّلتْ إليه كي يتوقف وينال قسطاً من الراحة، لكنه أومأ بالرفض قائلاً: «لا أستطيع التوقف يا إلينور، نحن بحاجةٍ إلى ستة قبورٍ لهذا اليوم، أحدها للمسكين جون ميلستون». توفي القندلفت العجوز فجر ذلك اليوم قبل أن يعثر مايكل مومبليون على جثمانه معتلياً حافة أحد القبور التي حفرها متدلّياً بنصفه الآخر داخله. «توقف قلبه عن الخفقان من شدّة الإجهاد، إذ فاق العمل الموكل إليه مؤخراً قدرته على احتمال مشاقّه».

حين حدّقتُ إلى مايكل مومبليون انتابني قلقٌ من انهيارٍ صحيٍّ قد يصيبه هو الآخر؛ فالإرهاق الذي أضنى جسده وشى بأنه لم يغفُ منذ اللّيلة الفائتة، متنقّلاً من فراش موت إلى آخر. لعلّ تعهده لأهل البلدة بألّا يموت أحدٌ بمفرده بات يشكّل عبئاً ثقيلاً عليه، ولا أظنّه سينجو إن أضاف إلى مهامه الأعمال التي تركها القندلفت بعد وفاته. سارعتُ إلى المطبخ وأعددت له منقوع الشيح الدافئ وجلبته حيث يقف داخل الحفرة التي غمرت قامته حتى الخاصرة، ثم بادرته بمقترحي:

«سيدي، لا يليق بحضرتك عملٌ كهذا، اسمح لي بدعوة أحد الرجال من حانة سواعد عمال المناجم لحفر القبور بدلاً عنك».

«ومن ذا الذي سيجيء يا آنا؟»، ثم وضع يده على ظهره متألماً عند تقويم عموده الفقري. «إن عمال المناجم منشغلون بما يكفي بالتنقيب وانتزاع الخامات المطلوبة في سبيل الاحتفاظ بملكية مناجمهم. أما المزارعون فقد باتت أعدادهم بالكاد تكفي لإنهاء أشغالهم في حصد الحبوب أو حلب الماشية. كيف يمكنني تحميلهم أعباء عملٍ مزرٍ كهذا؟ لا أظنّ في الوقت ذاته، أنه من الحكمة دعوة أشخاصٍ أصحاء للمخاطرة بالدنوِّ من الموت».

تابع القسّ عمله حتى تلاشتْ خيوط الضوء. بعث بعد ذلك برسالةٍ إلى عائلاتٍ عدة كي يجلبوا موتاهم إلى المقبرة. لا أعتقد أن أحداً سيقلقُ بعد اليوم بشأن الحصول على تابوتٍ لنقل فقيده، خاصةً في ظلّ ندرة الألواح الخشبية ونفاد الوقت اللّازم لتركيب صناديقها. يا له من موكبٍ جنائزيٍّ مثيرٍ للشفقة! فقد حملَ بعض أهالي القرية جثامين أحبائهم فوق الأكتاف أو بين الذراعين. في حين قام من لم تسعفه قوته، بتحزيم فقيده ببطانية وجرّه من تحت إبطيه عبر الدرب المؤدي إلى مثواه الأخير. صلّى مايكل مومبليون على ضوء الشموع فوق رأس المتوفين واحداً تلو الآخر، ثم ساعد في إلقاء التراب فوق جثثهم. وبينما كان يكدّ لإنجاز مهامه داخل فناء الكنيسة وصلت التماساتٌ من عائلتين جديدتين كي يحضر بالسرعة القصوى. وددتُ عدم الإفشاء عن دعوتهما حتى الصباح، لكن إلينور عارضتني شارحةً بأنه فعلٌ غير حكيم. بعد انتهاء السيد مومبليون من طقوس الدفن، حملت زوجته الماء الساخن اللّازم لاستحمامه، وجلبتْ له بياضاتٍ جديدة، بينما توكلّتُ بإعداد وجبةٍ مغذّيةٍ لعشائه. أكل بسرعة، ارتدى معطفه، ثم امتطى حصانه مغادراً للوفاء بالتزاماته.

«لا يمكنه الاستمرار على هذا النحو» قلتُ متوجسة لإلينور وأصوات حوافر أنتيروس تتلاشى عبر المساء.

«أعلم ذلك» أجابتْ بهدوء: «صحيحٌ أن جسده جَلود، لكنني أخشى أن إرادته الصلدة تفوقت عليه. قدرةٌ يمكنها دفعه للقيام بما لا يستطيع أيّ

إنسانٍ عاديٍّ فعله. أدرك تماماً حسنات قوةٍ عظيمةٍ كهذه يا آنا... ومساوئها. صدقيني، لقد شهدت هذا بأمّ عينيّ».

لم يحظَ القسيس في تلك اللّيلة إلّا بقدرٍ ضئيلٍ من النوم، في حين لم يأتِ اليوم التالي بمزيدٍ من الراحة على الإطلاق. رافقتُه في وقتٍ لاحقٍ من ذلك النهار إلى مزرعة ميريل، حيث يرقد يعقوب محتضراً. قام براند الذي أقام في كوخ ميريل منذ يوم عودته مع ماغي كانتويل، باصطحاب سيث البالغ من العمر ست سنوات إلى حظيرة الأغنام، بحجة القيام ببعض الأعمال الضرورية بغية إبعاد الصبي عن سكرات الموت التي يقاسيها والده. أما تشيرتي التي استنزفها العمل ليلاً ونهاراً بما يفوق قدرة فتاةٍ في العاشرة من عمرها، فقد غطّتْ في نومٍ عميقٍ فوق فراش القش المركون في الزاوية. قمتُ بتحضير حساء الشوفانْ لعشاء الأطفال، بينما جلس القسيس بهدوء إلى جوار يعقوب ميريل، مستفسراً بلطف عمّا يودّ قوله أو فعله قبل أن يذهب المرض بتركيزه فلا يفكر أو ينطق بوضوح.

توهّج وجه ميريل بالحمى في حين التقط أنفاسه بصعوبةٍ بالغة متحدّثاً بنبرةٍ خفيضة: «حضرة القسيس مومبليون، أعلم أنه لا يجب علينا الخوف من الموت، لكنه يرهبني حقّاً. تُفزعني مغادرة هذه الحياة بعد أن ارتكبتُ خلالها الكثير من الآثام، خاصةً بحقّ زوجتي مادي التي ترقدُ في قبرها منذ ست سنواتٍ مضت... إنّ جلَّ ما أخشاه هو معاقبتي على ما اقترفته يداي». حاول النهوض بهيجانٍ شديد ما أوقعه بنوبةٍ من السعال الحادّ. مدّ القسيس يده لمساعدته وقرّبه ليتكئ على كتفه، حاول ميريل التقشّع لتنظيف صدره الصاخب، فتناثر البلغم ملطّخاً معطف القسيس الذي لم يُعر أيّ اهتمامٍ للأمر. انتهت النوبة فاستلقى يعقوب ميريل ثانيةً على السرير. تناول القسيس كوباً من الماء البارد ثم احتضن رأس الرجل وسقاه بيديه.

أغلق يعقوب ميريل عينيه متململاً من شدّة الألم، وتابع بأسى: «حضرة القسيس، أنت لم تتعرف على مادي التي توفيت أثناء ولادة سيث قبل مجيئك إلينا. كانت امرأةً طيبةً للغاية، لكنني لم أعرها اهتماماً كما ينبغي، ولم أسعَ يوماً إلى إسعادها، حتى إنني لم أُسمعها كلمةً حنوناً أو أحاول مساعدتها حين حملت بطفليّ... بل العكس تركتها تكدّ وحدها في العمل هنا، لأسطو

على ما تجنيه فأبدّده على سُكري وعشيقاتي. حين أخذ الرّب مادي مني، شعرتُ أنه انهال بغضبه عليّ بفعل إهمالي لها، مدركاً أنني أستحق هذا العقاب. لكنه إن ذهب بروحي الآن، فإنه لا يعاقبني بل يعاقب أطفالي. لا أريد أن تتزوج تشيريتي على عجل، كما فعلتْ والدتها حين اقترنت بشابٍّ مغفّلٍ جاهلٍ بمعاني المحبة وبالواجبات الزوجية... آهٍ يا صغيري سيث... لا أودّ تركه لبراثن الفقر المدقع، مَنْ سيعتني به بعد رحيلي؟ لعلّ تشيريتي ترعاه، لكن لا يمكن الجزم بقدرة فتاةٍ ذات عشرة أعوام على تربية أخٍ وإدارة شؤون المزرعة وحدها».

وضع مايكل مومبليون يده الضخمة على شفتي يعقوب ميريل. «اصمت الآن، فأنا أسمع مخاوفك». أتى صوته منخفض النبرة وإيقاعيّاً كتهويدة. «أصغِ إليَّ؛ سأقول لك التالي: لا تمعن التفكير أكثر في شؤون الماضي التي لا يمكنك تغييرها. من خلقَ الإنسان هشّاً؟ من وضع شهواتنا؟ من رسم مسالكنا الوعرة أو القويمة؟ ألم يكن الرّب؟ أليس خالق كلّ شيء من ورّثنا الشهوات عن أبوينا آدم وحواء مذ كانا في جنات عدن؟ فإن انزلقنا وتمرغنا في الذنوب... فمن غير إلهنا يتفهّم ضعفنا! ألم يسقط الملك داود في الخطيئة؟ ألم تدفعه شهوته لارتكاب الإثم العظيم؟[1] لكنّ الله ما يزال

1- يروي العهد القديم في الفصلين الحادي عشر والثاني عشر من سفر صموئيل الثاني خطيئة الملك داود الذي زنى مع امرأة قائد جيشه: بينما كان جيش المملكة يحارب تحت قيادة يوآب بني عمون، كان داود يتمشى على سطح قصره: «فرأى من على السطح امرأةً تستحم، وكانت المرأة جميلة جدّاً، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت أليعام وامرأة أوريا الحثّي؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرةٌ من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها». ولم يتوقف الأمر على ذلك، بل حبلت المرأة من داود الذي استدعى أوريا زوجها من ساحة القتال ليضاجع امرأته فيظهر الولد على أنه ابن أوريا، لكن أوريا أبى أن يترك المعركة ويستريح في بيته، ولما عاد إلى ساحة القتال بعث داود برسالة إلى يوآب قائد الجيش يطلب فيها وضع أوريّا في موضع شديد القتال حتى يموت؛ وهو ما حصل فعلاً، إذ مات أوريا وتزوّج داود امرأته وأنجب منها صبيّاً. عاش داود حزناً شديداً بعد تقريع النبي ناثان الذي أنبأه بموت المولود، ووثّق توبته العميقة بجزءٍ من مزامير العهد القديم التي كتب معظمها.

يحبّ داود... لقد منّ علينا من خلاله بالمزامير العظيمة. كذلك يحبك الرّب يا يعقوب ميريل».

تنفّس ميريل الصعداء بوهنٍ فوق سريره ثم أغمض عينيه، بينما تابع القسّ الكلام: «عاقبك الرّبّ بالفعل حين أخذ زوجتك منك، لكنه لم يعاقبها. لا! فقد كلّل مادي ميريل بتاج البرّ وحرّرها من الحزن والكدّ. مجّدها يا يعقوب بمحبةٍ لا حدود لها، محبة غزيرة أشبعت حاجتها للحب الذي حجبتَه -أنتَ- عنها. نجت زوجتك من معاناتها منذ فترةٍ طويلة، وحظيت بالخلاص والنسيان. إنها الآن ترى ندمك وتدرك مشاعرك نحوها. كن واثقاً أنها ستشبك يدها بيدك حين تلتقيان في الجنة باتحادٍ كامل، كما أراد الرّبّ للزواج أن يكون. لذلك لا تتمعن إلّا بهذه الفكرة واستحضرها بفرح. أما بالنسبة لطفليك، لماذا لا تسلّمهم لرعاية إلهك الذي يكنُّ لهما حبّاً أقوى وأكثر إخلاصاً من حبّك أنت؟ أيقن بذلك وانظر كيف تعهّد الرّبّ بهما بالفعل. ألم يرسل لك الشاب براند؟ ألم تأوِه في منزلك حين طلب المساعدة؟ ألا ترى أن يد الله تعمل هنا؟ أنا أراها يا يعقوب! انظر في خضم حاجتك تجد براند هنا من أجلك: إنه شابٌّ طيب، أظهر الكثير من سماته الحسنة. لمَ لا تجعله فرداً من عائلتك يا يعقوب، حتى يتمكّن من المكوث في المنزل، خاصةً أنه يفتقد الانتماء إلى أيّ مكانٍ في العالم. هكذا ستهب تشيرتي وسيث أخاً أكبر لرعايتهما».

شدّ يعقوب ميريل بيده على يد القس محرّراً عقدة حاجبيه، ثم طلب منه بعد ذلك مساعدته في إعداد وصيةٍ أخيرة لتوثيق هذه الإجراءات. سحب القسّ الرقّ الذي يحمله بحوزته على الدوام، متوقّعاً أن يطلب المرضى كتابة وصاياهم في ظلّ الأيام العصيبة. استغرق إنجاز الأمر وقتاً طويلاً، حيث فشل يعقوب ميريل في إملاء وصيته بجلاء، مواجهاً صعوبةً كبيرة في تنظيم أفكاره وتطويع صوته؛ إلّا أن صبر القسيس بدا بغير حدود، خاصةً أن السلاسة والوضوح في أسلوب حديثه مع يعقوب ميريل، ما هي إلّا مؤشرٌ على عيادته للعديد من المحتضرين منذ بزوغ الفجر. دعاني القسّ بعد ذلك للشهادة على بصمة يعقوب الذي كافح بعد الانتهاء من كلّ شيء لرسم صليبٍ ضئيلٍ متهادٍ. حملتُ المخطوطة بعناية بعيداً لأجفّفها، فتراءى الإنهاك في دماغ القسّ جليّاً أمام ناظري.

«باسم الرّب، اللّهم استجب. أنا... مايكل مومبليون» كتب اسمه بلحظة شرود بدلاً من اسم يعقوب ميريل، ثم شطبه عبر سلسلةٍ من الحلقات قبل تدوين... يعقوب ميريل المزارع في مقاطعة ديربي... وهنا خانه تركيزه من جديد، إذ ترك ركن التأريخ فارغاً، لعلّه عجز عن تذكّره في تلك اللّحظة...

«أكتبُ رغباتي الأخيرة في وصيتي هذه، وأنا بكامل قواي العقلية رغم تمكّن المرض والضعف مني.

أولاً، أستودعُ روحي بين يَدَي الرّب، وأعتمد في خلاصي على المخلص يسوع المسيح.

ثانياً، أوصي أن تؤول ملكية ممتلكاتي من منزلٍ وأرضٍ وأموالٍ منقولة وغير منقولة، حيّاً كنتُ أم ميتاً، ممّا تيسّر لي من رزق الله، لابني سيث وابنتي تشيرتي وإلى براند ريجني، الخادم الأسبق في دارة برادفورد، الذي أقوم بتسميته وارثي بالتساوي مع طفليّ الحقيقيين، على أمل أن يسكن معهم كشقيقٍ أكبر، مُوَكلاً إيّاه بالوصاية عليهما».

لم ألمِّح للقسّ بالتاريخ المفقود، إذ لا يجوز لي الاطّلاع على وصية يعقوب ميريل الخاصة، وأشك أن السيد مومبليون كان سيسلمني إيّاها لو علم بمقدرتي على القراءة. في الواقع، لم أتقصّد الاطلاع على محتوى المستند، لكن لم يكن بمقدوري التمنّع حين جفّفتُ حبر الرقّ. وضعتُ الوصية في صندوق الصفيح الذي أشار إليه ميريل، ثم وقعت عيناي على تشيرتي التي كانت ترتعش من البرد في سريرها القشيّ، فسارعت لتحضير شراب الكودل[1] للطفلة لتدفئتها. قبل مغادرتي أوعزتُ إليها بمتابعة تحضير الحساء، ثم خرجتُ مع القسّ.

لاقتنا إلينور بوجهٍ مهمومٍ أخبرتنا أن ثمة جثمانين آخرين في انتظار قبريهما. تنهّد مايكل مومبليونَ ثم ألقى عنه معطفه ليتوجّه مباشرةً إلى فناء الكنيسة دون تناول قوت يومه.

رميتُ كبريائي جانباً واستجمعت شجاعتي ثم مضيتُ دون أن أخبر إلينور

1- شرابٌ مقوٍّ يصنع من الخمر الدافئ والخبز والعصيدة. عُرف لأول مرة منذ القرن الرابع عشر.

بما عزمتُ عليه. توجّهتُ نحو حقل والدي، آملةً أن يكون النهار قد أشرق بما يكفي لإيقاظه من ثمله. الشكر للرّب، فلا تزال أفرا وأطفالها يتمتعون بصحةٍ جيدة، رغم أن الصغار بدوا كحالهم الدائم هزيلين ومرضى... حتى إنني لاحظتُ آثار كدماتٍ على خدّ ستيفن -أكبر أبنائهم- ولم أكن بالطبع بحاجةٍ إلى سؤاله عن سبب إصابته المعتادة. لا غرابة في الأمر، فأبواه يفضّلان الفعل المؤدي للحمل أكثر من رعاية من ينجبون.

جلبتُ لأفرا بعض حزم الأعشاب التي جمعناها، وعلّمتُها كيفية تحضير منقوعٍ ابتكرتُه بالتعاون مع إلينور. يبدو أن والدي الذي لم ينهض من سريره بعد، قد سمع حديثنا، فقام شاتماً صداع رأسه المؤلم، مستفسراً إن أحضرت معي منقوعاً لعلاج حالته. عقدتُ لساني وامتنعت عن التصريح بأن علاج وجعه ليس سوى كبح ضئيل لشهواته. سأبذل قصارى جهدي بألّا أغضبه اليوم، نظراً لحاجتي الماسة إلى مساعدته، ولا أودّ إفساد مسعاي على الإطلاق.

تحدّثتُ باحترامٍ شديدٍ لا يليق به، شرحتُ له عن المحنة المفاجئة التي داهمت منزل القسيس، تملّقتُ قوته الكبيرة وجَلده، ثم طلبتُ منه النجدة. بدأ بالشتيمة كما توقّعت، ثم ادعى الانشغال بما يكفي للتورط في عملٍ من شأنه أن يمنح «كاهني الثرثار» قوة الخير كبديلٍ عن القذارة التي سيلطّخ بها يديه البيضاوين. لم أعد أملك سوى حلٍّ وحيدٍ متمثّلٍ بانتقاء حملين من أغنامي لعشائه في يومي الأحد القادم والآخر الذي يليه. لا بدّ أنه وجدها مقايضةً سخيّة، إذ بالرغم من نزقه وشتائمه وضربه الطاولة حتى اهتزاز الأطباق، توصّلتُ إلى اتفاقٍ معه في نهاية المطاف. هكذا ابتعتُ للسيد مومبليون فترة استراحةٍ من أعمال الحفر في المقبرة. وفرتُ في الوقت ذاته فرصة لإخوتي الجياع بتناول القليل من اللّحم.

ما انفك الطلب لحضوري يطرق الباب كلّ دقيقة ليل نهار إلى أنْ أرداني الشتاء بأسابيعه الباردة شبحاً... حتى الإغفاءات القصيرة غافلتني جوار أسرّة المحتضرين أو على كرسيٍّ قرب الجدار في مطبخ بيت القسيس.

بحلول أيام المرافع أشرفتُ على توليد كيت تالبوت التي أنجبت طفلةً

تتمتع بصحةٍ جيدة. حملتُ الوليدة ووضعتها بين ذراعي أُمّها على أمل أن تخفّف من حزنها على فقدان زوجها. بعدها بأسبوع، زرتُ لوتي موبراي -المرأة الفقيرة البسيطة- لأساعدها بوضع طفلها بأقلّ شكوى منها أو صعوبة واجهتني حتى الآن. جلب كلُّ يومٍ معه مناسبةً لمباركة عطايا إيرل تشاتسورث الذي وفى بتعهّده بتزويدنا بالمواد الغذائية حتى قبل التزامنا بما أقسمنا عليه أمام القسيس. فقد قام سائقو العربات بإلقاء حمولاتهم عند الحدود الصخرية أو قرب بركة الينبوع الصغير الذي أطلقنا عليه بئر مومبليون. إنّ امرأةً كانت تقتات من عمل زوجها الماهر مثل كيت تالبوت، أو عائلةً تكدّ في أفضل الظروف لتأمين لقمة عيشها كعائلة توم وزوجته لوتي، لا بدّ أنهم سيتضوّرون جوعاً دون الحصول على المؤن التي يقدمها الإيرل. أما أفراد عائلة برادفورد القابعون في ملاذهم الآمن في أكسفوردشاير، والذين توقّعنا منهم بعض الاهتمام والرعاية، فلم نتلقَّ من قبلهم صدقاتٍ من أيّ نوع، ولا حتى كلمة مواساة.

بدا المطبخ في بيت القسيس مشابهاً لحجرة الخيميائي العابقة بالأبخرة العطرة، بينما ارتشحت الأوراق المفرومة فوق الطاولة النظيفة بقطراتٍ خضراء طلت سطحها الأبيض بلونٍ سندسي. ضبطتُ صباحي على إيقاع نقرات السكين بين يدي، أما وقعها على وجه الخشب فقد بات موسيقى الأمل الشافية.

صحيحٌ أن إلينور حظيت ببعض المعارف المتعلّقة بأساليب الحصول على عصارات النباتات، إلّا أنها لم تتوانَ عن التنقيب جاهدةً حتى احمرّت عيناها بحثاً داخل الكتب عن المزيد من المعرفة. إلّا أنّ التعلّم المُجدي، يجب أن يخضع في المقام الأول لاختبار عملي. وهكذا مرةً تلو المرة حاولنا استخلاص روح العشبة بطرق شتى: قمنا بنقع بعض الأوراق في زيتٍ خفيف، أسقطنا غيرها في الكحول، صببنا ماءً نقياً فوق ما تبقى... حتى صار لزاماً الانتظار لبعض الوقت كي نتعرّف على الوسيلة الأنجع. عملتْ إلينور إلى جانبي طوال الصباح حتى تلطّخت البشرة الرقيقة ليديها بالعفص النباتي، فبدت كأنها ترتدي قفازين بنيين شاحبين. أما الأعشاب المجفّفة فقد سكبنا فوقها الماء المغلي، ثم مزجنا منقوعها الشديد المرورة مع عدة

ملاعق من العسل لتحويله إلى شراب محلّى؛ كما غلينا أنواعاً من الأعشاب لتكثيف تركيزها الطبي، خاصةً بعد معرفتنا بأن الكثير من الناس يتجرعون كمياتٍ أقل من الجرعة المطلوبة لشفائهم. اقتلعتُ بعد ذلك جذوراً متنوعةً من الأرض المتجمّدة، وضعتُ بعضها في أوانٍ من الفخار، ثم صببتُ الزيت بما يكفي لحفظها. حين تيقّنتُ أن النبات قد ارتشح بخلاصته، أغرقتُ يدي في اللّب الناعم وعجنته مع قطعةٍ من شمع العسل لتشكيل مرهمٍ لقروح الطاعون المتوهّجة. اتفقتُ مع إلينور أن عملنا يهدف إلى أمرين اثنين: يستند الأول على تخفيف أوجاعِ المصابين، والآخر الأكثر أهمية والأقل موثوقية من ناحية المنفعة، فكامنٌ في تعزيز المناعة ضدّ المرض.

توزعتِ المهام بيني وبين إلينور أثناء محاولتنا إرشاد أهل البلدة لكيفية التعرّف إلى براعم الأوراق البرية والعثور عليها، وطرائق تناولها لدعم مناعة أجسادهم. خاصة بعد تعلّمنا الكثير عن سبل تخفيف الاعتلالات والأمراض الشائعة، بالرغم من بُغضنا للتنحّي عن دورنا الأساسي في رعاية المرضى وذويهم، لكننا وجدنا أنفسنا بطريقةٍ أو بأخرى باحثتين عن العقاقير المتنوّعة التي كانت عائلة غاودي خبيرةً بتحضيرها. سرعان ما بدأنا بنهل بعض ما عرفناه وتعلّمناه: فالمركّب المكوّن من البوصير[1] مع السذاب[2]، مضافاً إليه البقدونس الإفرنجي الحلو مع زيت الخردل، يأتي بشرابٍ ممتاز لتهدئة السعال... إن لحاء الصفصاف المغليّ يخفّف من الأوجاع والحمى... أما فركُ الجروح بالبطنج[3] وتضميدها، فيسارع في شفائها. جلب هذا العمل الرضا لأرواحنا... الراحة والسكينة مع شفاء الأذيّات الصغيرة. لكن تحقيق أمنياتنا العظيمة لا يزال مفتقداً لزمنٍ إضافي وكثيرٍ من

1- البوصير أو البوصفير أو آذان الدب: ينمو هذا النبات أساساً في أوروبا وآسيا. وله حِلية من الأوراق الوردية القريبة من الأرض، والتي ينمو منها عنقودٌ زهريٌّ طويل. ظلّ هذا النبات مُستخدَماً لفترةٍ طويلة في علاج أمراض الربو.

2- السذاب: نباتٌ عشبيٌّ معمر، له أوراق كثّة ذات لونٍ أخضر يميل إلى الزرقة. تعدّ أوروبا موطنه الأصلي، ويُستخدم في علاجات أمراض الصدر.

3- البطنج: نباتٌ أخضر، يسمى لدى البعض بنعناع الماء، حيث يكثر على أطراف الأنهار والسواقي.

الانتظار. كنّا على بيّنةٍ أن الأمر قد يستغرق أسابيع عدة قبل الوصول إلى نتيجةٍ ملموسة لجهودنا الهادفة إلى حسر أعداد الموتى. مرّت أيّامٌ وليالٍ قضيناها في كوخ غاودي، محاولتين التعرّف إلى نظام حديقتهم الطبيّة وما زُرع فيها، متفحّصتين المجموعات الصغيرة من البذور المحفوظة لتحديد نوع النباتات المختبئة في أحشائها، حارثتين التربة لتهيئة أرضٍ ملائمةٍ لإنبات أعشاب المناعة المطلوبة.

اختار يوم الأحد أن يحجبنا عن شغف الجولة المُثابرة في التجميع والبستنة وتركيب العقاقير وعيادة المرضى. إذ بات من بين كلّ أيام الأسبوع -المفضل لقلبي في أيّامٍ خلتْ- يوماً بغيضاً ملعوناً وأشدّ إثارةً للذعر. إنه اليوم الذي يصرخ في وجوهنا داخل الكنيسة، معرّياً فشلنا في القبض على ويلاتِ الطاعون، ملوّحاً بإخفاقنا بأصابع تشير إلى المقاعد الفارغة والوجوه الغائبة. لا بدّ أيضاً عدم التغافل عن خصال هذا اليوم في جلب وجوهٍ جديدة إلى الكنيسة. فقد بدأ القسّ ستانلي بالإصغاء إلى عظات السيد مومبليون منذ صباح القسم ذاك. كما واظبت عائلة بيلينغ ومعها عائلاتٌ منشقّةٌ عن الكنيسة على المجيء في آحاد الأسابيع التالية. لم ينضمّوا إلى كلّ التراتيل، ولم يرنّموا عبارات كتاب الصلاة المشتركة... حتى إنّ حضورهم تسبّب في الكثير من التساؤلات والجدل؛ لكن في الحقيقة، لم أكن الشخص الوحيد الذي بدا سعيداً بمشاركتهم.

في صباح الأحد المصادف لأول شهر آذار مارس، ارتقى مايكل مومبليون منبره باذلاً جهداً كبيراً لدعم توازنه، مستنداً إلى درابزين خشب البلوط حتى ابيضّت مفاصل أصابعه. أصرّتْ إلينور أن أتقدّم وأجلس بجوارها باعتباري الآن فرداً من عائلة القسيس. كان المقعد قريباً بما يكفي لملاحظة ارتعاش جسد القسيس المنهك وتفحّص الأخاديد التي غارت عميقاً في وجهه أثناء محاولته السيطرة على نبرة صوته. يبدو أن مومبليون في النهاية استسلم للأمر الواقع، فقال مفضياً بمكنوناته للحاضرين:

«أعزائي الأحبة... لقد أخضَعَنا الإله لامتحانٍ مريرٍ طوال هذه الأشهر. وأنتم... قابلتم اختباره بشجاعة ما يجعلني متيقّناً الآن من ثوابه الجزيل. لا أزال أتشبثُ بالأمل... أتمنى وإيّاكم ألّا تستمر المحنة لفترةٍ طويلةٍ قاسية كما كانت أو كحالها الآن. لكن من يقدر على استيعاب حكمة الرّب؟ خاصةً أن

له كتاباً لا يمكن لإنسانٍ فضّ أختامه والنظر لما فيه.[1] إنه الإله المحتجب،[2] القدوس المقيم في نورٍ لا يُدرك. وحده الذي لا يتلفّظ بكلمةٍ... أيّ كلمة، الإله الذي لا يُصرّح بمّا يعتزمه... لتبدو الأقدار لكائناتٍ محدودةٍ مثلنا كبحرٍ عجاجٍ من الغموض؛ فما أضيق البابَ وأكربَ الطريقَ الّذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هُمُ الذين يجدونه![3] تترتّب علينا وفقاً لهذه المعرفة المثابرة في البحث عن وجه الرّب، وأن نتضرع له كي يسدل رحمته علينا.

أيّها الأحبة، علينا ألّا نتخلّى عن البصيرة أثناء بحثنا عن محبة الإله العظيم ورأفته. يا من تحبون أطفالكم... هل تعلمون أن الابتلاء يمكن أن يكون وسيلةً لحسن رعايتكم لهم. أيّها الأب المهمل الذي ترك أبناءه يكبرون دون إرشادٍ أو تأديب؟ لا تزال أباً صالحاً حين لا تعقد حاجبيك بغضبٍ في أوقاتٍ كهذه، متقدماً بالكفارات الضرورية بحبٍّ تحمله في عينيك وأملٍ في روحك لإصلاح أطفالك».

توقّف هنيهة مطرقاً برأسه إلى الأسفل في محاولةٍ لاستجماع قواه.

«أحبائي، ها هو إلهنا يُسْلِمنا لاختبارٍ جديد، لعلّه الامتحان الأشدّ صعوبة ممّا واجهناه حتى الآن. سيحمل الربيع الدفء إلى ديارنا خلال وقتٍ قريب، ووفقاً لما سمعناه من رواياتٍ سالفة عن أشخاصٍ غزاهم الوباء... أن الطاعون يبلغ ذروة تكاثره خلال الأجواء الدافئة. يمكننا أن نتحلّى بالأمل، يمكننا أن نركن إلى الصلاة والدعاء بأن يلفظ هذا المرض أنفاسه الأخيرة؛ لكن لا يمكننا الاعتماد على ذلك فقط، بل يجب علينا يا أصدقائي الأحباء أن نعدّ العدة لمواجهة التعرض لأسوأ المحن... وأن نقود أفعالنا وفقاً لما تمليه علينا الظروف».

ساد صمتٌ تلاه أنينٌ وتنهداتٌ أطلقها الحاضرون المبعثرون في الكنيسة.

«لذلك علينا إغلاق الكنيسة».

علا نحيب أحد الحاضرين مع عبارة السيد مومبليون الأخيرة، لتنهمر

1- «من الذي يحقّ له أن يفتح الكتاب ويفضّ أختامه؟ فما قدر أحدٌ في السماء ولا في الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح الكتاب وينظر ما فيه». (سفر الرؤيا 5).

2- «حَقّاً أَنْتَ إِلهٌ مُحْتَجِبٌ يَا إِلهَ إِسْرَائِيلَ الْمُخَلِّصَ». (سفر إشعياء 45: 15).

3- إنجيل متى (7: 14)

عينا القسيس بدوره بدموعٍ استنزفت إنهاكه الشديد. «لا تيئس!» قال مخاطباً إيّاه، مكافحاً لرسم ابتسامة. «ما يجمعنا ليس المبنى! ستبقى كنيستنا مشرّعة الأبواب، لكن بين خلائق الرّب. سنلتقي ونصلّي معاً تحت قبة السماء، وننقل خدمات الكنيسة إلى كوكليت دلف،[1] حيث تصير الطيور جوقتنا، والحجارة مذبحنا، والأشجار أبراجنا! سنقف في دلف على مسافةٍ آمنةٍ بعضنا من بعض، درءاً لانتشار العدوى».

بالرغم من فحوى كلماته الإيجابي، إلّا أن وجهه بدا أكثر شحوباً مع الفصل التالي لخطابه، والذي سيكون الأشدّ وقعاً على آذاننا وأفئدتنا.

«أيّها الأحبة، مع إغلاق كنيستنا يجب علينا إيصاد أبواب فنائها أيضاً. ألا تلاحظون كيف بات من المستحيل دفن موتانا في الوقت الملائم! أما مع قدوم الطقس الدافئ سيغدو ما هو غير لائقٍ الآن غير آمنٍ على الإطلاق.

أيّها الأعزاء، علينا تحمّل أعباء المهمة الشاقة المتمثلة في دفن موتانا بأسرع وقتٍ ممكن، وفي المكان الأقرب».

صاح الحشد بالعويل، وضجّ البعض بصيحاتٍ مروعة: «لا... لا!»

رفع يديه عالياً ملتمساً الهدوء من الحضور وتابع بالقول:

«أعرف ما يروّعكم أيّها الأحباء، صدّقوا أنني مدركٌ لمخاوفكم كلّها... لعلّكم تخشون ألّا يعثر الرّبّ على أولئك المدفونين خارج الفناء المقدّس. أنتم مذعورون أن تفقدوا أحباءكم في الحياة الأبدية. لكن دعوني اليوم أخبركم التالي... إنّ كلّ ركنٍ من أرض هذه القرية مقدّس! أنتم من وهبها القدسية عبر التضحيات التي قدمتموها والتي ستمسي دليل الرّب إليكم حيثما كنتم ليجمع شملكم، أوَليس الإله هو الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف».[2]

أخفض القسّ يديه للاستناد إلى درابزين المنبر، لكنه أخفق في القبض عليه. يبدو أن الإجهاد فاق قدرته على التحمّل، فانزلق على الأرض فاقداً الوعي.

1- كوكليت دلف: قرية في أبرشية سادلورث المدنية لمنطقة أولدهام في مانشستر الكبرى، إنجلترا. لا تزال القرية تمجّد ذكرى محنة ضرب الطاعون للقرية منذ تلك القرون.

2- «أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ». (إنجيل يوحنا 10: 11)

سارعتُ إليه برفقة إلينور بينما انتفض المحفل بالعويل والبكاء. لا أدري ما الذي كان سيحدث في تلك اللّحظة لو لم يخطُ القسّ ستانلي إلى الأمام ليصدح بصوتٍ عالٍ يناهض سنوات عمره الكثيرة:

«اهدؤوا!»

ألقى القسّ عظةً أخمدت الضجيج وأعادت ذكريات طفولتي إلى قلبي. لقد أتى باستنكارٍ وجيزٍ للمعتقدات المغلوطة، وانتقادٍ للمذهب البابوي الصلد الغارق في قلوبنا.

«لو ماتت بقرة ثم قمتم بدفنها في حقولكم، فهل ستقومون بحراثة قبرها مرةً أخرى بعد عام لعدم فطنتكم بموضع دفنها؟ بالطبع لا! أيّ عاقلٍ يمكنه ارتكاب مثل هذا الخطأ؟ حسناً، لنقل إنكم دفنتم طفلاً غالياً، ألا تحملون في أذهانكم كلّ يوم وطوال حياتكم ذاكرة الثرى حيثما واريتموه؟ لا بدّ أنكم ستجيبون للمرة الثانية: بالطبع كيف يمكن لنا أن ننسى؟ أيّ حماقةٍ تدفع بكم للاعتقاد بأنّ إلهاً قادراً على كلّ شيء، ذا قوةٍ وحكمةٍ لامتناهية، يجد صعوبةً في العثور على هذه القبور؟!.. على مدافن شعبه... على أضرحة أطفاله التي سنشيّد شواهدها خارج الكنيسة للضرورة القصوى.

توقّفوا عن البكاء العقيم! ارفعوا أصواتكم! ابدؤوا بتلاوة المزمور الثامن والثمانين، وتذكّروا أنكم لستم الوحيدين الذين اختبرهم الإله. عودوا الآن إلى منازلكم بسلام، ولنلتقِ يوم الأحد القادم في كوكليت دلف».

هرع براند لمساعدة السيد مومبليون وإعانته على النزول من المنبر، بينما بدأت الأصوات التي صدّعها الجزع في الكنيسة بتلاوة صلاة اليائس طلباً للشفاء من المرض:

«يا ربّ إله خلاصي، بالنهار والليل صرختُ أمامك
حَسِبْتُ مثل المنحدرين إلى الجبّ. صرتُ كرجلٍ لا قوة له
بين الأموات، فراشي مثل القتلى المضطجعين في القبر الذين لا تذكرهم بعد، وهم من يدك انقطعوا.
وضعتني في الجبّ الأسفل، في الظلمات، في الأعماق
أبعدت عني معارفي. جعلتني رجساً لهم.

أُغلق عليّ فما أخرج...»[1].

توقّف شجن التلاوة الحزينة، ثم أُغلق باب الكنيسة الضخم خلفنا. مضى مايكل مومبليون قاصداً منزله، مترنّح الخطوات، متكئاً على ذراع براند، مرنّماً المزمور بهمسٍ متعب:

«أما أنا فإليك يا ربّ صرخت، وفي الغداة صلاتي تتقدمك
لماذا يا ربّ ترفض نفسي؟ لماذا تحجب وجهك عني»[2].

أدركنا في المنزل، أننا سنخفق في مساعدة السيد مومبليون على صعود الدرج، لذا هرعتُ مع إلينور إلى حجرة النوم وأنزلنا بعض الفرش والأغطية لتهيئة فراشٍ في صالة الاستقبال. ساعده براند على الاستلقاء بينما تابع السيد مومبليون التلاوة:

«أنا مسكينٌ ومسلم الروح منذ صباي. احتملت أهوالك. تحيّرت عليّ عبر سخطك. أهوالك أهلكتني».

ثم عملت التمتمات المتقطّعة وإنهاكه الشديد على إغراقه في نومٍ عميق. بعد ظهر اليوم التالي، كان من المفترض أن يقوم القسيس بعيادة مصابين محتضرين، لكنني تآمرتُ مع إلينور لإبقائه بعيداً عن الأخبار التي تشوّه عميقاً وجه الحياة.

مع غزارة الموت من حولنا، بات من الصعب أخذ المستقبل بعين الاعتبار، ناهيك عن تلك المسائل المادية التي من عادتها استهلاك وعي الشخص وعمره. لكن القدر الغامض لطفلةٍ أعرفها أثقل كاهل أفكاري دوناً عن غيرها، أتحدثُ هنا عن فتاةٍ تبلغ سبع سنواتٍ من العمر، تدعى ماري ويكفورد.

استقرّت عائلة ويكفورد المؤلفة من زوجٍ وزوجة شابين من الكويكر مع ثلاثة أطفالٍ في كوخٍ صغيرٍ مهجور في ضواحي القرية قبل نحو خمس سنوات، بعد أن تسبّبت معتقداتهم الغريبة في نفيهم من مزرعتهم المستأجرة. بالرغم من تلقيهم ترحيباً غير حارٍّ إن جاز التعبير؛ لكن على الأقل، ليس لديهم في هذه القرية ما يخشونه من اعتداءاتٍ سبق أن تعرّضوا لها، وفق ما

1- المزموز 88.

2- المرجع السابق.

تناهى إلى مسامعي، من حرقٍ لمحاصيلهم أو تسميمٍ لدواجنهم. لقد عاشت العائلة تحت وطأة الفقر المدقع حتى ليلةٍ صيفية قبل عامٍ من الآن.

كان جورج ويكفورد يتقلّب في فراشه حتى وقتٍ متأخر، وقد جافاه النوم قلقاً حول معيشة أسرته، حين لمح مذنّباً عظيماً يشق درباً أبيض عبر السماء. تقول الأسطورة القديمة إن المذنبات العابرة تختار مساراً موازياً لأرضٍ حبلى بالرصاص الخام. لم يتمهّل جورج ويكفورد حتى مطلع الفجر، فهرع إلى المكان الذي اعتقد أن النيزك عبر فوقه؛ وبحلول الصباح حفر صليباً في المرج في إشارةٍ لطلب الاستحقاق، قطّع الأخشاب السبع الخاصة به لبناء الرافعة، ثم نحت جذوع الأشجار لتثبيتها في وضع عمودي. ينصّ قانون المناجم على مدار ألف عام على التالي: أيّ رجلٍ يدّعي أنه عثر على منجم رصاص، بغضّ النظر عن الأرض التي تحتويه -إذ للتنقيب أسبقية على ملكية الأرض- أمامه تسعة أسابيع ليقدم لقاضي عمال المناجم طبقاً من الرصاص الخام؛ فإن فعل لا يحقّ لأحدٍ بعد ذلك أخذ المنجم منه، أو التدخل بأعمال التعدين الخاصة به، طالما استطاع مواصلة إنتاجه، ودفع الحصة المتوافق عليها للعرش الملكي، والتي تدعى طبق الملك.

قام جورج ويكفورد وزوجته كليث بمساعدة أولاده الأكبر سنّاً بعمليات التنقيب بلا كللٍ في محاولةٍ لإثبات استحقاقهم للمنجم الذي أطلقوا عليه اسم الشهاب الناري. اضطروا في البداية إلى بأر الأرض باستخدام مذراة عشبٍ كثيرة العطب إلى جانب شفرة المحراث. رغم أنّ عمال المناجم لا ينكرون العلامات التي ترسلها السماء، لكن ذلك لم يمنعهم من الاستهزاء بالشاب جورج ويكفورد في ذلك الحين، بفعل افتقاده إلى أيّ دليلٍ خارجي يشير إلى احتمال وجود الرصاص داخل الأرض، وخصوصاً أن أيّ عاملٍ لم يضرب بمعوله يوماً بالقرب من موقع الشهاب الناري ذاك.

يبدو أن ويكفورد من ضحك أخيراً، لأنه خلال الأسابيع التسعة الممنوحة من قبل قاضي عمال المناجم حصل على كمياتٍ وفيرةٍ من الرصاص، فاقت طبق الرصاص المطلوب بكثير. وهكذا بات مطالِباً باستحقاق ملكية منجمٍ محتشدٍ بعروق الرصاص. لقد حظي بكهوفٍ غنية خلّفتها تيارات مياهٍ باطنية منذ فترةٍ طويلة، محشوةٍ بالمعادن التي يصعب العثور عليها نظراً لعدم وجود

دليلٍ سطحيٍّ ملموس يشي بوجودها. لقد اعتُبر ويكفورد زميلاً مُباركاً لعمال المناجم إلى حدٍّ كبير.

حدث ذلك قبل وفاة جورج ويكفورد الذي كان من أوائل المصابين بالطاعون. حصد الوباء بعد فترةٍ من موته ابنه الأكبر ذا الاثني عشر عاماً. ثم كافحت زوجته كليث وطفلاها الأصغر سنّاً في مواصلة أعمال التنقيب؛ لكن الأمّ بفعلِ تنقّلها بين رعاية أحد طفليها الواقعين بالمرض وكدّها في المنجم عجزت عن سحب طبق الخام المطلوب من منجمها خلال ثلاثة أسابيع. فانتهز داود بيرتون عامل المنجم المجاور هذه الفرصة، ثم وضع العلامة الأولى لاستحقاقه بتقديم طبق الرصاص الخاص بها مستخدماً رافعتها. أُثير الكثير من الجدل حول الحقوق والجور الذي أتى به هذا القانون على أهل القرية. انتقد كثيرون داود مؤنّبين تصرّفه الأناني المتسرّع. دافع عنه آخرون بحجة أنّ القانون هو القانون. لم تكن هذه المرّة الأولى التي يضع فيها الحظ السيّئ ملكية المنجم على المحك. تساءلتُ إن كان رأي الناس سيتغير لو كان ويكفورد فرداً من أفراد كنيستنا. لكنني في الحقيقة لستُ متأكدةً من موقفهم إزاء الأمر، فأنا لم ألحظ أيّ فعلٍ مختلفٍ تجاه فقدان منجمنا بعد وفاة سام. مع ذلك، لا بدّ أن الأوقات العصيبة تتطلب التضحية منا جميعاً، فلماذا لا نضحي بهذا القانون المجحف بحقّ الكثيرين؟

دار المزيد من الجدل في نهاية الأسبوع السادس، حين سحب داود بيرتون طبقه الثاني في يومٍ تزامن مع دفن كليث ويكفورد لابنها الصغير. أُشيع أن الصدمة سارعتْ بوفاتها، إذ بعد مواراة الثرى لطفلها في الصباح بملامح حزينة تشبه سحنة أيّ شخصٍ قاسى أوجاعها، بدأت حلقات الطاعون الوردية بنهش جسدها بالكامل. لقد أرداها الوباء قتيلةً بحلول الظلام بسرعةٍ فاقت فتكه بأيّ شخصٍ آخر في البلدة. لم يبقَ من العائلة سوى الطفلة اللّطيفة المرحة ماري، والتي بدتْ وكأنها مزحةٌ قاسية. رغم أن معيشة الأسرة لا تختلف كثيراً عن حال فقراء البلدة، لكن رؤية فتاةٍ يتيمةٍ بعمرها سببت تصدّعاً عميقاً في فؤادي. لقد هُجرت في ظروفٍ مروعة، فوالدها الذي لا يملك شيئاً سوى منجمه، أحسن التدبر حين صرف الأموال التي جناها من أطباق الرصاص الأولى، بشراء أدوات تنقيبٍ أفضل وطعامٍ وملبسٍ لائقين اضطرّت

العائلة للاستغناء عنهما لفترةٍ طويلة خلت. إلّا أنّ الثروة الحقيقية للمنجم لا تزال كامنةً داخل الأرض حتى اللّحظة؛ أما الطفلة صاحبة الملك فكانت على وشك فقدانه إن لم يتبرع أحدٌ بانتزاع طبقٍ من الرصاص لأجلها. تواصلتُ لأيّامٍ عدة مع عمال مناجم أعرفهم جيداً، متوسّلةً أن ينجز أحدهم المهمة كخدمةٍ لطفلةٍ يتيمة. لكن الرجال -حتى أفضلهم خُلقاً- تبنّوا منطقاً يؤول بولائهم إلى داود بيرتون الذي يعتبرونه فرداً منهم، بدلاً من دعم طفلةٍ تنحدر من عائلةٍ ومعتقداتٍ لا تمتُّ إلى سكان وادي بيكريل بصلةٍ على الإطلاق. أما عن علاقتهم الأخوية بوالدها خلال الفترة التي قضاها بصحبتهم، فاعتبروها مدّةً وجيزة لا يعوّل عليها أبداً. انقضى أسبوعٌ تلته أسابيع عدة وضعتْ فرصة الطفلة على المحك مع اقتراب نهاية الأسبوع التاسع، حيث لم يبقَ سوى يومٌ واحد يفصلها عن المصير القاتم الذي ينتظرها.

يفترض بي أن أكون واعيةً تماماً قبل إثارة هذه القضية مع إلينور؛ أو لنقل ينبغي ألّا أتفاجأ باقتراحها الذي سيعقب روايتي: «تعرفين قانون المناجم يا آنا، علينا إخراج هذا الطبق من أجل الطفلة».

طرق هذا العرض مسمعي على نحوٍ غير مرحّبٍ به بوقعٍ أشدّ استهجاناً من اقتراحها قيامي بتوليد ماري دانيال؛ خاصةً أنّ المناجم لطالما أصابتني بالذعر حتى قبل وقتٍ طويل من سحب ملكية المنجم من سام، فأنا أميلُ لما يعيش وينمو فوق سطح الأرض، بينما أكنُّ العداء للأماكن المخنوقة المظلمة والموحلة؛ ولا يعنيني ما تخفيه هذه البلدة في أحشائها وتجاويف كهوفها. صحيحٌ أن فضولاً انتابني لمعرفة الهيئة التي تبدو عليها حياة معظم الرجال هناك، إلّا أنني توانيتُ عن البوح برغبتي لسام الذي ما كان ليرفض تحقيقها، لولا الخرافات التي صدّقها العمال عن شبح المناجم،[1] العفريت المُعين لهم، الغيور عليهم والكاره لنساء عائلاتهم.

1- شبح المناجم: يحتوي التراث الأوروبي على أسطورة شبح المناجم الذي يظهر على هيئة عفريتٍ يحرس كنوز العالم السفلي. عُرف في التراث الألماني باسم «بيرجمان». تقول الأسطورة إنه يجب على الناس أن يحيوا بيرجمان قائلين: «جلوك أوف»، وأن يظهروا البهجة ويرقصوا أمام ملكهم الذي يعين العمال والفقراء على تكسير الحجارة في المنجم.

حدّقت إلينور بنظرةٍ عنيدة حفظتُها عن ظهر قلب، فقد وشتْ ملامحها بعجزي عن شرح تفاصيل مجهولةٍ بالنسبة إليها ولمعيشتها المرهفة التي لم تتورط يوماً بأشغال المنجم الصعبة. قرأتُ يوماً عن مهارة الإغريق في نحت الرخام، بحيث يكاد تمثالهم الحجري أن ينطق. أشارت الروايات إلى أجسادٍ غضّةٍ خفقت أفئدتها بالحياة داخل الحجارة الصلدة. لا تذكّرني تلك الملامح الإغريقية المنحوتة إلّا بوجه إلينور حين تصمّم على القيام بفعلٍ تعتبره صحيحاً. على أيّ حال، فأنا متأكدةٌ الآن من أننا متجهتان إلى منجم ويكفورد سواء وددتُ ذلك أم لا.

انطلقنا في وقتٍ مبكّر منحدرتين صوب المنجم الذي يقع على مسافةٍ بعيدةٍ من القرية. سمعتُ إلينور قبل ذلك تتحدّث إلى السيد مومبليون في المكتب لتخبره عن نيّتها في البحث عن الأعشاب الضرورية. لاحظتُ مع خروجها أن الدم يتدفق داخل عروق بشرتها الشفيفة. رمقتني وأنا أحدّق إلى يدها المرتعشة التي رفعتها إلى حنجرتها المتحشرجة وقالت:

«حسناً، هذا ما ينبغي علينا فعله يا آنا، سنأخذ الحقائبَ لجمع النباتات التي من المحتمل أن نجدها في طريقنا». رغم أنّ الكذبة كانت في سبيل إراحة زوجها، لكن بدا من الواضح كم كلّفها إخفاء الحقيقة والتلميح والتمويه الذي لجأت إليه. أردفت بعد ذلك بالقول: «لأنك كما تعلمين، إن علم مومبليون بمخطط مشروعنا لهذا اليوم، سوف يصرّ على إنجازه بنفسه مستنزفاً ما تبقى من قواه».

سلكنا بدايةً مساراً يقودنا إلى حقل ويكفورد لإخبار الصغيرة ماري بما نوشك على القيام به. حين لمحتنا نرتقي الدرب الموحل صوب الكوخ، اندفعت الطفلة نحونا بوجهٍ يفيض بالفرح. أوقفني لوهلةٍ الزمن الغريب الذي ينوء بثقله علينا، كيف أوعز لنا بترك طفلةٍ بمثل هذا العمر اللّين وحيدةً في مسكنها! فكّرتُ بجلبها للإقامة في بيتي، لكنني قرّرتُ عدم القيام بذلك، إذ إنّ معيشتها في هذا المكان المهجور العشوائي لا تزال تحمل الكثير من الأمان والوقاية داخل منزلٍ يبعد مسافةً لا بأس بها عن القرية، منعزلاً عن مخالطة ضحايا الطاعون.

تمكّنتِ الطفلة بطريقةٍ ما من إدارة شؤونها، بل ونجحت في ذلك. فقد لاحت ملامحها ناضحةً بالصحة، وقد انسكب الوردي فوق وجنتيها وغمّازتي وجهها غامراً الثّلم العميق في ذقنها، أما ضفائرها الداكنة فتماوجت لامعةً مع تقافزها من حولنا. قبل دخولنا إلى الكوخ، لمحتُ بقايا وجبة الإفطار التي تناولتها في ذلك الصباح والملقاة فوق الطاولة: إناءٌ فخاريٌّ يعجُّ بشحم الخنزير، تشي بصمات الأصابع الصغيرة على السطح الأبيض الزلق أنها تناولته بقبضة يدها. هناك قشر بيضٍ بدا أنه شُرق نيئاً إلى جوار حبة بصلٍ مقضومةٍ كتفاحة. سلوكٌ لا يمتُّ إلى أيّ لباقةٍ بصلة، لكن لا بأس طالما أنه طعامٌ مغذٍ.

مع خطواتنا الأولى فوق الأرضية الخشبية المقلقلة سارعت الفتاة لمسح الطاولة، ثم دعتنا بأدبٍ فائق إلى الجلوس. من أين أتت هذه الفتاة برباطة جأشها! تساءلتُ بمرارةٍ طعنت قلبي، لماذا لم أبذل أيّ جهدٍ للتعرّف على والديها! لا بدّ أنهم تحلّوا بخلقٍ طيبٍ كالذي يسم صغيرتهم ماري.

بدا أن أفكار إلينور نحتْ بذات المنوال فقالت: «أنا واثقةٌ من أن والدتك فخورةٌ بك يا ماري، خاصةً بمعرفة مدى شجاعتك وقدرتك على إدارة شؤونك بنفسك هنا».

«هل تعتقدين ذلك؟» سألتْ بنظرةٍ جادة، ثم أردفت: «أشكركِ لما قلته. فأنا أشعر أن أمي وأبي وإخوتي معي، حريصون على حراستي. تصيبني هذه الفكرة بالارتياح وتحيل الوحشة سراباً. أشكركما على زيارتي في هذا اليوم، لأنه من الصعب عليّ مواجهة فقدان منجم عائلتي وحدي».

«آمل ألّا تضطرّي لمواجهة أيّ شيءٍ من هذا القبيل» أفشيتُ من غير تفكير بشعورٍ طغى عليه الرضا لقدومي بصحبة إلينور.

«على الأقل» أضافت إلينور: «نأمل ألّا يصيبك أيّ ضرر».

سرعان ما تحوّل سرور ماري إلى امتنان حين أوضحنا أننا لم نأتِ لزيارتها فقط، وإنما لمحاولة إنقاذ منجمها؛ ثم ألحّتْ كطفلةٍ شجاعة على مرافقتنا والقيام بما يجب عليها من أعمال. فشجّعتُ إصرارها بالقول: «يمكنكِ مساعدتنا يا عزيزتي ماري كما كنتِ تعاونين والديك. إذ لديك

الكثير لفعله في غربلة وفرز الفلذات عن صخرة الضفدع، ومن ثم غسل الخام لتخليصه من الرواسب. سوف نعتمد عليكِ بإعلامنا حين إتمام جمع طبق رصاصٍ جيد، لأن داود بيرتون يعتقد أنه استحقّ ملكية منجم الشهاب الناري الآن، وسيسارع لإرضاء قاضي المناجم». هزّت ماري برأسها عالمةً بأبعاد الطبق الكبير الذي يطلبه قاضي المناجم، بينما التبست الأمور بالنسبة لإلينور لعدم معرفتها بمثل هذه الإجراءات من قبل، فأوضحت لها أن حجم الكمية المطلوبة من الخام يضاهي ما يمكن لقدرة رجلٍ عادي على انتزاعه من باطن الأرض.

بدت الطفلة أكثر ثقة، ثم أعلنت عن قدرتها على إرشادنا داخل المنجم، خاصةً أنها كانت تساعد في أعمال التنقيب من قبل. أوشكت إلينور على الموافقة، لكنني همستُ بأن وجود الفتاة مع والدها ووالدتها العارفين بكلّ حجرٍ في منجمٍ ينقبّون فيه يومياً مسألةٌ تختلف عن مرافقتها لامرأتين جاهلتين بتجاويف الأرض المظلمة، لا تعرفان أكثر مما سمعتاه عن أعمال التعدين. «سأعمل على مساعدة الطفلة يا إلينور، وليس دفنها!». وافقتْ إلينور على مقترحي فأخبرتِ الفتاة بلطف أننا نحتاجها في الأعلى، أما في حال إخفاقنا وعجزنا عن الارتقاء إلى السطح حتى فترة ما بعد الظهيرة... «حينها فقط» حذّرتْ إلينور بأن عليها «المضيّ مسرعةً إلى منزل القسيس وإخبار السيد مومبليون بما جرى».

بعد وفاة سام، حزمتُ معدات الحفر الخاصة به داخل قطعة قماشٍ منقوعةٍ بالنفط، وركنتها بعيداً مع نيّة منحها لعامل مناجم مُعوَز في يومٍ ما. وخزتِ الحسرة قلبي! لا بدّ أن عائلة ويكفورد كانت بأمسّ الحاجةِ لهبةٍ كهذه، لكن تفكيري المنشغل بمصيبتي آنذاك تزامن مع عثورهم على المنجم، ومسح من ذاكرتي أدوات سام المركونة مع نواياي حولها. فضضتُ حزام المعدات، فشعرت بثقلها بين يدي، تفكّرت في ندبات كفيّ سام العريضتين والعضلات القاسية لأذرعه الضخمة، ثم تساءلت كيف سأتدبر العمل بهذه الأشياء. انتقيتُ المعدات الأساسية الثلاث التي يحتاجها عامل تعدين الرصاص: المعول السوي، والمطرقة القصيرة والإسفين.

استخدمت عائلة ماري بهدف التوفير نمطاً مختلفاً من الأدوات، أحدها

مكوّنٌ من مقبضٍ خشبيٍّ ينتهي بقطعةٍ معدنية ذات رأسين أحدهما مدبب، تُستخدم كمعولٍ ومطرقةٍ في الوقت ذاته. سأعطي هذه الأداة الأخفّ وزناً والأقلّ فعالية لإلينور. طلبتُ من ماري بعد ذلك البحث عن الستر الجلدية الواقية من رطوبة المنجم الخاصة بوالدها وشقيقها، إذ تمزّق سروال سام الخيشي وجركينته القديمة أثناء الحادثة، واللّذين كانا بأيّ حال من الأحوال ضخمين جدّاً مقارنةً بحجم جسدي. ما زالت تعجّ في ذاكرتي مُزَق الجلد التي نزعتها عن جسده المهروس.

كانت إلينور نحيلةً بما يكفي لتناسبها الجركينة والسروال الخيشي الخاصين بولد ويكفورد الأكبر، والذي سلّ الفقرُ الشحمَ عن لحمه فأبقاه هزيلاً. آه كم صلّيت كي لا تكون بذور الطاعون مختبئةً بين طيات ملابسه. قمتُ بشحذ مقصّ الصوف جيداً، واقتطعت ثلث طول السروال بما يغطي ساقيّ، ثم فغرتُ بعض الثقوب أعلاه وجلتُ بحبلٍ يحزمه حول خصري. أخذتُ الجلود الخاصة بوالده غير آبهةٍ بحجم الجركينة وخفقانها بحريةٍ فوق كتفي. وضعنا القبعات المصنوعة من الجلد القويّ ذات الحوافّ الواسعة المخصصة لحمل الشموع الشحمية التي علينا إيقادها كي تضيء النفق المظلم أثناء انشغال أيدينا بالعمل.

ألقيتُ نظرةً إلى إلينور أثناء ارتدائها لثياب عمال المناجم، وتساءلت من جديد عن المنعطفات الغريبة التي جلبتها هذه السنة لحياتنا. التقطت السيدة ما كان يجول في خاطري، فضحكتْ هازئةً من مظهرها، ثم قالت: «أستذكر أجدادي الجاثمين داخل صورهم، المحدّقين إلى وجهي طوال فترة طفولتي وصباي... أتساءل عن أولئك الرجال المدججين بالأوسمة والشرائط... عن السيدات المترعات بالحرير... ما الذي سيقولونه عن حفيدتهم لو أمكنهم رؤيتها الآن؟». لم أخبرها أنني عرفت جيداً ما الذي سيقوله سام على الأقل: «لا بدّ أنكما جننتما، أيّ امرأة تفكّر بفعلٍ كهذا!». أنا واثقةٌ أنه لن يضحك على الإطلاق.

لكن ماري ويكفورد وحدها من حظيت برؤيتنا، لعلّنا لم نبدو مستهجنتي الشكل أمام ناظريها اللّذين أشرقا بالبهجة حين تلمّستْ فينا أملها الوحيد. هكذا انطلقنا بقيادة الطفلة إلى المسرب المؤدي إلى المنجم. شعرتُ بقدميّ تسحلاني

بتثاقل، متخيلةً صعوبة اليوم الذي ينتظرنا، لقد تسارعت أنفاسي بمجرد التفكير بذلك، وأصابني الذعر من التواجد داخل أحشاء بلا تهوية، كأنني أجول داخل المنجم بالفعل محتجبةً عن الهواء المترع بشذى أزهار الخلنج.

قدّم ويكفورد أنموذجاً مثالياً عن جميع الكويكر الذين استخفّ الناس بمعتقداتهم الغريبة، فلا أحد أمكنه الادّعاء بعدم حرفيته أو حذره فيما يخصّ أعمال التعدين. لقد قام بحشر ألواحٍ كبيرة من الحجر الجيري الرمادي بعنايةٍ بين جدران المنجم، كما نصب جذوعاً صلدة لصنع عوارض متينة. لكن الرطوبة نالت من الأعمدة الخشبية كما هو الحال في معظم المناجم، بينما نمت الطحالب والسراخس بغزارةٍ في الشقوق وبين التصدعات. أرعبني التحديق بعمق الحفرة الغائرة حتى قبل انغلاقها التام عند حلق المنجم، لكنني أدركتُ أن مدة بقائي هناك تتناسب عكساً مع قدرتي على اقتحامه هبوطاً، لذلك أشفقتُ على نفسي منذ العارضة الأولى.

بلغ عمق المنجم ست قامات[1] لينحرف بعدها عن الرؤية تماماً. حرص ويكفورد على حفر النفق جانبياً بمساحة ست أو سبع ياردات قبل أن ينصب العمود نزولاً لمرّةٍ ثانية. رمقتُ دلو الرافعة راقداً بأمان بين الصخور متلقفاً ضوء النهار، لكنه ما إن يبتعد عن العين يداهمه ظلامٌ دامس، لذلك توقّفت في مكاني كي أوقد شمعتي بعد دلق الشحم على حافة القبعة لصنع قاعدةٍ من شأنها أن تبقيها ثابتةً في مكانها. تقافز الضوء وارتعد حين هبطتُ نزولاً. أعلمتني ماري أنني سأعثر على فم الكهف عند قاعدة العمود الثاني، وهذا ما حدث بالفعل. تخيّلتُ في تلك اللّحظة بهاء المشاعر التي انتابت ويكفورد حين رأى بوابة ثروته. تمكّنتُ بهداية الضوء الخافت من معاينة المكان الذي نُحتت جدرانه الصخرية بعناية لتوسيع الممرّ الذي قمت باجتيازه بخفة؛ لكن سرعان ما انحدرت الأرضية زلقةً مغطاةً بالوحل، وفي غضون دقائق فقدت توازني وهويتُ كاشطةً راحة كفي أثناء محاولتي التشبّث لمنع سقوطي. على بعد أمتارٍ قليلةٍ من العارضة همد الهواء ضحلاً عفناً. كنت مُقعدةً في الوحل حين تملّكني الذعر، وبدأ العرق يتصبب مني بالرغم من برودة المكان، بينما

1- القامة أو الفائوم (fathoms): وحدة قياس عمق المياه وتساوي ست أقدام.

وخزت جلدي آلافٌ من الإبر المدبّبة. يبدو أن الفزع قد تمكّن من أوصالي حتى بتُّ ألهثُ اختناقاً طلباً للمزيد من الهواء. جاءتْ إلينور من ورائي، ثم شعرتُ بيدها تهدّئ من روعي وتساندني لأقف.

«كلّ شيءٍ على ما يرام يا آنا» همستْ: «يمكنك التنفّس بسهولة. لا تزال نفحات الهواء تسري في المكان، عليكِ إحكام عقلك ولا تدعي المخاوف تسود حكمتك». كنت أجاهد لرفع قدمي حين طغى السواد مغلقاً عينيّ، وخوفاً من الإغماء جلستُ مجدّداً. استمرّت إلينور في التحدّث بلطف لكن بحزم هذه المرّة، ثم جعلتني أضبط أنفاسي مع إيقاع حديثها الهادئ. صفا عقلي خلال لحظاتٍ قليلة ثم تمكّنت من النهوض. وهكذا انعطفنا في النفق الطويل وانزلقنا منتصبتي القامة في بعض الأحيان... راكعتين عند مضيق الكهف... زاحفتين على اليدين والركبتين في أماكن أخرى... منزلقتين على بطوننا حين تباغتنا صخرةٌ على حين غرة.

أضاءت الشمعة الخافقة أخيراً جداراً تمّ ثلمه، فلم نتوانَ عن اتّباع الخط المحفور. روتْ هذه التنقيبات الحكاية المؤسفة للأسرة المنكوبة، حيث بدا وجه الصخر في البداية نقيّ الخام مشغولاً بحرفية، فالأماكن حيث غرس جورج ويكفورد معوله أبرقت بزهوٍ تحت ضوء الشموع، ثم سرعان ما أصبحت ضربات المعول عشوائيةً ضئيلة وأقلّ عمقاً، مشيرةً إلى أيادي كليث وولديها اليافعين. مع وصولنا إلى آخر الضربات الموشومة في الجدار، ركعتُ إلى جانب إلينور، ثم قمنا بفكّ أدواتنا بنيّة العمل بوتيرةٍ سريعة؛ لكن الجهد الهائل الذي يتطلبه حفر الصخر دفع بمخاوفي إلى واجهة عقلي: لقد عملتُ بجدٍّ طيلة حياتي... نقلتُ دلاء المياه وقطّعتُ الحطب وجمعت أعواد القشّ. لا يمكنني استحضار عدد المرّات التي طاردت فيها كبشاً لأقبض على حوافره الخلفية، حتى إنني تمكّنت في العام الماضي من جزّ صوف أغنامي بمدةٍ لم تتعدَّ فترة الظهيرة. لكن هذا العمل -تمزيق الصخور عن الصخور- أصعب عملٍ أوكل إليّ على الإطلاق؛ حتى إنّ ذراعيّ خارت قواهما في غضون نصف ساعة. لا بدّ أن إلينور تقاسي المزيد، إذ لم يخفَ الإجهاد الذي نال منها وأوقفها لفتراتٍ طالت مرّةً بعد مرّة بين ضربةٍ وأخرى حتى أصابت المطرقة إبهامها. صرختْ فهرعتُ مع الدم المتدفّق

من ظفرها الذي دَلِمَ على الفور، لكنها منعتني من الاقتراب مومئةً بمتابعة عملي، ثم قامت بتضميدِ جرحها ببعض الخرق قبل عودتها إلى كدّها. تلطّخ وجهها بالطين وجسدها بالعرق، كانت تترنّح بهوادة كشفت عن جلادتها كصخرة؛ حتى إن حشرجة أنفاسها الحادة ساءتني جدّاً، لدرجة أني لذتُ بقعقعة الحديد لحجب الضجيج عن أذنيّ.

المحافظةُ على هلعي مكبوتاً كانت المهمة الأكثر تعقيداً. حاولتُ تهدئة مخاوفي بالتركيز على العمل بدلاً من التحديق في صفحة الجدران الصخرية الداكنة اللّزجة التي بدت وكأنها تمتدّ وتنحسر مع كلّ رفّةٍ من لهيب شمعتي. كتمتُ أنفاسي عن الجوّ الخانق الرطب الذي بدا آجِناً منذ الأزل، وانكفأتُ متشاغلةً بمعولي عن طبقات التربة والصخور الكثيفة المكدّسة فوق رأسي. كان فتح فلقٍ صغيرٍ يتسع لرأس الإسفين يتطلب العديد من الضربات التي ارتجعت كلٌّ منها برِعْدةٍ سرت في عظام ذراعي عابرةً عنقي لتصطكّ أسناني. أدخلتُ الإزميل ورفعتُ المطرقة الثقيلة عالياً ثم طرقته بكلّ قوتي آملةً أن يبدّد أجزاءً كبيرةً من الصخور؛ لكن جهودي باءت بالفشل، إذ كان يهوي من الصدع مرّةً تلو الأخرى غائراً في الوحل البارد، فأحاول بعماءٍ العثور عليه والتقاطه بأصابع خدرةٍ زلقة. لا بدّ أن عجزي عن إجادة العمل عائدٌ إلى البرد الذي شلّ يديّ، بل وأفقدني السيطرة تماماً حتى تمكّن الألم والإحباط مع مرور الوقت من تثبيط عزيمتي وإغراق مقلتيّ بالدموع... فكلّ هذا الكدح في توجيه الضربات لم يراكم في الدلو سوى كومة لا تتجاوز بضع بوصات.

يبدو أن الخيبة نالت من إلينور بدورها، إذ بالرغم من كلّ ما بذلَتْه من جهود، لم تتمكّن من تحطيم سوى كميةٍ هزيلةٍ من الصخور. جثت على كعبيها ملقيةً بالمطرقة التي ارتطمت بالصخرة بقوة، مدركةً المخاوف الجاثمة في صدري، فسبقتني بالاعتراف بها:

«لن نتمكّن بهذا المنوال من تجميع طبقٍ مع نهاية اليوم». تبدّد همس كلماتها بين جدران الكهف.

فركتُ أصابعي المُخدّرة ومسدتُ ذراعيّ المتألمتين، ثم أومأتُ

والإحباط ينهش ملامحي: «أدري... من الغباء الاعتقاد بأن يوماً واحداً قادرٌ على تعليم مهاراتٍ تتطلب من الرجال الأشدّاء الكدّ لسنوات».

«لا يمكنني مواجهة الطفلة بإخفاقنا» أردفت إلينور: «لا أتحمّل التسبب بخذلانها».

فكّرتُ فيما سأقترحه لدقائق طويلة، إذ بينما يشعر بعضي بخيبةٍ بفعلِ الفشل المحيق بنا، كان بعضي الآخر مسروراً إلى حدٍّ بعيد بفكرة أن إلينور أوشكت على التخلّي عن مسعانا البائس. ظفرتْ فكرتي الأكثر أنانية فاخترتُ الإذعان، وبصمتٍ جمعتُ معداتي التي تمكّنتُ بالكاد من حملها، ثم شققنا طريقنا عبر النفق. أقنعتُ نفسي بينما تنسّمتُ الهواء العذب بامتنان أن جسدينا المنهكين لن ينجزا شيئاً، حتى لو وشيتُ لإلينور بالكثير مما أعرفه.

لكن ملامح ماري المترقّبة أطاحت ببهجتي الهاربة من النفق. لقد أوجعني خمود نظراتها المتّقدة بالتفاؤل وتلاشي ابتسامتها المشرقة وارتعاش شفتيها حين رأت كمية الخام التعسة التي أحضرناها. مع ذلك لم تبكِ، بل على العكس ضبطت نبرة صوتها الرقيق، ثم شكرتنا بحرارةٍ على جهودنا. لقد اعتراني الشعور بالعار من الجُبن الذي تملّكني!

«هناك طريقةٌ أخرى لإخراج الخام»... أفشيتُ من غير تفكير. «لقد استخدمها سام عندما وصل إلى صخرة الضفدع أثناء تجريفه للصخور، لكن ذلك كلّفه حياته في النهاية».

التفتُّ إلى إلينور ثم أطلعتها على وسيلة النار والماء، أو ما يسمى قوة الأضداد التي يستخدمها العديد من عمال المناجم لتمزيق الصخور.

استندتْ إلينور إلى الرافعة وغطّتْ عينيها بيديها المتقرحتين لفترةٍ دامت طويلاً، ثم أفرجت عمّا تفكر فيه بالقول: «أعتقد يا آنا أن حياتنا في هذه الأيام معلّقةٌ بخيطٍ رفيع، فإن نجونا اليوم من خطر المنجم، سيهزمنا الطاعون في الغد؛ لذا يجب علينا الخوض في هذه المخاطرة والمحاولة... الأمر متوقفٌ على موافقتك بكلّ تأكيد».

حدّقتْ ماري بقلق. لعلّ أطفال عمال المناجم الأكثر درايةً بالمخاوف المصاحبة لتطبيق قوة الأضداد؛ في الواقع يمكن للدخان والأبخرة المختلطة

مع الرطوبة الخانقة إفراغ الكهف ممّا تبقى من هوائه النقي. قد يحرّر التصدّع المياه الجوفية مطلقاً سيلاً يُغرق المنجم بمن فيه؛ أو ربما يتأذّى قوام الأرض العلوي بتأثير الضغط، وبدلاً من انتزاع المعدن الخام تتهاوى الدعائم والصخور إلى الأسفل فتدفنك، كالحادثة التي تعرّض لها سام. لا يزال استخدام النار والماء أشدّ الوسائل خطورةً، والتي لا يمكن التنبؤ بآثارها؛ وقد تمّ حظره ما لم يحصل المرء على موافقة جميع العمال في المناجم القريبة المجاورة. لا جيران لهذا المنجم المنعزل، لذلك كنا أحراراً في اتخاذ القرار.

جمعتُ الحطب الأخضر بأقصى سرعة، أما أعواد الإشعال المبعثرة فوق المرج فقد تبلّلت بفعل الأمطار الأخيرة. ركضت ماري في الطريق المؤدي إلى كوخ عائلتها لجلب الصوفان المُخزّن قرب موقدهم. عندما هبطتُ مجدّداً لما بعد العارضة الخشبية داخل النفق، أسدلتْ ماري الماء البارد في دلاءٍ جلدية. أرقتُ ماء الدلو الأول حين تعثّرتُ عابرةً الكهف، واضطررت إلى إضاعة الوقت الثمين أثناء ذهابها لجلب المزيد. تمكّنتُ بمساعدة إلينور في المرّة الثانية من تناقل الدلاء بيننا.

جلتُ بيدي على طول الوجه الصخري متلمّسةً التشققات، ضاربةً الإسفين داخلها لتوسيعها. بعد الحصول على تصدّعٍ صخريٍّ واسعٍ بما يكفي، أوضحتُ لإلينور كيفية وضع الأغصان الخشبية الخضراء داخل الشقوق، ثم غرس كلٍّ منها بالمطرقة بأقصى قوةٍ ممكنة. نثرتُ الصوفان الجافّ على طول سطح الصخور، ثم قلتُ لها:

«عليكِ الآن الصعود إلى الأعلى، سأسحب الحبل لاستدعائك إن تكلّل عملنا بالنجاح».

«أوه... لا يا آنا!» قالت: «لن أتركَكِ هنا وحدك». استشعرتُ باكراً بجدالٍ يائس قد يستغرق زمناً طويلاً لإقناعها بالمغادرة، لذلك تحدّثتُ بنبرةٍ حادة:

«إلينور! لا وقت لدينا للنقاش. ألا ترين إن جرت الأمور على نحوٍ سيّئ أو أصابني مكروهٌ ما بأنك ستتمكنين خارجاً من مساعدتي ونجدتي على نحوٍ أفضل من بقائك برفقتي هنا؟».

لمحتُ دموع عينيها المنهكتين تتدفّق بلمعانٍ ساطع عبر الضوء الشاحب؛

لكن كلماتي فعلت فعلها، إذ أدلت برأسها وأجابت: «كما تشائين»، ثم بدأت بالزحف الطويل نحو السطح. تضاءل صوت جرجرة قدميها رويداً رويداً لأبقى وحيدةً داخل صمتٍ مطبق لا يخترقه سوى وقع قطرة ماء... قطرة ماء غير مرئية تشقّ طريقها عبر الصخر. سارعتُ لإشعال الخشب قبل إصابته بالرطوبة العالية، لكن يديّ المرتجفتين لم تسعفاني في حكّ الصوان مع الصوفان، بينما قبضت التنهدات على حنجرتي.

كنت أفضّل الموت بوباء الطاعون بدلاً من إنهاء حياتي هنا، مدفونةً حية في عمق الظلام. اشتعلت النيران أخيراً مبدّدةً العتمة، مضرمةً الحطب الأخضر، مزمزمةً بهسيس نسغه. صدحت الأخبار الأولى عن فعل الحرارة في تمدّد الصخور، وكان من الصعب جدّاً الانتظار. طاف الدخان الكثيف عابقاً بالكهف خانقاً أنفاسي. وضعتُ خرقةً مبلّلة على فمي وجلست مرتعشةً أنتظر وأنتظر بقدمين مسمّرتين في الأرض، رافضةً النهوض قبل الوقت الموعود. لا تزال لدينا الفرصة رغم كلّ شيء... فرصة واحدة فقط. أما الوقت الباقي فقصيرٌ جدّاً لاقتناصها من جديد. إذا لم يتمّ تسخين الصخرة بما فيه الكفاية، فإن الجهد المبذول سيضيع ويتبدّد كدّ يومنا بالكامل. أخيراً حين أوشك صدري على الانفجار من غزارة غَرف الدخان، وصلتُ بعماءٍ إلى الدلو ثم دلقتُ المياه الجليدية فوق الصخور المحمّاة. عجيجٌ عظيم صدح عبر المنجم، دَويٌّ يضاهي إطلاق عشرات البنادق ترافقَ مع تصاعدٍ كثيفٍ للأبخرة، لتتوالى صفائح المعدن الخام بالتهاوي.

تعثّرتْ خطواتي وانزلقتُ أثناء محاولتي تلمّس درب الصعود إلى الخارج. أغلق الدخان عينيّ وأضنى السعال صدري ممزقاً حنجرتي. صخرةٌ حادة وقعت فوق كتفي، تلاها لوحٌ صخري اعتلى ظهري فانغمس وجهي في الوحل. جاهدتُ لأتحرّر من ثقله، تلوّيتُ متّكئةً إلى ساعديّ اللّذين أوهنهما التنقيب الصباحي دون جدوى.

«يكفي...!» تضرّعت: «أه من فضلكم، توقّفوا الآن!»، لكن التصدعات لم تذعن مطلقاً، بل تعاظمت شروخها ليهطل مع كلّ فلعٍ جديد وابلٌ من الصخور. صفعتِ الحجارة المتهاوية ذراعيّ وأصابعي بعنف. أما ضغط الحمولة الجاثمة فوقي فاحتجزني داخلها وبطح جسدي بسكونٍ تام.

أيقنتُ أنها النهاية، ها أنا أموتُ في الظلام وحيدةً كـما قضى سام. تراكمت ألواح الصخر المحطّمة فوقي... أكثر فأكثر... أثقل فأثقل. شعرتُ بأحمال التلال الخارجية تنفلق، تنزلق بحجارتها بعضها فوق بعض، أحسستُ بالتراب يردم كلّ ثلمٍ في المكان. مسّتْ شفتاي الطينَ الرطب مرغمةً مُعرِضةً عن قبلةٍ مثيرةٍ للاشمئزاز، أصغيتُ إلى إيقاع الدم في أذنيّ طارقاً، قاصفاً، مدويّاً، صادحاً بصريرٍ يرتفع ويعلو كاتماً صخب تحطّم الصخور.

ثم... شيءٌ غريب حدث. الذعر تلاشى بعيداً، خبا كلّيّاً. سرعان ما حلّت محلّه صورٌ لطفليّ جالتْ في عقلي المضطرب. منذ فترة وأنا أعاني من صعوبةٍ في استحضار تفاصيل وجهيهما، لكن... ها هي خصلات شعر جيمي المنسدلة ترتسم جليةً فوق جبينه... ملامح توم الجذابة المتجهّمة أثناء رضاعته تلوح سافرةً أمام ناظريّ. توقّفتُ عن الصراع في سبيل الانعتاق، ثم أطلقتُ أنفاسي الأخيرة للهواء المحتضر. استرخيتُ راضية بين الصخور التي من شأنها أن تكون مثواي الأخير وشاهدة ضريحي.

اعتقدتُ أن الأمور سارت على ما يرام، فلا زال بإمكاني تحمّل نهايةٍ كهذه. لكن خيوطاً داكنة بدأت بنسج شباكها حول محيّا ولديّ، حاولتُ عبثاً تمزيقها. ليس الآن... ليس الآن... اسمحوا لي برؤيتهما لبضع لحظاتٍ أخرى. لكن الظلال القاتمة تكاثرت نحو الداخل طامسةً إشراق وجهيهما بالكامل. صمتٌ مباركٌ طغى فجأةً على الأجواء حاجباً دفقات الدم وهدير الصخور العظيم.

افترضتُ موتي العاجل في حال لم يأتِ أحدٌ لفكّ الحصار عن جسدي، خاصةً إنْ لم تلتزم إلينور بتعليماتي بضرورة تجاوز العارضة الأولى في المنجم؛ أو في حال لم تقم ماري بالتقيّد بتوجيهاتنا بعدم الاقتراب. لكن لحسن الحظ، جثمت إلينور قرب عوارض الصخور على بعد مئة ياردة من العمق حيث أشعلتُ النار. أما ماري فقد تسمّرت عند مدخل الكهف قبالة العارضة الأولى. هرعتا لإنقاذي حين سمعتا ضوضاء التحطم الكبير، لأجد نفسي فجأةً مدفونة حتى الرقبة، أما وجهي فقد حرّره نبش أصابعهما المحموم.

سرعان ما أدركتُ أن الصمت المطبق قبل فقداني لوعيي كان حقيقياً: إذ أنهت الصخور انهيارها بالفعل وكمّمت جلبة انزلاقها. وانتهيتُ إلى أنني لم أفلق التلال أو أخسف صخورها فوق عظامي. ومع تلاشي الدخان أخيراً تمكّن ثلاثتنا من رؤية ثمرة كدحنا: لقد عملت النار والماء على تراكم أكَمةٍ من مكعّبات الخام اللّامع، والتي من شأنها أن تهب ماري ويكفورد ليس طبق الرصاص الخاص بهذا اليوم فحسب، بل لأسابيع تالية كثيرة تثبتُ استحقاقها المنجم. قامت إلينور وماري برفع الصخور عني، لوحاً تلو اللّوح، تمكّنتُ بعد ذلك بمساعدتهما من الزحف بتوجّعٍ شديدٍ حتى فم الكهف... بالكاد رفعتُ قامتي وخطوت بصعوبةٍ نحو السطح.

لا أعرف كم مرّةً تعثرتُ في درب العودة إلى القرية. كلّ خطوةٍ جلبت تشنّجاً جديداً في أنحاء جسدي الذي تسربل بالألم بمساماته جميعها؛ لكننا مع ذلك عبرنا طريقنا بأسرع ما يمكن في سباقٍ مع تلاشي ضوء النهار. ساندتني إلينور بإحدى ذراعيها بينما قبضت باليد الأخرى على أطراف الخيش المحمّل بالخام بمساعدة ماري... لم نتوقّف عند كوخ عائلة ويكفورد لاستعادة ملابسنا، بل مضينا قدماً قاصدات كوخ قاضي المناجم المدعو آلان هوتون. لو كنتُ على ما يرام لناشدتُ إلينور أن تتفادى المعاملة المهينة والتحديق المذل الذي ينتظرها عند مقابلة هذا الرجل. لكنها أخمدت سخطي حين تمتمتُ بشيءٍ حول هذا الأمر بالقول: «ما قمنا به في النهاية يا آنا يصبُّ في الرغبة بإنصاف هذه الطفلة، لا نية بالتواجد هنا إلّا لرؤية العدالة وقد تحقّقت».

عملت الصدمة التي تلقاها آلان العجوز من مظهرنا المبلّل الملطّخ بالطين والسخام وبقايا الصخور على تأجيله لأعماله، فقام على عجالة باستدعاء داود بيرتون والعديد من الرجال المُنتخبين للتحكيم في أمر أطباق الرصاص للتجمّع في حانة سواعد عمال المناجم للشهادة. أرسلت إلينور في تلك الأثناء رسالةً إلى منزل القسيس.

لم تمرّ دقائق كثيرة قبل أن تصل إلى مسامعي ضربات حوافر أنتيروس عالية الصدى. لو كان الأمر عائداً إليَّ لانزلقت بعيداً خلف الفناء بدلاً من مواجهة القسيس. لكن إلينور أجلستني أمام موقد آلان هوتون تمسح

جروحي بالماء الدافئ، ثم نهضتْ غير آبهةٍ بتعديل مظهرها المتّسخ للترحيب بزوجها الذي اعتقدتُ للحظة أنه لن يتعرّف عليها. لقد انتصبتْ عارية الرأس أمامه بعد فقدانها لغطاء رأسها أثناء قيامها بإنقاذي، بينما تلطّخ شعرها الناعم بالطين، وانسدل حول وجهها بخصلاتٍ بنيةٍ جافة. كانت الجلود التي ترتديها ملطخةً بالسخام والأتربة، بينما التفّت خرقةٌ قذرةٌ ملطّخةٌ بالدماء حول إبهامها المجروح.

تسمّر القسّ قبالة الباب مشدوهاً. مضت لحظات صمتٍ طويلة خشيتُ أنه يكافح أثناءها لاحتواء غضبه؛ لكنه ضحك كثيراً بدلاً من ذلك فاتحاً ذراعيه لإلينور. اعتقدتُ أنه على وشك معانقتها لكن وجودي مع الطفلة غيّر رأيه، أو ربما منعه جابوته[1] الأبيض الأنيق فتراجع. تصفّح يديها بهدوء، ثم طلب تفاصيل دقيقة عن كدح نهارنا بنبرةٍ مترعةٍ بالافتخار.

عملتْ مرافقة القسّ لنا إلى حانة سواعد عمال المناجم على تهشيم القلق المقيم داخلي، وتفتيت خشيتي من تلطّخ سمعة إلينور مومبليون جرّاء ما قمنا به. من المتعارف عليه في مجتمعنا القروي أن مهماتٍ كهذه مقتصرةٌ على نساء من عامة الشعب، ولا يليق بسيدةٍ نبيلة إنجازها. انتشر الرجال حول الفناء بدلاً من التجمّع داخل الحانة كما اعتادوا، ثم قاموا عن مقاعدهم مع قدومنا. صرخةٌ صدحت من الركن الخلفي للفناء: «هتافٌ للعمال الجدد!» تلتها صيحات الثناء من حنجرة كلّ رجلٍ هناك. وحده داود بيرتون وقف صامتاً وحانقاً. قام قاضي عمال المناجم برفع ميزانه النحاسي الكبير، حيث كان طبقه بعمقٍ يبلغ طول ساق رجلٍ طويل القامة، أما عرضه فيساوي طول عضلة فخذٍ قوية. ساعد قاضي المناجم ماري مع خيشها المحمّل بالخام في الوقوف على طاولة الحانة كي تتمكّن من الوصول إلى الطبق. ثم راكمتِ الخامات بعنايةٍ داخله بملامح تشي بجدّيةٍ فائقة حتى امتلاء الطبق لتعلو هتافات العمال من جديد.

1- جابوت (jabot): كلمةٌ ذات أصلٍ فرنسي، أُطلقت في البداية على زخارف الدانتيل حول طوق قميص الرجل في القرنين السابع عشر والثامن عشر. كان الجابوت يدلّ على أن من يرتديه شخصٌ يتمتع بمكانةٍ عالية.

«أيّها الأصدقاء» خاطب آلان هوتون الحشد: «تحتفظ الطفلة ماري ويكفورد بحقّ تملّك منجم الشهاب الناري إلى أن يحين الوقت لرصد ثلم ثالثٍ في منجمها»، ثم حدّق في جميع الوجوه أسفل حاجبيه الكثّين المثيرين للإعجاب وقال: «رغم أن ما أدلي به الآن يبيح للآخرين استباحة المنجم في حال عجز الطفلة، إلّا أنني سأفكّر بإمعانٍ طويلٍ قبل رصد أيّ ثلمٍ داخل منجمها في المستقبل القريب، ولو كان ذلك مخالفاً للقانون».

قضيتُ تلك اللّيلة منكبّة على وجهي المخدوش. كان ظهري مصاباً بكدماتٍ عميقةٍ خلّفها اللّوح الصخري الثقيل. أما ذراعيّ وكتفي فلم تكن أحسن حالاً من ناحية الألم. لا بدّ أن الأمر سيستغرق أيّاماً عدة قبل زوال الشعور بثقل المعول كلّما دعتني الحاجة لرفع المذراة. سقطتُ مع ذلك بإغفاءةٍ عظيمة فاقت ليالي الخشخاش الحالمة.

الرّبّ وحده يعلم كم أنفقتُ من جهدٍ عقيمٍ منذ مجيء الطاعون! فشلتُ في إنقاذ الكثير من الأرواح، وعجزتُ عن تخفيفِ أوجاعٍ لا يمكن شفاؤها. شعورٌ بالسكينة انتابني هذه المرّة... بالسلام. ها أنا أخيراً ورغم كلّ الظروف الصعبة أجني نتيجةً مرضيةً وعادلة.

-11-

جثة المنجم

لم يسعفني الحظ بالتنعّم بالرضا لفترةٍ طويلة، إذ سرعان ما اكتشفتُ خلال الأسبوعين الماضيين أن نواياي الطيبة قد نضحت بعواقبَ وخيمة. الحكاية بدأت بعد ظهر أحد الأيّام أثناء عودتي من منزل القسيس، حين لمحتُ أبي المترنّح كعادته قادماً من بعيد. لم تكن خطواته المخمورة لتفاجئني لولا كيسٍ مجلجلٍ تهادى الرجلُ تحت وطأة ثقله. أحنت الحمولة الثقيلة ظهره لدرجةٍ اعتقدت أنه سيتابع طريقه دون ملاحظة عبوري. ألقيتُ التحية على مضض، فوضع الكيس على الأرض ليصدح رنين أطباقٍ معدنية.

«يا له من يومٍ جيدٍ يا فتاة! لقد دفعت الأرملة براون أوانٍ بيوترية لقاء حفر ضريحين لزوجها وولدها. ربما يجب عليّ شكركِ إذ أرشدتِني إلى المكاسب الكثيرة جرّاء امتهان حفر القبور في هذه الأيّام».

حمل كيسه تاركاً إيّاي مسمّرةً على قارعة الطريق بفمٍ مشدوه وعينين معلقتين بقامته المبتعدة. لاحظت طيلة الأسبوع اللّاحق أنّ جيراني يتوقّفون عن محادثاتهم كلّما اقتربت منهم، ثم عرفتُ بشكلٍ تدريجي أنهم يتحدّثون بسوءٍ عن والدي.

والدي الذي قدّم نفسه كحفّار قبورٍ باعثٍ لليأس مستميتٍ في سبيل الحصول على أجورٍ مرتفعة من المرضى والعاجزين عن دفن موتاهم، لم يتوان عن طلب أيّ شيءٍ ذي قيمة من منازلهم أو حقولهم، فلم يتردّد في سلب براميل السمك المملّح التي يعوّل عليها الآباء كمؤونةٍ لإطعام أطفالهم في الشتاء، أو نهب أنثى خنزيرٍ حاملٍ، أو شمعدانٍ نحاسيٍّ ثمين أورثه جدٌّ

لأجيالٍ من بعده. كان يحمل غنائمه في بعض الأحيان إلى حانة سواعد عمال المناجم، ويضعها فوق إحدى الطاولات متفاخراً بحذقه، ليواجهه أصدقاؤه بحقيقته منتقدين جشعه، فيسارع إلى كتم أفواههم بكؤوس المزر التي يدفع ثمنها من أموال الموتى. لطالما قاده دربه إلى الحانة كلّ ليلة... يشرب ويشرب، وبالكاد يصل فجراً إلى كوخه.

جلُّ ما خشيته حين اقترحت عليه القيام بهذه المهمة أن ينتابه قلق متعلق بنقل بذور الطاعون من الجثث لأفرا وأطفاله؛ لكنني رأيته يوماً بعد يوم ذاهباً وغادياً بالسروال الخيشي الملطّخ بالقذارة ذاته. تساءلتُ مراراً لو أنه يبالي حقاً بالخطر المحدق به، فسعيتُ لمقابلة أفرا عند الحدود الحجرية متوسّلة كي تقنعه باتخاذ تدابير وقائية أثناء عمله؛ فما كان منها إلّا أن ضحكت وعلّقت بالقول:

«رغم أنك تقضين وقتك في مزرعة غاودي تتقصّين عن الأعشاب والمنقوعات، لكنك تفتقدين إلى المعرفة المحشوّة في رأسيْ تلك المرأتين». ألححتُ عليها لتوضيح ما عنته لكنها أبتْ مكتفيةً بالتعبير عن إعجابها بوالدي الذي أمسى مُنتجاً لأول مرّةٍ في حياته، رافضةً فرض سطوتها عليه. ما انفكّتْ أفرا تتّسم بروحٍ عنيدة، ولا عجب في معارضتها لأيّة حججٍ عقلانية متعلقة بضرورة اتخاذ الحيطة والحذر.

في أحد الأيّام القليلة التالية، لمحتُ أبي من نافذة كوخي يتجوّل في الشارع مزهوّاً معلّقاً رزمةً من الصوف المغزول فوق كتفه. يبدو أنه حصل عليها من كوخ الحائك. هرعتُ نحو الباب الخارجي للحقل بحنقٍ وصرخت: «أبي... أنت تعلم أن هذه الرزمة ليست سوى أجرٍ جائر... بل سرقة من السيدة مارتن مقابل تعبٍ لم يتجاوز ساعةً من الزمن لدفن زوجها. كيف يمكنك استغلال المعاناة إلى هذا الحدّ؟ إنك تجلب العار لنا بسلوكٍ كهذا!». لم يُجب بأيّ ردّ، بل تنخّم ثم بصق كميةً كبيرةً من البلغم الأخضر أسفل قدمي متابعاً طريقه نحو الحانة. لا بدّ أنه على درايةٍ بحاجة القروبين الماسة له، إذ بالرغم من استعادة مايكل مومبليون لقوته بعد تدهور صحته في الكنيسة، إلّا أنه أدرك بعد تلك الحادثة أنه عاجزٌ عن القيام بعمل القندلفت جنباً إلى جنب مع واجباته الكنسية. وهكذا لم يجد والدي من يكبح جماح جشعه.

بتنا نجتمع في أيّام الآحاد في كوكليت دلف بدلاً من الكنيسة استجابةً لطلب القسيس. اخترتُ مكاناً لي قرب حافة المنحدر في فيء الأغصان المتشابكة لشجرة الغبيراء. تفكّرتُ في إحدى المرّات بالحكمة العظيمة لقسيسنا المتمثّلة بنقلنا جميعاً إلى هنا. فلا ذكريات الماضي تواجهنا، ولا الوجوه الراحلة تطاردنا. يمكننا أن نجتمع فوق المرج بحيث يحافظ كلٌّ منا على مكانه وفق الترتيب القديم: اليومَنيون[1] وعمال المناجم في الصف الأول، يليهم المزارعون والحرفيون؛ حيث وقفتِ العائلات على بعد ثلاث ياردات بين العائلة والأخرى، معتبرين أن هذه المسافة كافيةٌ لتجنّب انتقال العدوى. أما القسّ فاتخذ منبره على نتوءٍ هائلٍ من الحجر الجيري المتعالي المقوّس ليصدح بصوته عبر الوادي. انتقى في خطابه عباراتٍ عذبة لتسكين أحزاننا، فانسكب إيقاع كلماته رقراقاً مع نضْخ الغدير القريب.

لم يأتِ والدي إلى دلف في ذلك النهار، ولم يسبق له أن حضر العظة في الآحاد السالفة أو أيّ آحادٍ تلتها. كان يمضي أيّاماً قبل هذه الفترة العصيبة جاثماً مقيّد القدمين داخل المقطرة[2] في بستان القرية كجزاءٍ عن أفعاله الشريرة. لكن الآن وبعد أن فقد الجميع الجَلد أو الإرادة لمعاقبة أحد، باتت آلات التعذيب خاويةً منذ عدة أشهر. لذلك ومع مرور الأسابيع، تنامى خبث والدي أكثر فأكثر، خاصةً بعد ولعه الشديد بكؤوس المزر في المساءات، لدرجة أنه رفض دفن أحد بعد الظهر؛ كما بدأ بطرق أبواب المرضى بكلّ جلافة مستفسراً عن حاجتهم للقبر الذي حفره في مكانٍ ما. كان الشخص الراقد على فراش الموت لا ينفكّ مصغياً إلى نبرة أبي الصادحة وعباراته الخرقاء. أعتقد أن سلوكه المفتقد للرحمة قد عجّل بدفن أكثر من مريضٍ في هذه القرية.

1- اليومَن (Yeoman) استُخدمَ هذا الاسم في القرن الخامس عشر الميلادي للإشارة إلى موظفي منازل النّبلاء، وصغار المُلّاك، وخدّام الإقطاعيين. وأصبح اليومنيون في عهد تيودور (1485-1603م) طبقةً مستقلة، وكانوا أرفع مقاماً من الفلاحين والعمال، إلّا أن مرتباتهم أدنى من السادة وأصحاب الضِّياع.

2- المقطرة The stocks: آلة تعذيب استخدمت في إنجلترا في العصور الوسطى، وهي عبارة عن لوحٍ خشبيّ يتخلّله ثقوب؛ يُقيّد الجانح به من معصميه ورأسه، أو من قدميه، ويوضع أمام المارة لفترةٍ من الزمن، ليرموا عليه شتى أنواع القاذورات.

سعى السيد مومبليون لزيارته في كوخه محاولاً تلمّس أيّ ذرة خيرٍ متبقيةٍ في روحه، فحرصتُ على مرافقته رغم خشيتي الشديدة من لقاءٍ كهذا. لم يكن الوقت قد تجاوز فترة الظهيرة حين وجدنا والدي ثملاً مستلقياً فوق سريره بثيابه المتّسخة. نهض متثاقلاً مع دخولنا، نخر متجاهلاً النظر إلى القسيس، وبالكاد تمكّن من اجتياز الباب، ثم وقف يتبول بلا خجلٍ أمام مرآنا ومسمعنا.

شعرتُ منذ خطواتنا الأولى نحو الحقل أن جهود القسيس ستضيع سدًى، أما الآن فأنا متيقّنةٌ تماماً من ذلك. مرّ وقتٌ طويل منذ آخر مرّةٍ وضعني سلوك أبي السمج في مواقف مخجلة، إذ حاولت ترويض مشاعري بعد زواجي من سام، بحيث توقّفتُ عن تحميل نفسي مسؤولية ما يفعله أو ما لا يفعله هذا الرجل. لكن من الموجع جدّاً أن تثقل فظاظته كاهلي أمام السيد مومبليون.

«سيدي» تمتمت: «أرجو ألّا تعرّض نفسك لسلوك والدي الغوغائي، دعنا نغادر هذا المكان، فلا يمكن انتزاع أيّ خيرٍ منه في حالته هذه».

ألقى القسيس نظرةً عليّ وهزّ رأسه بابتسامةٍ خفيفةٍ وقال: «ها نحن هنا يا آنا، وسأقول ما جئت لقوله». صحيحٌ أن حجّته بليغةٌ على الدوام، لكنها عاقرٌ بلا جدوى مع شخصٍ كوالدي.

أخبره السيد مومبليون أن القرية بأكملها تُقدّر قيمة العمل الذي يؤديه والخطر الذي يتعرض له، وبأنه من الطبيعي أن يشعر باستحقاقه لبعض المكافآت على جهوده المبذولة، لأنه حتّى في أساطير الأولين، فإن ملّاح الرّبّ[1] الذي حمل الأرواح عبر نهر ستيكس[2] كان يطلب أجره. «لكن أتوسّل إليك يا يوشيا بونت أن تتعامل معهم بعدالةٍ ورحمة».

«يا نصير الفقراء!» صاح والدي هازئاً: «الفقر... -أيها الطفيليّ- كلُّ ما تهبه لنا!»، ثم سرد والدي بعد ذلك رثاءً ذاتياً طويلاً حول الإساءة التي تعرّض

1- يُقصد به هنا خارون، وهو إحدى شخصيات الميثولوجيا الإغريقية؛ ابن إيريبوس ونيكس (الليل)، وكان واجبه أن يعبر بقاربٍ على نهر ستيكس (أو أخيرون) حيث تأتي أرواح الأموات الذين دفنوا لتوّهم، ويتلقّى بالمقابل عملةً موجودة في فم الجثث. يُصّوَر خارون كعجوزٍ كئيبٍ متجهّم.

2- ستيكس: هو نهر في الميثولوجيا الإغريقية يجري سبع مرّاتٍ حول عالم الأموات، وفي الإلياذة هو النهر الوحيد في العالم السفلي.

لها حين كان بحّاراً صغيراً، وكيف حُرم من أجورٍ منصفة في شبابه أثناء عمله بالحراثة أو التحطيب أو مقابل أيّ جهدٍ بذلته يداه منذ ذلك الحين.

«أنت تمصُّ دماءنا، هذا ما تفعله أنت وأمثالك، لا تفكرون إلّا بكسر ظهورنا مقابل أجرٍ زهيد. ولا تتوانون عن إخضاعنا كي نلعق أحذيتكم لقاء فتاتٍ تلقونه أمامنا». أرغى وأزبد باصقاً لعابه في أرجاء المكان. «أخيراً... حين وجدتُ طريقةً لكسب قوتي من عرق جبيني، تحاول أن تملي عليّ الواجبات والمحرمات، ما يجوز كسبه مقابل كدّي وما لا يجوز! ها ها ها! لعلك بلسانك المعسول أقنعت ابنتي بإفراغ أوعية التبوّل الخاصة بك وبزوجتك، لكن يوشيا بونت لن تلطّخه نجاسةُ أمثالك! ادفن الموتى القذرين بنفسك إن كنت تتحلى بالقوة لفعل ذلك». استدار بظهره بعد ذلك وقال: «أخرجي كاهنك من هنا يا فتاة قبل أن أطرده بنفسي».

«وفّر قوّتك لجلسات سُكرك يا يوشيا بونت». ما زالت ملامح مايكل مومبليون هادئة، لكن صوته صدح بارداً للغاية لدرجةٍ اعتقدت أنه سيعصف بوجه والدي كرياحٍ ثلجية. «لا تهدرها في طردي من منزلك، فلن أضيّع نفساً واحداً في البحث عن الخير في قلبك الخاوي منه تماماً».

لم ينبس والدي ببنت شفة، بل ألقى بجسده بوقاحةٍ فوق السرير، وبينما كنتُ أفتح باب الكوخ أمام القسّ بدعوةٍ للخروج، استدار بظهره لنا. هكذا عاد السيد مومبليون في الأسابيع القليلة المقبلة إلى حفر القبور، بعد أن استجمع بعض قواه لدفن أولئك الفقراء العاجزين عن إشباع جشع والدي. أما بالنسبة إليَّ، فكنتُ سعيدةً بالتخلّي عن شهرته واسمه الذي بات ملعوناً إلى أقصى حدّ في كلّ حقلٍ وكوخ، حتى قبل أن يرتكب أكثر أفعاله خسّةً، ما أشعل غضب القرويين المتملّص عددهم المستنفَدين تباعاً.

أحد عشر فرداً من عائلة أونوين قنصهم الوباء، إلّا كريستوفر الذي طرحه الطاعون في الفراش لتسعة أيّام بمدةٍ فاقت بكثير بقاء أيّ مصابٍ على قيد الحياة. قمتُ بزيارته لمرّاتٍ عدة، كذلك فعلت إلينور ومايكل مومبليون. أقمنا الصلاة التماساً من الربّ أن يجعله ضمن المئة شخص الناجين من الموت بالطاعون.

في صباح أحد الأيّام التالية، بعد الانتهاء من تقديم الخبز المحمّص والشوفان لوجبة إفطار عائلة مومبليون، لمحتُ راندول دانيال يتنقّل بخطى سريعة في فناء المطبخ. تراءى وجه ماري في خاطري، أو لعلّه الطفل... تصدّع قلبي... آه ذاك المولود بين يدي... الصغير العزيز.

«لا إنهما برعاية الرّب» أوضح راندول: «كلاهما بحالةٍ جيّدة، لكن الأمر متعلّقٌ بصديقي كريستوفر أونوين. أحضرتُ له صباحاً قطعةً من الجبن الذي صنعته ماري لعشاء اللّيلة الماضية، لكنه أبى تناولها. أعتقد أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، لذا سارعتُ في دعوة القسيس استجابةً لرغبته».

«شكراً لك راندول سأخبر السيد مومبليون».

كان القسّ قد بدأ للتوّ بإفطاره الذي لا يتناوله عادةً إلّا بشقّ الأنفس، فكّرتُ بحجب الخبر عنه حتى ينهي طعامه. لكن إلينور التي سمعت الجلبة في الفناء، استدعتني للاستفهام عمّا يريده راندول، فأُجبرتُ على البوح وإعلامه. وضع القسّ شوكته جانباً ودفع طبق الطعام ثم نهض متثاقلاً بعيداً عن الطاولة. أرادت إلينور مرافقته لكنّ الشحوب في وجهها دفعني لاقتراح مرافقة السيد مومبليون بدلاً عنها. ثم غادرناها مع غلايات الأعشاب.

خطونا معاً صوب منزل أونوين، استفسر القسيس في الطريق عن المهمات الموكلة إليَّ، وعن الحالة الصحية للأشخاص الذين زرتهم، وما العقاقير التي حسبتها ذات مفعولٍ أقوى من غيرها. أعتقد أنني فقدت ارتباكي بحضوره منذ الأسابيع الماضية، لأجد نفسي الآن أتحدّث بحريةٍ دون أيّ تحفّظ. أخبرني عن الذين عادهم ثم تنهّد بتأوّهٍ عظيم: «يا للغرابة يا آنا. وسمتُ الأمس في ذهني كيومٍ حسن، بالرغم من أنه مضى محمّلاً بالمرض المميت والكمد والثكل. لكنّني رأيته يوماً جيداً لسببٍ بسيط تجلّى بعدم موت أحدهم. لا بدّ أننا وصلنا إلى حالةٍ مؤسفة إذ نقيس ما هو جيد بمثل هذا المعيار الهش!».

يقع منزل أونوين في الجهة الغربية من منزل القسيس بالقرب من بستان القرية. مع مرورنا بالساحة المكتظّة بالأعشاب، مال برأسه تجاه آلات التعذيب التي عرّش اللّبلاب مغلقاً فتحاتها المستديرة، بينما أزهر

الصدأ فوق المزاليج. «يمكنني القول إن ما أراه يعدّ أمراً جيداً أثناء موسم الموت القاتم؛ سأسعى لإقناع الناس بالتخلّي عن آلات التعذيب وكراسي التغطيس[1] والأدوات الهمجية المُستخدمة لمعاقبة المذنبين، حتى بعد البتّ بأيّ محاكمة».

وصلنا إلى البوابة الرئيسة لمنزل أونوين الذي انتصب جوار الطريق محاطاً بحديقةٍ منسّقةٍ للغاية، خاصةً في ظلّ أوضاع الأسرة المزدهرة جرّاء التماس مناجم الرصاص لسنواتٍ عدة. لقد قامت العائلة بتوسيع رقعة منزلها وبناء حجراتٍ إضافية جاعلةً منه أرقى المباني في القرية. إلّا أن المكان بات باعثاً للحزن والوحشة بعد فقدانه للكثير من قاطنيه. قام القسّ -الذي زار المنزل لمرّاتٍ عدة أثناء محنة العائلة- بالدخول من الباب الأمامي منادياً كريستوفر الذي استلقى بمفرده في الغرفة مفتقداً زوجته وابنهما الرضيع. أجاب الشاب بصوتٍ واهن، وكان صوته كافياً لجلب ارتياحٍ عظيم.

سبقني القسيس إلى غرفة النوم في الطابق العلوي، بينما أحضرتُ قدحاً من الخزانة لأسكب بعض الدواء للرجل المريض. لحقته بعد لحظاتٍ قليلة فوجدته واقفاً بمواجهة النافذة يحدّق إلى حقل عائلة أونوين. لاحظتُ أنه قبض كفّيه اللّتين أسدلهما إلى جانبيه، كما لو أن ما يراه يثير إزعاجه، استدار نحوي بوجهٍ متجهّم وجبينٍ معقود.

«منذ متى يقوم بفعل ذلك؟» سأل القسيس كريستوفر الجالس بظهرٍ أسنده إلى دعامةٍ خلفه، وقد بدا بحالةٍ صحيةٍ أقل خطورةٍ مما توقّعت. «لقد أيقظتني ضربات معوله الخرقاء بعد فترةٍ وجيزة من شروق الشمس». أصابني ما سمعته بالحنق والإهانة على حدّ سواء. خطوتُ صوب النافذة وأبصرتُ ما كنت أتوقّعه وأخشاه... كان والدي يقف وسط حفرةٍ وصلت حتى خاصرته. يمكنني تخيّل ما يفكّر فيه، لا بدّ أن عينيه الجشعتين أحصتا

1- كرسي التغطيس أو كرسي التغريق (cucking – stool) آلة تعذيبٍ قديمة، استُخدمت للنساء المزعجات والسحرة في أوروبا خلال العصور الوسطى. وهي عبارة عن رافعة موثوقة بكرسيٍّ خشبي، توضع المرأة عليها وتُقيّد ثم تُغمس في الماء لفتراتٍ طويلة، وتسمّى هذه الطريقة بالغمس. اعتُبر كرسي التغطيس أحد أساليب العقاب المُهينة.

الغنائم التي سيحملها من منزل أونوين، فمَنْ سيحاسبه على سرقاته حين يلحق الشاب كريستوفر بأفراد أسرته تحت التراب؟ أيقنتُ حينئذٍ أن حفر القبر المبكّر دفع الشاب للاعتقاد بأن الوباء قد نال منه، لكن الشاب في الواقع تمتّع بصحةٍ جيدة وحيوية أشرقت بملامحه، ومسحتْ عنها آثار الطاعون. «سأمضي للتحدّث مع والدي» همستُ للقسيس بنبرةٍ خافتة: «سأصرفه من هنا، فلا أعتقد أن السيد الشاب يحتاج إلى مثل هذه الخدمات اليوم أو في أيّ يومٍ آخر قريب».

«لا يا آنا؛ يمكنكِ البقاء هنا لرعاية السيد أونوين. دعيني أتعامل مع يوشيا بونت بنفسي».

لم أعترض بعد أن أصابني اقتراحه بارتياحٍ كبير. مسحتُ وجه كريستوفر أونوين بخرقةٍ مبلّلةٍ بمنقوع الخزامى، وأعلمته عن علامات الصحة العائدة لوجهه حين صدحتْ أصواتٌ صارخةٌ من الحقل. تناهى صوت والدي إلى مسامعي شاتماً مايكل مومبليون بأقذر العبارات، رافضاً الإصغاء لفكرة أن الشاب الراقد في الداخل ليس بحاجةٍ إلى القبر الذي حفره. أما القسّ فلم يصمت بدوره، بل كان يجيب على الشتائم بعباراتٍ لم أعهده ناطقاً بمثلها من قبل... أتى بكلماتٍ فظّة لا أظنّه تلفّظها في جامعة كامبريدج أثناء دراسته لعلم اللّاهوت العظيم.

خار أبي مراراً مصرّاً على تقاضيه أجره مقابل الجهد الذي بذله «سواءٌ تلطخت مؤخرة أونوين بالغائط هذا اليوم أم لا».

مضيتُ نحو النافذة ونظرت إليه، كان واقفاً قبالة القسيس عند شفة القبر وقد بانت أنفاسه تتخبط بقوة حتى كادت أضلاع صدره تلمس صدر السيد مومبليون. تحرّك بنية التوجّه نحو المنزل للمطالبة بأجرة حفره للقبر، لكن يد القسيس منعته. حاول أبي التخلّص من القبضة المحكمة عليه دون جدوى، وتمكّنتُ من رؤية المفاجأة التي اعتلت وجهه، ثم سارع برفع كفّه إلى الأعلى ما أثار ذعري لعلمي بمدى ثقلها. لكن السيد مايكل مومبليون الذي لم يرفّ له جفن، وقف منتصباً أمامه كالرمح. خشيتُ أنه لم يعِ أن أبي يقصد لكمه بالفعل، لكنه -وبروية- انتظره حتى حشد كامل قواه في اللّكمة، ثم خطا

برشاقةٍ في اللّحظة الأخيرة نحو الجانب الآخر ما أودى بزخم والدي للتعثّر. سارع القسيس بضربةٍ خاطفة على مؤخرة عنقه فانكبّ والدي على وجهه، ثم دفعه بقسوةٍ صوب القبر. تأرجح أبي على الحافة للحظة وتماوجت يداه ببربرية، بينما تغضّن وجهه مشدوهاً في مشهدٍ كوميديٍّ فظيع. سقط في الحفرة بعد ذلك وبدأ يتخبّط في وحل القاع. لمحتُ القسّ يسترق النظر إلى الحفرة كي يتأكّد من سلامته، فأبلغته سلسلة الشتائم واللّعنات الصاعدة بعدم إصابته بأذى. تراجعتُ عن النافذة بسرعة مع استدارة القسيس نحو المنزل، فلا أظنّ أنه راغبٌ بأن يعاين المشهد أيّ شهود.

ذهبت إلى المطبخ لتحضير وجبة طعامٍ لكريستوفر الذي أعلمني بشهيته العائدة. تناول طعامه كما يفعل أيّ شابٍّ معافى ما أنبأ بتراجع مرضه إلى حدٍّ كبير، مازحه القسّ حول الصراخ الذي صدح في المكان، والذي فاق الجلبة المرافقة لأيّام الحصاد.

علمتُ في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم أن والدي قد طُرد من حانة سواعد عمال المناجم، حيث بدا ثملاً بمزاجٍ عكر وعنيفٍ جدّاً، مستذكراً غنائمه المفقودة وإذلاله في الوحل. أسعدني أن صاحب الخان تنبّه أخيراً إلى ضرورة تقييد سلوكه الفاسد. لكن سرعان ما راودني القلق وخشيت أن ينفّس عن غضبه بأولاد أفرا، فنقلتُ مخاوفي إلى إلينور التي اقترحت إرسال الأطفال إلى حديقة عائلة غاودي الطبّية بحجّة المساعدة هناك. لا تزال أعمال كثيرة تنتظرنا في مزرعة غاودي، بدءاً من الحراثة وإزالة الأعشاب الضارة وصولاً إلى وضع السماد في تربة الشتلات التي علّقنا عليها آمال العلاج لهذا الموسم. حملتُ الرسالة ونقلتها بلباقةٍ قدر ما أستطيع، محاولةً التلميح لأفرا بالقدوم إن رغبتْ بالهرب من غضب زوجها بعيداً عن الكوخ؛ لكن أفرا ضحكتْ من دعوتي المبطّنة وقالت:

«لا تقلقي بشأني يا فتاة، فلديّ أساليبي الخاصة للجم ذلك البغل».

تركتها لتقوم بما تضمر فعله، وقرّرت من جهتي أن أطرح التفكير بأبي جانباً كي يفسح الخزي الذي أصابني مجالاً لحزنٍ أشدّ إيلاماً... لذكرياتٍ كالحة لا تغادرني في ليالي اليقظة.

شعرتُ براحةٍ قبيل الفجر، ثم مضيتُ بنشاطٍ إلى البئر لرفع المياه. كان ذلك اليوم أحد الأيّام النادرة لأوائل شهر نيسان إبريل، حين تُفرج الطبيعة عن عبق الربيع القادم. بدا الجوّ لطيفاً على نحوٍ استثنائي ما قادني للتسكّع بين الحقول أتنشّق الأريج العذب لبساط الثرى الدافئ وأغرف النقاء من الثريا. هرولتْ سحبٌ زغبية كثيفة غطّت الأفق صعوداً نحو قبة السماء، كما لو أن مجزّاً للصوف قد ألقى ندفاً ناصعةً جديدة في الأنحاء. نظرتُ إلى الأعلى، وإذا بالشمس تسكبُ سناها فوق حواف السحب المتجمّعة، متسلّلةً بأشعتها بين الندف البيضاء، محيلةً إيّاها لقلائد لجينٍ لامعة. تعثّر الضوء من جديد مبدّداً الوميض الفضيّ بالأحمر الجوريّ الداكن.

«سماءٌ حمراء في اللّيل مدعاةٌ لبهجة البحارة، لكنها في الصباح إنذارٌ لهم بالخطر»... مثلٌ علّمني إيّاه والدي للتنبؤ بحالة الطقس. فكّرتُ بذهول في إعادة الخراف إلى الحظيرة قبل بدء العاصفة التي وشت هذه السماء الجميلة بقدومها.

لم تدم لحظات استغراقي بالصفاء طويلاً، فقد أُقحم خوارُ قامةٍ مرعبةٍ داخل المشهد... بدتِ الجمجمة مشقوقةً من الأعلى، يتناثر منها شعرٌ أشعث مطليٌّ بدمٍ متجمّد، بينما تلطّخ الجسد بالقذارة ومسحات الطين. بدا الرجلُ عارياً باستثناء بقايا ملاءةٍ ممزّقةٍ تتطاير خلفه. أدركتُ حين صرخ من جديد أن الاسم الذي أطلقه هو اسم والدي. ظننتُ للوهلة الأولى أن أحد قبور أبي الضحلة الحفر قد أسفرت عن أحد قاطنيها، أو ربما شبحه الذي أتى مضمراً الانتقام. بمجرد تشكّل الفكرة في ذهني بعثرتها قدر الإمكان، خاصةً بعد تعرّفي على ملامح الشخص ذي الكفن الممزّق... إنه كريستوفر أونوين.

بعضٌ من جيراني القلائل الناجين خرجوا من منازلهم استجابةً لصرخات كريستوفر بوجوهٍ يغمرها الذعر... ركضتُ صوبه ثم توسّلت دخوله، لعلّي أتمكّن من العناية بجرحه. «لا يا سيدتي، لن أفعل، لأن ما يؤلمني يتجاوز حدود عنايتك». حاولتُ الإمساك بذراعه، لكنه ألقى بيدي بعيداً، محاولاً الانتصاب بقامته، مستنداً إلى الجدار الحجري.

«لقد حاول والدك قتلي أثناء نومي في هذه اللّيلة. فتحتُ عيني فأبصرتُ

معوله يتهاوى فوق رأسي، ثم حين استيقظتُ مرّةً أخرى وجدت نفسي داخل القبر! لقد دفنني هذا الشيطان محاولاً التخلّص مني، لكن كسله وشبقه للسطو على ممتلكاتي ساهما في نثر كميةٍ قليلةٍ من التراب لإخفاء جثتي، فلم تكن كافيةً لخنقي. من حسن حظي أنني عامل منجم لا يخشى دفن وجهه في التراب». نكّس رأسه مع عبارته الأخيرة. هناك تقليدٌ يتبعه عمال المناجم ومفاده: لو أصيب أحدهم أسفل العوارض الخشبية، سوف يتعافى بشكلٍ أسرع إن انتزع طبقة العشب ورقد منكبّاً بوجهه على الأرض المحفورة حديثاً. «مع ذلك» تابع كريستوفر: «كان عليّ أن أزحف مثل الخلد كي أتحرّر. ها أنا أتعهّد أمامك... سأملأ اليوم ثغره بالتراب، ولن يرى نور الضحى مرّةً أخرى!».

«نعم!» صدحتْ صيحةٌ من الجانب الآخر للطريق.

«نعم! لقد مرّ وقتٌ طويل على عدم محاسبة هذا الشرير!». ازداد الحشد كثافةً بينما تغزل الحكاية تفاصيلها أمام الجميع. قام شخصٌ بإخراج عباءةٍ ليغطي جسد كريستوفر. «أشكرك» نطق بشفاهٍ مترعةٍ بالدماء المتخثّرة والأتربة: «لم يحاول الخنزير سرقة حياتي فحسب، بل نهب الملابس التي أرتديها أيضاً».

شعرتُ وكأن جسدي تمثالٌ حجريٌّ يحدّق إلى الجمع المكوّن من عشرة أو اثني عشر شخصاً مهرولاً نحو كوخ والدي. وقفتُ حيث أنا، لم يخطر لي المسارعة لتحذيره أو لجلب مايكل مومبليون أو لفعل أيّ شيءٍ على الإطلاق لإنقاذ حياته. وقفتُ بلا حراك بينما يموج في ذاكرتي ثقل قبضته ورائحة أنفاسه الكريهة. وقفت حتى وصول الحشد إلى ما وراء التل بعيداً عن ناظري. دخلتُ إلى الدار بعد ذلك للاستعداد لأعبائي اليومية.

العاصفة التي توعّدتْ بمجيئها منذ الصباح هبّتْ من الجهة الشمالية الشرقية في وقتٍ مبكّرٍ بعد الظهر، ثم عصفتْ حاملةً الندف الثلجية والأوراق الجافة عبر الوادي البعيد لتبدو كخفقات رسائل أطلقتها يد أحدهم في مهبّ الرياح في مشهدٍ نادر الحدوث، وقفتُ داخل بستان التفاح أعلى التل، أترقّبُ بذهولٍ أرتال السحب الناصعة البطيئة والغيوم الداكنة التي تتعقّب أثرها.

ما زلتُ أتجوّل هناك حين سارعت عصبةٌ من عمال المناجم نحوي، رمقتهم يسيرون عبر أشجار التل كما فعلوا في اللّيلة التي مات فيها سام. لكن آلان هوتون من يقودهم هذه المرّة. أخبروني أنهم يطلبونني للشهادة أمام محكمة التعدين[1] على ما رأيته في منزل أونوين: «والتحدث إن رغبتِ فيما يساهم في الدفاع عن والدك».

«لا أريد الذهاب يا حضرة القاضي» أتى كلامي هامساً عديم الوزن مبعثراً مع الريح مقابل صوت آلان هوتون الأجشّ: «لا شيء أودّ قوله يا سيدي. ما رأيتُه قد شاهده الآخرون بدورهم. لا تطلبني للشهادة من فضلك».

لكن هوتون الذي لم يقنعه ما أدليتُ به، أجبرني على القدوم. ومع هطول الغضب الثلجي فوق رؤوسنا، مضيتُ في طريق هؤلاء الرجال الذين سيقرّرون مصير والدي في مكانٍ ليس بأصغر من حانة عمال المناجم.

يعتلي الحانة طابقٌ واحد ذو شرفةٍ واسعة لاستقبال نزلاء قاصدين المبيت في أحيانٍ كثيرة، لكن المكان خاوٍ من المسافرين منذ قسم الأحد. لمحتُ الرجال مجتمعين في فناء الحانة، كما فعلوا في اللّيلة التي أحضرتْ بها ماري ويكفورد طبقها إلى قاضي عمال المناجم، وقد تجمّعوا بأعدادٍ أقل هذه المرّة، إذ فتك الطاعون خلال الأسابيع القليلة الماضية بثلاثةٍ من أعضاء هيئة المحلفين العشرين المخوّلين بالفصل في نزاعات عمال المناجم. طاولتان طويلتان وضعتا في الفناء نفسه الذي أخلاه بعض عمال المناجم صعوداً إلى الشرفة، سواءٌ أكان ذلك بحثاً عن ملاذٍ من الثلج، أو للحفاظ على مسافةٍ فيما بينهم. عندما دخل قاضي العمال مع فريقه، اقترب نحو ستة أو سبعة رجالٍ من الحاجز المعدني محدّقين إلينا. أما الرجال الأقرب مسافةً فقد تجمّعوا بوجوهٍ كالحة حول طاولات الحانة، ملتحفين ببطانياتٍ أو عباءاتٍ تقيهم من ندف الثلج البيضاء الهاوية فوق رؤوسنا. نظرتُ حولي بحثاً عن أفرا، لكنني لم أجدها، وتساءلتُ إن كان اللّحاق بحشد هؤلاء الرجال الحاقدين

1- محكمة بارموت (A barmote court): هي محكمةٌ كانت تُعقد في مناطق التعدين الرئيسة في ديربيشاير – إنجلترا، بغرض تحديد الرسوم الخاصة بالمناجم، وتسوية أيّة نزاعاتٍ تتعلق بأعمال التعدين.

الغاضبين قد روّعها فمنعها من القدوم. دثرتِ الثلوج المتساقطة في الفناء كلّ شيء، حتى الصوت الأجشّ لآلان هوتون الذي اتخذ مكاناً له عند رأس الطاولة الكبيرة:

«يوشيا بونت!».

وقف والدي بيدين مكبّلتين أمامه عند الطرف البعيد من الطاولة، مع عاملين يقبضان على ذراعيه. لم يرد على القاضي، فقام هنري سووب -أضخمهما حجماً- بصفعه على مؤخرة رأسه بقوة.

«قل حاضر لحضرة القاضي!».

«حاضر» دمدم والدي مكفهرّ الملامح.

«يوشيا بونت، أنت تعلم جيداً ماهية الجرائم التي ساقتك إلى هنا. أنت لست من عمال المناجم، وليس من شأن المحكمة أن تقاضي أمثالك؛ لكننا بقينا لتمثيل العدالة في هذه الأوقات العصيبة... والعدالة ما سنطبّقه هنا. أودّ أن يعلم الحشد المُجتمع في هذا المكان أن القتل أو محاولة القتل جرائم خارج نطاق سلطة محكمة بارموت. لذا فإننا لم نُحضر يوشيا بونت لمحاكمته فيما يخصّ هذا الشأن. لكننا نطلب منه الإجابة على التهم التالية:

«التهمة الأولى الموجّهة إليك: إنك متهمٌ يا يوشيا بونت في اليوم الثالث من شهر نيسان إبريل من عام 1666 بعد ميلاد السيد المسيح، بدخول منزل عامل المنجم كريستوفر أونوين، وسلب إبريقٍ فضيٍّ من هناك... ماذا تقول؟».

تابع والدي صمته مطأطئ الرأس. رفع سووب ذقن أبي بجلافةٍ ثم هسهس بوجهه: «انظر إلى قاضيك يا يوشيا بونت، وانطق بنعم أو لا قبل أن أصفعك بقوة».

كان صوت والدي بالكاد مسموعاً. لا بدّ أنه شعر بالكراهية التي يضمرها الرجال المحتشدون في الفناء. لعلّ دماغه المضطرب حَسِب أن إبقاءهم مسمّرين في البرد، لن يزدهم إلّا غضباً يعزّز رغبتهم المتلهّفة للانتقام منه في نهاية المحاكمة.

«نعم» نطق أخيراً.

«التهمة الثانية: أنت متهمٌ في اليوم ذاته بأنك سلبت من المنزل المذكور آنفاً طبق ملحٍ فضيّ... ماذا تقول؟».

«نعم».

«التهمة الثالثة: إنك متهمٌ في اليوم نفسه بأنك سرقت شمعدانين نحاسيين من المنزل المذكور... ماذا تقول؟»

«نعم».

«التهمة الرابعة: أنت متهمٌ في اليوم نفسه، ومن قبل المدعو كريستوفر أونوين أنك سلبت ثيابه... ماذا تقول؟».

حتى أبي شعر بالخجل من تهمته الأخيرة، فأخفض رأسه مرّةً أخرى دافناً عينيه في صدره.

«يوشيا بونت... بما أنك ارتكبت هذه الجرائم، فنحن نجدك مذنباً. هل يرغب أحدٌ في الدفاع عن هذا الرجل قبل إعلان العقوبة؟».

التفتَ كلُّ رأسٍ في المكان نحوي... هنا حيث أقف بجوار الجدار إلى يمين آلان هوتون الذي حاولتُ الاختباء بظلّه. حدّقتْ كلُّ عينٍ إليَّ، بما في ذلك مقلتا والدي. حملتْ نظراته في البداية الكثير من الزهو كديكٍ مختالٍ أعلى التل؛ لكن نظرتي الصامتة كَسَتْ ملامحه بالدهشة ثم ألحقتها بالارتباك حين أدرك في النهاية أنني لن أتفوّه بحرفٍ دفاعاً عنه، تغضّن وجهه بالكامل وانحنى برأسه إلى الأسفل. لا بدّ أن غضباً عارماً غزا قلبه، إلى جانب خيبة أمل وحزنٍ اعتراه كبزوغ فجرٍ بطيء. كان عليَّ أن أدفع بمقلتيّ بعيداً عنه، لأن رؤية وجهه المكروب كانت أكثر مما أتحمّله. آه، أعرف أنني سأدفع ثمن صمتي هذا، لكنني لم أستطع الدفاع عنه، أو بالأحرى لم أرغب في ذلك. حين فطن الحشد لإصراري على الصمت تعالى الضجيج والغمغمة في المكان. حينها رفع آلان هوتون يده لإيقاف الضوضاء، ثم قال:

«يوشيا بونت، عليك أخذ العلم أن السرقة ما انفكّت منذ زمنٍ طويل مسألةً موجعةً بالنسبة إلى عمال المناجم الذين يكدحون بعيداً عن أماكن سكنهم، ويُضطرون لترك أطباق خاماتهم دون حراسة. لذلك أصدرنا قانوناً ينصّ على عقوبةٍ كافية لردع الأيادي الجشعة. أما يداك فجشعةٌ إلى أقصى

الحدود؛ وهكذا تفرض عليك المحكمة بموجب هذا القانون العقوبة القديمة ذاتها: ستُنقل من هنا إلى منجم أونوين... ستُعلّق من يديك بخنجرٍ فوق الرافعة الخاصة به». أطرق هوتون عينيه محدّقاً إلى يديه الكبيرتين المشعرتين، رفعهما إلى الأعلى ثم صفع الطاولة محرّكاً رأسه الضخم:

«ستنال جزاءك هناك» أعلن ذلك بنبرة عجوزٍ حزين لا تمتُّ إلى قاضٍ في محكمة التعدين بصلةٍ.

ساقوا والدي بعيداً مع تلاشي ذاك النهار. سمعتُ في وقتٍ لاحق عن نشيجه حين لمح الرافعة تتصاعد فوق أديم الأرض المكسوّ بالثلج؛ وعلمتُ أنه توسّل طالباً الرحمة دون جدوى، لقد عوى كحيوانٍ محاصر حين فلع الخنجر باطن كفّيه.

يفضي التقليد إلى أنه بمجرد الانتهاء من تثبيت الخنجر يُترك الرجل المدان معلّقاً دون حراسة. ووفقاً للعرف القديم لا ضير من قدوم شخصٍ من أقربائه لتحريره. لم أشكّ مطلقاً أن أفرا ستسارع إلى إنقاذه، حتى إنني لن أتوانى عن نجدته بدوري رغم استيائي من أفعاله، فلا يطيب لي موت أبي بهذه الطريقة.

انسكبت الغيوم المحملة بالثلوج بمطرٍ غزيرٍ في تلك اللّيلة، وبحلول الصباح اندفعت السيول مقشّرةً التربة، جارفةً سفوح التلال على ضفتيها. طرقتِ المياه نافذتي بهطولٍ مائلٍ طوال اليوم التالي كما لو أن دلاءً تسكبها. أما الطريق الرئيس في القرية فإنه فقد معالمه وغار في مجرًى مائيٍّ عميق، بينما تجمّعت المياه حول المنازل محاولة التسلّل عبر عتبات الأبواب متحدية قطع القماش التي وضعها أهل البلدة لمنع تسرّبها نحو الداخل. غدا فتح الباب تسليماً للطوفان، أما الخطو إلى الخارج فغرقٌ محتوم. لقد حجبت السيول الجميع عن الخروج إلى أيّ مكانٍ إلّا للضرورة القصوى.

أعتقدُ أن والدي مات في انتظار أفرا، مترقّباً مجيئها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. لولا ذلك لاتبع خيار الذئب بكلّ تأكيد: ممزقاً يديه في سبيل تخليصهما من النصل الثالبِ لهما، مستعيداً حريته وحياته.

لعلّ عقله المشوّش بفعل الشُّرب فوّت إدراكه لمرور الوقت. ربما أغمي

عليه من ضراوة الوجع، فلم يشعر بالبرد المتسرّب خلسةً إلى جسده، والذي أبطأ نبضات قلبه حتى أوقفها. لم أعرف بالضبط أيّة ميتةٍ قد تجرّعها والدي، لكنني أفكّر في جسده الذي غرزه المطر الغزير حتى تغضّن لحمه... يتراءى لي فمه مفتوحاً كفوهة فنجان يُعبأ ويعبّأ حتى يطفو الماء منه ويندلق.

لم تأتِ أفرا لنجدة أبي، بالأحرى لم تتمكن من القدوم. فقد أصاب الطاعون ثلاثةً من أطفالها الأربعة بضربةٍ واحدة في اليوم نفسه، لم تنجُ سوى فيث - أختي الصغرى ذات السنوات الثلاث. لو سلِم أحد أولادها الأكبر سنّاً، لكانت أرسلته حتماً في طلب المساعدة. لذلك اختارت أفرا ألّا تترك أطفالها المنتحبين من هول الألم وحدهم في كوخ تقطّر سقفه القشيّ وأُخمدت ألسنة النيران في موقده. لم تكن لتبذل مجهوداً في رحلةٍ مضنيةٍ إلى أرض المنجم البوركي تنقذ الرجل الذي ألقت باللّوم عليه لجلب العدوى لعائلته.

لم يقترب منها أحدٌ طوال ذلك اليوم أو خلال اليوم التالي. اعتكفتُ عنها بدوري... لن أسامح نفسي أبداً، لقد أصابتني وحدتها وإهمالي وتجاهل أهل البلدة بغضبٍ شديد، بل بالكثير من الحنق وبعض الجنون... بالوجع والفجيعة... لأجل أفرا ولأجلنا جميعاً.

تراجعت وطأة الأمطار في وقتٍ متأخّرٍ من اللّيلة التالية، لتُستبدل في الصباح برياحٍ شديدة عصفت بفروع الأشجار، وشرعت بجهدٍ بطيء تُجفّف الأحجار المشبعة بالمياه في مساكننا والأرض الطينية في حقولنا.

هكذا مات أبي قبل ثلاثة أيّامٍ من معرفتي بالأمر. أعلمني بذلك قدوم أفرا التي ظهرت عند الباب صباحاً بجسدٍ غارقٍ بالطين، كما لو أنها أتت زاحفةً على يديها وركبتيها عبر الأرض الموحلة بعد سقوطها لمرّاتٍ عدة في الطريق. بدا وجهها نحيلاً بخدين غائرين وعينين غارقتين داخل بقعتين بنفسجيتين داكنتين. كانت تحمل ابنتها الصغيرة فيث حول خاصرتها.

«قولي إنه هنا يا آنا» استفسرتْ مستهلةً حديثها، ولم تكن لديَّ أيّ فكرةٍ عمّا عنته. أجابتْ تعابير وجهي الفارغة عن سؤالها، فصدحتْ بعويلٍ وحشيٍّ ثم تهاوت بجسدها على الأرض ضاربةً الموقد بقبضتيها. فُقِئتْ بثور يديها المتقرحتين فانتثر الصديد الأصفر فوق الحجر الرمادي.

«لا يزال معلّقاً حتى الآن! ليأخذك الشيطان يا آنا! تركته ليموت هناك!».

ثم بدأت الطفلة بالبكاء من شدّة الذعر. جلبتِ الضجة ماري هادفيلد إلى منزلي، فأمسكنا بأفرا معاً محاولتين تهدئتها قدر الإمكان؛ لكنها تلوّتْ ببربريّة بين أيدينا كابن عرسٍ متوحّشٍ متخبّطٍ بعنفٍ في سبيل خلاصه.

«دعوني أذهب! دعوني أذهب بما أنني الشخص الوحيد الذي يهتم لأمره!».

كنت مصممةً على عدم تركها بتلك الحالة، بالرغم من تقطّع أحشائي بفعل كلماتها. تمنّيتُ من كلّ قلبي أن يكون والدي قد تمكّن من تحرير نفسه والهرب. لم أشك أنه قادرٌ على الرحيل: فحنثُ اليمين المتعلّق بأفرا -بالقرية بأكملها أو حتى بالرّبّ ذاته- لم يكن ليعني له شيئاً.

مرّ بعض الوقت قبل أن أتفهّم أن السبب الرئيس لعويلها المفرط: موت أولادها الذين دفنتهم في الصباح الباكر. لقد حفرت حفرةً كبيرة تتسع لهم جميعاً، وأرقدتهم يداً بيد... جنباً إلى جنب. لم تكن القروح التي أصابت يديها ناجمةً عن حفر قبرٍ كبيرٍ داخل الأرض الموحلة، بل من جمع أغصان العليق وضفرها بجدائل ثلاث، إذ تعتقد أن من شأن قوة الثالوث المقدس حماية أبنائها من السحرة والشياطين. تفكّرتُ بصمت بضفائر العليق الجاثية فوق قبرهم، والتي لن تحميهم إلّا من نبش الخنازير أثناء طوفانها جائعة باحثةً عن طعامها حول القرية، حالها كحال الكثير من المواشي الأخرى التي لم يعد بمقدور مالكيها الموتى حجزها أو العناية بها.

جفلتْ حين دهنتُ يديها المسلوختين بالمرهم. ضمدتُهما بعد ذلك بشرائط ناعمة من ملابس قديمة. أظن أن آخر شيءٍ تحتاجه أفرا بعد دفن أولادها هو مواجهة ما حدث لوالدي. إن كان حقّاً قد فارق الحياة خلال الأيّام الثلاثة الفائتة، فسيكون ذلك بلاءً مروّعاً لن تقوى على التعامل معه؛ أما في حال هروبه، فاكتشاف هجره سيأتي بوقعٍ أليمٍ في قلبها. أعلمتُها أنني سأرسل براند أو أيّ شابٍّ آخر إلى منجم أونوين، لكن هذا الاقتراح لم يزدها إلّا نحيباً من جديد. «كلهم يكرهونه! لن أدعهم يقتربون منه! إنكِ تكرهينه أيضاً! لستِ بحاجةٍ إلى التظاهر بخلاف ذلك. دعيني أذهب لأفيه حقّه».

عجزتُ أمام حالتها المكروبة عن مخالفتها أو منعها، وقرّرتُ مرافقتها بدلاً من ذلك. أقنعتها بترك الطفلة فيث مع ماري هادفيلد لتجنّب تعريضها لما نخشى رؤيته هناك.

واحسرتاه! لم أكن لأتخيل مدى الرعب الذي ينتظرني، وإلّا لكنتُ تفاديته قدر الإمكان. لا يزال هناك رأفةٌ إلهية بسيطة تجسّدت في الريح العنيفة التي عصفت بسيقان السراخس الميتة وحفنات الخنلج الفاسد حاجبة الرائحة النتنة للتفسّخ والتعفّن اللّذين أصابا أحشاء أبي نصف المتآكلة، إلّا في فترات الهدنة القصيرة التي تخلّلت هبوب الأعاصير. لقد حظيت الوحوش البرية بمتسعٍ من الوقت لإنهاء عملها، إذ كلّ ما تبقى على الرافعة كان أشبه بقطعة لحم بقرٍ ممزّق أكثر من بقايا آدمي.

كان الاقتراب من هذا الجسد المنهوش أحد أصعب الأشياء التي قمت بها في حياتي. تراجعتُ إلى الخلف حين رأيته وفكّرتُ بالعودة واستدعاء شخصٍ آخر للتعامل مع الجثة؛ لكن أفرا تابعتِ المسير، لاحظتُ أن نوبة غضبها قد تلاشت أو لنقل خمدت قليلاً، فقد بدت باردةً وهادئة تتمتم وتتمتم بين نفسٍ وآخر. خطتْ مباشرةً نحو الرافعة، ثم حاولتْ انتزاع الخنجر الذي حمل ما تبقى من جثمان والدي. كان مثبّتاً بقوةٍ في الخشب ولم يتزحزح حين سحبته بيديها المضمّدتين. غرستْ قدمها بالرافعة بوضعيةٍ قائمة، ثم -وبقوة ثقل جسمها- سحلتِ الخنجر الذي انزلق أخيراً محطّماً عظام اليدين. نظرتْ إلى النصلِ لفترةٍ طويلة... جزّت به شعر والدي وأقحمتِ الخصلات الطويلة في جيبها؛ ثم مزّقتْ قطعةً من جيركينته ولفته بها، لتدس الخنجر في النهاية داخل حزامها.

لقد غفلنا عن إحضار معولٍ أو مجرفةٍ لحفر قبرٍ في الأرض المتحجّرة للغاية رغم كثرة المياه التي غمرتها. لا بدّ أن حفر وتحضير قبرٍ لائق سيطرحني في الفراش أيّاماً. لكن أكثرَ ما أرعبني فكرة حمل بقايا الجثة لأيّة مسافة. خشيتُ أن أفرا ترغب بمواراته الثرى جوار أولادها، لكنها فضّلتْ دفنه هناك بالقرب من منجم أونوين، كي يذكّر كريستوفر أونوين بتكلفة العدالة التي نالها. أمضيتُ الساعة التالية في جمع الحجارة لرفع ركامٍ عالٍ. عملٌ يمكن القيام به ببساطة حيث ألقى عمال المنجم العديد من أحجار

الضفادع الكبيرة في الأنحاء. حين بلغتِ الحجارة علوّاً مناسباً بدأت أفرا بجمع العصي، ثم مزّقتْ قطعاً من حاشية مئزرها لحزمها. اعتقدتُ أنها كانت تودّ تشكيل صليبٍ لناصية القبر، لكنها شكّلت بدلاً من ذلك شخصيةً تشبه القزم ورفعتها فوق الركام. بدأتُ أتلو الصلاة الربانية[1] واعتقدتُ أنها تردّدها بنبرةٍ خافتة وغمغمةٍ عميقة؛ لكن حين أنهيتُ التلاوة بـ «آمين» لم يخبُ صوتها الكليم، أما الإشارة التي صنعتها في نهاية الأمر فبعيدةٌ كلّ البعد عن علامة الصليب.

1- الصلاة التي علّمها السيد المسيح لتلاميذه، وتردّدها معظم الطوائف المسيحية حتى اليوم، وتقول كما وردت في (إنجيل لوقا 11: 2-4): «أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ، لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا كُلَّ يَوْمٍ؛ وَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا، لأَنَّنَا نَحْنُ أَيْضاً نَغْفِرُ لِكُلِّ مَنْ يُذْنِبُ إِلَيْنَا؛ ولَا تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ. آمين».

-12-

احتشادُ أشباحهم

النشيجُ الذي لفح روحي الثكلى طوال اللّيلة الفائتة تفاقم أثناء تواجدي في مطبخ بيت القسيس. كنتُ أحضّر شراب رعي الحمام لإلينور حين طفرتِ الدموع من عينيّ وانهمرت بغزارةٍ فوق الإناء الموشك على الغليان. لا بدّ أنها مشكلة نحيبٍ مكبوتٍ جمح، فبات من المستحيل لجمه. كم افتقدتُ لطقوس حدادٍ على ولديّ! لعزاءٍ كافٍ لتهدئة نفسي، بعد انهيار الحياة التي تصوّرتها عن تربيتهما ورعايتهما حتى نيلهما رجولةً مشرّفة.

اجتاحت الدموع وجهي بالكامل، وأصاب الشجن كتفيّ بالارتعاش. حاولتُ مع ذلك متابعة ما كنت أقوم به. رفعتُ الغلاية عن الموقد، ثم تسمّرتُ عاجزةً عن تذكّر تسلسل الإجراءات البسيطة التي أحتاجها لإعداد كوبٍ من العشب المغلي. يدٌ امتدتْ وتناولت الغلاية من يدي، أجلستني وداعبت شعري ثم عانقتني. لم تقل إلينور شيئاً في بادئ الأمر، ومع خمود تنهداتي همستْ:

«أخبريني بما يوجعكِ يا آنا». أخيراً أُتيحتِ الفرصة لإفراغ قلبي من مكنوناته. رويتُ لها عن وحشية والدي... عن الإهمال وسوء المعاملة اللّذين وسما طفولتي اليتيمة الضائعة. أخبرتها عن فسوقٍ مارسه بلا حياءٍ أمام ناظريّ... عن قصص يفاعته الرّهيبة التي سكبها في أذني طفلةٍ مذعورةٍ من سماعها... عن مأساة اغتصابه من قبل البحّارة الهائجين... عن إسرافه في الشرب لتغييب ذاكرة ما قاساه... عن تداعيه تحت ضربات سياط ربّان السفينة اللّاذعة. عن السيور المضفّرة التي لم يتوانَ جلاده عن تمسيدها وجمعها بين ضربةٍ وأخرى لتمزيق ظهره وتعطيل يده اليسرى... عن الندوب المريرة في روحه.

حين طالعتُ ملامح إلينور الشاردة، جفلتُ مغلقةً أذنيّ بكفيّ لعلّني أحجب عنهما ضوضاء حكاياته الصادحة؛ لكن صوته لم يتوقّف عن السرد، لا يمكن لأيّ شيءٍ كتم ما جال في مسامعي آنذاك... لا بدّ أنه صدى صوتي الصاعد من الأعماق، أسمعه جيداً يطوف ويحطُّ بتكاسلٍ محمّلاً بسلاسل من المآسي. أفجعتها نهاية صديقه الوحيد الذي مزّق جسده محارُ البرنقيل[1] الملتصق بأسفل السفينة في عقوبةٍ جائرة[2] كانت من أبشع طرائق الإعدام. لقد قاوم والدي الموت مرّاتٍ عدة خلال إبحاره مع أولئك الهمج، ثم لاذ هارباً إلى أحد الشواطئ؛ لكنّ حظّه العاثر أوقعه بأيادي كتائب التجنيد[3] الذين اختطفوه وساقوه وأجبروه على الإبحار من جديد. قلقٌ انتابه لسنوات من عودة الأيّام الكالحة تلك... الذكريات المدلهمة التي لاحقته في كوابيسه رغم استقراره وسكينته فوق أرض الوطن.

عمل البوح بهذه الأسرار -بطريقةٍ أو بأخرى- على غسل ذهني ومساعدتي على التفكير بجلاءٍ مرّةً أخرى. تمكّنتُ عبر جمع وفرز مشاعري الباطنية وسبر طبيعة والدي من استعادة تفكيري المنطقي، وإيجاد توازنٍ بين اشمئزازي منه وتفهّمي لتصرفاته الخرقاء. أيقنتُ في الوقت ذاته، أن المعصية التي ارتكبتُها بشأن مسألة وفاته ليست سوى وفاء

1- البرنقيل: محارٌ يعيش في المياه المالحة، يلتصق بالأشياء تحت الماء، ويتكاثر على دعامات أرصفة الموانئ والصخور والسلاحف والحيتان وقيعان السفن. ادعت الأسطورة القديمة أن بعضاً من أنواع الإوز قد تحوّلت من محار البرنقيل، وظلّت هذه الأسطورة سائدةً لقرونٍ في أوروبا.

2- عقوبة السحب تحت العارضة (keelhauling): كان البحّارة في تلك العصور يقومون بجرّ الشخص باستخدام الحبال من جانبٍ إلى آخر، أو من المؤخّرة إلى القوس تحت قاع السفينة. فإن كان البحّار غطّاساً جيداً، يمكنه حبس أنفاسه لفترةٍ كافية تبقيه على قيد الحياة؛ لكن التقرّح الذي ينال من جلده والنزف والإنتان أثناء احتكاكه بقاع السفينة المغطّى بالبرنقيل يضمن لهم موته.

3- كتائب التجنيد (The press gangs): المقصود بها كتائب التجنيد الإجباري في البحرية البريطانية. كان معظم الرجال في تلك العصور متردّدين في الانضمام إلى البحرية بسبب الأجور المنخفضة ومتطلبات الخدمة مدى الحياة، لذلك قامت مجموعاتٌ من «كتائب التجنيد» بالتجوال حول الحانات الممتدة على ساحل بريطانيا بهدف اختطاف الرجال وسوقهم وإجبارهم على الخدمة طوال العمر.

دينٍ لحياتي المُستحَقة منه... ها أنا أتحرّر أخيراً وأستعيد هدوئي وقدرتي على تبصّر الأمور.

صمتت إلينور لبرهةٍ من الزمن ثم علّقتْ بالقول: «لطالما تساءلتُ لماذا يلتزم شخصٌ مثل والدك بوعود قسم الأحد، خاصةً أنه من صنف الرجال الأنانيين الذين يفضّلون النجاة بأنفسهم بقدر ما يستطيعون... تبدو الإجابة جليّةً أمامي الآن، أفترضُ أن ذعره الباطني من كتائب التجنيد القسري يفسّر ذلك».

«ربما» قلتُ: «لكنني أعتقد أن ما أبقاه حبيس القرية يفوق ذلك بكثير، لا بدّ أن الشعور بالطمأنينة ما طغى عليه...»، ثم عزيتُ السبب لما رأيته من سلوكيات أفرا الغريبة حين قامت برفع ركامٍ من الحجارة فوق مرقد أبي الأخير، ثم قلتُ موضّحةً: «بدتْ أفرا مؤخّراً معتنقةً للخرافات أكثر من أيّ وقتٍ مضى؛ أعتقد أنها أقنعت والدي بحصولها بطريقةٍ ما على تعويذةٍ أو تميمةٍ أو سحرٍ أو شيءٍ من هذا القبيل يحميهم من تلقّف العدوى».

«حقّاً!» تساءلت إلينور: «إن كان الأمر كذلك، فإن أفرا ووالدك ليسا وحدهما من يعتنق مثل هذه المعتقدات». وصلتْ إلى سلتها وجلبتْ قطعةً من القماش الملطّخ المهترئ، فردتها أمامي، ثم ألقت بها في حضن الموقد المصطلي. حضّرتْ بعد ذلك كوبين من الشاي، ثم جلستُ ترتشف بهدوء محدقةً إلى أطراف القماش المستعرة. لمحتُ علاماتٍ غير مفهومة تبدّت داخل النسيج، كما لو أن اليد التي خطّتها ليست معتادةً على صياغة الحروف. كان التقاط القماش أفضل ما استطعت فعله قبل أن يحيل اللّهب الأحرف رماداً، كنّ كلماتٍ أربعاً بلا أيّ معنى:

آبا، إيلا، جيبيلا، هايرس.

«حصلتُ عليها من مارغريت ليفسيدج التي فقدت ابنتها البارحة. قالت إن ساحرةً أعطتها إيّاها مدّعيةً أنها روح إنيس غاودي. أخبرها الشبح أن بين يديها تعويذةً قويةً منقوشةً باللّغة الكلدانية[1] خطّها السحرة عبدة الشيطان...

---

[1]- ساد في أوروبا خلال القرنين الأولين –قبل الميلاد وبعده– إطلاق تسمية كلدي أو كلداني على منجمي وعلماء بلاد الرافدين، حيث كان الاهتمام بالتقاويم

العراة المتزينون بالأفاعي مع اكتمال القمر. ثم أوصتْ بلفّ خيوط القماش كثعبانٍ حول عنق الطفلة المتقرّح؛ ومن المفترض -وفق زعمها- اندثار التهاب الطاعون مع تلاشي ضوء القمر». هزّت إلينور رأسها بحزنٍ وأردفت: «إمّا أنّ مارغريت ليفسيدج فقدت عقلها، فبدأت بتخيّل نساء لا وجود لهن، أو أن شخصاً سلب منها شيلناً فضياً مقابل تعويذة الخبث هذه. أتعلمين يا آنا، أكثر ما يثير شجني هو قدرة أحدهم على افتراس أهل داره اليائسين، ملطّخاً ذكرى إنيس غاودي بتقمّصه لشبحها. يؤلمني أن الناس هنا قانطون للغاية، ما جعلهم مستعدين للإصغاء إلى همسات منتصف اللّيل الزائفة كي يدفعوا ما تبقّى من قطعهم النقدية مقابل هذه التمائم الخرقاء العديمة النفع».

بعدها ذكرتُ لإلينور أحداث اليوم المثلج قبل مصادفتي لها في كوخ غاودي، حين التقطتُ تعويذة كيت تالبوت الموشومة بـ (*أبراكادابرا*). فردّتْ بإصرار: «يجب علينا إعلام السيد مومبليون عن هذه الأشياء... عليه أن يعظ القرويين حول المسألة، ويحذّرهم من مغبّة الوقوع في شرك الخرافات».

تناهى إلى مسامعنا صهيل أنتيروس ووقع حوافره في فناء الإسطبل، معلناً عن وصول القسيس بعد عيادته للنسّاج ريتشارد سوبز، تلبيةً لرغبته بخطّ وصيته الأخيرة. سارعتْ إلينور لاستقباله، بينما غدوتُ لتحضير بعض الحساء والشوفان، ثم حملتهما إلى المكتب حيث جلسا غارقين في الحديث. التفتت إلينور قائلة:

«صادف السيد مومبليون بدوره عدداً من هذه التعويذات. يبدو أن الجنون ينتشر بيننا بسرعة انتشار المرض».

«في الواقع...» أردف السيد مومبليون: «عدتُ إلى هنا لإرسال إحداكما

والرزنامات من معارف الكلدانيين الثمينة، كما أنشؤوا رموزاً لغويةً فلكية للتعبير عن العلاقات الفلكية. كذلك أشار (إنجيل متى: 2) إلى الحكماء الثلاثة العارفين بطبائع النجوم، والذين أتوا من الشرق يتبعون نجماً صاعداً ليرشدهم إلى موضع ولادة السيد المسيح، في قرينةٍ تشير إلى المعارف البابلية حينها.

إلى مزرعة موبراي، لأن الرضيع هناك يحتاج إلى معالجةٍ بالأعشاب». بدا القسيس وكأنّ البرد قد نال من جسده، فسارعتُ لإحضار ما يدثّره.

«لم يصبه الطاعون إذن حضرة القس؟» سألتُ بينما أحاول مساعدته في ارتداء حلّته.

«لا، لا ليس الطاعون هذه المرّة، أو لنقل ليس حتى هذه اللّحظة. كنتُ في طريقي عبر مزارع رايلي حين لمحتُ الوالدين الأحمقين يمرّران الطفل العاري البائس ذهاباً وإياباً عبر فوهة سياجٍ من العليق؛ وبحلول الوقت الذي وصلت فيه أبصرتُ جسده الصغير وقد تندّت خدوشه بالدماء. قابلاني بابتسامةٍ خرقاء، وأعلماني بإنهاء طقوس حمايته من غزو بذور الطاعون». سحب سترته إلى الأسفل وتابع متنهّداً: «تطلّب إقناعهما برعونتهما كثيراً من النظرات الجارحة والعبارات الفظّة. أخبراني في النهاية أنهما تلقّيا التعليمات والتعويذات من شبح إنيس غاودي الذي زارهما في دُهمَة اللّيل. لففتُ الطفل المسكين بعباءتي، وطلبتُ منهما حمله إلى المنزل، ثم أعلمتهما بإرسال إحداكما مباشرةً مع مراهم لمعالجة خدوش جسده».

اقترحتُ على إلينور ذهابي بدلاً منها، خاصةً مع حاجتي إلى عملٍ مفيدٍ يشغل تفكيري، فوافقتْ. سارعتُ بعد ذلك بتركيب المرهم عبر مزج أوراق العليق الغضّة التي تخبئ مهدّئاً لوخز أشواكها، مع الأعشاب الفضيّة والشاغة وقليلٍ من النعناع المنعش، ثم عجنتُ المزيج بزيت اللّوز ليعبق المرهم ويداي بأريج عذبٍ. انتعاشٌ تبدّد مع اقترابي من حقل موبراي الفوّاح برائحةٍ آسنة، وكأنّ الرضيع المسكين لم يكتفِ بما قاساه، فحملته لوتي موبراي البلهاء عالياً، موجّهة خيط بوله إلى داخل وعاء الطبخ الذي تمَّ رفعه للتوّ عن النار. فاتني تخمين السبب، لكن من الواضح أن قدر البول قد غلا لبعض الوقت نافحاً بخاره النتن في أرجاء المكان. دخلتُ فالتفتتْ نحوي بملامح مشدوهة بينما انسكبتْ قطرت بول الرضيع الأخيرة على تنورتها.

«لوتي موبراي أيُّ حمقٍ جديدٍ ترتكبينه؟»، ثم طالبتها بوضع الطفل النائم في سريره برفق. إنه الصبيّ الذي أشرفتُ على ولادته بعد أيّام المرافع مباشرةً، وكنت أتساءل حتى وقتٍ قريب: كيف يمكن للوتي أن تعتني بطفلها

ولمّا تزل طفلةً بدورها؟! أما توم فأقلّ سذاجةً من زوجته... يكدّ في سبيل الحصول على لقمة عيشه، يعملُ حارثاً للأرض حيناً ومساعداً لعمال المناجم أحياناً؛ كما يقوم بالمهام البسيطة التي يطلبها منه الجيران. رجلٌ فقيرٌ ذو روحٍ مسالمة، لطيف المعشر، ودودٌ مع لوتي، مسلوب العقل بطفلهما. سارع توم بالتبرير: «أخبرتنا السّاحرة أن غلي شعر الطفل مع بوله سيبعد الطاعون عن أحشائه الداخلية وأطرافه الخارجية. غضب القسّ كثيراً من ممارستنا لسحر أشواك العليق، لذا فكّرتُ في تجربة هذا بدلاً منه».

ركضتُ صوب كوخي، وجلبتُ قطعةً من جلد الحمل... مددتها جوار موقد العائلة، ثم وضعتُ الطفل فوقها بلطفٍ قدر استطاعتي... خلعتُ الملابس القذرة التي حشرته لوتي داخلها، فأصدر أنيناً خافتاً حين نزعتُ القماش العالق بجروحه النازفة.

«وكم...!» حاولتُ الحفاظ على صوتي هادئاً كي لا أزعج الرضيع: «كم أخذت المرأة منكما لقاء هاتين النصيحتين؟».

«ثلاثة بنساتٍ للأولى، وبنسين للثانية» أجابت لوتي: «أظنّها صفقةٌ رابحة، إذ أعلمتنا أن كلفة إخراج السّحر من طفلٍ مصابٍ بالطاعون تفوق بكثير كلفة الوقاية منه». صادفَ أنْ أخبرني سام مرّةً عن الأجر الذي أعطاه لتوم موبراي لقاء مساعدته في أعمال التعدين لمدّة أسبوعٍ كامل، ولم يتجاوز حينها خمسة بنساتٍ بأفضل الأحوال.

كان من الصعب احتواء غضبي، بذلتُ مع ذلك قصارى جهدي لكتم انفعالي، فلا يمكن للمرء أن يلوم أناساً بسطاء كالزوجين موبراي على وقوعهما فريسةً لمثل هذه الخرافات؛ لكنني ما زلتُ أرتجف حنقاً من تلك المرأة الجشعة أيّاً كانت. حاولتْ أصابعي تلمّس جسد الطفل بخفّة الفراشات أثناء غسلها لخدوشه ودهنها بالمرهم. قمتُ بعد ذلك بلفّه بقطعةٍ من الكتان النظيف الذي أعطتني إيّاه إلينور، ثم حملته مع قطعة الجلد إلى الجذع المجوّف الذي استخدمته عائلة موبراي كمهدٍ للصغير. حملتُ وعاء البول النّتن إلى الخارج وألقيت بمحتوياته في الفناء، فصرختْ لوتي مذعورةً مما فعلتُ. أمسكتُ كتفيها وهززتهما بلطفٍ، وقلت بينما أقدم لها وعاء المرهم: «لن يكلّفك هذا شيئاً...» أومأتُ لما في يدي متابعةً: «إن كانت

الغرفة دافئةً بما يكفي في الصباح جرّدي الطفل من أقمشته لبعض الوقت كي يتمكّن الهواء من تجفيف جروحه العارية. مسّدي جسده بالمرهم كما فعلت، ولفّيه بقماشٍ نظيف. اهتمي بإرضاعه قدر استطاعتك، واحجبيه عن أيّ شخصٍ تشكّين بإصابته بالمرض. أرجوكِ يا لوتي، نحن لا نملك سوى هذا الإجراء للوقاية من الطاعون جنباً إلى جنب مع الصلاة التماساً للنجاة والخلاص اللّذين لن يمنّ بهما الشيطان علينا أو أولئك المشتغلين بإمرته». تنهّدتُ بعمقٍ لأن نظراتها الفارغة أعلمتني أن ما قلته سيذهب أدراج الرياح.

«يجب عليكِ تنظيف هذا القدر جيداً قبل أن تطهي به مرّةً أخرى»، ثم تابعتُ ما كنتُ أقوله: «ضعي الماء ليغلي فيه طوال اللّيل، هل فهمتِ؟». أومأت برأسها الغبي، فإن تنظيف القدر -على الأقل- شيءٌ يمكنها استيعابه.

فجأةً، وأثناء خطوي بعيداً عن الحقل، علقتْ إصبع قدمي بحجرٍ فتعثّرت. حاولتُ التوازن لمنع سقوطي فكُشطتْ يدي. زاد ألم الجرح الصغير الذي أُصبت به من غضبي، فلم أتوانَ عن التجديف. لعقتُ أثر الإصابة بينما تضرب التساؤلات نواقيسها في رأسي: لماذا...؟ القسيس من منبره... لوتي السّاذجة من حقلها... لِمَ نسعى جميعاً لوضعِ الطاعون في أيدٍ غير مرئية؟ لماذا نحيل غزو الوباء لإحدى الفكرتين... اختبارٌ أراده الرّبّ لإيماننا، أو شرٌّ اختاره الشيطان لتخريب العالم؟!

اعتنقنا أحد هذين المعتقدين بينما كفرنا بالآخر أو اعتبرناه خرافة. لعلّنا أخطأنا الخيارين وبالدرجة ذاتها. ربما لم يرسل الطاعونَ ربٌّ ولم يأتِ به شيطان. قد يكون مجرّد حدثٍ فرضته الطبيعة كأيّ حجرٍ شاردٍ يرتطم بإصبع قدمٍ لعابر سبيل.

تابعتُ المسير أمسّد يدي المخدوشة، وأجسّ قلبي للتحقق مما جال في خاطري. هل عليّ التصديق -كما يوقن الكثيرون- بأن الإله من رمى الحجر في دربي ليُزلّ قدمي: بالطبع، أوَليس الرّبّ خالق الأشياء كلّها وبإرادته تكون![1] إنْ آمنتُ بذلك، وتعثّرتُ فضُربتْ رأسي بصخرة... ألا

1- «أَنْتَ مُسْتَحِقٌ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ والْكَرَامَةَ والْقُدْرَةَ، لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وهيَ بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وخُلِقَتْ» (رؤيا يوحنا 4: 11).

يجب عليّ التحرّي عن مسؤولية الرّبّ في حال إصابتي بجروحٍ قاتلة...!
إذن فيما يخصّ الهدف السماوي، فما هو بالضبط؟ أيّ المسائل ترجّح كفة الميزان لكسب العناية الإلهية؟ حسناً... إن اعتقدتُ أن الرّبّ لا يبالي بوضع حجرٍ في دربي، فلِمَ عليّ التصديق بأنه معنيٌّ بحياةٍ بسيطةٍ كحياتي؟! لا بدّ أننا جميعاً أمعنا التفكير في تساؤلاتٍ أزلية ليس بوسعنا العثور على تفاسير لها مهما طالت الأزمان. ماذا لو منحنا الوقت المُستغرق في تأمّلنا بما يريده الرّب، للتفكر في مصابنا بدلاً من ذلك، للتقصي عن سبل انتشار الطاعون وتسميمه لدمائنا... ألا يمكننا تلمّس الوسائل لإنقاذ حيواتنا أكثر فأكثر!

أفكارٌ مربكةٌ بالفعل، لكنها انبلجتْ بالضياء داخلي. لو سُمح لنا بالنظر إلى الطاعون كجائحةٍ طبيعيةٍ وحسب، لم نكن لنقلق بشأن المقصد الإلهي العظيم الذي عليه الاكتمال قبل انحسار المرض. يمكننا آنذاك العمل ببساطةٍ على إيجاد الحلّ، كما يكدّ المزارع لتخليص حقله من عشب البيقية[1] الضارّ. لو أدركنا أننا نمتلك الطريقة والأدوات والعزيمة كنا سنخلّص أنفسنا بالتأكيد، بغضّ النظر عن أهالي قريتنا سواء أكانوا خطاةً أو قديسين.

استقبلنا ربيع عام 1666 بعد ميلاد يسوع بمزيجٍ من الأمل والخوف: أملٌ أومض بقلوبٍ أوشكت على وداع شتائها المرير، وخوفٌ من وباءٍ يَعدُه الدفءُ بتكاثرٍ خصب. تتالت الأيّام الأخيرة للبرد باستقرارٍ لم نعهده من قبل، كما لو أنّ السماء عالمةٌ بعجزنا الحالي عن مواجهة التقلبات المناخية المفاجئة الأكثر شيوعاً في جبالنا القصبة. أيُّ نهار معتدلٍ يطلقُ براعم عشبيةً رقيقة، سرعان ما يتلوه ليلُ صقيع قارس يحرق رؤوسها الغضّة ويحيلها يباساً. ليس في هذه السّنة على الأقل، فقد بزغتِ الفسيلات بطمأنينة، وأزهرت البراعم بألوانٍ مشرقة. أما أشجار التفاح الضخمة فانفجرت بزهورٍ ثلجية، نافحةً عبيرها عبر موجات النسيم العليل. بينما بدت الأرانب مهتاجةً تغازل إناثها طافرةً في الحقول المذهّبة ببتلات النرجس. خطوتُ بين سيقان أزهار الأجراس الزرقاء الكثيفة، فتعثّرتُ بذاكرةٍ طارئة عن مشاهد أبهجتني

1- البيقية: أعشابٌ ضارة تنمو برياً في الكثير من المناطق والحقول الزراعية.

ذات يوم، حين استوقفني طفلي جيمي للحظة، محاولاً الارتقاء بذراعيه الضئيلتين لمصافحة القمر. تسمّرتُ محاولةً القبض على الإحساس برمته، لكن جهدي باء بالفشل، ثم قادني نحو طرقاتٍ منتهيةٍ بكآبة احتضارٍ جديد.

بدا الطقسُ الدافئ الذي سهّل وضع نعاجي لحملانها نعمة نظراً لكثرة المهام التي عليّ إنجازها. كانت تلك المخلوقات الصغيرة تغمرني ببهجةٍ لا يمكن وصفها كلّما وثبت بأصوافها النظيفة البيضاء البراقة فوق العشب الغضّ المورق، محتفلةً بمكرمة الحياة. كنتُ أتساءل على الدوام: هل سأعيش حتى أراها خرافاً أو نعاجاً؟... أيسعفني الوقت لجزّ أصوافها أو حمل حملانها الصغيرة؟ امتقع وجهي بالحزن، ثم عبق بحنقٍ معتوهٍ من تقافزها المغفّل... «يا لها من بهائم غبيّة!» تمتمتُ: «أيُّ سعادةٍ ترفل بها في هذا المكان الرجيم بين جميع الأماكن الملعونة في العالم، بزمنٍ أغبر تتوالى فيه أخبار الرابضين بالمرض... مصابٌ يتلوه آخر وآخر وآخر».

نشر الطقس الدافئ الموت على نحوٍ أكبر بكثير مما اعتقدنا. حتى كوكليت دلف الجميلة في مثل هذه الأوقات من السّنة المزدانة بالأغصان المزهرة للزعرور البري، الحريرية أكثر من قماش المذبح الناعم، لم تعد قادرةً على إخفاء أعدادنا المتناقصة. فقد تزايدت المسافة بين الحاضرين بمرور الآحاد، بينما تقلّصت المساحة بين المنبر الصخري للقسيس وآخر صفٍّ من المصلين.

«ها نحن نسير في طريق الآلام...» قال مايكل مومبليون مستهلاً عظة الأحد الأخير من شهر أيار مايو: «ابتداءً من بستان الزيتون[1] بستان الانتظار والصلاة وصولاً إلى الجُلجُثة، تماماً مثل يسوعنا المبارك. ليس بوسعنا أيّها الأصدقاء الأعزاء إلّا مناشدة الإله أن يجِيزَ عَنّا هذِهِ الْكَأْسَ. يجب علينا التضرع بكلماته ذاتها: ولكِنْ لِتَكُنْ لاإرَادَتِي بَلْ مشيئتك»[2].

1- بستان الزيتون (جشيماني): بستانٌ في جبل الزيتون في مدينة القدس، يُعرف بأنه المكان الذي صلى فيه يسوع في الليلة السابقة للصلب وفقاً للعقيدة المسيحية.

2- «قَائِلاً: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُجِيزَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ، ولكِنْ لِتَكُنْ لاَ إِرَادَتِي بَلْ مشيئتك». (إنجيل لوقا 22: 42).

بحلول الأحد الثاني من شهر حزيران يونيو، وصلنا إلى سجل وفياتٍ مثيرٍ للشفقة، إذ بات تعداد الراقدين تحت الأرض يعادل المتنقّلين فوقها من الأحياء؛ أما وفاة مارغريت ليفسيدج فقد أوصلت أعداد الموتى إلى مئةٍ وخمسة وسبعين روحاً راحلة. كلّما تجوّلتُ مساءً في شارع القرية الرئيس أشعرُ باحتشاد أشباحهم، أمشي الهوينى محنية الظهر بذراعين وكفّين مطويتين جانباً، كما لو أنني أفسح المجال لعبورهم. تساءلت إن كان لدى الآخرين الأفكار الرهيبة ذاتها، أو أنني أوشكت على الإصابة بالجنون. لا شكّ أن الذعر الذي اكفهرّ مختبئاً داخل النفوس منذ البداية تعرّى الآن كاشفاً عن هويته، إذ أضحى اليتامى والفاقدون يتفادون الاقتراب بعضهم من بعض، مجاهرين بخوفهم من العدوى الجاثمة في الأجساد. لقد هرول الناس خلسةً كالفئران في محاولةٍ لتجنّب التلاقي بأيّ روحٍ عابرة.

بتُّ عاجزةً عن النظر إلى وجه أيّ قرويٍّ دون تخيّله ميتاً، فيسارع قلقي للتساؤل عن كيفية تدبّر أمورنا بغير مهاراته خلف المحراث أو النول أو فوق مقعد الإسكافي. لقد استنفدنا الحرفيين من جميع المهن بشدّةٍ. حاجةٌ لم تتوقف عند الخيول التي ألقت بحدواتها منذ وفاة الحذّاء، فقد افتقدنا صانع الطوب والبنّاء والنجّار والنسّاج والحدّاد والخيّاط. العديد من الحقول امتدّت بوراً غير محروثة... لا محصودة الغلال ولا مزروعة، بينما وقفت المنازل في تخومها خاويةً من ساكنيها. عائلاتٌ بأكملها قضت نحبها لتندثر برحيلها ألقابٌ أصيلةٌ معروفةٌ هنا منذ قرونٍ طويلة.

لقد مارس الخوف طقوساً مختلفة بين القرويين، ومنهم أندرو ميريل -صانع البراميل- الذي انتقل ليعيش مع ديكه الصغير في كوخٍ متواضعٍ بناه لنفسه بالقرب من قمة هضبة السير ويليام. كان ينسلّ في جنح اللّيل نزولاً نحو بئر مومبليون ليترك طلباً باحتياجاته. وبما أنه لا يعرف الكتابة، فكان يترك ببساطةٍ كوباً يحتوي على عينةٍ من الشيء الذي يحتاجه: بضعة حبوبٍ من الشوفان، وعظامٌ من سمك الرنجة.

حاول بعض القرويين إخماد مخاوفهم عبر تجرّع كؤوس الشراب وتسلية وحدتهم بالعناق الأرعن. من أغرب تلك الحالات؛ جين مارتن الشابة المتزمتة التي كانت ترعى طفليّ فيما مضى من الأيّام. أدمنت تلك

البائسة الفقيرة، بعد فجيعتها بجميع أفراد أسرتها، علي التردّد إلى حانة المزر قاصدةً السلوان والنسيان. وفي غضون شهر، خلعت جين ثوب حدادها وتعابير وجهها الصارمة الصامتة. آلمني الغمز واللّمز بين فتياتٍ مراهقات عن التغيرات التي ألمّت بها... «من الفتاة الأكثر برودةً من جدار طابقٍ أرضي إلى امرأةٍ داعرةٍ عاجزةٍ عن إغلاق ساقيها». صادفتها ذات مساء تحيك طريقاً مشوّشاً إلى المنزل عبر الظلام، فاصطحبتها إلى كوخي بهدف إيوائها في سريرٍ دافئٍ هادئٍ وآمن، لعلّني أتمكّن من محادثتها على نحوٍ منطقي. أطعمتها بعض حساء لحم الضأن، لكنها سرعان ما أفرغت جوفها منه. بدت مريضةً تعيسةً في الصباح التالي لدرجةٍ لا أعتقد أنها سمعتِ الكثير مما حاولتُ قوله.

أما الخوف الذي غزا قلب جون جوردون فقد قاده إلى أخطر الدروب. كان للرجل -الذي ضرب زوجته ليلة مقتل إنيس غاودي- روحاً انطوائيةً جلفة، لذلك لم يستغرب أحدٌ احتجابه مع زوجته يوريث عن القدوم إلى اجتماعات أيّام الآحاد في كولكيت دلف منذ أوائل الربيع. ولأنهما يقطنان كوخاً في الطرف القصيّ للقرية، لم ألمح جون أو زوجته لأسابيع عدة، ثم عرفت منها لاحقاً أن السبب لغيابهما عن دلف ناجمٌ عن اختيارٍ لا إصابةٍ بالمرض. غدت يوريث امرأةً قليلة الكلام، عمل زوجها على ترويعها بشدّة لدرجةٍ جعلتها تتسلّلُ متنقّلةً بين الأمكنة هنا وهناك بخجلٍ وصمتٍ، خشية أيّة محادثةٍ قد تقودها بطريقةٍ ما إلى سلوكٍ لا يعجبه. لاحظتُ أن يوريث بدت أشدّ نحولاً وأكثر شحوباً من المعتاد. لم أحاول التحرّي عن الأسباب، فالمعاناة نالت من الجميع على حدّ سواء.

إلّا أن التبدّل الحاصل في هيئة جون جوردون بانَ ذا شأنٍ آخر. مع تلاشي نهارٍ وُسم برعاية المرضى، مضيتُ نحو البئر لجلب الملح الموصى عليه إلى مطبخ بيت القسّ. كاد قنديل السماء يخبو حتى آخره لدرجةٍ استغرق مني الأمر وقتاً طويلاً قبل أن أتعرّف إلى القامة المنحنية التي تعرج صاعدةً الدرب المنحدر عبر الأشجار. رغم برودة المساء مضى الرجل عارياً إلّا من قماشٍ خيشيٍّ يخفي عورته. بدا هزيلاً كجثةٍ منهوبة، أما عظامه فنفرت لامعةً لتوشك على اختراق جلده. لمحتُ عصا في يسراه اتّكأ فوقها منحنياً إلى أقصى حدّ،

حيث تطلّب المشي منه بذل جهودٍ عظيمة. حجب الغسق المتلاشي ما أمسك بيده اليمنى. اقتربتُ من انحدار البئر، فتجلّى ما بيده أمام ناظري. كان سوطاً من السيور الجلدية المضفّرة المنتهية بمسامير صغيرة. أبصرتُ جون جوردون ينتصب بعد خمس خطواتٍ أو أكثر من ارتقاء المنحدر. رفع السوط وانهال به على جسده. التصقت إحدى المسامير المعقوفة كسنّارة صيد السمك بقطعةٍ صغيرة من اللّحم، ثم مزّقتها مع معاودته الجَلد من جديد.

صرختُ من هول ما رأيت، ثم رميت كيس الملح وجريتُ مباشرةً نحوه. تَبَدَّى جلده متكتّلاً بفعل الكدمات والجروح، بينما تدفّق الدم الطازج عبر الأخاديد الجافة للأذيات السابقة.

«من فضلك» صرختُ بألم: «توقّف عن هذا!، لا تعاقب نفسك بهذه الطريقة!، تعال معي ودعني أضمّد جراحك!».

حدّق جوردون إلى وجهي متابعاً الدمدمة:

«نَحْمَدُكَ يَا اَللهُ نَحْمَدُكَ، واسْمُكَ قَرِيبٌ يُحَدِّثُونَ بِعَجَائِبِكَ»[1].

تمتم موازياً بين ضربات السوط وإيقاع صلاته. جفلتُ حين انتزعتِ السنّارة المعلّقة على كتفه مضغةً صغيرةً من الجِلد ككلّ مرّة، بينما تابع التمتمة بصوتٍ خافتٍ دون هوادة.

اندفع إلى جواري ليتجاوزني كما لو كنت شبحاً، ثم تابع صعوده باتجاه الحافة. التقطتُ الملح وسارعت نحو القسيس. بالرغم من عدم رغبتي بتحميل السيد مومبليون أيّ عبءٍ جديد، إلّا أن هذه الحالة بالتحديد يعجز غيره عن معرفة سبل معالجتها. وجدته في مكتبه يكتب عظته. لم يسبق لي أبداً إزعاجه أثناء عمله هناك، لكن عندما أخبرت إلينور بما رأيته، أصرّت على إعلامه بخبرٍ لا يمكننا تأجيله.

وقف على الفور مع طرقنا للباب محدّقاً باهتمامٍ شديد، عالماً بأن ما نحمله ذو شأنٍ عظيم. ضرب الطاولة بقبضته بعد معرفته بما جرى.

1- وردت هذه الآية في النص باللغة اللاتينية، حيث كانت لغة الكنيسة الطقسيّة في ذلك العصر:

(Te Deum laudamus, te judice... te Deum laudamus, te judice) (سفر المزامير 75: 1).

«جلد الذات![1] هذا ما كنتُ أخشاه».

«لكن كيف؟» سألت إلينور: «نحن بعيدون عن المدن، كيف لأفكارٍ كهذه أن تنتشر هنا؟».

استهجن القسيس ما قالته إلينور وأجاب: «من قال ذلك؟ يبدو أن الأفكار الخطيرة تنتشر بسرعة الرياح، بل وتجد آذاناً صاغيةً هنا وهناك، بالسهولة ذاتها التي تكاثرتْ بها بذور المرض».

لم أستوعب ما كانا يتحدّثان عنه. استشعرتْ إلينور ارتباكي، فالتفتت نحوي وأوضحت: «إنهم الأشباح التي طاردتِ الطاعون منذ الأزل يا آنا، لسنواتٍ عديدةٍ مضت جال الجلادون في دروب هذه الأرض التي غزاها المرض والحرب؛ ثمّ نبعوا من جديد في أزمنة الموت الأسود بأعدادٍ كبيرةٍ للغاية، متنقّلين من مدينةٍ إلى أخرى، محاولين جذب أرواح المضطربين إليهم. إنهم يوقنون أن العقاب الذاتي الموجع قادرٌ على تخفيف غضب الرّب؛ كما يعتقدون أن الطاعون ما هو إلّا تأديبٌ للخطايا البشرية. يا لها من أرواحٍ بائسة!».

«أرواحٌ بائسةٌ بالفعل، لكنها تشكّل خطراً فظيعاً» قال السيد مومبليون مرتبكاً أثناء تجواله في الغرفة بخطى حثيثة: «صحيحٌ أن جلد الذات في معظم الأحيان يُلحق الضرر بالنفس ذاتها، لكن في أزمنةٍ خلت قام الغوغائيون بإلقاء ملامة إصابتهم بالطاعون على الخطايا التي ارتكبها آخرون... على

1- كان جلد الذات في بادئ الأمر تعبيراً عن التوبة الجسدية، إذ اعتقد المسيحيون الأوائل أن فكرة الكفّارة الجسدية تسمح للعقل والروح بترك شهوات الحياة، والتركيز على عبادة الله. كفارةٌ تتوج بالدماء تعبيراً عن الندم والرغبة في الغفران. إلى جانب الجلد كانت المواكب تتضمن أناشيد دينية وحركات معينةٍ وأزياءً خاصة. أول سابقة في القرون الوسطى حدثت في بيروجيا عام 1259، وانتشرت منها إلى شمال إيطاليا ثم النمسا. وسُجلت حوادث أخرى في أعوام 1296 و1333 و1334، خاصةً في وقت انتشار الطاعون (الموت الأسود) عامي 1349 و1399. في البدء احتملت الكنيسة الكاثوليكية الحركة، وشارك فيها رهبانٌ وكهنة بشكلٍ منفرد؛ ثم تنبّهت الكنيسة إلى انتشار الحركة بشكلٍ سريع جداً في القرن الرابع عشر، فأدانها البابا كليمينت السادس رسمياً عام 1349، وأمر قادة الكنيسة بقمعها. وأكّد البابا جريجوري الحادي عشر على هذا الأمر في عام 1372، حيث اعتبر جلد الذات ضرباً من الهرطقة.

اليهود في أغلب الأحيان. لقد قرأتُ كيف قاموا بقتل المئات من هؤلاء الأبرياء حرقاً بالنار في المدن الأجنبية. لقد خسرنا آل غاودي بمثل هذا الجنون، ولن أسمح بفقدان أيّ روحٍ أخرى في هذه البلدة».

توقّف عن خطوه والتفت نحوي: «من فضلكِ يا آنا، اجمعي بعض كعك الشوفان والمراهم والمنقوعات الدوائية. أعتقد بضرورة زيارة جوردون هذه اللّيلة. لا أريد لهذا الاعتقاد أن يسود هنا».

عبّأتُ السلة بما أوصى به، وأضفت طبقاً من اللّحم وبقايا حلوى الكاسترد التي قمت بإعدادها لعشاء ذلك اليوم مع بعض المرهم والشراب المقوي، ثم امتطيتُ صهوة أنتيروس خلف القسيس واتجهنا صوب مزرعة جوردون. لاحظتُ أول استهلالنا طريق البلدة الرئيس ظلّاً بشريّاً أبيض يتلوّى فوق الحافة العشبية للدرب. لم أكن لأنطق بحرف لو عرفتُ ماهيته، فقد ظننتُه شخصاً واقعاً في مصيبة، أو أنه مريضٌ عاجز، فصرخت طالبةً من القسيس التوقّف. سارع القسيس بشدّ لجام أنتيروس ليقود الحصان نحو البقعة التي أشرتُ إليها. لا بدّ أنه طالعَ بوضوحِ الحالة الحقيقية أسرع مني، إذ قام بكبح أنتيروس بعد لحظة، مغيّراً اتجاهه بنية العودة للطريق تاركاً الزوج وشأنه. لكن المرأة رأته فصدحتْ بالعويل ليقوم الرجل المنبطح فوقها بالقفز ملتقطاً سرواله بيدٍ، محاولاً إقحام قضيبه داخل القماش بيده الأخرى. أما جين مارتن المستلقية على طبقةٍ من العشب بفستانٍ مرفوعٍ حتى رأسها، فكانت مخمورةً لدرجة أنها عجزتْ عن تغطية عريها.

انزلقتُ عن الحصان وسارعتُ نحوها، سحلتُ تنورتها إلى الأسفل ثم حاولتُ العثور على ملابسها الداخلية الغارقة بين الحشائش. وقف ألبيون سامويز في هذه الأثناء صامتاً مرتبكاً أمام القسّ الممتطي صهوة جواده. سامويز عامل المنجم الذي فُجع بزوجته منذ شهر، نديمُ والدي في الحانة رغم اختلافه التام عنه. حدّثه القسّ بهدوءٍ وبصوتٍ مسطّحٍ على نحوٍ غريب... بنبرةٍ اعتراها حزنٌ يفوق الغضب إن صحّ التعبير، بعكس ما توقّعتُ أنا وألبيون.

«ألبيون ساموبز، لقد أخطأت بحقّ نفسك هذه اللّيلة. لا تحتاج بالطبع لموعظةٍ لما قمتَ به. امضِ إلى منزلك ولا تُهِن روحك أكثر».

تراجع ساموينز مترنّحاً منحنياً مومئاً برأسه للقسّ حتى ظننتُ أنه سيهوي بأيّة لحظة. استدار ملوّحاً بطريقةٍ ما، ثم انطلق مهرولاً في الظلام. ترجّل القسيس وسار حيث جلستُ مع جين محاولةً وضع الحذاء في قدميها المرتخيتين.

«جين مارتن! اركعي على ركبتيك!» أتى صوته هادراً مزمجراً ما روّعني وأثار ذعر جين رغم خدرها.

«على ركبتيك أيّتها الآثمة!» لاحتْ قامة السيد مومبليون قاتمةً تشقّ الأفق نحونا. أما وجهه فقد طمس الظلام جلّ تعابيره. تعرّشتُ محاولةً الوقوف على قدمي بينه وبين الفتاة المنهارة التي كانت تحاول رفع نفسها، فهوت مراراً وتكراراً، حين فشلتْ أطرافها في حملها.

«حضرة القسيس!» قلت: «لا بدّ أنك ترى الفتاة غير قادرةٍ على استيعاب أوامرك في حالتها هذه! أتوسّل إليك أن تؤجل تأنيبك حتى تستعيد وعيها».

«لقد نسيتِ نفسك» صار صوته هادئاً الآن، لكنه صدح بنبرةٍ حادة: «هذه المرأة تعرف جيداً ما تفعله هنا اللّيلة. إنها مسؤولةٌ عن الكتاب المقدس مثلي تماماً، ومع ذلك، لوّثت الوعاء الطاهر لجسدها بعد أن ملأته بالنجاسة. لقد فعلتْ ذلك عن سبق إصرار، ولذا يجب أن تعاقب».

«حضرة القسّ» قاطعته: «أنت تعرف أيّ امرأةٍ كانت جين مارتن». ساد صمتٌ بعد ذلك لم يكسره سوى قضم أنتيروس للعشب النديِ داخل فمه الناعم. نطقتُ بما نطقته بشقّ الأنفس مع ضربات قلبي التي كانت تطرق برأسي. سمعتُ بعد ذلك تأوهاتٍ خلفي، لتخبرني الرائحة الكريهة التي حملها الهواء أن جين مارتن قد أفرغتْ محتويات معدتها من شراب المزر.

«نظّفيها ثم أمسكي لجام الحصان حتّى أضعها فوقه». مسحتُ فم جين بقطعة قماشٍ أحتفظ بها داخل سلتي. رفعها القسيس إلى صهوة الحصان، وأشار إليّ بالركوب خلفها وتهدئتها قدر المستطاع بينما قادنا صوب كوخها. لم نتحدّث حين ترجّلنا عن الخيل، ولا حين حملناها وساعدناها لكي ترقد في سريرها، ولا حتّى حين انطلقنا متابعين مهمتنا الأساسية.

سررتُ بوافر الظلمة التي جنّبتني الالتقاء بعيني القسيس، خاصةً بعد

شعور الخزي الذي انتابني إثر تسببي بمشاهدته للرجل والمرأة في الوضع غير اللّائق ذاك، وشهادتي على نوبة غضبه الغريبة التي لم أكن أعرف شيئاً عنها.

حين مررنا مجدّداً بالمكان، حيث افتُضح أمر جين وألبيون أطلق السيد مومبليون تنهيدةً عميقة.

«لا أحد منا يمتلك سيادة أفعاله في مثل هذه الأوقات العصيبة. أطلب منكِ نسيان ثورة غضبي في هذه اللّيلة، وسأفعل ما سألتكِ إيّاه». تمتمتُ بالموافقة عبر وجه العتمة. طرق أنتيروس بحوافره الدرب لبضع خطوات، حين تحدّث القسيس مرّةً أخرى:

«يسعدني على وجه الخصوص» قال بهدوء: «إن بقي الأمر برمّته سرّاً عن مسامع زوجتي».

«بالطبع يا حضرة القسيس» غمغمتُ غير مستهجنةٍ طلبه... لا بدّ أنه أراد تجنيب إلينور الاطلاع على طبيعتنا الحيوانية بهذه الصورة الفظّة.

تابعنا طريقنا بصمتٍ وصولاً إلى مزرعة جوردون. في البداية رفضت يوريث فتح باب الكوخ معتذرةً بصوت خافت: «لا يسمح زوجي باستقبال أيّ رجلٍ أثناء غيابه».

«لا تقلقي يا زوجة جوردون لأنني هنا بصحبة آنا فريث. بالطبع لن تقعي في الخطيئة إن قمتِ باستقبال كاهنك وخادمته. لقد أحضرنا لكما بعض الزاد. ألن تشاركينا تناول الخبز؟». تصدّع الباب مع تلك العبارة لتطل يوريث برأسها محدّقةً إليَّ وإلى سلّتي، لاعقةً شفتيها من شدّة الجوع. تحرّكتُ خطوةً إلى الأمام ورميتُ القماش عن السلة كي تتمكّن من رؤية محتوياتها. فتحتِ الباب بارتعاشٍ بادٍ على محياها. كانت ترتدي دثاراً خشناً محزوماً بحبلٍ عند الخصر.

«في الحقيقة... إنّي أتضوّر جوعاً. لقد فرض زوجي الصيام عليّ منذ خمسة عشر يوماً... لا أتناول في اليوم الواحد سوى كوب من الحساء مع قطعةٍ صغيرةٍ من الخبز».

شهقتُ مع دخولي إلى الكوخ الخاوي من جميع أثاثه عدا صلبانٍ مصنوعةٍ من الأخشاب المقطوعة الخشنة، والتي انتصبت في كلّ ركنٍ في

المكان. استند بعضها ضخماً إلى الجدران، بينما عُلّقت الصلبان الصغيرة المصنوعة من الأعواد بخيوطٍ متدليةٍ من العوارض الخشبية. لا بدّ أن يوريث طالعت دهشتي فشرحتْ تقول:

«بعد اعتزاله للزراعة بات يمضي جلّ وقته بتشكيل الصلبان واحداً تلو الآخر». كان الجوّ داخل الكوخ ذي الجدران الحجرية أكثر برودةً من خارجه. لا ريب أن نار الموقد تحت قدر الطبخ قد أُخمدت منذ أمدٍ طويل. قمتُ بوضع كعك الشوفان مع اللّحم والكاسترد فوق قطعة القماش التي صررتها بها، ثم جثت يوريث على الأرض وبدأت بالتهام الطعام بنهم، حتى إنها تجرّعت الشراب المقويّ حتى قطراته الأخيرة. لا مقعد في المكان للجلوس عليه، لذا تسمّرنا واقفين حيث كنّا. أحطتُ صدري بذراعي ممسّدة عضديّ، لعلّني أحظى ببعض الدفء.

جلستْ على عقبيها بعد الانتهاء من الطعام وتنهّدت متخمةً للمرّة الأولى منذ أسبوعين؛ ثم قامت متّكئةً على يديها وقدميها محدّقة بذعر إلينا: «أرجوكما... لا تخبرا زوجي عن قطع صيامي. إنه محزونٌ منذ فترةٍ لعدم التزامي بالتقشّف والزهد اللّذين فرضهما على نفسه في سابقةٍ تحديته بها، وقد يعاقبني بشدّةٍ لو علم بمعصيتي فيما يتعلّق بمسألة الصيام...». تلاشتْ كلماتها تاركةً أثراً عميقاً للمعنى الموجع. جمعتُ أطراف القماش، ثم تفحّصتُ الأرض بحثاً عن فتاتٍ قد يشي بسرّها. سألها السيد مومبليون بلطف عن كيفية وصول زوجها لتعاليم جلد الذات، فأجابت:

«أنا متأكدةٌ -رغم جهلي التام بالتفاصيل- أنه حصل في وقتٍ ما في منتصف الشتاء على ورقةٍ من لندن، وبعد مطالعتها أمسى غريب السلوك والتفكير. أدعو الرّبّ ألّا تستاء يا حضرة القسّ، لكنه صار أكثر انتقاداً لمواعظك. ادعى أنكَ تخطئ حين تشجّع الناس على الفصل بين الإصابة بالطاعون وغضب الرّب. يجب عليكَ -وفق اعتقاده- إرشادنا للاعتراف بكلّ خطيئةٍ ارتكبها أيٌّ منّا منذ الأزل، في سبيل العثور على الإثم الذي أشعل غضب الرّب، كي نستأصله من جذوره. لا ينبغي أن نستقصيه داخل أرواحنا فحسب، بل أن ننتزعه من أجسادنا أيضاً. لذلك بدأ الصيام وازداد تزمّته إلى الحدود القصوى. أحرق أسرّة القشّ مصرّاً على توسّد الأحجار العارية

وافتراشها». تورّد وجهها قليلاً، ثم تابعتِ الهمس: «لا يعتقد بجواز اتحاد جسدينا معاً بأيّ حالٍ من الأحوال، بل الاستلقاء منفردين بحشمةٍ تامة».

لقد توقّف جوردون تماماً عن أعمال الزراعة ليمضي الوقت جوار زوجته جاثمين للصلاة على ركبتيهما. كان يبالغ في توبيخها كلّما مضتْ لحرث الأرض... «ثم، وبعد أسبوع، أخرج الطاولة والمقاعد وأضرم النار فيها؛ ثم ألقى بثيابه داخل ألسنة اللّهب». أمرها أن تفعل الشيء ذاته، لكنها رفضتْ خلع ملابسها مشيرةً إلى أن أسلوبه في ارتداء الملابس غير لائقٍ على الإطلاق.

«صبّ لعناته فوق رأسي، حانقاً من عدم امتناني لمعرفته بالسبل التي تدحر سهام طاعون الرّب، فلا تصيبنا بنبالها» انخفضتْ نبرة صوتها تدريجيّاً حتى إنني عجزتُ عن التقاط بقية الكلمات. «جرّدني من ثيابي بالقوة، وأحرقها كلّها». زعم أن ضعفها وفشلها في تقديم الكفّارة الكافية سيجبرهم على إماتة أجسادهم بطريقةٍ أشدّ وطأة. حزم السيور الجلدية بعد ذلك وعلّق المسامير المعقوفة بنهاياتها. جلدها أولاً، ثم قام بجلد جسده؛ ليواصل التعذيب كلّ يومٍ منذ ذلك الحين.

«ليتك تحاول التحدّث إليه يا حضرة القسيس، مع أنني أشكّ بقبول الإصغاء إليك».

«أين يمكن أن أجده في هذه اللّيلة؟».

«لا أعرف بالضبط» أجابت: «لكن من عادته أن يحرم نفسه من النوم قدر استطاعته. إنه يسعى لحجب الإغفاءة جاثلاً بين المراعي في بعض الأحيان حتى ينهار منهكاً. يرقد في أوقاتٍ أخرى على حافة صخرة قرب المنحدر، حيث الخوف من السقوط يقاوم نعاس مقلتيه ويبقيه مستيقظاً حتى الفجر».

«كان متّجهاً نحو الحافة عندما التقيت به» غمغمتُ.

«هل فعل حقّاً؟» عقّب القسيس: «حسناً عليّ التوجّه إلى هناك».

ربّت السيد مومبليون برفقٍ على كتف يوريث وقال:

«حاولي الحصول على قسطٍ من الراحة أيّتها الزوجة، وسأبذل قصارى جهدي للتهدئة من عذابات زوجك».

«أشكرك» همستْ.

وهكذا تركناها في هذا المنزل البارد الكئيب الخاوي، لأغدو إلى موقدي الدافئ، والقسيس إلى بحثه عن الرجل. أما بالنسبة لكيفية عثور يوريث جوردون على راحةٍ بالاستلقاء فوق تلك الأحجار العارية، فهذا ما عجزتُ عن إدراكه بالفعل.

لم يجد السيد مومبليون جون جوردون في تلك اللّيلة، بالرغم من تجواله ممتطياً أنتيروس ذهاباً وإياباً على طول الحافة حتى غروب القمر. كما لم يتمكّن من العثور على أيّ إشارةٍ تدل على مكان الرجل في اليوم التالي، ولا خلال النهار الذي تلاه. أسبوعٌ مضى قبل أن يعثر براند ريجني -أثناء بحثه عن خروفٍ مفقود من أغنام ميريل- على جثّة جوردون ممدّدةً بين الصخور المتهاوية عند سفح الحافة الشديدة الانحدار. لم يكن هناك أيّ وسيلةٍ لسحب الجثّة المهشّمة، أو حتى لتغطيتها؛ فالاقتراب يعني الوصول إلى الدرب المؤدي إلى ستوني ميدلتون... ما يعني المرور عبر البلدة، وحنث اليمين المُلزِم بعدم الاقتراب من حدودها.

تنسّك جسد جون جوردون في موته كما فعل في حياته، مستلقياً عارياً تحت قبة السماء، متروكاً ليد الطبيعة غير الرؤوم.

في دلف، وأثناء موعظة الأحد التالي، ذكر القسيس مناقب جون جوردون راثياً إياه بعباراتٍ مترعةٍ بالحبّ والتفهّم، مشيراً إلى مسعاه لإرضاء الإله، معتنقاً سلوكياتٍ لا ترضيه.

«أيّها الأصدقاء الأحباء، تذكّروا قول الرّبّ في الكتاب المقدّس: نِيرِي هَيِّنٌ وحِمْلِي خَفِيفٌ[1]. إن الله غير راغبٍ بمقاساتكم الآلام من أجله... إنه من يقدّر المعاناة لأحدكم، ولا يجوز لكم الحكم عنه». كانت يوريث حاضرةً بين الجمع بملابس أرسلها القرويون حين علموا بمحنتها. بالرغم من مصابها إلّا أنها بدتْ أفضل حالاً بقليل، حيث تمكّنتْ في الأيّام التي أعقبت وفاة زوجها من تناول الطعام اللّائق مرّةً أخرى. لقد اهتم أهل البلدة بطعامها ومنامتها.

لكنّ المرأة حظيتْ بفترة راحةٍ لم تدم طويلاً، إذ سارع الطاعون لاقتناصها

1- (إنجيل متى 11: 30).

في الأسبوع التالي. كثيراً ما تساءلتُ إن كانت بذور الوباء قد نُقلت إلى منزلها عبر الفراش والملابس المُقدّمة لها بنوايا طيبة... استنتاجٌ لم يلقَ آذاناً صاغية لدى آخرين. إذ تمتم البعض بأن جون جوردون قد اختار مساراً حقيقياً خلّصه من الطاعون، وأبعده عن لعنته؛ ثم ما لبثت الهمسات تتناقل عظة السيد مومبليون متهمة إيّاها بالضالة. عارض معظم القرويين الغمز الذي نال قسيسهم، لكن الخوف -كما أشرتُ سابقاً- ما زال الأقدر على إحداث تغييراتٍ هجينةٍ فينا جميعاً، وتدمير قدرتنا على التفكير الجليّ. بغضون أسبوعٍ واحد، بدأ مارتن ميلر بإحاطة عائلته بالأقمشة الخيشية، صانعاً لنفسه سوطاً، ثم حذا راندول دانيال حذوه، رغم أنه -والشكر للرّب- لم يطلب فعل المثل من زوجته وطفله. قام الرجلان معاً -راندول وميلر- بالمضي إلى ساحة القرية بغية تحريض الآخرين للانضمام إليهما لممارسة طقوس تكفيرهما الدموية.

ترنّح السيد مومبليون بين الغضب والتوبيخ الذاتي؛ حتى إنني وجدتُ خلال تنظيف مكتبه العديد من قطع الرّق المكتوبة بخطّ يده... شطب بعض ما كتب وخطّ عباراتٍ جديدةً جوارها. يبدو أن كلّ أسبوعٍ يجيء بأعباء أعظم لصياغة العظة التي ستخفّف عنّا، وتحافظ على نقاء أفئدتنا. لحظتُ حرصه خلال هذه الأوقات على الالتقاء بصديقه القديم السيد هولبروك قسيس هاثرسيج[1]. نوهتُ على أنه «لقاء»، لكني لا أظنّ أن الكلمة تفي بالمعنى الحقيقي لأيّ لقاء. كان قسيسنا يرتقي الأراضي الصاعدة لما فوق بئر مومبليون، منتظراً زميله هناك؛ فيأتي السيد هولبروك إلى أقرب مكانٍ يجرؤ على الوقوف فيه على بعد مسافةٍ آمنة، ثم يتحدّث الاثنان، أو لنقل بالأحرى يصرخان عبر الهاوية الفاصلة بينهما. إن أراد السيد مومبليون إرسال رسالةٍ إلى الإيرل أو إلى حماه - والد إلينور، فيمليها على السيد هولبروك شفوياً، كي لا يزعج متلقّي الرسالة بورقة من كفٍّ مسّت أيادي ضحايا الطاعون.

في بعض الأحيان، كان السيد مومبليون يعود من هذه اللّقاءات بمعنوياتٍ

1- هاثرسيج (Hathersage) قرية وأبرشية تمتد على تلال ديربيشاير جنوب غرب شيفيلد في إنجلترا.

روحيةٍ عالية إلى حدٍّ ما؛ إلّا أن الاتصال بالعالم الخارجي قد يشوّش تفكيره في أحيانٍ أُخر. في إحدى المرّات -وبينما كنتُ أنجز مهامي- سمعتُ إلينور تحدّثه بهدوء بنبرتها الخفيضة المعهودة الناعمة، تطمئنه وتخبره أنه ما زال القسّ الدال على خيرنا جميعاً، بغضّ النظر عن الظلام المنسدل فوق أيّامنا القاسية.

وقفتُ ذات نهارٍ خارج الباب مع كأسين من العصير، فوصلتْ إلى مسامعي همساتهما الهادئة... صوتها على وجه الخصوص؛ فتسلّلتُ بعيداً كي لا أزعجهما. عدتُ بعد وقتٍ قصير فتناهى إلى أذنيّ صمتٌ طويل. قبضتُ على مقبض الباب واختلستُ نظرةً إلى الداخل... لمحتُ إلينور منهكةً وقد غلبها النعاس، فغفتْ فوق كرسيها، بينما مال مايكل مومبليون الواقف خلفها نحوها قليلاً بيدٍ تداعب شعرها برفق. فكّرتُ بأنه لن يجازف بإقلاق راحتها حتى ولو بقبلةٍ أو عناق. تساءلتُ بيني وبين نفسي إن كان هنالك أيّ زوجٍ يعامل زوجته بمثل هذا اللّطف الشديد، ثم شكرتُ الرّبّ الذي جمعهما معاً. كنتُ لا أزال واقفةً خلف الباب أسترق النظر بجشعٍ للألفة المحيطة بهما، حين اكتسحني شعورٌ خسيسٌ بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى: لماذا يمتلك كلٌّ منهما شريكاً يحبه ويقدره، بينما أمضي أيّامي وحيدةً في هذا العالم؟

شعرتُ بأن الغيرة تطعنُ قلبي: من القسيس؛ لحبِّ إلينور الشديد له، بينما أتصوّر لحصّةٍ عظيمةٍ من قلبها تفوق ما قدمته لي... من إلينور لأنها وجدتْ رجلاً جلّها ووهبها كلّ هذا الحب. فكّرتُ، لماذا كُتب عليّ التلوّي وحيدةً داخل سريري البارد الخاوي، بينما ترقد متنعّمةً بين أحضانه الدافئة؟ تسلّلتُ مبتعدةً عن الباب في محاولة تهدئة يديّ المرتعشتين، فلا يكشف وقوع الصينية سرّي. دخلتُ إلى المطبخ وخطوتُ نحو حوض الغسيل. وضعت الصينية على الرفّ ثم رفعت الأطباق الرقيقة، صحنه أولاً ثم صحنها، كسرتهما واحداً تلو الآخر فوق الحجر الصلد.

-13-

حريقٌ عظيم

في أول مرةٍ تناهى سعال إلينور إلى مسامعي، حاولتُ أن أصمّ أذنيّ بتجاهلٍ وإنكار. كان ذلك أثناء غروب أحد أيّام الصيف العليلة والنسيم يتنقّل بزُغب الهندباء البرية عابراً أزهار سلطان الجبل. كنّا عائدتين إلى منزل القسيس بعد زيارتنا التي تُعدّ الأولى منذ زمن الطاعون لقرويين أصحاء، بدل عيادة المرضى. أرادتْ إلينور زيارة ستة أو ثمانية أشخاصٍ من كبار السن الناجين من وباءٍ لم يرحم أبناءهم. لطالما اهتمتِ السيدة مومبليون بأولئك الأرامل -رجالاً ونساء- قبل قدوم الوباء إلى قريتنا، لكن ضرورات الموت اقتضتْ أن يُترك المعوزون ليتدبّروا أمورهم بأنفسهم، بغضّ النظر عن احتياجاتهم.

جرتِ الأمور مع الجميع على ما يرام، باستثناء أحدهم ويدعى جيمس ماليون، العجوز الأدرد المتقوّس الظهر، والذي وجدناه جالساً في الظلمة كالح السحنة هزيلاً لافتقاده الشديد للقوت اليومي. تعاونا معاً في إخراجه لتنشّق الأثير الدافئ، ثم حضّرنا له الزاد بعد هرسه جيداً كطعام الرضيع. حين لقّمته الأكل الطري ملتقطةً ما سال على ذقنه تذكّرتُ كيف كنت أُطعم طفليّ، فانهالت دموعي بغزارةٍ. أمسك ذراعي بيده الخشنة الشبيهة بالمخلب، مثبّتاً مقلتيه الدامعتين بي، ثم تساءل بصوتٍ متهدّج: «لماذا يعيش رجلٌ مثلي سئم من حياته وبات متأهباً للرحيل، بينما يختطفُ الموت أولئك الصغار قبل أوانهم؟». ربتُّ على يده وأومأتُ برأسي عاجزةً عن تمالك نفسي للردّ عليه.

ناقشنا الفكرة أثناء عودتنا إلى منزل القسيس، جاهلتين حتى اللّحظة

بأسباب فتك الطاعون بالبعض وتجاوزه لآخرين... أولئك القلائل -أمثال أندرو ميريل- الذين نأوا بأنفسهم بعيداً ليعيشوا متوارين عن الآخرين داخل الكهوف والأكواخ البرية. من المؤكد أنهم نجوا من التقاط العدوى، خيارٌ يؤكّد أن الاقتراب من المرض ينقل بذوره؛ لكن اللّغز المحيّر المتبقي الذي شهدناه على الدوام وأدهشنا: كيف احتمى البعض من المرض، رغم أنهم أقاموا مع مصابين آخرين في مسكنٍ واحد، متشاركين معهم طعامهم ومضجعهم وحتى الهواء الذي يستنشقونه؟ استحضرتُ حديث السيد ستانلي إلى مريديه حين اعتبر أن اختيار الوباء لضحاياه يغدو اعتباطيّاً لأنه قضاءٌ بيد الربّ.

«أعرف ذلك...»، عقبت إلينور أثناء مرورنا بأجمةٍ لنبات سلطان الجبل، ثم التقطتْ بشرودٍ زهرة عسلة[1] عالقة بالسياج البري، أطبقت شفتيها على البتلات كما علّمتُها ذات مرة، ثم رشفتْ رحيقها الحلو كما تفعلُ أيّ فتاةٍ ريفيةٍ بسيطة.

«لقد اعتقد السيد ستانلي على الدوام أن الإله يؤتي المعاناة لأولئك الذين سينجيهم من عذاب ما بعد الموت. لا يمكنني اعتناق وجهة نظره يا آنا، مع ذلك كيف لنا أن ندرك ماهية الحقيقة؟ لقد آثر السيد مومبليون التوقف عن تفسير هذه الأمور في عظاته، آخذاً على عاتقه محاولة رفع روحنا المعنوية وتقوية عزائمنا لعبور هذه المحنة».

صمتٌ حلّ بيننا، حاولتُ إبّانه صرف ذهني عن التفكير بأمورٍ يصعُب التكهّن بها، مستمتعةً باللّحظة الراهنة عبر تأمل الخفقان الكسول لأجنحةِ العوسق[2] والإصغاء لزقزقة السمّان[3]. سعلت إلينور من جديد، فسارعتُ لإقناع نفسي بأنه صوت طائر الصفرد، ثم تابعتُ المسير وكأن شيئاً لم يكن.

1- العسلة (honeysuckle) أو صَرِيمة الجَدي: جنسٌ من نباتات الزينة يتبع الفصيلة الخمانية. زهرته أنبوبية الشكل بيضاء سمينة تتحوّل إلى الأصفر، ولها رائحةٌ عطريةٌ.

2- طائر العوسق: نوعٌ من الطيور الجارحة صغيرة الحجم مقارنةً بالصقر، فيدعوها البعض صقر الجراد أو الصقر الحرّ، رغم أنها ليست في الحقيقة من الصقور.

3- طائر السمّان: من رتبة الدجاجيات، ويدعى أيضاً طائر السلوى أو الصفرد أو الحجل الرملي.

مرّ بعض الوقت قبل تعرّضها لنوبة سعالٍ جديدة، ولم يعد من اللّائق تجاهل الأمر، خاصةً أنها توقّفتْ تحت وطأة التشنّج ضاغطةً بقطعة دانتيل على فمها. التفتُّ على الفور ثم طوّقت كتفيها بذراعي لأسندها؛ لا بدّ أن وجهي عكس عمق تأثّري وقلقي، لأنها نظرتْ إليَّ بابتسامةٍ حاولتْ إقحامها بين شهقاتها؛ دفعتني بعيداً حين هدأتْ وقالت مازحة: «هلّا توقفتِ عن دفني يا آنا لمجرد أني سعلت!».

خانتني الطمأنينة وتملّكني الذعر، إذ مع حلول المساء، وبعد قطع مسافةٍ طويلة اتّقد جبينها بالحرارة، ولم أستطع التخمين إن كانت الحمى بفعل الطاعون أم غيره.

«اجلسي هنا» أشرتُ إلى حجرٍ مسطّحٍ كبير تحت ظلّ شجيرة غبيراء: «انتظريني ريثما أحضر السيد مومبليون».

«توقّفي يا آنا في الحال...!» أجابتْ بلهجةٍ استباقية: «لا تقومي بشيءٍ من هذا القبيل!». تلمّستْ جبينها، فانتفضتْ برأسها. لعلّها ارتعشتْ من شدّة الحرارة المفاجئة. «أتصوّر أنني أصبتُ ببردٍ خفيف، ولن أجعلك تقلقينني وترعبينني بهذا الشكل! أتوسّل إليكِ أن تبذلي ما بوسعك لتضبطي نفسك. لستِ صغيرةً كي تجزعي من نائبةٍ جديدة بعد كلّ ما عايناه وأنجزناه معاً. إن كنتُ مريضةً بالفعل ستكونين أول شخصٍ أوكله بالعناية بي؛ حتى ذلك الوقت لا تفكّري بأن تثيري قلق السيد مومبليون».

استأنفتِ المشي بسرعة، فتبعتها قابضة على ذراعها دون تمنعها. حاولتُ طوال الدرب الإحاطة بكلّ تفصيلٍ يخصّها... أصابعها الممسكة بمعصمي... تمايل عودها الرقيق... سعة خطوها. تلاشى عبقُ الحوذان وولّى بعيداً تغريد الطيور، لم أكُ أسمع سوى طرقات قلبي المضطربة داخل أذنيّ، أما عيناي فأغشتْهما الدموع المنهمرة دون رادعٍ فوق وجنتي.

توقّفتْ إلينور وحدّقت بابتسامةٍ طفيفةٍ رسمتها فوق ثغرها، أوشكتْ على مسح دموعي بقطعة الدانتيل، قبل أن تتوانى مغضّنةً المنديل الأبيض، راميةً إيّاه داخل سلتها. وشى ذلك بالأفكار التي اعترتها، فبكيتُ بلا هوادة وأنا واقفةٌ بأسى وسط الحقول.

ما يمكنني سرده عن الأيّام الثلاثة اللّاحقة لا يختلف عمّا ذكرته آنفاً؛ فقد ارتفعت حرارة إلينور، وأخذتْ تسعل وتعطس كحذو الآخرين المصابين بالوباء. بذلتُ قصارى جهدي بالتعاون مع مايكل مومبليون لتقديم العون والعلاج كما فعلنا مع الكثيرين.

حرصتُ على البقاء إلى جوارها بالقدر المسموح من الواجب واللّباقة، إذ من البدهي أن تناشد زوجها مايكل لمرافقة ساعاتها الأخيرة. أما دوري فانصبّ على مواصلة أعماله الخاصة، بما لم يمنع استدعاءه بين الحين والآخر للوفاء بواجباته تجاه المحتضرين. كلّما وجدتُ نفسي وحيدةً مع إلينور، مسحتُ وجهها المحموم بقماشٍ كتانيٍّ منقوعٍ بماء النعناع، متفحّصةً بشرتها الناعمة، مترقّبةً بخشيةٍ لحظة تفتّح تورّدها ببثور الطاعون الأرجوانية القاتمة. بدا شعرها في غاية الروعة، منسدلاً فوق جبهتها بلطفٍ كدانتيلٍ فضيّ.

باتت السيدة مومبليون تعني الكثير بالنسبة إليَّ... الكثير بالنسبة لخادمةٍ لا تملك الحقّ أو الحجّة لنيل تلك الحظوة من سيدتها! عرفتُ بفضل إلينور معنى التعلّق الأمومي... الدفء الذي افتقدته بعد رحيل والدتي المبكّر... حظيتُ بمعلّمةٍ محت أميّتي وجهلي. حين كنا في بعض الأحيان نعمل سويةً بالأعشاب العطرية في مطبخ بيت القسيس، كدتُ أنسىٰ أنها سيدتي ونأتْ بدورها عن هذه المكانة. لا أدرك كم مرّةً همستُ في أعماق قلبي أنها صديقتي، وأني أفيض بحبّها. في أحيانٍ متأخرةٍ من اللّيل حين يثقل التعب أفكاري أبدأ بلوم نفسي لتردّي حالتها، متيقنةً أن ما أصابها ليس سوى عقاب على الخطيئة التي وسمتَها جرأتي وغيرتي. أُدرك بذهنٍ صافٍ في وضح النهار أن مرضها ليس بأكثر أو أقل من معاناة أيّ شخصٍ آخر، لأعجز ثانيةً عن طمأنة قلبي في ساعات اللّيل الحالكة. لا تزال نار الغيرة تتوهّج داخلي مع كلّ مرّةٍ يأتي مايكل مومبليون للجلوس بجوارها. أسارع إلى مغادرة الغرفة مهتاجةً من مطلبه الأحق برعاية زوجته. حين صرفني أول مرّةٍ تمنّعتُ عن الانسحاب... تسمّرتُ فوق كرسيٍّ عند الباب لأكون على مقربةٍ منها قدر الإمكان، لكن السيد مومبليون رفع ساعديّ بلطفٍ لمساعدتي على الوقوف، ثم أمرني بعباراتٍ صريحة بألّا أحوم حولهما على ذلك النحو، مقترحاً اعتزالي في منزلي حتى يُرسل بطلبي.

إلّا أنّ كلماته لم تقصني عن زيارتها في اليوم التالي. كنت أبرّد جبينها بقطع الكتان المندّى حين تنهّدتْ ومنحتني ابتسامةً شاحبة... بدتْ كما لو أنها قرأت أفكاري، فهمستْ رابتةً بوهنٍ فوق يدي: «يا له من شعورٍ عظيم! يا لي من امرأةٍ محظوظة! إذ أُحطتُ بكلّ هذا الحبّ في حياتي... حظيتُ بزوجٍ رؤوفٍ كمايكل وصديقةٍ عزيزةٍ مثلك يا آنا». أغلقتْ عينيها للحظة ثم فتحتهما وحدّقتْ إليّ: «أتساءل لو كنتِ تعلمين كم تغيّرتِ! لا بدّ أن السنة الرهيبة تمخّضت ببعض الخير. آه، كم كان ألقكِ جليّاً حين أتيتِ إليّ أول مرّة! طاف داخلك ضوءٌ حجبتِهِ لخشيتِك عواقب انبلاجه. بدوتِ كشعلةٍ في مهبّ رياحٍ عاصفة. كلّ ما وجب عليَّ فعله كان تسوريكِ بالزجاج. كم تتوهجين الآن!». أغمضتْ عينيها وضغطتْ أكثر فوق يدي.

تباطأت أنفاسها بعد برهة، فظننتُ أنها غفت. نهضتُ بهدوءٍ قدر المستطاع بنيّة استبدال الوعاء والأقمشة المُستعملة، لكنها تابعتْ حديثها فيما أبقتْ عينيها مغلقتين: «أتمنى يا آنا أن تجدي الرغبة في أعماق قلبك كي تصبحي صديقةً للسيد مومبليون... فزوجي مايكل سيحتاج لصديقٍ وفيّ من بعدي». أوقفتِ الغصّة قدرتي على النطق، لكنها على ما يبدو لم تنتظر أيّ إجابة، فقد أغرقت وجهها بالوسادة وغطّت بالنوم بالفعل.

لم أستطع الابتعاد لأكثر من عشر دقائق، عدتُ فلحظتُ على الفور أن حالتها ساءت، اتّقد وجهها احمراراً وتهيّج بشدّة حتى برزت الأوعية الدموية على وجنتيها كشباك العنكبوت. وضعتُ قطعة الكتان البارد فطرحتْها بعيداً؛ ثم أخذتْ تتكلم بنبرةٍ مرتفعة لفتاةٍ مراهقة لم أعهدها من قبل، فعلمتُ أنها بدأت الهذيان.

«تشارلز!» نادتْ. نبستْ عن ضحكةٍ خفيضةٍ وهادئة مناقضةٍ لحالتها الحرجة. أخذتْ تلهث كما لو أنها تركض بالفعل. تخيّلتها فتاةً بفستانٍ حريري تلهو في عزبة والدها الرائعة داخل روضةٍ فسيحةٍ خضراء. هدأتْ للحظات فتمنّيتُ أن تعاود النوم، لكنها قطّبت حاجبيها واعتصرت غطاء السرير بكلتا قبضتيها. «تشارلز؟» صرختْ بالاسم بالصوت الطفوليّ العالي ذاته، ولكن بنبرةٍ حادةٍ بائسةٍ ومضطربة.

شكرتُ الرّبّ أنني الشاهدة بدل القسيس على ما هذرت به. أخذتْ تئنّ بعدها، فعانقتُ يدها وناديتها، لكنها غابت بعيداً عن مسامعي إلى أن تبدّل حال وجهها فجأةً، وعاد صوتها المألوف بنبرته الراشدة، وشرعتْ تهمس بصوتٍ حميميٍّ للغاية حتى شعرتُ بالخجل. «مايكل... مايكل، كم سيطول هذا؟ أرجوك يا حبيبي؟ أرجوك».

فتح السيد مومبليون الباب ودخل إلى الغرفة دون أن أسمعه، قفزتُ من مكاني حين جاءني صوته: «هذا يكفي يا آنا»، ثم تابع ببرودٍ غريب: «سأدعوكِ إن احتاجتْ أيّ شيء».

«أيّها القسيس، لقد ساءت حالتها كثيراً. إنها تهذي».

فردّ بقسوةٍ وانزعاج: «أستطيع أن أرى ذلك بنفسي. يمكنكِ المغادرة الآن».

نهضتُ مكرهةً وانسحبتُ إلى المطبخ، وجلستُ منهكةً قلقة في انتظار طلبه لي حتى غفوت. تآمر ضجيج الطيور على إيقاظي مع أشعة الشمس الغاربة عبر النوافذ العلوية، والتي رسمت خطوطاً عريضة على أرضية المطبخ كشرائط زينةٍ مضفّرة. تسلّلتُ عبر ضوء الصيف النحاسي إلى الطابق العلوي، ووقفتُ خارج حجرة نومها أسترق السمع.

أثار الصمت فضولي، ففتحتُ الباب برفقٍ لأجد إلينور غائرةً في وسائدها وقد زال التهيّج عن وجهها، وأضحتْ شاحبةً كغطاء السرير وهامدةً كالحجر؛ بينما استلقى مايكل مومبليون منبطحاً في نهاية الفراش عند قدميها، مادّاً يديه نحوها كأنه يتشبّث بروحها الراحلة.

انفلتَ البكاء الذي ناضلتُ في كبحه لأيّام ثلاثة أنيناً من الحزن والأسى. لم يتحرّك مايكل مومبليون، لكن إلينور فتحتْ عينيها وابتسمت لي.

«لقد زالت الحمى» همستْ: «ها أنا مستلقيةٌ مستيقظةٌ منذ ساعة، أشعر بالظمأ لكوبٍ من البوسيت، ولم أستطع أن أناديكِ كي لا أوقظ مايكل المتعب المسكين».

هبطتُ الدرج لأعدّ الشراب ببهجةٍ وكأني أطير، شعرتُ أثناء تسخين الحليب برغبةٍ في الغناء لأول مرّة منذ نحو سنة. نهضتْ إلينور من سريرها لفترةٍ وجيزة في ذلك اليوم، جلست خلالها بمساعدتي على كرسيٍّ قبالة

النافذة التي فُتحت على مصراعيها لترنو خارجاً، متأملةً حديقتها العزيزة على قلبها؛ بينما حدّق إليها السيد مومبليون كما لو أنه يرمق طيفاً ربانيّاً. اختلقتُ الأعذار لأعود مراراً إلى الغرفة بالأطعمة والملاءات النظيفة وأباريق المياه الساخنة... ووددتُ التأكد بأن ما حدث ليس حلماً.

أعلنتْ في اليوم التالي أن صحتها قد تحسّنت وتريد استنشاق الهواء في الحديقة، ثم سخرتْ مني حين أردتُ إسنادها خلال تجوالها، ومن القسيس حين عرض تطويقها بأوشحةٍ لم ترغبها أو تدبّر شمسيةٍ لم تكن بحاجةٍ لها.

بدا مايكل مومبليون في ذلك اليوم وكأنّه ولد من جديد، شعورٌ ترافق مع الأيّام التالية، فالتسليم بموتها تحت وطأة الطاعون بقناعةٍ تامة، وتعافيها من بعده من حمى عارضة... مفاجئةٌ عظيمة لا أُنكر معرفتي بحجم تأثيرها عليه وعليّ في آنٍ معاً. تغيّرتْ ملامح وجهه المكتظّة بالقلق، وزال التغضّن عن جبينه، واستعاد الخطوط الباسمة حول عينيه، أما خطواته فتوقّدت بنشاطٍ فتيّ ليلتفت عائداً إلى واجباته الصّعبة المقيتة بروحٍ متجدّدة.

جلستْ إلينور على مقعدٍ تستنشق النسيم في الركن الجنوبي من الحديقة وسط خلوةٍ بديعةٍ من صنعها، مظلّلةً بالكامل بأزهارها المعرشة المفضّلة. أحضرتُ لها كوباً من الحساء، فأبقتني بجانبها تكلّمني عن تفاصيل مسليّة لم تذكرها منذ زمنٍ طويل، كإمكانية فصل مجموعات السوسن وشتلها.

لمحَنا السيد مومبليون، فخطا نحونا مسرعاً قادماً من فناء الإسطبل. لقد عاد لتوّه من مزرعة جوردن، حيث فضّ القضايا العالقة المتروكة منذ وفاة يوريث جوردن. كانت العائلة فيما مضى مجرد مزارعين مستأجرين، وبما أن جون جوردن قد بدّد كامل ثروته بعد إصابته بتلك النوبة، لم يبقَ سوى القليل من المتاعب بشأن التركة. إلّا أنّ الجيران راودهم شعورٌ بعدم الارتياح بشأن تلك الصلبان التي صنعها جوردون، ولم يعرفوا كيفية التعامل معها؛ فارتأى القسيس ضرورة إحراقها بحضوره حتى تستحيل رماداً في جوٍّ من الخشوع والإجلال، وقد عاد للتوّ بعد الانتهاء من تلك المهمة.

جلس القسيس بجانب إلينور على مقعد الحديقة بينما يعبق الجوّ بالحرّ، ثم لوّحتْ بيدها أمام وجهها ممازحةً قائلة:

«أيّها السيد مومبليون... إن رائحة الدخان وعرق الحصان تفوح منك! دع آنا تسخّن لك بعض الماء لتغتسل!».

«جيدٌ جدّاً» علّق مبتسماً وهو ينهض على قدميه من جديد. توجّهتُ للقيام بما طلبته مني، وحين استدرتُ لأدخل إلى المنزل سمعته يتكلّم معها بصوتٍ أكثر حيوية، ومع عودتي بعد فترةٍ وجيزة حاملةً الحوض وبعض الملابس وجدته مسترسلاً في الحديث:

«لم أعرف لمَ لمْ يخطر لي هذا من قبل، لكنني حين وقفتُ أرفع الصلاة فوق تلك الصلبان المحترقة تراءى لي الخلاص بوضوحٍ جليّ، كما لو أن الرّبّ بجلالة قدره ألهم قلبي إلى الصواب!».

«دعنا نصلّي على نية ذلك» أجابته إلينور بحماس.

نهضتْ بعد ذلك ومشيا جنباً إلى جنب على طول الممر ليتركاني وراءهما بتجاهلٍ تامّ. وقفتُ لبرهة ثم وضعتُ الأشياء على المقعد ورجعتُ إلى الداخل لأكمل أشغالي. رميتُ خرقة التنظيف في الدلو وأنا أفكّر... مهما كان الأمر الذي يشغلهما سوف يخبراني عنه في الوقت المناسب، لكن طعماً مرّاً أغرق فمي أثناء تنظيف الأرضية، كما لو أنني مضغتُ علقماً.

عرفتُ في يوم الأحد التالي، مع جميع من في القرية، بما أوحى الرّبّ للسيد مومبليون حسب اعتقاده.

«لكي ننقذ أنفسنا يا أصدقائي أعتقد بضرورة المبادرة بإشعال حريقٍ عظيمٍ هنا. علينا أن نضحّي بكلّ أمتعتنا الدنيوية... بكلّ ما لمسته أيدينا... وبكلّ ما ارتدته أبداننا... بكلّ ما وقعتْ عليه أنفاسنا. دعونا نجمع أشياءنا ونجلبها إلى هذا الموضع، ثم نطهّر بيوتنا كما أُمر العبرانيون أن يفعلوا كعلامةٍ على احتفالهم بالفصح بعد خلاصهم من فرعون[1]. فلنجتمع هنا اللّيلة لنقدّم أشياءنا قرباناً للرّب، ونرفع له تضرعنا من أجل خلاصنا».

1- اقتبس القسيس مومبليون في هذا الجزء قصة النبي موسى مع فرعون كما وردت في سفر الخروج في العهد القديم، في إشارةٍ إلى الخروج أو العبور من مصر إلى أرض فلسطين، أو الخروج من العبودية إلى الحرية؛ ولا يزال اليهود يعيدون الاحتفاء بهذه الطقوس التي طلبها الله من موسى بعيد الفصح.

في دلف؛ عبستِ الوجوه ونُكّستِ الرؤوس، لأن الناس فقدوا الكثير بالفعل كي يضحّوا بالمزيد استجابةً للاقتراح الذي زاد من اضطرابهم. أما أنا فلاحت في ذاكرتي صرخات جورج فيغارز الشاب حين كان ينتفض أثناء احتضاره: «احرقوا كلّ شيء»... آهٍ لو أنني أحرقت كلّ شيءٍ في ذاك اليوم بالذات، بدلاً من السماح بانتشار محتويات صندوقه الملعونة عبر القرية كلّها... يا تُرى كم قريبٍ كنتُ سأجنّبه هذا الموت الأرعن؟

صدمني التفكير بالأمر، ولهذا فقدتُ القدرة على التركيز بكلمات السيد مومبليون، ولم يعد بوسعي أن أعيد سرد سبل إقناعه لأهالي القرية ودحر تردّدهم. ما أذكره أنه تحدّث عن يوريث جوردن، وكيف أصابها الطاعون بعد أن قبلت الأغراض المُقدمة بلطف، من ملابس وممتلكاتٍ من منازل وطئها الطاعون. أذكر أنه تحدّث عن قدرة التطهير التي تحملها النار، وكيف استخدمها الإنسان منذ عصوره الأولى كرمزٍ للانبعاث من جديد. أذكر أنه خاطب الجمع –كما فعل على الدوام– بفتنةٍ وقوةٍ عظيمتين، مطلقاً صوته العذب الرخيم كأداةٍ أبدعها الرّبّ لتحقيق مراده؛ ومع هذا فقد سئمنا جميعاً من العظات، فما الذي جلبته لنا بعد كلّ شيء؟

مع حلول فترة ما بعد الظهر ازدادت الكومة ببطء. قدّم القسيس وإلينور مثالاً يُحتذى بالفعل، حيث أخرجا كلّ ما يمكن حرقه باستثناء الملابس التي كانت عليهما وعددٍ قليلٍ من شراشف النوم. حتى إلينور جبنت حين حان دور حرق المكتبة، معلنةً عدم قدرتها على حضور احتراق الكتب: «رغم إمكانية وجود عدوى الطاعون داخلها، فقد تحوي أيضاً على المعرفة للخلاص منه، لكننا نفتقد الفطنة الكافية للإحاطة بها كما يجب».

بالنسبة إليَّ، شيءٌ واحدٌ لم أستطع مفارقته، وهو سترةٌ صغيرة حكتها لجيمي في شتائه الأول، ثم احتفظتُ بها لتوم كي يرتديها حين يكبر. هذا ما خبأته مرتبكةً من ضعفي، لأجمع ما تبقى من أغراضي القليلة وأرميها في النار. بدا من الغريب التنظيف والتكنيس في يوم الرّب[1]، لكن القسيس

1- يحرّم المسيحيون جميع أنواع الأعمال في يوم الأحد المخصص للرّب باستثناء الأفعال المقدسة أو المرتبطة بالعبادة، ومن قبلهم اليهود الذين حرّموا العمل يوم السبت.

اعتبر -باقتناعٍ راسخ- أن الأعمال المنزلية الاعتيادية أيضاً كتنظيف البيت تغدو بطريقةٍ ما أفعالاً مقدّسة. قمتُ بغلي مرجلٍ من الماء تلو الآخر، مرّةً في منزل القسيس وأخرى في كوخي، وطهّرتُ كلّ ركنٍ وحجرٍ في هذين المسكنين.

كنت منهكةً حينما اجتمعنا في دلف عند الغسق، تأملتُ ركام أمتعتنا الكئيب... حصيلة حيواتنا الفقيرة. فكّرتُ لأول مرّةٍ منذ أشهرٍ عدة بآل برادفورد- العائلة الوحيدة التي غادرتْ بلدتنا بالكامل، تذكرتُ ممتلكاتهم الثمينة التي حُجر عليها في سكون دارتهم، مفترضةً أنهم آمنون بعزلتهم في أكسفورد. تخيّلتهم عائدين ذات يوم، يجلسون إلى مائدتهم الفخمة المغطاة بالملاءات الجميلة والأواني الفضية. تراءى لي الكولونيل يضرب على الطاولة بأصابعه الضخمة منتظراً وجبته بنفاد صبر، بينما ينشج شبح ماغي كانتويل بصمتٍ في الظلام. ربما قد تستحيل البلدة بحلول ذلك الوقت أشباحاً برمتها، ولن يجرؤ آل برادفورد على المغامرة بالعودة إليها، أو المخاطرة بالمجيء في سبيل استعادة دارتهم الضخمة ومحتوياتها الرائعة.

قشّرنا عنا جميع ممتلكاتنا وبتنا عراةً بالفعل. انتصب وسط المحرقة حطامٌ لمهد طفلٍ بما طاف حوله من أمنياتٍ دافئةٍ سعيدة... إنه السرير الذي قضت فيه صغيرة عائلة ليفسيدج. كما انطرحت في النار سراويل عمال المناجم التي سبق أن كستْ سيقانهم القويّة الفتية، ومعها الكثير من أفرشة القشّ والأسرّة المحشوة التي وفّرت لنا الراحة والمتعة ذات يوم. جميع الممتلكات المتواضعة التي انتظرتْ أن يشعلها الحريق باحتْ لي عن تضحياتٍ أخرى لا يمكن تكويمها والتمعّن بها... وشت عن الإيماءات الودودة اليومية بين زوجٍ وزوجة... عن طمأنينة قلب أمٍّ ترنو إلى طفلها الغافي... عن الذكريات الحميمة والعذبة لجميع من ماتوا.

رفع مايكل مومبليون بيده اليمنى شعلةً ملتهبة، واقفاً قبالة أغراضنا المكدّسة على حافة منبره الصخري، بينما توزّعنا كعادتنا محافظين على مسافة أمانٍ بيننا...

«أيّها الرّبّ الإله القدير» صرخ بصوتٍ تردّد صداه في أرجاء دلف: «تقبّل

بسرورٍ هذه المرّة قرباننا المحترق، من أبناء شعبك إسرائيل[1]، اقبلْ منا هذا ولا تشح بوجهك عن معاناة شعبك. اغسل بهذه النار قلوبنا وبيوتنا أيضاً، وطهّرنا وخلصّنا أخيراً من عقاب المرض الذي يفتك بنا».

رمى بالشعلة إلى القشّ المسفوك من الأسرّة، فتلظّتِ النار مندفعةً بنهمٍ نحو السماء. كانت ليلةً صافيةً نقيةً وهادئة، شبيهةً بليالي منتصف الشتاء عموماً أكثر من كونها صيفيةً حارة. استعرتْ ألسنة النيران متعاليةً بأعمدةٍ ذهبيةٍ حمراء ملتوية، وتطاير الشّرر بعنفٍ كما لو أنه يتحالف مع ألق النجوم اللّامع الساكن. لفحتِ الحرارة وجهي وجفّفتِ الدموع عن خديّ. ثم رنّمنا على وقع أجيج الحريق المزمور الذي رتلّناه مرّاتٍ لا تُحصى منذ مجيء الطاعون:

«لا تخشَ من خوف اللّيل،
ولا من سهمٍ يطير في النهار،
ولا من وباءٍ يسلك في الدجى،
ولا من هلاكٍ يُفسد في الظهيرة
يسقط عن جانبك ألفٌ، وربواتٌ عن يمينك.
وإليك لا يقرب...»[2].

لطالما رنّمنا بإيمانٍ العبارات ذاتها. أذكر كيف صدحت موسيقاها بسموٍّ بين جدران الكنيسة. الآن نشدو بنبرةٍ خفيضةٍ منهكةٍ محطّمة؛ أما النغم فيصدح من أفواهنا كبغاواتٍ متباعدة، فاقدين الإيقاع المشترك، مضيعين وحدة اللّحن، ما جعل تسبيحنا -آيةً بعد آية- فوضوياً متضارب الترنيم.

فقدتِ الأغراض أثناء شدونا خصوصيتها في قلب اللّهب، واستحالت مجرد ظلالٍ قاتمة وألواحٍ تؤجج وهج النار. للحظة، تنامت فراغاتٌ سوداء داخل الألسنة المستعرة بهيئةٍ شبيهةٍ بتجويف الجماجم. أثارت الصورة فزعي فأغلقتُ عيني حتى تلاشت بالكامل.

---

1 يحاكي القسيس مومبليون هنا في صلاته أسلوب أنبياء العهد القديم في الكتاب المقدّس أثناء تقدمتهم للذبائح وتضرعهم إلى الله.

2- (مزامير 91: 5-9).

بين صخب الترنيم وزمزمة النار فاتني صراخ امرأةٍ حتى اقترابها محدثةً جلبةً ورائي. التفتُ لأرى، فوجدت الفتى براند ريجني وروبرت سني -الجار الأقرب لميريل- يقبضان على شخصٍ بينهما ويجرّانه عنوةً نحو منصة الحريق. ارتدتِ المرأة السواد بالكامل مع وشاحٍ داكن أسدلته فوق رأسها ووجهها. توقّف التسبيح فجأةً، حيث دفعها الشابان وألقياها على الأرض أمام مايكل مومبليون. اقترب منها براند ورفع الوشاح عن وجهها... لقد كانت أفرا.

«ما الذي يحدث؟» هدر القسيس محتجّاً، بينما دنتْ إلينور منها لتساعدها على الوقوف. نزعت أفرا الملاءة السوداء عن رأسها ناظرةً حولها بفظاظة، وكأنها تبحث عن مخرجٍ للفرار بين الحشد، لكن براند ثبّتها بكتفها بقوة.

«إنها الشبح الذي خدعنا جميعاً بزياراته!» صاح براند: «أمسكتُ بها ترتدي الملابس السوداء التي ترونها، مختبئةً في الدغل بالقرب من الحدود الحجرية، تحاول إثارة مخاوف شقيقتي تشيرتي كي تخدعها وتقنص منها شيليناً ثمن تعويذةٍ تدفع الطاعون بعيداً عن الصغير سيث»، ثم رمى شريطاً من القماش مخربشاً بطلاسم خرقاء وكلماتٍ غريبة، تماماً كتلك التي التقطتها إلينور عن جسد طفلة مارغريت ليفسيدج الميتة. رفعها لثوانٍ حتى يراها الجميع، ثم رماها وسحقها بالتراب تحت حذائه. «يا للعار!» صدح صوت امرأةٍ بين الجمع. نظرتُ صوبها فعرفت أنها كيت تالبوت، وقد امتقع وجهها بالأسى. صرخ توم موبراي: «سارقة!»، ثم ثار الحشد بأكمله راشقاً الشتائم على أفرا التي تهاوت على ركبتيها دافنةً وجهها بين يديها تجنّباً للبصاق والرمل الذي بدأ بالتطاير فوقها.

«أغرقوها»، ارتفع صوتٌ آخر: «أوثقوها بالمقطرة!». قلتُ لنفسي: إذا لم يفعل القسيس شيئاً ويتصرف بسرعة سيتحول هذا الجمع إلى قطيعٍ هائجٍ لن يرحمها أبداً. كنا كالحيوانات الجريحة المتألمة بشدّة، أما مخاوفنا التي فاقت الاحتمال فقد تنفجر غضباً على أيٍّ كان، خصوصاً على شخصٍ أضمر الشرور كما فعلتْ زوجة أبي. تلظيتُ حنقاً واشمئزازاً ورغبتُ في البصق عليها؛ ثم نظرتُ حولي -دون أن أعرف السبب تماماً- فلمحتُ فيث ابنة أفرا تقف أمام الحشد بهيئتها الضئيلة المثيرة للشفقة، تنوح بفمها المفتوح

دون أن يسمعها أحد وسط هياج الناس واحتدام غضبهم، التفتُّ بعدها لأعاين الملامح المتهكّمة وأصابع الاتهام المصوّبة نحو أفرا، فركضتُ نحو الطفلة واحتضنتها بين ذراعيّ؛ فبغضّ النظر عما سيحدث في دلف، لم أرغب أن يؤذي المشهد تلك الفتاة الصغيرة التي لا تزال رغم كلّ شيء أختي غير الشقيقة والناجية الوحيدة من عائلتي. حملتُ الطفلة المصدومةَ للغاية بعيداً عمّا يجري وصولاً إلى منتصف درب التلّ الصاعد حين علا صوت القسيس ضجيج الحشد، ليصدح بوضوحٍ عبر سفح الوادي.

«اصمتوا! لا تدنّسوا هذا المكان المقدّس الذي جعلناه كنيستنا بشتائمكم الآثمة!».

ما أدهشني أن الجميع صمت في الحال، فاستدرتُ لأسمع ما الذي سيقوله بعد ذلك.

«إن التهم الموجّهة ضد هذه المرأة خطيرةٌ بالفعل، وسيتم الاستماع إليها والإجابة عنها؛ ولكن ليس هنا، وليس الآن. إنه عملٌ منوطٌ بالغد. اذهبوا الآن إلى بيوتكم، وصلّوا للرّبّ لأن يقبل القرابين التي قدّمناها هذه اللّيلة، وليستجب إلى دعائنا برحمته الإلهية».

ارتفعتِ التمتمة بعد ذلك، لكن الناس الذين اعتادوا طاعته التزموا بأقواله وتفرّقوا كلٌّ إلى بيته. اصطحبتُ فيث إلى منزلي، حيث ارتمتِ الصغيرة تئنُّ طوال اللّيل تائهةً بين صور الكوابيس التي لم أستطع تعقّبها. أما أنا فغفوتُ قليلاً لتوقظني رائحة الدخان الكريهة.

من أنا لألوم مايكل مومبليون عمّا جرى في تلك اللّيلة؟

لا يمكن لأيّ شخصٍ مهما امتلك من حكمةٍ أو حسن نية أن يحكم بشكلٍ مثالي في جميع الأمور. لقد ارتكب القسيس الخطأ يومها... خطأً فادحاً دفع ثمنه غالياً. أعتقد بأن السبب مرتبطٌ بالصورة القيّمة التي نسجها عن ابني براند في عقله، معولاً على الشجاعة والإخلاص اللذين أظهرهما تجاه ماعي كانتويل أثناء محنتها، مفتخراً بالحمية التي أبداها كأخ لتشيرتي وسِث، وتوليه أعباء مزرعة ميريل بعد وفاة يعقوب ميريل.

بما أن براند وروبرت رفعا النقاب عن جريمة أفرا، لذا، أوكل إليهما

القسيس مهمة احتجازها حتى سماع أقوالها في اليوم التالي. لكن فاته أن يوصيهما بكيفية حبسها أو تحذيرهما من مغبّة اتخاذ أيّ سلوك بمعاقبتها؛ خاصة أنّ حنق الشابين المتوهّج جعل من الفكرة الفظيعة التي تبادرت إلى ذهن روبرت، مناسبةً أثناء موجة استيائهما الشديد.

كان روبرت سني يربّي الخنازير في مزرعته، وقد أثبت أنه مزارعٌ بارع ابتدع طرائق حاذقة لزيادة غلال محصوله وماشيته. تجلّت إحدى ابتكاراته بتحويل فضلات الخنازير إلى سمادٍ مفيد خلال فترةٍ قصيرة، وذلك بجمع الروث من الزريبة وخلطه مع بقايا التبن المتناثر في الإسطبل، ثم رميه في حفرةٍ غائرة في الأرض الجيرية التي غدت كحوضٍ طبيعيٍّ جاثمٍ عند أطراف التل. ثقب منفذاً عند الجهة المنخفضة من الحفرة، لتسهيل إسقاط السماد الناتج عن الروث المتعفّن إلى داخل عربة اليد، لتوزيعه فوق الزرع.

قام براند وروبرت بإلقاء أفرا بخضم هذه الحفرة النتنة المظلمة، حين زرتُ الموضع لاحقاً لم أصدق كيف نجت المرأة بعد قضاء ليلتها هناك. رائحة لاذعة من القذارة فاحت من المكان، مخرّشةً الحلق والصدر، حيث ارتفع الروث البنيّ الطريّ والمتحرّك من حولها وصولاً إلى حافة الحفرة، وقد علا -بحسب تقديري- لدرجةٍ أجبرتْ أفرا على رفع رأسها كي لا تدخل القذارة إلى فمها جراء الإتيان بأيّة حركةٍ بسيطة؛ وبما أن الروث الذي وقفتْ عليه ليس صلباً، فكان من المستحيل أن تبقى ثابتةً داخله، لذا حاولتْ لساعاتٍ طويلة التعلّق بالحواف الحجرية الزلقة كي تنجو من الغرق. رغم أن قواها أُنهكتْ بالكامل وتخرّش صدرها بفعل الرائحة النتنة، وجب على أفرا استنفاد طاقتها كلّها في سبيل الحفاظ على يقظتها؛ فلو استسلمت للدوار لغرقت وماتت.

لم تكن تلك المرأة التي أخرجوها من الحفرة وجلبوها إلى بستان البلدة في صباح اليوم التالي تشبه أفرا، بل بدت شخصاً مريباً مرعباً. حاول الشابان تنظيفها بسكب دلوٍ تلو الآخر من مياه البئر الشديدة البرودة. لكن الرائحة الكريهة ظلّتْ تنبعث منها، بحيث يمكن شمّها عن بعد أقدام، بينما تهيّجت بشرتها المغمورة بالقذارة طوال اللّيل بالطّفح. بدت منهارةً منهكةً ومرتعشة عاجزة عن الوقوف، فارتمت على العشب ملتفّةً حول نفسها ناشجةً كطفلٍ رضيع.

بكت إلينور حين رأتها، بينما ضرب مايكل مومبليون قبضته بيده وتقدم نحو براند وروبرت سني حتى ظننتُ أنه سيصفعهما. بدا براند شاحباً كالشبح يعتريه الذنب على فعلته؛ حتى إن روبرت سني الرجل ذا القلب الأقسى نكّس رأسه نحو الأرض متحاشياً النظر في عيني أحد.

لطالما كرهتُ مشاهد الأحكام التي نُفّذت في البستان، حيث وضعت المقاطر لأقراننا من سكان القرية ليكونوا عرضةً للشتم والتوبيخ والتصرفات الدنيئة. من المؤكّد أن مقاطرنا لم تكن بذلك الشيء المرعب مقارنةً بمقطرة باكويل المنتصبة في سوق تلك البلدة، حيث يأتي الناس ويرحلون دون أيّة أواصر عميقة تربطهم ببعض، ما يجعل التثبيت على المقطرة يعني الضرب بالفواكه الفاسدة ورؤوس الأسماك، وبأيّ شيءٍ قذرٍ ومؤذٍ يمكن للغوغاء رميه باليد دون رحمة. إحدى السيدات اللّواتي وضعن هناك بتهمة الفجور، فُقئت عينها جراء رجمها بقسوة. في مكانٍ صغيرٍ كهذه القرية لا يستطيع المرء أن يعامل جاره بالأسلوب ذاته، أن توثق من كاحليك بثقوب الخشب تحت أشعة الشمس الحارقة أو المطر البارد، محتمِلاً لساعاتٍ تحديق النظرات المُستنكرة وصيحات الصبية الرعناء... يبدو بالنسبة لي إهانةً تفوق بكثيرٍ ما يستحقه المذنب. نادراً ما دعا القسّ ستانلي إلى تنفيذ عقوبة المقطرة بالمذنبين، كما لم يشجّع عليها السيد مومبليون على الإطلاق.

نحو اثني عشر شخصاً اجتمعوا ليشهدوا عقوبة أفرا، ما يعتبر عدداً ضخماً نسبةً إلى وضعنا المنهك. من بينهم ديفيد أرمل مارغريت ليفسيدج الذي احتفظ بدون شك بآمال زوجته المعلّقة بـ «الرقية الكلدانية» التي التفّت حول رقبة صغيرتهما كالأفعوان، وخيّبت أملهما مع موتها. أما كيت تالبوت التي لم تنقذ زوجها التعويذة الباهظة الثمن، فتواجدت بين الحشد أيضاً. جاء كذلك أولاد ميريل وموبراي سعياً لتحقيق عدالةٍ بسيطة. أشخاصٌ غيرهم آثروا الحضور، لعلّهم فضّلوا عدم الاعتراف بتعرضهم للخديعة وسلب نقودهم من قبل ما سُمي بـ «الشبح».

أعتقد أن أولئك الذين وجّهوا أصابع الاتهام نحو أفرا اجتمعوا بهدف فرض عقوبةٍ قاسيةٍ بحقّها، لكن حين أحضرها براند وروبرت بتلك الحالة البائسة المزرية، فقد الجميع حماستهم للأمر، ليتفرّقوا الواحد بعد الآخر.

انحنى القسيس بالقرب من أفرا وأمال رأسه نحوها متحدّثاً بهدوء، مطالباً إياها بإعادة النقود المسلوبة بالحيلة مقابل منحها الغفران[1]. أصغت إليه بإنهاكٍ تام، ولا أظنّها استوعبت شيئاً مما قاله. طلب القسيس بعد ذلك عربةً لنقلها إلى منزلها، حيث قمتُ برفعها بمساعدة إلينور. أخذت تبكي طوال الطريق مطالبة بابنتها فيث، فتوقّفنا عند كوخي لجلب الطفلة ذات العينين الواسعتين الصامتتين التي جثمت مرتعدةً بجوار والدتها ملتصقةً بفخذها.

قمنا بتسخين المياه في مسكن أفرا، محاولتين تنظيفها ونزع الروث من تحت أظافرها ودهن قروح جسدها النازّة. استسلمتْ لرعايتنا لفترةٍ وجيزة، لكن ما إن بدأت تستعيد وعيها حتى اتّقد مزاجها الحاد السيئ، وراحت تنهال علينا بالشتائم الفظيعة، آمرةً إيّانا بالابتعاد، ملقيةً جميع الألفاظ البذيئة التي لن أدوّنها هنا.

لم أرغب بمغادرتها بهذه الحالة أو بترك الطفلة فيث معها، فسألتها بهدوء: «أتوسّل إليكِ يا خالتي... دعيني أصطحب الطفلة ليومٍ أو يومين حتى تتعافي وتستعيدي قواكِ».

«آهٍ... بالطبع لا أيّتها العاهرة الخبيثة!» صرختْ متشبّثةً بقوةٍ بالفتاة الصغيرة المذعورة: «فلتصبكِ لعنة السقم أنتِ ومكائدك! أتظنين أني لا أعرف؟»... تهدّج صوتها محدّقةً إليّ: «أتعتقدين أنني لا أدرك نواياكِ؟ لستِ ابنة زوجي بعد الآن... أبداً... تظهرين الخوف عليّ والعناية بي. وأنتِ في الحقيقة أداةٌ بيدها» صاحتْ مشيرةً بإصبعٍ مرتجفٍ نحو إلينور: «تلك السارقة العقيمة الجافة الهزيلة ستخطف طفلتي الوحيدة، أليس كذلك؟». جفلتْ إلينور وقد شحب وجهها فاقداً آخر لونٍ فيه، فتهاوت فوق الكرسي كما لو أنها أصيبتْ بالدوار.

ارتفع صوت أفرا مجدّداً، وتدفقتِ العبارات من فمها بسرعةٍ كبيرة لدرجة بالكاد أستطيع تذكّرها. «هذا ما تسعيان وراءه، أعرف ذلك، وأعي كيف سيغدو الأمر. لن أجعلكما تحرماني ابنتي، ولن أصغي لأكاذيبكما».

1- يحق للكاهن أو القسيس في معظم المذاهب المسيحية عدا البروتستانتية أن يمنح الغفران باسم الرّب عندما يعترف الآثم بذنوبه، وهذا ما يُدعى بسرّ التوبة.

بدا واضحاً أن اضطراب أفرا لا يفضي إلّا إلى مزيدٍ من التوتر لفيث، فأومأتُ إلى إلينور بضرورة الرحيل، ثم استأذنا بلطفٍ لتلحق بنا الشتائم حتى مسافةٍ طويلة.

اعتراني قلقٌ بشأن فيث طوال الصباح، الطفلة ذات السنوات الثلاث، البكماء منذ ولادتها. لو لم تبدِ استيعاباً لما يُقال لاعتقدتُ أنها صماء أو بلهاء. خمّنتُ أن خوفها من نوبات غضب والدي ومن سلوكيات أفرا الغريبة مؤخراً ما أحجم رغبتها عن الكلام. عدتُ إلى منزل والدي في فترة ما بعد الظهيرة مع صرّةٍ كبيرة من الطعام والمراهم لقروح أفرا، لكنها رفضتْ فتح الباب، وشتمتني بفظاظة حتى تركتُ الطعام في النهاية عند العتبة ورحلت. تكرّرت الحادثة في اليوم التالي وفي اليوم الذي لحق به. في كلّ مرّةٍ كنتُ ألمحُ فيث مسمّرةً بسكونٍ خلف زجاج النافذة، تحدّق بعينيها الواسعتين الغامضتين، فيما تلعنني والدتها بكلماتٍ لا يجوز لفتاةٍ في عمرها أن تسمعها. وبعد زياراتٍ عدة لم أعد أبصر الفتاة. سألتُ أفرا أين فيث؟ فصاتت بعويلٍ عالٍ ملقيةً تعويذةً مبهمة لم أستطع سبر معناها.

رجعتُ إلى المنزل ودعوت جارتي ماري هادفيلد، متوسّلةً أن تذهب إلى أفرا عوضاً عني، لنرى إن كان بمقدور الأبعد قرابةً منها أن تجدي نفعاً أكبر. هزّت ماري رأسها بتردّد وقالت: «لا أودّ رفض طلبك يا آنا، لكنني أمقتُ ما تسألينه، خاصةً أن أفرا حاولتْ تقديم نفسها كسليلةٍ للشيطان، وإن لم ترغب في قبول مساعدة ابنة زوجها، فلمَ لا ندعها تلوذ بحليفها الشيطان؟!».

ناشدتها أن تغيّر رأيها ملتمسةً أن تفكّر بالطفلة البريئة المعرّضة للخطر حتى عدلتْ عن رفضها ووافقتْ. لكن ماري لم تجلب أخباراً أفضل عند عودتها، لأن أفرا لم تفتح الباب هذه المرّة أيضاً، بل أطلقتْ صرخةً رعناء قذرة على ماري المسكينة التي أقسمت بأنها لن تذهب أو تقترب مجدّداً من ذلك الكوخ، سواء أكان ذلك في سبيل الطفلة أو غيرها.

لم يعد بمقدوري تهدئة قلقي بشأن فيث التي لم أتمكّن من رؤيتها في الأيّام اللّاحقة، لذلك بقيتُ مستيقظةً لوقتٍ متأخّرٍ من مساء ذلك اليوم، وشققتُ طريقي في جنح الظلام متجهةً نحو الحقل، غير مدركةٍ لما يمكنني

فعله باستثناء مفاجأة أفرا بإيقاظها من النوم، ما قد يمنحني لحظاتٍ قليلة من غفلتها تساعد بمعرفة ما جرى لفيث.

لكن أفرا لم تكن نائمة، إذ بدا الكوخ مضاءً بوهج النيران المستعرة في الموقد، ما بدا غريباً في ليلةٍ دافئةٍ كهذه، ثم أبصرتُ عبر النافذة البعيدة ظلالاً متحركةً واثبة. اقتربتُ أكثر فشاهدتُ أفرا ترقص قافزةً أمام النار، رافعةً يديها نحو الأعلى، كما يفعل المعتوهون حين تصيبهم نوبات الجنون. لم أقصد استراق النظر أو التجسس، لكن النافذة كانت مزاحة الستار. وقفتُ قرب أجمة غار علّني أفهم ما قد يعنبه هذا السلوك الغريب، فلمحتُ أفرا وقد جزّت شعر رأسها حتى برزتْ جلدته، مرتدية سترةً داخليةً فاحشة كشفت عن جسدها الهزيل الناحل. كانت تنحني ثم تقفز صارخةً بهتافٍ لا معنى له، ارتفعت حدّته كعويلٍ ثاقب: «أراتالي، راتالي، اتالي، تالي، الي، ليبيبي......!». وثبتْ بعد ذلك نحو النار ممسكةً بقضيبَيْ منصب الموقد[1] المحترقين باللّهب، وضعتهما على الأرض على نحوٍ متصالب، وسجدتْ أربع مرّات... مرّةً أمام كلّ زاوية من المربّع الذي شكّله القضيبان، رفعتْ ذراعيها بعد ذلك كما لو أنها تبتهل. بدت كأنها تجرّ نحوها شيئاً داكناً من عوارض السقف. لم أتمكّن من تمييزه في البداية، لكن حين أدارت ظهرها رافعةً إيّاه بكلتا يديها، بدا لي مخلوقاً حيّاً يتحرّك ملتوياً.

أشعلتني الرغبة بمعرفته بالهلع. أنا لا أؤمن بالسحر أو التعاويذ، ولا بالجواثيم[2] أو بشياطين الإغواء[3] أو بالأرواح الشريرة. لكني أؤمن بالأفكار

1- قضبان منصب الموقد: طرفان من المعدن يتمّ رفع الحطب عليهما بعيداً عن الأرضية لتمرير الهواء وإفساح المجال لوضع المواد الأخف التي يتمّ استخدامها لإشعال النار.

2- الجاثوم: كائنٌ أسطوريّ يأتي الإنسان في نومه، فيسبب له الكوابيس والقلق والضيق والانزعاج؛ وقد اعتقد الأوروبيون في العصور الوسطى أنه روحٌ شريرة أو شيطانٌ بهيئة ذكر (incubus) يعاشر النساء النائمات.

3- شيطان الإغواء (succubus): شيطانٌ بهيئة أنثى يظهر -بحسب أسطورة القرون الوسطى- للرجال في أحلامهم ويغويهم عن طريق الجنس.

الشريرة وأوقن بالجنون. حين انزلق الثعبان من بين يدي أفرا والتفّ حول خصرها، تملّكني دافعٌ للفرار بعيداً بما أمكنني من سرعةٍ وخفة.

لم أرحل مع ذلك، بل ظللتُ مسمّرةً هناك، مصابةً بالخيبة لعجزي عن نشل فيث بعيداً عن الجنون الذي أصاب والدتها. أعتقد أن الرواسب التي بقيت من أمومتي – القوة المتّقدة داخل الأم والجسارة التي لا تتخيل امتلاكها يدفعانها إلى المجازفة في سبيل طفلها... هذا بالضبط ما دفعني لأن أرمي نفسي أمام ذلك الباب وأجدني واقفةً في مواجهة أفرا وثعبانها.

صرختْ حين رأتني، ولعلّني صرختُ أيضاً. استجمعتُ أنفاسي بصعوبةٍ من الرائحة النّتنة التي لا يمكن وصفها. عرفت دون أن أنظر إلى الجثة أن الطفلة قد ماتت منذ فترةٍ طويلة. لقد علّقت أفرا جثمان فيث في الزاوية كالدمية، حيث قيّدتها من رسغيها وكاحليها وثبتت الحبائل بعوارض السقف، بينما تدلّى رأس الطفلة جانباً، وغطّى جزءٌ من شعرها وجهها المتفسّخ. لقد حاولتْ أفرا إخفاء لون جلدها الداكن بفعل الطاعون عبر طليه بعجينةٍ كلسية.

«رحمةً بها يا أفرا... أنزليها من هناك ودعيها ترقد بسلام!».

صرختْ: «رحمة؟!.. من يملك الرحمة؟!»، ثم همستْ: «أخبريني من فضلك... أين نجد السلام؟»، ثم اندفعتْ نحوي والأفعى في يدها؛ ورغم أنني لا أخاف الثعابين عموماً، إلّا أن انعكاس ألسنة النيران الحمراء في العينين اللّامعتين واللّسان المتشعّب المتلوي نحوي، إضافةً لفوات ما يمكنني القيام به من أجل فيث أو حتى من أجل أفرا، جعلني أرتدّ بذعرٍ إلى الخلف، استسلمتُ لشعوري بالجبن وفررتُ راكضةً مغادرةً المكان بأقصى سرعتي.

قصد القسيس الحقل في تلك اللّيلة، وأعاد الكرّة في الصباح التالي برفقة إلينور؛ لكن أفرا عملت على وصد الباب وإغلاق النافذة، ولم تتوقّف أبداً عن صراخها المحموم وقذف الشتائم، بل وتابعت الرّقص ببساطة غير مكترثةٍ لوجودهما. وقف القسيس في الخارج يتلو الصلاة المعهودة لراحة نفس فيث، فرفعتْ أفرا صوتها بشكلٍ غريب ليطغى على كلماته بهتافاتٍ وثنيةٍ مبهمة المفردات.

دار نقاشٌ في بيت القسيس حول إحضار مجموعة رجالٍ لخلع الباب وإخراج جثة الطفلة، لكن القسيس قرّر عدم القيام بذلك مقدّراً المخاطر الكبيرة التي سيتعرضون لها نظراً للاضطراب الذي أصاب أفرا والتعفّن الذي نال من الجثة، قائلاً:

«لا يبدو الأمر كما لو أننا لم نستطع القيام بشيءٍ حيال الطفلة أو حيال دفنها، لكن من الممكن فعل ذلك في الوقت المناسب، حين تخمد نوبة جنون أفرا».

هناك سببٌ آخر لم يذكره مايكل مومبليون كشفته إلينور فيما بعد؛ لم يثق القسيس بأن الرجال الذين سيأخذهم سيتفهّمون تصرّف أفرا على أنه مجرد مرضٍ بالجنون، كما أنه لم يرغب بإطلاق العنان لأيّ نوعٍ من المخاوف أو الشائعات التي قد تثار حول الساحرة وثعبانها الشرير. رغم قناعتي الداخلية بأنه كان محقّاً، إلّا أن جثّة الطفلة المشوّهة لم تفارق خيالي. لقد حرمتني من النوم، ولمّا تزل، لليالٍ لا تنتهي.

-14-

الخلاص

أقنعتُ نفسي بعدم جدوى زيارتي لأفرا بعد موت الطفلة، متجاهلةً تضرّع قلبي بألّا أترك أفرا لجنونها. لكن لا حجةٍ قويّةٍ لديَّ كافية لتحمّل أهوال ذلك المنزل. الآن، ومع جهلي بنفع هجرها من عدمه، إلّا أنني أمضيت العديد من الأيّام واللّيالي في ملامة نفسي على قراري بالنأي.

تمكّنتُ في غضون زمنٍ قصير من إقصاء التفكير بأفرا عبر التمعّن بما أتى به الحريق العظيم. أسبوعان مضيا قبل أن نلحظ أيّ أمارة تذكر، لكن هذا لم ينفِ التغيير الذي أصاب القرية، والذي لم يخض بمضمار ذكره أحدٌ منا. يبدو أنّ الخرافات والأمل والكفر -كلها عقدت معاهدةً مع الخوف- صديقنا القديم - لتمنعنا من التصديق أو البوح بحرف.

أحداثٌ غريبة وقعتْ، أو بعبارةٍ أصح توقّفتْ أحداثٌ بعينها. فلم نسمع بعد أحد تموز يوليو الأخير عن شكوى سعالٍ أو حمى جديدة أو تقرحات طاعون. لم أنتبه لذلك خلال الأسبوع الأول، نظراً لانشغالي بعيادة المرضى القدامى الموشكين على الوفاة؛ لكن بحلول الأحد التالي، وأثناء اجتماعنا في دلف، قمتُ كالعادة بتعداد الأشخاص الحاضرين لأُفاجأ بتواجد جميع من حضروا في الأسبوع الماضي. لأول مرّةٍ منذ أكثر من عام لا فقدان لوجه، ولا غياب لقامة.

لا بدّ أن مايكل مومبليون لاحظ ذلك بدوره، إلّا أنه فضّل ألّا يتحدّث عنه مباشرةً، واعظاً بخطبته عن القيامة. هطل المطر بكثافةٍ معظم أيّام الأسبوع الفائت، منتهكاً بوجهٍ سندسيٍّ نَضِر البقعةَ الجرداء القاتمة حيث أُودعتْ ممتلكاتنا للنيران.

وجّه القسيس أنظارنا إليها.

«انظروا يا أصدقائي أيّ حياةٍ تنبع هناك... لم تستطع النيران أن تطفئ شرارة الخلق في رقعة أَهْرَقَها الرماد، كذلك فإن الموت عاجزٌ عن إخمادِ أرواحنا، ولا المعاناة قادرةٌ على دحر وجداننا».

خرجتُ إلى فناء المنزل في صباح اليوم التالي للبحث عن بيضة، فوجدت ديكاً غريباً يلاحق دجاجاتي. كان يختال بجسارةٍ أمامي، حتى إنه لم يتزحزح عندما حاولتُ هشّه بعيداً، بل خطا صوبي مزهوّاً بعرفه الأحمر الجميل، محدّقاً بعينٍ جانبية. «حسناً أيّها الدخيل! أنت ديك أندرو ميريل إن لم أكن مخطئة!». رفرف أثناء حديثي ثم حطّ فوق رافعة دلو البئر مطلقاً صياحاً قويّاً للصباح. «ما الذي تفعله هنا يا صديقي المكسوّ بالريش تاركاً سيدك يقطن في الأعالي وحيداً؟». لم يلتفت بل خفق بجناحيه ومضى بعيداً عن الطريق المؤدي إلى كوخ أندرو ميريل المنعزل فوق هضبة السير ويليام، متجهاً صوب الشرق نحو منزل صاحبه المهجور منذ فترةٍ طويلة.

كيف أدركَ هذا المخلوق أمان العودة إلى قنّه القديم؟... يا له من لغزٍ لا تفسير له! حتى أندرو ميريل عاد بدوره إلى منزله في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، وقد نمتْ لحيته طويلةً كثّة كأنبياء العهد القديم. يبدو أنه يثق ببصيرة طائره.

لا أدري إن بدأت البهجة تتسلّل إلى أفئدتنا مع تزايد اقتناع الإنسان والحيوان بأن الطاعون قد رحل بالفعل؟ أو لعلّنا لم نفرح البتة! فمن فقدناهم كثيرون جدّاً، والضرر الذي لحق بأرواحنا لا يزال غائراً وجيعاً. أصبح الواحد منا يخطو فوق أرضٍ يرقد أعزاؤه تحتها. الأمكنةُ مترعةٌ بالحزن، قبورٌ مبعثرةٌ هنا وهناك... شواهدُ حجرية لأهالينا وأصدقائنا وجيراننا؛ أما من بقي على قيد الحياة فمنهكٌ مضنًى جراء رعاية اثنين أو ثلاثة أصيبوا بالوباء على مدار سنةٍ كاملة. ما انفكّتْ مكابدة الذكريات أشدّ وطأةً وضنكاً.

لكن هذا لا يعني أُفول الأمل عن القلوب الثكلى، فالقناعة بأن خسائرنا توقّفتْ أخيراً، وبأننا نجونا بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى أشرقت بالرجاء والطمأنينة. لا تزال الحياة ثمينةً لا يجوز هدرها بالحزن والأسى... خُلقنا على هذا النحو، وإلّا كيف سنستمر؟

ثمة جدالٌ بزغ في بيت القسيس بين مايكل مومبليون وإلينور كأول خلافٍ لحظته مذ عرفتهما. كانت تعتقد بوجوب عقد صلاة عيد الشكر[1] لخلاصنا، بينما يظن بعدم مواءمة الوقت لإقامتها، وبأن خطر التحدّث قبل الأوان يفوق أيّ فائدةٍ تُرجى من التصريح العلني لما نوقن به جميعاً في قلوبنا.

«ثم... ما الجدوى لو تبيّن أنّ ما نظنّه لم يكن صحيحاً؟». سمعته بينما كنت أجتاز الردهة بالقرب من قاعة الاستقبال، شيءٌ ما في لهجته اقتنص انتباهي، توقّفتُ وأصغيت، مع علمي بوجوب عدم فعل ذلك.

«إن عدم قيامنا بأيّ فعلٍ على الإطلاق يعني نجاحنا في حصر هذا الكرب فيما بيننا، فلا تُعزى لقريتنا أيّة إصابة طاعونٍ جديدةٍ في ديربيشاير. لماذا علينا المخاطرة بكلّ تضحياتنا بالتعجّل بأسبوعٍ أو اثنين؟».

«لكن يا حبيبي» ردّتْ بنبرةٍ رقيقةٍ وملحّة: «الكثير من الأشخاص هنا -كالأرملتين ريلي وهادفيلد، واليتيمين ماري ويكفورد وجين مارتن، وآخرين غيرهم- أودعوا جميع أفراد أسرهم داخل القبور وعانوا بما فيه الكفاية. لماذا تطيل زمان ذعرهم من الطاعون، وأنا على يقينٍ بأنك مدركٌ لرحيله؟ ينبغي لنا في ظلّ وحدتهم التحرّك لإنهاء بؤسهم المنغمس بأيّامٍ لا تنتهي. علينا منحهم حرية المضيّ إلى خارج القرية بحثاً عن أقاربهم، أو السماح لأقربائهم بالعثور عليهم... أن نُفْرج لهم عن دروبٍ تمتدّ نحو الحبّ والراحة والحياة الجديدة التي يستحقون الحصول عليها».

«هل تعتقدين أنني لم أضع هذه الأمور في حسباني؟ أنا الذي لم أفكر بأيّ شيءٍ آخر طوال هذه الأشهر البائسة؟» أتتْ عبارته الأخيرة بنبرةٍ مريرةٍ لم يسبق لي سماعها أثناء حديثهما معاً. «غدا اليأس حفرةً نُبشت عميقاً تحت أصابع أقدامنا التي تتأرجح على حافة الهاوية. لو أعلنتُ رحيل الطاعون

1- تعتبر صلوات الشكر ومراسم عيد الشكر الخاصة مشتركةً بين جميع الديانات تقريباً، بعد الحصاد وفي أوقاتٍ أخرى. وهي طقسٌ متجذّرٌ في التقاليد الإنجليزية، يرجع تاريخه إلى الإصلاح البروتستانتي، حين أصبح عيد الشكر والخدمات الدينية الخاصة به مهمة الإصلاح الإنجليزي في عهد هنري الثامن، وكردّ فعلٍ على العدد الكبير للعطل الدينية في التقويم الكاثوليكي. كانت الكنائس تُزيّن بعد الحصاد بالحنطة والفاكهة للاحتفال بقُدّاس عيد الشكر، ثم تُقام وليمةٌ لجميع سكان القرية.

وتبيّن بعدها أنني مخطئ... سأُغرق أولئك الناس في قيعانٍ مظلمةٍ لا يمكن انتشالهم منها أبداً».

سمعتُ حفيف فستانها حين استدارتْ متجهةً صوب الباب. «أتركُ المسألة لحكمتكَ يا زوجي العزيز؛ لكنني أناشدك ألّا تجعل الناس ينتظرون إلى الأبد، لا تعتقد أن كلّ شخصٍ راسخ العزيمة مثلك أنت».

عندما شعرتُ بخطواتها تقترب من الباب، انسحبتُ إلى المكتب فلم ترني، لكنني لمحتُ ملامح وجهها الجميل مغضّنةً في محاولةٍ لكبح دموعها.

لا أعرف كيف جرت الأمور، لكن بعد أيّامٍ قليلةٍ من هذه المحادثة، همست إلينور أن القسيس قد حدّد صلاة الشكر في الأحد الثاني من آب أغسطس، شريطة ألّا تظهر إصاباتٌ جديدة قبل اليوم الموعود. لم يُعلن عن القرار رسميّاً، لكن الخبر سرعان ما تسلّل بطريقةٍ أو بأخرى بين أهالي القرية. وقفنا بين منحدرات دلف المشرقة مترقّبين وآملين بشدّةٍ أن يكون اجتماعنا الأخير هناك. اقترب الناس بعضهم من بعض دون خوفٍ متصافحين كما لم يفعلوا منذ وقتٍ طويل، ثم وقفوا متقاربين يتبادلون الأحاديث بانتظار القسيس.

حضر السيد مومبليون بحلّةٍ لم يلبس مثلها من قبل، كان مرتدياً زيّاً كهنوتيّاً[1] أبيض انسدل طويلًا بحاشيةٍ من الدانتيل... اتّجه صوب المنبر بسحنةٍ أقرب لقسٍّ متزمّت اختار ألّا يشعل البهجة في صدور الحاضرين، باعتباره أمراً لا أهمية له أثناء ممارسة طقوس التعبّد. أطلّت إلينور بالأبيض إلى جانب زوجها بثوبٍ بسيطٍ من القطن الصيفي المطرّز بخيوطٍ من الحرير الثلجي، حاضنةً ملء ذراعيها باقة أزهارٍ قطفتها من حديقتها، ومن الشجيرات المتناثرة على طول الطريق الصاعد إلى دلف. لمحتُ الخبازى[2]

1- يعرف رداء الكاهن في الأوساط الغربية باسم سوتان (soutane)، أما في المنطقة العربية فيعرف عموماً باسم ثوب الكاهن أو جبّة الكاهن أو الرستامية أو التُّونيّة. يمكن أن يكون لون الرداء أسود، وهو الأكثر شيوعاً، كما يمكن أن يكون باللون الأبيض أو الأحمر أو الأرجوانيّ أو البنفسجيّ.

2- الخبازى: جنسٌ نباتي يتبع الفصيلة الخبازية من رتبة الخبازيات، وهو نبات عشبيٌّ حولي يبلغ ارتفاعه متراً واحد، أوراقه مستديرة كلوية الشكل، ساقه طويلة تكسوها

الوردية الرقيقة والعايق[1] بأزرقه الداكن، كما انتصبت الزنابق متفتحةً وسط الباقة، محاطةً ببراعم الجوري الفوّاحة. ابتسمتْ بوجهٍ مشرقٍ حين استهل القسيس موعظته، بينما أوقدتِ الشمس الوهج الأشقر بين خصلات شعرها الذي اعتلى رأسها كتاج. «إنها تبدو كالعروس» قلتُ لنفسي، ثم لاحت أزهار الجنازات في خاطري بأبيضها الوضّاء.

لم أدرك معنى الكلمات التي صدحت إلّا بعد توقّفها... كلماتٌ إنجليزية بزغت من قلب الضوضاء: «لـــمااااااذاااا؟» صاتت من جديد: لمااااااذاااا؟

ارتفع رأس مومبليون مع الصرخة الأولى، ثم استدار الجميع ملاحقاً نظرته. لم يكن من الصعب الحدّ من هجوم أفرا التي بدت هزيلةً كحزمةٍ رفيعةٍ من الحطب، لولا الجنون الذي اندفع بالمرأة محمّلاً يدها اليمنى سكيناً ضخمة لوّحتْ بنصلها في كافة الاتجاهات وعلى نحوٍ عشوائي. عرفتُه... إنه خنجر عامل المنجم الكبير الذي اقتلعته أفرا بجهدٍ جهيد من كفيّ والدي المتفسّختين. أما ذراعها الأخرى فمشغولةٌ بالتشبّث ببقايا جثة ابنتها المتحلّلة التي التهمتها الديدان. كان من المفترض لأحدنا مفاجئتها من جهة اليسار لإيقاف اندفاعها، إلّا أننا تراجعنا إلى الخلف مسارعين بارتباكٍ لتوسيع مسافةٍ أكبر بيننا وبين اختبالها الأرعن.

«مومـ بلـ يون!» صرخت كدجاجة ماء بصيحةٍ عميقةٍ نبعت من داخلها... من بقعةٍ لا تصدح عادةً بالأصوات البشرية.

لم يتحرك القسُّ بعيداً كما فعل الجميع، بل نزل عن منبره الصخري استجابةً لندائها، مقترباً بهدوءٍ من الخنجر الأخضر الفاصل بينهما، متقدماً بخطواتٍ حثيثة لحبيبٍ مسارعٍ لاحتضان عشيقته بذراعين قويتين. فرَدَ رداء القسيس الكهنوتي جناحين عريضين تلاطمت حوافهما المخرّمة مع هبات

شعيراتٌ دقيقة، يزهر بين شهري حزيران يونيو وأيلول سبتمبر، أزهاره ذات خمسة أوراقٍ مجوّفة عند الرأس، ذات لونٍ أحمر فاتح ومخططة بخطوطٍ قاتمة. موطنه أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا.

1- العايق أو الدلفينيوم: نباتٌ مزهرٌ معمّر، يُزرع لمظهره المذهل من الزهور الصيفية الملونة كالأزرق والوردي والأبيض والأرجواني. تحظى زهرة العايق بشعبيةٍ في حدائق المنازل الريفية والحدائق العامة.

النسيم حول قامته المنتصبة. روادتني فكرةٌ رعناء بأن السيد مومبليون يخطط لنسج «شبكةٍ توقع بالمرأة». ركضتْ أفرا نحوه بالخنجر بيدٍ تعلو رأسها.

تابع خطاه عازماً على ملاقاتها، ثم أحاطها بذراعيه جامعاً جسدها إليه، كما يحتوي الأب أطراف طفله الجامح بروحٍ رحيمة، بينما استولت يده الضخمة على معصمها الواهن. بدا الإجهاد جليّاً في ساعدها أثناء محاولتها المقاومة، حيث منعتها قوته من التملّص من القبضة المُحكمة. ركضت إلينور باتجاههما ملقيةً بأزهارها الكبيرة أسفل قدميها، ثم فتحت ذراعيها في محاولةٍ لمعانقتهما. لولا الخنجر لاعتقد من يراهم أنهم أحبة من عائلةٍ واحدة كُتب لهم اللّقاء بعد فراقٍ طويل. بدأ السيد مومبليون الهمس في أذن أفرا بهمهمةٍ خفيضةٍ هادئة، لم أتمكّن من سماع مفرداتها. لا بدّ أنها مؤثّرةٌ بما يكفي لتلاشي التوتّر من جسدها. خفّف قبضته، فلمحتُ كتفيها ترتعشان، ثم بدأت بالنحيب. كانت يد إلينور اليسرى تمسح وجه أفرا، بينما وصلت بيمينها للخنجر. كادت الأمور تجري على خير ما يرام، أو لعلّها أوشكت على نهايتها السعيدة، لولا أذرع القسّ الشديدة الإحكام على أفرا، التي طوّقت بقايا جثة فيث المتهلهلة. فاق ضغط القبضة تماسك العظام الهشّة، فصدح تصدعٌ يماثل تكسّر عظام الدجاج، لتهوي جمجمة الصغيرة دون عمودها الفقري متدحرجةً فوق العشب جيئةً وذهاباً، محدّقة عبر محجر عينها الفارغ.

أدرتُ وجهي باشمئزاز، بما حجب عني وجه أفرا التي عاودتها نوبة الهلع، فأحالتها مسعورةً من جديد. أعلم أن الأمر لا يحتاج سوى لحظة... هنيهة كي تُستباح حياة شخصين بالكامل محيلةً الثالث حطاماً.

خلال ثانيةٍ واحدة، وُشم عُنق إلينور بجرحٍ غائرٍ عريضٍ محدّبٍ إلى الأعلى كابتسامةٍ متكلّفة. تدفّق الدم بعدها برشقاتٍ ساطعة صبغتْ فستانها الأبيض بالأحمر القاني؛ ثم انهارتْ إلينور بقامتها فوق العشب حيث تلقفتها أزهارها المتناثرة كما لو أنها نعشٌ ملون.

أدارت أفرا الخنجر، وبغفلةٍ عن الجميع طعنت صدرها بقوةٍ وعمق. لعلّ القوة الخارقة للجنون ساعدتها في الحفاظ على توازن قدميها واستجماع قواها والخطو حيث استقرت جمجمة طفلتها. هوت مرتعشةً فوق ركبتيها... انحنتْ إلى الأسفل... احتضنتها برقة أمٍّ رؤوم، رفعتها إلى شفتيها وقبلتها بحنان.

-15-

خريف 1666

موسم قطاف التفاح

لملمَ أهل القرية أشلاء فيث وواروها الثرى داخل حقل والدي، إلى جوار القبر الكبير الذي جمع جثامين إخوانها. التمستُ الغفران لأفرا، ثم توسّلتُ الموافقة على دفنها بالقرب من صغارها، لكن القرويين أشاحوا بوجوههم بعيداً، متجاهلين تضرعاتي، مستنكرين السماح لجسدها بتدنيس حرم القرية. لم أجد معيناً في النهاية سوى الشاب براند الذي لم يتوانَ عن مساعدتي. تعاونا على نقل جثتها إلى خارج القرية صوب الأرض البور، حيث بذل براند جهوداً مضنية لبأر لحدٍ داخل الصخور الصلدة. رقدت أفرا أخيراً إلى جوار الركام الذي احتفظ بجثمان أبي.

بعد رحيل الطاعون نَفِدَ أيّ مانعٍ لدفن إلينور داخل مدفن الكنيسة. قام الشاب ميخا ميلن -نجل البنّاء المتوفى جرّاء الوباء- بتشييد ضريحٍ لائقٍ للفقيدة العزيزة قدر استطاعته. إلّا أن الصبي الذي لم يسعفه الحظ باكتساب مهارة أبيه الحرفية أخطأ في نقش حرفين من اسم إلينور، ثم صححهما لاحقاً بعد ملاحظتي.

أدّى السيد ستانلي صلاة الجنازة على روح إلينور بدلاً من السيد مايكل مومبليون الذي خارت قواه المتبقية في دلف أثناء مقاومته لأولئك الذين حاولوا سحله بعيداً عن جثة زوجته الغارقة بدمائها. لقد تشبّث بجسدها الراقد طوال اليوم المشؤوم ذاك. لم يتجرّأ أحدٌ على محادثته أو زحزحته من مكانه حتى حلول اللّيل مع مجيء القسّ ستانلي العجوز الذي أمر الرجال بانتزاعه بالقوة، كي يتسنى لهم تكريم جثمان إلينور كما يليق.

ما انفكتِ العناية بإلينور المهمة التي ألقيتها على عاتقي منذ زمنٍ طويل، ولا أزال مواظبةً بأقصى جهدٍ للوفاء بجميع وصاياها المتزامنة مع إصابتها بما اعتقدناه جميعاً عدوى الطاعون... «كوني صديقةً لعزيزي مايكل» هذا ما طلبته آنذاك... كيف ظنّته لوهلةٍ سيسمح بذلك، بالطبع لن يفعل مهما حاولتُ أو بذلتُ لخدمة رجلٍ لا يلحظني في معظم الأحيان، ولا يلمحني إلّا كطيفٍ يجول في الأرجاء. بدت حال السيد مومبليون منذ لحظة وفاة إلينور كمن يخوض غمار سفرٍ مبهمٍ يوماً بعد يوم لمسافةٍ أبعد وأبعد، باحثاً عن ملجأٍ ما في خبايا عقله.

غادر القسّ المنزل في اليوم التالي لوفاة زوجته. تتبعتُه بصمت خشية أن يسارع تحت وطأة حالته المزرية لرمي نفسه من أعلى الجرف. لكنه نَاوَأ توقعاتي، وسار متّجهاً صوب الأرض البور، عابراً بئر مومبليون حيث ينتظره صديقه السيد هولبروك – قسيس هاثرسيج. لا أزال أجهل حتى اللّحظة كيفية ترتيبهما للّقاء. أملى السيد مومبليون آخر أخباره عن سنة الطاعون، مستهلّاً الطلب بإعلام الإيرل عن الاندثار المؤكد للوباء، متوسّلاً بإعادة فتح الطرق المؤدية إلى القرية. حمّله بعد ذلك خبر وفاة إلينور كي يوصله إلى والدها، ثم عاد إلى منزله ولم يخرج منذ ذلك الحين.

في صباح اليوم التالي وبعد شروق الشمس مباشرةً، سارعتُ في الوصول إلى منزل القسيس للبدء بمهماتي قبل استيقاظه، فأفوّت عليه وحشة الصمت المطبق على المنزل الضخم. لكنني لمحته واقفاً على رصيف الحديقة إلى جوار البقعة المزهرة التي كرّستها إلينور لجمع باقتها اليومية. لم أحظَ بأدنى فكرة عن المدة التي قضاها هناك، حتى صعدتُ إلى غرفته مع ملاءاتٍ جديدة، فوجدت السرير موضّباً كحاله منذ اللّيلة الفائتة.

لم يحرك ساكناً حين ارتقيتُ الدرب الصاعد إليه، لم يرفع عينيه ولم يردّ التحية. بالكاد أمكنني تجاوزه فوقفت بجواره محدّقةً إلى الأغصان المحمّلة بورود أواخر الصيف التي تسلّقت مشرقةً عبر الطوب القديم لجدار الحديقة.

«لطالما أحبّتْ هذه الورود تحديداً» همستُ: «بتلاتٌ فاتحة عاجية اللّون مع مسحة وهجٍ وردي... كم تأملتُ الشبه الذي يجمعها بإلينور». التفتَ

بحدّةٍ مع تلفّظي باسمها، ثم رفع يده نحو وجهي بسرعةٍ كبيرة... جفلتُ بغريزة طفلةٍ تعرّضتْ للضرب كثيراً. لم يكن بالطبع قاصداً ضربي، بل إسكاتي بأصابع حامت بالقرب من شفتيّ.

«لا تتكلمي أتوسّل إليك» قال بنبرةٍ مهتاجةٍ كالصرير، ثمّ استدار وسار بخطى ثابتة نحو المنزل، لأبقى وحيدةً عند جانب الطريق، مرتبكةً بفعل تصرفي الطائش.

لعلّ الاهتمام بحزن السيد مومبليون أكثر ما وهبني الوسيلة لإدارة حزني. أما المشي اليومي في دروبٍ وُشمت بخطوات إلينور، فساهم في تأديب أفكاري وترتيبها؛ في حين أتى التكهّن بما كانت ستفعله أو تقوله كلّ ساعة بممارسةٍ جلبت قدراً عظيماً من السلام العقلي والحرية الذهنية من عبء الأفكار. فكّرتُ بأنني لطالما تمكّنتُ من محاكاة إلينور بكلّ تفصيلٍ من أيّامي... لا بدّ أنني سأنجو من التأمل بحالتي الخاصة، أو بمستقبلي الكئيب.

حضرتُ لخدمته في اليوم التالي، لكنه لم يكن في غرفته. بحثت عنه في المكتب والدار والإسطبل دون جدوى. أملتُ أنه أخرج الحصان في رحلة تدريبٍ صباحية، لكن أنتيروس لا يزال حبيس حظيرته، متبختراً متذمّراً من أسره غير المعتاد؛ ثم أعلمني صبي الإسطبل أن لا أثر للقسيس منذ أيّام.

لم أعثر عليه حتى حلول منتصف اللّيل. رأيته هذه المرّة مسمراً في غرفة نوم إلينور، ممعناً النظر حيث كانت ترخي رأسها، محدّقاً إلى ملامح ضيفه الراقد. لم يستدر أو يتحرك على وقع أقدامي، لكنني لمحتُ حبات عرقٍ تتقطّر بكثافةٍ فوق جبينه، بينما وشى ارتجاف قدميه بضنك الوقوف الطويل. لم أنبس ببنت شفة، بل اقتربت بهدوء... وصلتُ إلى كوعه، وبأقلّ ضغطٍ ممكن وجّهته بعيداً عن السرير قاصدةً غرفته. لم يبذل جهداً لمقاومتي، بل سمح لي بقيادته بصمتٍ تامّ. تنفّس الصعداء حين جلس على كرسيه، بينما سارعتُ إلى جلب كوزٍ من الماء الساخن كي أغسل وجهه. استحضر فرك الشعيرات الخشنة لذقن القسيس ذكرياتٍ مفاجئةً مريرة قضيتها مع سام فريث... لاحتْ أمامي لحيته الطويلة الكثّة بعد غيابٍ مديدٍ في باطن الأرض. تذكّرتُ لحظات ممازحته والإشاحة بوجهي عن قبلاته إلّا إن سمح لي بحلاقة ذقنه بشفرتي المشحوذة.

أطلق السيد مومبليون لحيته منذ وفاة زوجته. سألته أن أقوم بحلاقة ذقنه بدلاً عنه، فأغلق عينيه معتنقاً السكوت مزمعاً الرضا. أحضرتُ عدّة الحلاقة، وتأهّبتُ للبدء بالعمل. لا يحاكي وجه القسيس وجه زوجي سام الخاوي التعابير كأرضٍ بلا زرع، فبشرة القسيس متموجةٌ بين تجاويف وأخاديد، أما ملامحه فمنسجّاةٌ بخطوطٍ تعبيرية اغرورقت بالإرهاق والحزن. وقفتُ خلف كرسيه وانحنيت فوقه، ثم جلتُ برغوة الصابون اللّزج فوق ذقنه بأطراف أصابعي برفق. مسحت يدي ثمّ زلقت النصل بعنايةٍ مسندةً أصابع يدي اليسرى على خده لأشدّ الجلد. دنا وجهي بضع بوصاتٍ من وجهه... بعدها وعلى نحوٍ مفاجئ، تحرّرت خصلة شعرٍ طويلة من غطاء رأسي، انسدلتْ إلى الأسفل ومسّت عنقه بخفة ما أجفله، فسمّر حدقتيه بمقلتيّ. تراجعتُ إلى الخلف من غمرة الارتباك، لتهوي الشفرة من يدي ويصدح رنين ارتطامها بالوعاء المعدني؛ ثمّ فطنتُ بغتةً للسعاتٍ حارة وخزت خديّ منذرةً بعجزيَ عن متابعة ما بدأتُه، فناولته الشفرة وجلبتُ مرآةً، لعلّه يتولّى المهمة بنفسه. استأذنتُ إثر ذلك لمغادرة المكان بحجّة تحضير طبقٍ من الحساء. لقد تطلّب حمل الطعام إليه بعض الوقت ريثما تمكّنتُ من استعادة رباطة جأشي.

توقّف السيد مومبليون عن التنقّل في المنزل بعد ذلك الصباح، وغدا لا يبرح غرفته طوال النهار والليل. فعجّلتُ بدعوة السيد ستانلي لزيارته على أمل مواساته والتخفيف من شجنه خلال الأسبوع التالي للحادثة المفجعة؛ لكنّ الرجل العجوز غادر غرفة القسيس باهتياجٍ شديد، وبدا حين أحضرت قلنسوته وكأنه يتشاجر مع نفسه. التفتَ نحوي أخيراً، ثم بدأ باستجوابي بتردّد عن حالة القسيس العقلية.

تسبب سؤاله بتيهٍ لا أحتمله، أما السبب فلا يتعلق بنظرتي السابقة عن نفسي أو عن آرائي العديمة الجدوى... المسألة الآن متعلقةٌ برفضي لخيانة السلوكيات الخاصة بالسيد مومبليون، رغم معرفتي بحسن النية التي يضمرها السيد ستانلي.

«أنا متأكدةٌ من إخفاقي في الحكم يا سيدي».

تململ الرجل العجوز، وتمتم قاصداً محادثة نفسه أكثر من مخاطبتي:

«أعتقد أن الحزن قد ذهب بعقله، لقد مسّه الخبل... نعم، لا أظنّ أنه فهم أيّ عبارةٍ نطقتها أمامه؛ فلو فعل لمَا ضحك حين سألتُه أن يتقبل مشيئة الرب!».

لا بدّ أن السيد ستانلي قلقٌ للغاية، إذ عاد في اليوم التالي وفي اليوم الذي تلاه، لكن السيد مومبليون نأى بشدّةٍ عن استقباله. حين صعدت لإعلام القسيس بمجيئه للمرّة الثالثة، حفر الانزعاج خطوطاً عميقةً حول فمه، ثم قام عن كرسيه وتنقّل بخطواتٍ واسعة ذهاباً وإياباً.

«أودّ أن تسلمي رسالةً إلى السيد ستانلي، من فضلك يا آنا... أملي عليه التالي إن استطعتِ:

«Falsus in Uno, Falsus in Omnibus» [1]

كرّرتُ العبارة اللّاتينية بيني وبين نفسي، فتلمّستُ المعنى عميقاً في قلبي قبل أن يتمكن لساني من إجادة التلفّظ به، ثم رددتُ بصوتٍ عالٍ: «*الزور في أمرٍ زورٌ في كلّ أمر*».

التفت السيد مومبليون على عجالةٍ رافعاً حاجبيه، وسألني: «كيف أمكنك معرفة ذلك؟».

«من بعد إذنك يا سيدي، فقد حفظتُ بضع مفرداتٍ لاتينية، القليل منها خلال الأبحاث العديدة التي أجريناها العام الماضي... فالكتب الطبيّة -كما تعرف- كُتب أغلبها باللّغة اللّاتينية، أنا... والسيدة...».

أوقفني حينها عن متابعة الكلام، لم يشأ أن أتلفّظ باسمها.

«فهمت، فهمت. يمكنكِ في هذه الحال إيصال الرسالة للسيد ستانلي والتوّسل إليه بأن يتلطّف بعدم المجيء أو محاولة مقابلتي بعد الآن».

إن معرفتي لمعاني الكلمات أمر والقبض على مقصدها أمرٌ آخر. لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا أراد السيد مومبليون نقله إلى الرجل العجوز؛ لكن تجهّم وجه السيد ستانلي أثناء تسلّمه الرسالة أوضح المبتغى. غادر القسّ من فوره، ولم يعد أبداً.

---

1 «الزور في أمر واحد زورٌ في كلّ أمر»: مبدأ قانونيٌّ روماني يشير إلى أن الشاهد الذي يشهد زوراً على نحوٍ متعمّد لمرّةٍ واحدة، فإن أيّ شهادةٍ يدلي بها فيما بعد تفقد موثوقيتها.

الكثير من الأعمال أتحيّن إنجازها خارج ساعات خدمتي في منزل السيد مومبليون، أيسرها رعاية المواشي. إذ لا يزال القرويون بأمسّ الحاجة لأدويةٍ مقويّة وعلاجاتٍ بسيطة تتطلّب عنايةً يومية بحديقة غاودي، لذلك تراني أسارع في كلّ لحظةٍ فائضة لجزّ الأعشاب الصيفية، وحزمها وتعليقها حتى تجفّ. تساءلتُ إن اختارني القدر لأكون التالية في سلسلةٍ طويلةٍ من نساءٍ آثرن الاهتمام بالنباتات ومنافعها، ممن أتت إنيس على ذكرهن ذات مرّة! أرهقني التفكير في الأمر فانتزعته من عقلي، خاصةً بعد أن فقدت حديقة غاودي ألقها كمحطةٍ روحيّةٍ للظفر بالسلام. ذكرياتٌ موجعةٌ تحوم في الأنحاء، تنبلجُ بطيف إلينور الحائرة بحفنة أعشابٍ غريبة، متلفّتةً بملامح الاستفسار... بيدي ميم العجوز الماهرتين تغزلان الجدائل لحزم باقات الأعشاب الغضّة... وبقامة إنيس الفاتنة التي أوشكت أن تمسي أقرب صديقاتي... ذكرياتٌ ليست بالسيئة لولا أنها تزيح الستار عن لحظاتٍ أشدّ إيلاماً: غرغرة ميم وحشرجتها أثناء لحظاتها الأخيرة، عويل القتلة المخمورين وهم يسحلون إنيس من حبلٍ معلّقٍ بعنقها، جثمان إلينور الشاحب البارد الممدّد بين يديّ المرتعشتين. ينبغي ألّا تلوّث مشاهد الموت عقل المعالج، لكن في الواقع، لا يمكن لبعض الذكريات أن تُنتزع بسهولة كاقتلاع الأعشاب الضارة، مهما تعاظمت رغبة المرء بفعل ذلك. حتى القرية لا تزال تترنح من هول الفاجعة التي ألمّت بساكنيها. إذ بالرغم من مسارعة البعض إلى هجر بيوتهم مع فتح المعابر منها وإليها، لكن معظم الأهالي لم يبدوا أيّ مبالاةٍ بالحياة المتّقدة خارجاً، بل آثروا المكوث في بيوتهم أو التجوال لإنجاز مهماتهم، متهادين بملامحَ من السأم والأسى. أما أهالي البلدات المجاورة، فبالكاد حظي أحدهم بالشجاعة للقيام برحلةٍ معاكسةٍ إلينا. مع ذلك وبحلول نهاية الصيف، غامر بعض الأشخاص من أقرباء الموتى بالقدوم والمطالبة بحقّهم بالميراث؛ لكن الخوف من الطاعون المتربّص داخل قريتنا ما انفك يشكّل قلقاً عظيماً لدى معظم القرويين.

كان السيد هولبروك من هاثرسيج أحد أوائل القادمين. رحّبتُ به بسرور، آملةً أن يعمل حضور صديقٍ قديم للسيد مومبليون على التخفيف من كآبته؛ لكن القسيس رفض رؤيته مطالباً بإخراجه من المنزل على الفور، مفضّلاً

قضاء أيّامه جالساً فوق كرسيه، إلّا لبضع خطواتٍ سريعة فوق الأرضية الخشبية. لقد تحوّلتْ أسابيع حزنه إلى أشهر إلى أن تبدّد الصيف أخيراً على عتبات الخريف.

بحثتُ طوال أسابيع عن طرائق متمايزة لإيقاظه. حملتُ قصاصات أخبارٍ سارة... عن مراسيم زواج جارتي الأرملة ماري هادفيلد من صانع البراميل المحبوب في ستوني ميدلتون... عن صداقةٍ مزدهرة بين ابنة الكويكر الصغيرة المرحة ماري ويكفورد مع جين مارتن المتجهّمة المكروبة المحطمة، تآخٍ ساهم في شفاء روحيهما. لكنها محاولاتٌ باءت جميعها بالفشل، فلم تمسّه الأخبار بأيّ مُهجةٍ على الإطلاق.

رجوته أن يتفكّر في حصانه حبيس الإسطبل، ولزوم إخراج المسكين للفضاء الرحب. حاولتُ إيقاد التزامه بأشخاصٍ بائسين يترقّبون كلمةً منه أو مشورةً أو صلاة. أشخاص لم يقم أيٌّ منهم في الواقع، بطلب مقابلته إلّا فيما ندر. اعتقدتُ بدايةً أن تمنُّع أهل البلدة عن مشورته ليس سوى تحفّظٍ طبيعي ناجمٍ عن تبجيلٍ لمعاناته العظيمة؛ لكنني سرعان ما أدركتُ فقدانه لمحبة أهالي القرية بفعل قراراته المُرهقة طوال أشهر المحنة الطويلة. البعضُ حمّله مسؤولية ما تكبدوه من خسائر فادحة، فيما وسمه آخرون برمزِ مرارةِ وظليمِ أيّامهم. الإجحاف بحقّه آلمني بشدّة، لكنه أزكاني بحنانٍ أكبر أثناء مثابرتي اليائسة لإخراجه من ظلمته. لا بدّ أنّ ما يكنّه القرويون من استياءٍ يزيده خيبةً ويأساً.

الإحباط على الدوام ما قابل مواظبتي الحثيثة لبثّ تفاؤلٍ في قلبه. محاولاتٌ واجهها بلامبالاة المغلوب على أمره، وذلك بغضّ النظر عمّا قلته أو طلبته بلطفٍ أو بحزم؛ كأنه يُبلغني بعجزه عن القيام أو الإحساس بأيّ شيء. أما القوة الهائلة التي أحاطت بشخصيته وعقله فقد آثرتِ الانحسار بثبات. مرّ الزمن على هذا المنوال، كلُّ يومٍ خاوٍ وهادئ يتبع سالفه، حتى أيقنتُ أخيراً أن الوقت الذي أقضيه هنا ليس سوى التزام مديد برغبات إلينور إلى أن يهدر السيد مومبليون كامل حياته داخل غرفته، فأكون الشاهدة الوحيدة على نهايته.

عادت عائلة برادفورد إلى القرية مع بداية موسم قطاف التفاح. تلوحُ مواجهتي لابنتهم إليزابيث أمام ناظريّ، أتمعنُ بثورة الغضب التي انهالت فوق رأسها حين طلبتْ من القسيس عيادة والدتها المريضة... أتفكر بهياجه ذاته حين هرب أفراد العائلة متخلين عن واجباتهم الإنسانية وخدمهم المخلصين. أسترجعُ محاولتي الفاشلة لجلب الراحة لروحه واللّحظة حين قبض على ذراعي ليردعني عن تلقف الكتاب المقدّس كي يهوي إلى الأرض.

لم أستطع منع نفسي من الهرولة بعيداً بعد إغلاق باب غرفته. نظرتُ إلى ساعدي، فلمحتُ علامةً حمراء متوهّجة صبغتها قبضة كفه، فركتها بحنقٍ أغرقه الكثير من التيه. غادرتُ بيت القسيس عبر باب المطبخ، وتوجّهت دون تفكير نحو الإسطبل.

كان السيد موميليون على وشك إنهاء الترنّم بكلمات هذا المزمور الجميل، قبل أن يسمح للكتاب المقدّس بالسقوط:

«امْرَأَتُكَ مِثْلُ كَرْمَةٍ مُثْمِرَةٍ فِي جَوَانِبِ بَيْتِكَ.

بَنُوكَ مِثْلُ غُرُوسِ الزَّيْتُونِ حَوْلَ مَائِدَتِكَ...».

لكن...

امرأته ضُربتْ عنقها أمام ناظريه... أُتلِفت غروس الزيتون حول مائدتي!

لماذا... لماذا؟!

هدر سؤاله غير المنطوق في مسامعي... لماذا؟... أسئلةٌ كثيرة ما انفكّت تضجّ داخل عقلي المضطرب خلال ليالي سهادي الطويلة. لا بدّ أنه يطرح هذه التساؤلات بدوره:

«دعيها تناشد الرّبّ طلباً للمغفرة، مع أنني أخشى أنها لن تلقَ منه أذناً صاغية، كما لم يفعل مع الكثيرين منّا في هذه القرية». أتراه موقنٌ بأنّ تضحياتنا وآلامنا وبؤسنا ذهبت كلُّها أدراج الرياح؟!

آهٍ كم تنتابني رغبةٌ بالاعتزال! لكنني أعجز عن تحمّل ثقل حيرتي وحدي. مضيتُ نحو الإسطبل، فتحت الباب وانزلقت إلى الداخل، ثمّ أسندتُ ظهري إلى الحائط محاولةً ربط جأشي قدر الإمكان. شبّ أنتيروس

لمرّة ثم توقّف ناخراً صاهلاً محدّقاً بعينٍ جانبيةٍ بنيّةٍ واسعة. بقينا على تلك الحال لعدة دقائق، حتى تيقّنتُ أنّه لا يضمر الأذى، تسلّلتُ ببطء فوق القشّ المتناثر، ثم همستُ:

«حسناً يا أنتيروس، جئتُ لأخبركَ أن نهاية فارسك القويّ وشيكة... لقد فقد عقله بالكامل».

هذه هي الحقيقة، لا بدّ أنه جنّ، فلا تفسير آخر لأفعاله.

بدا الحصان وكأنه عالِمٌ بكربي، فتوقّف عن تبختره المضطرب رافعاً حافره ضارباً الأرض بين فينةٍ وأخرى كرجلٍ جزِعٍ نافد الصبر يطرق الطاولة بأصابعَ قلقة:

«لا جدوى من انتظاره يا صديقي، يجب علينا تقبّل استسلامه للعتمة القابع فيها. أدري... أعلمُ أنه من الصعب تصديق ما يحدث، خاصةً بعد غزارة البأس الذي أظهره لنا». سحبتُ من جيبي مخطوطة مسودة الرسالة الموجّهة إلى والد إلينور، والتي كتبها السيد مومبليون بعد مقتلها. كانت آخر رسالةٍ يمليها... الخطاب الختامي قبل فتح الطرق. تبعته يومها لسببين: أولهما خشيتي عليه، وثانيهما ذعري من وحشة المكوث وحيدةً مع مرارتي. كم واجه صوته الجهور المشقة أثناء استدعاء فحوى الرسالة وإطلاقها، حتى خبتْ نبرته في النهاية، فصدحت متقطّعة كأنينِ فتًى محزون. لوّح مودّعاً السيد هولبروك، واستدار متوجّهاً نحو المنزل، مغضّناً الورقة ليسقطها بعد بضع خطواتٍ من يده. ركضتُ والتقطتها عن الأرض، واحتفظتُ بها فيما لو أراد تدوين ما كتبه فيها في وقتٍ لاحق.

أمضى ذلك النهار بمزاجٍ كدر... من يصمد في مواجهة الفقد؟ إلّا أنّ يقينه بان جليّاً في الرسالة التي حاولتُ قراءتها مرّةً ثانيةً في ضوء الإسطبل الخافت، طالعتُ ما كتب لطمأنة نفسي، محاولةً نبش الكلمات المشطوبة بصعوبةٍ كبيرة:

ومن منّا لا يتوق إلى الإسراع لنوال الفرح الأبدي لنذهب إلى دعوة المسيح لنا مُتهلّلين بالخلاص الإلهي.

«... رحلتْ أغلى الغوالي إلى وطنها السماوي وبلغت راحتها الأبدية،

كُلّلت بتاج المجد وارتـدت حُلة الخلود، فأشرقت كالشمس في قبة السماء... سيدي العزيز، اسمح لي أن أودِع قسيسك الفاني العظة هذه... لك ولعائلتك: لا يمكن العثور على سعادةٍ أو راحةٍ مديدة في وادي الدموع إلّا عبر الخوض في حياةٍ ورعة. لا تزال الصلاة ترسو بالحكمة القائلة: لا تقم بفعلٍ لا تجرؤ على التماس بركته من الرّب، لأن نجاحه مرهون بـ...»...

«ألتمس عفوك يا سيدي عن أسلوب الرسالة الفجّ، فلو أصغيتَ إلى الضوضاء المدوية في رأسي لما تعجّبتَ مما قلته. رغم كلّ شيء يا سيدي العزيز، فإنه من دواعي سروري أن أعلن أنني خادمك الأكثر إطاعةً وحبّاً وامتناناً».

حسناً! فكّرتُ أن دماغه لم يكن بحجم الضياع الذي بعثر أفكاره مؤخّراً. أشكُّ في أنه سيجرؤ على طلب مباركة الرّبّ لطرده الجلف لإليزابيث برادفورد، أو على تدنيسه الكتاب المقدّس. لو أنّ إلينور على قيد الحياة لأشارت بما عليّ فعله؛ لكن لو كانت هنا لتفادينا ما آلت إليها حاله. جثوتُ في الحظيرة أتنشّق رائحة الحصان الغنية وأريج القشّ. نخر أنتيروس ثم أسقط رأسه الضخم وصولاً إلى رقبتي ثم استكان. رفعتُ يدي ببطء وجلتُ بها أسفل أنفه الطويل، ثم خاطبته بالقول: «ها نحن أحياء، علينا أن ننهل من الحياة معاً قدر الإمكان».

لم يجفل من لمستي، بل دفع بيدي كما لو أنه يطلب مزيداً من المداعبات، ثم رفع رأسه في محاولةٍ لتنسّم عبير الهواء المتسلّل من الخارج. لو افترضنا أن للحيوان أيّ ملامح تعبّر عن الحزن، فلا بدّ أن نظرة أنتيروس آنذاك وشتْ بجزعٍ عميق. «إذن دعنا نذهب» همستُ: «لنغدو ولنعش طالما لا خيار آخر أمامنا». انتصبتُ بجسدي ثم انتزعت اللّجام من خطافه بهدوء. لم يتراجع عندما رآه، بل حرّك أذنيه كما لو أنه يترقّب الخطوة التالية.

أخفض رأسه فزلقتُ اللّجام بلطفٍ قدر استطاعتي. رفعتُ عارضة باب الإسطبل بقبضةٍ تشدّ على الحبل، عالمةً بعجزي عن السيطرة إن اختار الجموح. حرّك رأسه حين أضرم منخريه عبيرُ العشب الذي يتوق إليه منذ فترةٍ طويلة، لكنه لم يسعَ للتحرّر من يدي. وضعت وجهي على رقبته وهمهمتُ بنبرةٍ خفيضة: «أحسنت... اثبُتْ لدقيقةٍ أخرى، وبعدها سنخرج».

في الساحة امتطيت ظهر أنتيروس بدون سرج، مثلما كنتُ أفعل في يفاعتي، مع فارق أن الخيول التي صادف أن امتطيتها كانت إما مسنّةً، أو مصابةً بالورم العرقوبي[1]. أتاني الشعور بامتطاء ظهر أنتيروس العاري بمفاجأةٍ غريبة، خاصةً حين تجمّعتْ عضلاته القوية تحتي كما لو أنه خيل سباق. كان بإمكانه أن يرميني بعيداً في ثانيةٍ لو أراد، وقد تهيأتُ لحدثٍ من هذا القبيل، فأحكمتُ التشبّث قدر الإمكان. وثب قليلاً حين شعر بوزني، ثم سكن منتظراً الإشارة. قرقرتُ بلساني، فانطلق بسلاسةٍ ثم قفز فوق الجدار برشاقة هِر، حتى إنني بالكاد شعرت بالهبوط.

صوب الأراضي البور وجّهتُه، وأطلقتُ لدربه العنان. عصفتِ الرياح بغطاء رأسي محرّرةً شعري مرفرفةً بخصلاته كراياتٍ خفاقةٍ على طول الطريق. ضربت حوافر أنتيروس الأرض، فخفق هديرها في شراييني: «ها نحن نحيا... نحيا... نحيا». أصوات العدْوِ تصدح... نبضات قلبي تشدو: لا أزال شابة حيّة... سأكمل مشواري حتى ألقى سرّ الحياة الدفين. منذ أن فاح العبق الأول لعشب الخلنج المهروس تحت حوافر أنتيروس ومع وخز النسمات الخفيف لوجهي، أدركتُ في رحلتي الصباحية تلك أن أكثر ما حطّم مايكل مومبليون مشاركتنا المحنة ذاتها، لذا وجب عليّ التعافي من شجني والتحلّي بالقوة.

قادني أنتيروس عبر الدروب إلى مرجٍ واسعٍ سرعان ما تعرّفت عليه، إنه الحقل الحجري الحدودي... الطريق الذي اعتدنا السير فوقه على مدار سنة الطاعون. غصّ بأعشابٍ احتشدت فوق حجارته، فحجبتها بالكامل. قلّلتُ من سرعة أنتيروس حتى خبّ، ثم أمشيته الهوينى على طول النتوء الجبلي وصولاً إلى الحجر الموسوم بتجويفه المحفور. انزلقتُ عن ظهر الحصان الذي انحنى ليرعى الكلأ. ركعتُ وانتزعتُ العشب عن حوافّ الحجر. جلتُ بيدي فوقه، ثم بخدي. لعلّ أحدهم في فترةٍ لاحقة وبعد سنواتٍ من

1- الورم العرقوبي: مرضٌ شائع يصيب عراقيب الخيل، وهو نموٌّ عظمي يكون عادةً في الجزء الداخلي السفلي للمفصل، وينتج عن نقصٍ في معادن معينة في العظام. يمكن مداواته بتصحيح تركيب حدوة الحصان لتخفيف العرج، ووقاية العظام من تزايد النموّ العرقوبي.

الآن، سيجلس غافلاً التماساً للراحة، سيطوف بأصابعه داخل التجويف دون التمعّن بأسباب جذع الحجر على هذا النحو أو بالقربان العظيم المقدّم قربه. رفعتُ مقلتيّ ناظرةً إلى أسفل المنحدر المؤدي إلى قرية ستوني ميدلتون، ليتأجج توقٌ عتيقٌ في طلبها... لا يمين أحنثه إن فعلتُ الآن، ولا خطر أحمله بين جوانحي. عقدتُ العزم ثم امتطيتُ أنتيروس، فعدا عبر المنحدر مخفّفاً من سرعته بين جموع أهالي القرية الصالحين الذين فعلوا ما بوسعهم لأجلنا، مسابقاً الرياح صوب الحقول المجاورة. مع بلوغ الشمس ذروة السماء أدرتُ لجام أنتيروس لجهة ارتقاء المنحدر العائد إلى قريتنا... خبّ في منتصف الدرب، ليعاود الهرولة برشاقةٍ مدهشة حتى وصولنا إلى ساحة منزل القسيس متبختراً بخطواتٍ أكثر اتزاناً كما لو أنه يجرّ عربةً ملكية.

اندفع مايكل مومبليون خارج الباب بخطواتٍ فجّة مرتدياً قميصه الطويل الأكمام، بينما تعلو وجهه ملامح الغضب والريبة. ركض صوبنا ثم أمسك لجام الحصان. تفرّستْ عيناه الرماديتان جسدي بالكامل، ثم أدركتُ فجأةً أن مظهري بالكاد يبدو محتشماً، فالمرأة التي تمتطي حصانه جاثمةٌ منفرجة الساقين بتنورةٍ منحسرةٍ حتى الجيوب، وشعرٍ منسدلٍ إلى الخصر قد جردته الأراضي البور من غطائه. تدفّق الدم في خديّ وتصبب جبيني بالعرق.

«أنتِ...» هدر صدى صوته عبر أحجار الساحة: «هل فقدتِ صوابك؟».

بادلته التحديق من أعلى ظهر أنتيروس مواجهةً نظرته الحادة لأول مرّةٍ في حياتي:

«وأنتَ... ألم تفعل؟» رددتُ بعناد.

ماج أنتيروس برأسه كما لو أنه يحاول التخلّص من يد مايكل مومبليون القابضة على لجامه. حدّق القسيس إلى وجهي بعينين خاويتين هذه المرّة كحجرين من الأردواز [1]؛ ثم أشاح ببصره بعيداً على نحوٍ مفاجئ مرخياً اللّجام رافعاً يديه إلى وجهه، ضاغطاً بباطن كفيه بشدّةٍ فوق عينيه لدرجة أني اعتقدتُ أنه شارف على إيذائهما.

1- حجر الأردواز أو السجيل slates»: صخور مرقّقة كأوراق الشجر، رمادية اللون في كثيرٍ من الأحيان.

«نعم» نطق أخيراً: «نعم بالطبع، أعتقد أن حواسي قد تخلّت عني تماماً»، ثم هوى على ركبتيه فوق الأرض القذرة. أُقسم أنني رأيت انهياره بعيني إلينور، وعاينتُ مظهره البائس بقلبها المتصدّع. سارعتُ بالانزلاق عن الحصان قبل أن أدرك من أكون بالفعل، ثم أخذته بين ذراعي كما كانت ستفعل زوجته بكلّ تأكيد. دفن رأسه في كتفي واحتضنته بشدّة كما يتشبّث المرء بشخصٍ على وشك السقوط من أعلى المرتفع.

لم أحتضن رجلاً منذ أكثر من عامين، تلمّستُ عضلات ظهره الصلبة عبر القماش الرقيق للقميص، فراودني إحساسٌ حادٌّ بالرغبة حرّر تنهيدةً عميقة من شفتي؛ تراجع إلى الخلف ونظر نحوي... جالتْ يده فوق تفاصيل وجهي، ثم رفع أصابعه إلى شعري البربري معلّقاً إيّاها بتشابك خصلاته. شدّني إليه ثم قبض على فمي بشفتيه.

كنا على تلك الحال حين عثر علينا فتى الإسطبل الذي ظهر فجأةً بعينين مشدوهتين بعد أن جثم في الغرفة الجانبية لبعض الوقت مرتعداً من تأنيب القسّ على جولتي البرية. قفز كلانا مبتعداً محاولاً الاستظلال بجسد أنتيروس الضخم؛ لكن الفتى رأى ما قد رآه.

حاولت بطريقةٍ ما تشذيب صوتي بما يكفي للتحدّث:

«ها أنت إذن يا سيد ريتشارد. يرجى الاهتمام بأنتيروس المتعطّش للمياه، وهو هادئٌ بما يكفي ليسمح بتنظيفه بعد كلّ هذا الوقت. احرص على فعل ذلك بعناية».

لا يمكنني تفسير قدرتي في تلك اللّحظة على كبح الارتعاش في صوتي حتى نهاية ما أردت قوله. ما انفكّت يداي ترتجفان حين سلمته مقاليد الأمور وقدماي تتعثران مع مسارعتي إلى المطبخ دون أيّ جرأةٍ للنظر خلفي. فُتح الباب وأُغلق، تلاه صوت خطواتٍ ارتقت الدرج. ضغطتُ بيدي على صدغي محاولةً تهدئة أنفاسي. جمعت شعري الجامح وربطته إلى الخلف قدر استطاعتي. كنت أمعن النظر في السطح اللّامع للمقلاةِ المعلّقة، شاردةً بنوع العمل الذي عليَّ البدء فيه حين رأيت انعكاس ظلّه المقترب مني.

«آنا».

لم أنتبه لوقع خطواته المتجهة نزولاً إلى الطابق السفلي، التفتُّ لأراه واقفاً عند باب المطبخ. تقدّمتُ نحوه، فسارع في مدّ يده وقبض على معصمي بلطف، وقد جعل بيننا مسافةً أطول هذه المرّة. تحدّث بهدوء حتى إنني بالكاد سمعته.

«لا أعرف كيف أفسّر فعلتي في الساحة، لكني أعتذر عمّا قمت به».

«لا!» قاطعته. ترك أحد معصميّ ورفع إصبعاً إلى شفتي.

«كما تعلمين فأنا لم أعد كما كنت، ولستُ بحالٍ أفضل من غيري. لقد شهدتِ كيف أمضيتُ الأشهر الأخيرة الفائتة... لا أعرف كيف أشرح ذلك، لكن ما مرّ عليّ يفوق الوصف، كما لو أن زوبعةً مظلمةً عصفت بذهني، فحجبت قدرتي على التبصّر. في الواقع لا يمكنني التفكير بجلاء، حتى إنني أعجز عن إدراك ما حولي خلال معظم الأوقات. لا أشعر إلّا بثقل في قلبي، بخوفٍ مبهمٍ يصير وجعاً، ثم يتحول إلى ذعرٍ أشدّ إيلاماً».

بالكاد سمعت كلماته. أعلم أنه لم يُرد ما قمتُ به بعد ذلك، لكن الرغبة تنامت داخلي لدرجة أني لم أكترث ولم أتوانَ عمّا تقتُ إلى فعله على الدوام. رفعتُ يدي إلى يده الملتصقة بشفتي، ثم مسستُ طرف إصبعه بلساني برفقٍ فتأوّه. كنت أمصّ إصبعه بإفراط حين سحبني بيده لنهوي معاً. لا أعتقد أن أيّ قوةٍ قادرةٍ على فكّ التصاق جسدينا في تلك اللّحظات. فوق الأرضية الحجرية العارية أشبعنا شهواتنا ببربريةٍ وغزيرية؛ أما الألم الذي سببته البلاطات الخشنة خادشةً ظهري، فكان متكافئاً مع الوجع المديد لقلبي المنفطر. لا أذكر متى سارعنا بارتقاء الطابق العلوي، لنضطجع فوق السرير المعطّر بالخزامى، مستحضرين الرقة والهدوء هذه المرّة، والاهتمام الشديد بتفاصيلنا العطشى. هطل المطر وطرق النوافذ بهوادة. استرخينا قليلاً، ثم تحدّثنا بهدوء عن كلّ الأشياء التي أحببناها في حياتنا قبل ويلات السنة الفائتة... قبل سنة الموت الأسود التي حرصنا على تجاهل ذكرها.

في وقتٍ متأخّرٍ من بعد فترة الظهيرة، وبعد أن استسلم لغفوةٍ خفيفة، تسلّلتُ من السرير وارتديت ملابسي ثم مضيتُ لإطعام خرافي. توقّف

المطر وهسهست الرياح الخفيفة في مسامع الأعشاب الندية. كنتُ أذري التبن بالمذراة من مكدسه حين اقترب مني.

«اسمحي لي القيام بذلك» قال متناولاً المذراة من يدي، توقّف، وصل إلى ثوبي ونفض القشّ عنه معانقاً إيّاي بلطف. قام بتكديس التبن بحركةٍ متمرّسةٍ خبيرة. نقل الحمولة بعد ذلك إلى الحقلِ حيث ترعى الماشية في ظلّ أيكةٍ من أشجار الغبيراء، ثم قمنا بنثرها معاً. نظرتِ النعاج إلينا بوجوهها الجميلة الغافلة متابعةً مهمتها الجديّة بالقضم. بعثر مومبليون كتلةً من القشّ الكثيف، فتحرّر عبقٌ فجائيٌّ لبرسيمٍ أبيض. رفعها واستنشقها بعمق، فتألق بابتسامةٍ لم ترتسم على وجهه لأكثر من سنة.

«أتنسّم فصول الصيف التي مرّت في طفولتي» ثم أردف: «كان ينبغي أن أصير مزارعاً كما تعلمين. ربما سأغدو كذلك منذ الآن».

انتفض غصنٌ غارقٌ بالمطر بفعل هبوب رياحٍ مفاجئ، فكلّلنا بقطراته وببعض الأوراق المتأخرة اللّامعة. ارتجفتُ، فسارع بالوصول إلى ورقةٍ علقت بشعري، ضغطها على شفتيه وقبّلها. انحدرنا بعد ذلك إلى أسفل التل في الضوء الخافت للشمس الآيلة للغروب، ومع اقترابنا من الكوخ، أخذ يدي.

«آنا، هل يمكنني الاستلقاء في سريرك في هذه اللّيلة؟».

أومأتُ برأسي موافقة. دخلتُ بينما انحنى برأسه ليعبر ساكف الباب المنخفض. شرعتُ بإشعال النيران، لكنه أوقفني بقوله: «أنا المعنيّ بخدمتكِ اللّيلة»، ثمّ قادني إلى كرسيٍّ ولفّ شالاً حول كتفي بحنان، تماماً كما كنتُ أدثّره ببطانية طوال ليالي الشتاء الباردة. انحنى فوق الموقد، وحالما تأججت النيران ركع أمامي وقام بسحل حذائي وجوربيّ. تلمّس الجلد الشاحب لساقيّ بيده الضخمة. «قدماكِ باردتان» همس حاضناً إيّاهما براحتيه الفسيحتين، همّ برفع الغلاية عن الموقد، صب الماء الدافئ في حوض وبدأ بغسل قدميّ داعكاً باطنهما بضغطٍ من إبهاميه. أشعرتني الرقة التي لم أعتدها بعدم الارتياح في بادئ الأمر، فقدماي البغيضتان خشنتان ومتقرنتان جراء ارتداء الأحذية المتشققة والمشي الطويل. لكن مع مداعبته

لعقبيّ المتشققين، فكَّ التوتر تشابكاته داخلي فأسلمت نفسي للمساته الحنونة، مائلةً برأسي على الكرسي، مغلقةً عيني، مطلقةً عنان يدي لتجولان بين خصلات شعره المنسدلة. هدأتْ يديه بعد مضي وقتٍ طويل. فتحتُ عيني فرأيته يحدّق إليَّ. شدّني إلى الأسفل وأجلسني منفرجة الساقين على فخذيه. رفع تنورتي وأزاح ما تحتها ثم أدخله بلطفٍ وبطء. لففتُ ساقيّ حول ظهره القويّ واحتضنت وجهه بين يديّ، أما عيناي فتعلّقت بعينيه. لم يطرف لنا جفنٌ حتى بلوغنا لذروة النشوة.

أعادني إلى الكرسي ولم يسمح لي بالصعود لجلب الطعام. بحث داخل قدور الفخار، وتمكّن من جمع طبقٍ بسيطٍ من الجبن والتفاح مع كعكة الشوفان والمزر. التهمنا الطعام بأيدينا ومن الطبق ذاته. لا أنكر أنها ألذّ وجبةٍ تناولتها طوال حياتي. لم نتبادل إلّا القليل من الأحاديث التي تخلّلها هدوءٌ أنيسٌ يترقّب استعار ألسنة اللّهب... سكونٌ لا يشبه بأيّ حال من الأحوال الصمت الفارغ المعتاد اللّافظ لذكرياتي الموجعة. صعدنا بعد ذلك إلى سريري، واستلقينا لفترةٍ طويلة نحدّق بعضنا إلى بعض بأيدٍ متشابكة وخصلات شعرٍ متداخلةٍ فوق الوسادة. أحياناً وفي ساعات الدّجى الأخيرة كان يطيبُ لقبضتي الاستيلاء عليه بأناةٍ رويداً في البداية... برغبةٍ وشغفٍ لاحقاً قبل أن أجثو بجسدي بخفةٍ فوقه، فيقبض مومبليون على معصميّ متأوّهاً من شدّة اللّذة. القشّ بدوره أنّ داخل الفراش الرقيق، أما ألواح الأرضية القديمة فصدّحت بنبرةٍ متذمّرة. لم أعِ في آخر المطاف كيف غرقتُ في غياهب النوم بلا أحلامٍ حتى حلول الصباح.

عبقتِ الغرفة بفوحٍ عذبٍ للقشّ المبعثر من جوانب الوسادة المتمزقة، أما الضوء فانسكب عبر زجاج نافذة الباب العلوية، وانهمر غزيراً فوق قامته الطويلة الغافية. استندتُ على كوعي أرنو إليه، ثم تعقّبتُ أركان صدره الساطعة بأطراف أصابعي. استيقظ، لكنه لم يقم بأيّ حركة، راقبني بصمت بينما ارتسمت خطوط البهجة بعمقٍ حول عينيه. كنتُ أحدّق إلى يدي التي تجوب بشرته المتورّدة وعضلات صدره القويّة حين لاحت أصابع إلينور الرهيفة الشاحبة، وتساءلتُ: خشونة جسدي... أتراها مُنفّرة بالمقارنة مع جسدها الرقيق.

وصل إلى يدي ثم قبّلها. انتزعتها منه متأثّرةً بما جال في خاطري، فأفشيتُ عنه من غير تفكير. «عندما تنام معي» همستُ: «هل تفكّر بألينور؟ هل تضاجعها في ذاكرتك؟».

«لا» أجاب: «ليس لديَّ أيّ ذكرياتٍ من هذا النوع».

ظننت أنه نطق ما نطق من باب المجاملة، فأردفت: «لستَ بحاجةٍ لقول ذلك».

«لم أنطق بغير الحقيقة، فأنا لم أضاجع إلينور أبداً».

انتصبتُ إلى الأعلى ممعنةً النظر في وجهه. حدّقتُ إلى عينيه الرماديتين المتفحصتين جسدي كحجرين من زجاجٍ مدخّن. ارتبكتُ فالتقطتُ زاوية الملاءة لتغطية عريي. نبس عن ابتسامة ضئيلة، ارتفع بقامته نحوي ثم انتزع القماش مطلقاً أطراف أصابعه لتمسّ برفقٍ بشرتي العارية.

التقطتُ يده وأقصيتها بعيداً: «كيف تقول كلاماً كهذا؟... أنتما زوجان لثلاث سنواتٍ مضت، وقد أحببتما بعضكما بعضاً».

«نعم... أحببتُ إلينور» أجاب بهدوء: «ولهذا السبب لم أجامعها أبداً». تنهّد بصوتٍ عالٍ، ثم كشفتِ الحقيقة عن وجهها في ذهني: خلال الوقت الذي أمضيته بالقرب منهما، لم ألحظ أن أحدهما لمس الآخر ولو لمرّةٍ واحدة.

أسقطتُ يده ورفعت الملاءة لستر جسدي من جديد. لم يُبدِ أيّ ردّة فعل، بل استلقى بهدوءٍ فوق السرير بجسدٍ مرتخٍ كما لو كان يتحدّث عن أكثر الأشياء اعتيادية. لم ينظر نحوي، بل حدق إلى العوارض الخشبية المنخفضة. أتت نبرته لطيفةً صبورة بنغمةٍ موجّهةٍ لطفل، شارحةً ما استعصى فهمه.

«أرجو أن تستوعبي يا آنا أن احتياجات روح إلينور المكروبة كانت أعظم من متطلبات جسدها. لقد ارتكبت في صباها خطيئةً جسيمة وجب عليها التكفير عنها واقتضت مني مساعدتها، اقترفتْ ذنباً لا يمكنكِ الإلمام به».

«لكنني أعرفه» قاطعته: «لقد أخبرتني بما حدث».

«هل فعلتْ حقّاً؟» قال، ثم استدار لينظر إليّ لكن بحاجبين مقطّبين هذه المرّة وعينين مظلمتين. «يبدو أن هناك الكثير من الأسرار التي أجهلها والتي أعتقد أنه من غير الملائم مشاركتها معكِ».

فكّرت على نحوٍ خاطف أنه بالكاد في وضعٍ يسمح له بالتعليق على ملاءمة الصداقة التي تجمعني مع زوجته من عدمها، بينما يستلقي بجسده العاري فوق سريري؛ لكن ذهني أكثر اضطراباً من قدرتي على الردّ عليه.

«اعترفت لي إلينور بخطيئتها، لكنها تابت بلا أدنى شك».

«آنا... الفارق كبيرٌ بين التوبة والتكفير». جلس أخيراً بظهرٍ مُسنَدٍ إلى الحائط الخشبي الخشن قبالتي فوق السرير. طويت ساقي تحتي ولففت الملاءة بالكامل حول جسدي الذي بدأ بالارتعاش.

رفع يديه الضخمتين ومدّهما أمامه لتبدوا كطبقي الميزان.

«تسببت شهوة إلينور في وفاة طفلها قبل أن يبصر الحياة. كيف لها أن تكفّر عن سلبه حياته؟ يقول الكتاب المقدس: عينٌ بعين[1]؛ لكن في مثل هذه الحالة؟ ما الكفارة التي عليها تقديمها كي تعوّض فقدان روحٍ راحتْ ضحية سوء أفعالها؟ تسبّبت الشهوة بالخطيئة، لذا، رأيتُ أن الكفارة توجب حرمانها من إشباع شهواتها. فكرتُ أنني كلّما أوقدت حبّي في قلبها أكثر، أثقلُ كفارتها في الكفة المقابلة لكفة خطيئتها».

«لكن...» تلعثمتُ: «لكنني سمعتك عند فراش يعقوب ميريل، تعزّي ذلك الرجل المحتضر، وتخبره أن الرّبّ خلقنا شهوانيين، لذلك يتفهّمنا ويغفر لنا... وعندما قبضتَ على ألبيون سامويز يضاجع جين مارتن، قرّعت نفسك لسكب جلّ غضبك على تلك الفتاة!».

«آنا» قاطعني بنبرةٍ خفيضة وصبرٍ قارب على النفاد كأن الطفل لم يستوعب ما يقوله على نحوٍ صحيح.

«حين قلتُ ما قلته ليعقوب ميريل... كان من المعلوم موته بحلول الشفق؛ فما نفع الحديث عن التكفير في هذه الحال؟ أيُّ كفارةٍ يمكن لجسده المهترئ تقديمها؟ كانت إلينور العزيزة أكثر حظّاً حين رزقت بحياةٍ كافيةٍ للتكفير عن ذنبها؛ أما بالنسبة لجين مارتن فلو أنني أهتمّ لأمرها كما أفعل مع إلينور، لما تراجعتُ عن رأيي أبداً، بل عاقبتها وبشدّة... جسديّاً وفكريّاً، حتى تمام تطهيرها الروحي.

1- «كسْرٌ بكسْرٍ، وعيْنٌ بعيْنٍ، وسنٌّ بسنٍّ. كَمَا أَحْدَثَ عَيْباً فِي الإِنْسَانِ كَذلِكَ يُحْدَثُ فِيهِ» سفر اللاويين 24: 20.

ألا ترين؟... وجب عليَّ التأكد من تطهير روح إلينور، وإلّا خاطرتُ بفقدانها إلى الأبد».

«وماذا عنك؟» قلتُ بصوتٍ خفيضٍ مخنوق.

«أنا؟» قال ضاحكاً: «بالنسبة إليَّ، فقد أخذت الدرس عن البابوات... ألا تعلمين أن النساء مدخل الشيطان إلى الإنسان نفسه؟[1] هلاّ أخبرتك كيف يعلّم البابوات رهبانهم السبل لسيادة رغباتهم؟ إنهم يكبحون شهواتهم لأيّ امرأةٍ عبر توجيه أفكارهم إلى الإفرازات القذرة المتسرّبة من جسدها. لم أسمح لنفسي قطّ بالتطلّع نحو إلينور والتمتّع بوجهها الجميل أو تنسّم عبيرها العطر. لا! بل أكرهت نفسي على إقصاء النظر عن هذا المخلوق الجميل إلى ما ينضحه ويرشح منه وينزّ. ركّزت على الشمع المتلصق في أعماق أذنيها واللّزوجة المخضرة في أنفها وفضلاتها النتنة في وعاء التبرّز».

«هذا يكفي!» حاولتُ حجب مسامعي وقد راودني شعورٌ بالغثيان.

«*صحيحٌ أن جسده جَلود، لكنني أخشى أن إرادته الصلدة تفوقت عليه. قدرةٌ يمكنها دفعه للقيام بما لا يستطيع أيّ إنسانٍ عاديٍّ فعله. أدرك تماماً حسنات قوة عظيمةٍ كهذه يا آنا... ومساوئها. صدقيني، لقد شهدت هذا بأمّ عينيّ*» هذا ما أعلمتني إلينور به منذ عدة شهور. الآن عرفت ما الذي كان يدور في خلدها آنذاك.

أما زوجها الذي يركع أمامي على السرير والنور يشرقُ بتفاصيل جسده، فقد اكتسب صوته نبرة الواعظ أعلى المنبر بلحظة: «ألا تعلمين أنني كزوج أمثّل سلطة الرّبّ في ملكوت البيت؟[2] ألستُ أنا من طرد الفاسقة من عدن؟ حوّلت شهواتي إلى نارٍ مقدّسة! واكتويتُ برغباتي في سبيل الرّب!» أطلق

1- لخّص ترتوليان (160- 220 م) أحد قادة الفكر الأوروبي في القرون الأوروبية الوسطى النظرة للمرأة آنذاك بالقول: «إنها مدخل الشيطان إلى الإنسان نفسه، وإنها ناقضةٌ لقانون الله، مشوِّهةٌ لصورة الله»، ويقصد هنا الرجل.

2- «أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ، لأَنَّ الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضاً رَأْسُ الْكَنِيسَةِ، وهُوَ مُخَلِّصُ الْجَسَدِ. ولكِنْ كَمَا تَخْضَعُ الْكَنِيسَةُ لِلْمَسِيحِ، كَذلِكَ النِّسَاءُ لِرِجَالِهِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ» (أفسس 5: 22-24).

ضحكةً ساخرة شقّت سكون المكان لينهال معها فوق السرير. أغلق عينيه فيما تغضّنت ملامح وجهه كما لو أنه أصيب بنوبة ألم مفاجئة، همس بنبرةٍ خفيضة، ليصدح بعدها بصوتٍ أجشّ: «يبدو أن الإلهَ آفلٌ منذ الأزل، كنت مخطئاً بما ألزمتُ إلينور به، وبما أكرهتُ نفسي عليه. بصرف النظر عن كبح مشاعري إلّا أنني أحببتها كثيراً واشتهيتها أكثر. آهٍ كم أخطأتُ بحقّ كلينا! يا لجرمي بتضليل قرويين ماتوا بسببي ويُتِّم أطفالهم! لعلّهم لولا عظاتي لتمكّنوا من النجاة بأنفسهم وبعائلاتهم. من أكون لأقودهم نحو الهلاك؟ هل كنتُ أتحدّث باسم الرّب... يا لي من مغفّل! يا لحياتي الأفيكة، يا لأفعالي وأقوالي وأحاسيسي المبنية على الخديعة، يا لقناعاتٍ لا علاقة لها بالواقع أو المصداقية...! لذلك...» تابع حديثه: «لا خيار لديَّ سوى إبهاج نفسي!».

حاول لمسي بعد ذلك، لكنني كنت أسرع وانزلقت من يده متدحرجةً عن السرير. التقطتُ بعماءٍ ما استطعت من ثيابي المتناثرة، لأفرّ من الغرفة متابعةً ارتداء ثوبي مترنّحةً فوق الدرج... الابتعاد؛ جلّ ما كنتُ أفكر فيه.

توجّهت دون وعي صوب مدفن الكنيسة. قصدتُ إلينور... أردت الوصول إليها... ملاقاتها... إعلامها بأسفي... بندمي... باستغلالي لوصيتها بمصادقة هذا الرجل الجميل الودود المخلوق لأجل الحب، والذي بمضاجعته ظننتُ أنني أقرّبها مني وأفي بوعدي. حاولتُ تقمّص شخصيتها قدر استطاعتي، لكنني بدلاً من ذلك سرقتُ من جسده متعتها، سلبتُها حقّها الإنساني ليلة زفافها. هرعتُ إلى قبرها واستلقيتُ قرب ناصيته. حين تلمّستْ أصابعي نقش اسمها المشوّه الذي أفسده البنّاء الغرّ، تنامى شعوري بالإساءة وغلبني النحيب حتى انهار جسدي متنهّداً وتندّت الحجارة بالدموع.

لا أزال مستلقيةً واهنة القوى فوق قبرها حين أتاني نداؤه. لم أرغب برؤيته. فجأةً آلَ الوجه الذي شغفني والجسد الذي أثارني إلى ملامح غريبةٍ بغيضة. قمتُ عن الحجر وجثوتُ منحنيةً أحبو وصولاً إلى الصليب العملاق، لعلّه يظلّلني بكتلته المنتصبة الضخمة. اتكأتُ عليه كما كنتُ أفعل منذ زمن، لكن النقوش لم تحيها لمسات يدي هذه المرّة، ولا أظنّ أن من نحتها يريد البوح بأيّ سرٍّ لي، خاصة أنّ وقع الأقدام في الدرب المؤدّي الى مدفن الكنيسة كلّ ما أصغت إليه أذناي. ركضتُ عبر سيقان الحشائش

المتكتلة نحو المدخل... صوب المكان الذي لم أطأ بلاطاته منذ يوم الأحد العائد لآذار مارس، بعد إغلاقه أبوابه في وجوهنا جميعاً. ارتقيت المنحدر، وأسلمت للمقبض يدي كي ترتاح قليلاً، فأتاني الخشب بدفءٍ بدّد برودة الحجر. دفعت البوابة ثم هرعتُ إلى الداخل مسارعةً إلى إغلاقها برفقٍ خلفي. اهتاج سربٌ من الحمائم اتخذ من برج الجرس مأوًى له. لمَ لا؟ لا أحد يدقّ الأجراس ولا تراتيل تزعج إقامتهم فيه. انسلّ عبق عفونةٍ غزير بينما تسلقتِ الطحالب الخضراء قرب الشمعدانات النحاسية فوق المذبح. هدأتِ الطيور وسكنت أجنحتها فطغى الصمت العائد من جديد. تقدّمتُ إلى الأمام محاولةً إخماد وقع قدمي على الأرض قدر الإمكان وفق عادة تقديسٍ متأصّلة في نفسي منذ مدّةٍ طويلة. جالت يدي حول جرن المعمودية الحجري العتيق، لتومض في ذاكرتي معمودية طفليّ في صباحين مضيا. أما سام الذي حرص على نظافته التامة آنذاك، بدا بوجهٍ متألّق شارف على البوح بأسراره.

سام الساذج... كانت تُخجلني في بعض الأحيان المشاعر الفاضحة المرتسمة على وجهه، بدءاً من ضحكته الصبيانية الجامحة، إلى أسلوبه الغريزي في تحسس جسدي ونشوته الناخرة في فراشنا. آهٍ كم كنتُ أحسد إلينور على أسلوب زوجها الرقيق وحدّة ذكائه! كيف فاتني فهم أقلّ القليل في الأمس؟ كيف يمكنني اليوم استيعاب الكثير عن رقةٍ أخفت برودةً عظيمة... عن فكرٍ وقّادٍ تلوّى بخبثٍ حتى التشوّه.

نفحاتُ الشموع والحجارةُ الرطبة والمقاعدُ الخشبية الخاوية جميعها استحضرت الوجوه والقامات الآفلة. كم أصغينا إليه! صدقناه وآمنا بما قاله مثلما أيقنت إلينور تماماً. سلمناه الدفة كي ينتشلنا من الخطيئة ويقودنا نحو ضفة الأمان. ثلثا تلك الوجوه اندثرت اليوم... دُفنوا في الأرض المقدّسة أو تبعثرت جثامينهم في الحفر الضحلة لهلاكنا. وقفتُ بخشوعٍ للصلاة من أجل أرواحهم، لكن بلا جدوى، جرّبت استذكار الكلمات القديمة التي حفظتها عن ظهر قلب، فعصيَتُ السكون بنبرةٍ أعلى بكثيرٍ مما أردت، حتى تردّد صداها بلا معنى كوقعِ حصاة هوت في بئر.

«أؤمن بالله الآب الكلي القدرة خالق السماء والأرض». [1]

أنينُ همسٍ تناهى إلى مسامعي، سرعان ما بدّده صرير الفئران المتراكضة.

«يا آنا... أما زلت تؤمنين بالله؟».

أتاني الصوت من المقعد الخاص بعائلة برادفورد. تلفتُّ فاستقامت إليزابيث برادفورد من موضع ركوعها، كانت مخفيةً عن ناظري خلف عارضةٍ عالية من خشب البلوط.

«ما انفكت والدتي تفعل مثلك. لا تزال تؤمن بإله الغضب والانتقام الذي كسر كبرياء فرعون وخسف الأرض بسدوم[2] وأمطر العذاب فوق رأس أيوب. جئت إلى هنا بناءً على طلبها، رغم أنني أشكّ بأن ما أفعله سيأتي بأيّ نفع لها. لقد وقعت في المخاض منذ ليلة أمس قبل موعد ولادتها بشهرٍ كامل. أعلن الحلاق الجرّاح يأسه من نجاتها، مؤكداً أنّ امرأةً حامل في مثل سنّها لا بدّ أن تقارع الهلاك، خاصةً مع انعدام الأمل بإطلاق الطفل من أحشائها. صرح بتكهّنه الكالح قبل أن ينطلق بحصانه إلى خارج المزرعة».

غاصت في مقعدها بعد ذلك، ثم انحدر صوتها لهمسٍ طفولي.

«نزيفٌ مرعبٌ يا آنا. لم يسبق لي أن رأيت دماءً بهذه الغزارة». دفنت وجهها داخل يديها لفترةٍ طويلة ثم لمحتُها تستقيم من جديد.

«حسناً» قالت ململمةً نفسها كما رأيتها تفعل أمس في مطبخ القسيس: «لقد فعلتُ ما تضرّعتْ إليه، وصليتُ الصلوات من أجلها في هذه الكنيسة الواحدة المقدّسة الجامعة لكم جميعاً يا عشّاق الرّبّ الشجعان. يجب عليَّ العودة الآن والإصغاء إلى صراخها الذي لا ينتهي».

1- اقتباسٌ من مطلع ما يُعرف بـ (قانون الإيمان المسيحي)، وهو نصٌّ تمّ اعتماده في مجمع نيقيا المسكوني الأول عام 325، نسبةً إلى مدينة نيقيا الواقعة في الشمال الغربي لآسيا الصغرى، وتردّده الطوائف المسيحية إلى اليوم على نطاقٍ واسع في شعائرها الدينية.

2- سدوم وعمورة: بحسب ما جاء في العهد القديم؛ مجموعة من القرى التي خسفها الله بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد، وفق ما جاء في النصوص الدينية. القصة مذكورة بشكلٍ مباشر وغير مباشر في الديانات الإبراهيمية الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية. يعتقد كثيرٌ من الباحثين وعلماء الدين أن هذه القرى تقع في منطقة البحر الميت وغور الأردن.

«سآتي معك» قلتُ بينما جالت في ذهني وجوه الموتى التي دفعتني لإنقاذ أيّ حياةٍ لو استطعت دون تلكؤ: «لديَّ بعض الخبرة في الإشراف على الولادات لعلّها تمكّنني من مساعدتها». أومض وجهها ببارقة أملٍ لثانية، لكنها سرعان ما تذكّرتْ من أكون بالمقارنة معها، فكست ملامحها بالاستهزاء معبّرةً بشخرةٍ استنكارٍ تلتها ابتسامةٌ متكلفة وقالت: «هل لخادمةٍ معرفةٌ تفوق خبرة جراحي لندن! لا أعتقد ذلك. لكن تعالي إن أردتِ. إذ إنّها ستموت في أيّ حال؛ وقد يكون من دواعي سرورك أن تنقلي إلى مومبليون كيف استجاب الله لنبوءاته بشأن عائلتي».

خطوتُ خلف إليزابيث برادفورد محاولةً إخماد الغضب المتأجج داخلي. أطرقتُ للحظةٍ عند باب الكنيسة بحثاً عن القسيس الذي لم يعد له أيّ أثر. تبعتُ الآنسة برادفورد حيث ربطت فرسها وامتطيت خلفها، ثم قطعنا التل إلى دارتهم بصمت.

بدا المبنى مقفراً للغاية حيث انطلقت الأشواك شاهقةً عبر شقوق بلاطات المدخل، أما التماثيل الشجرية المقصوصة بعناية والمصطفة على طول الممرّ فقد آلت إلى شجيراتٍ هشّة، بينما غزتِ الأعشاب جميع أسرّة الزهور المنظمة. ترجّلتِ الآنسة برادفورد مسلمةً مقاليد الفرس إليَّ، مفترضةً ضمنيّاً أنني من سيدخلها الإسطبل. لم أنطق بكلمة بل أعدتُ الحبل إلى يدها وأنا أخطو مسرعةً نحو الباب الأمامي للدارة. قادت الفرس نحو الإسطبل مستهجنةً بصوتٍ تماوج بين الهسهسة والتنهّد.

انتظرتُ عودة الآنسة برادفورد بينما تصدح الصرخات في مسامعي من الداخل. دخلنا عابرتين الكتل الضخمة للأثاث المغطّى وارتقينا الدرج صعوداً إلى غرفة والدتها.

لم تبالغ الابنة في وصفها النزيف. فقد اغرورقت الأرضية بالدماء اللّزجة، بينما تناثرت لفائف الكتان والمناديل المبلّلة بالقذارة في الأركان. لم أتعرّف على الفتاة الغريبة التي ترعى السيدة برادفورد، لكن عينيها بانتا واسعتين من شدّة الارتباك أثناء بحثها عن منشفةٍ جديدة لوقف الفيضان الأرجواني المستمر. سارعتُ بإملاء قائمة احتياجاتي: «أحضري لي كلّ

ما لديك من المرق أو الحلوى الهلامية، وقليلاً من النبيذ الجيد مع بعض الخبز المحمّص الدافئ، إنها بحاجةٍ ماسة لتقوية جسدها إن أرادت النجاة بعد فقدانها للكثير من الدم. أحضري أيضاً غلايةً من الماء المغلي وحوضاً وكلّ ما يمكنك العثور عليه من الدهن». هرعتِ الفتاة بتردّد من الغرفة وكأنها عاجزةٌ عن مغادرتها بالسرعة المطلوبة.

لم تبدِ السيدة برادفورد أيّ اعتراضٍ حين اقتربت منها؛ بدت أضعف من بذل أيّ جهدٍ إضافي، أو لعلّها رحّبت بأملٍ ضئيل لإخراجها من قنوطها. توقّفتْ عن الصراخ بمجرد دخولنا، صراخٌ أظنّه ذعراً أكثر من كونه ألماً. مدّت يداً متهالكة نحو ابنتها التي ركضتْ نحوها وقبّلتها بحنان. بدا من الواضح رغبتها –وبغضّ النظر عن رأيها المُهين لمهاراتي– بتهدئة مخاوف والدتها بإعلامها بما سمعته من مديح لقدرتي على توليد النساء، طمأنَتْها بنبرةٍ خفيضة بأنّ الأمور ستكون بخير. نظرتُ إليها فتجلّى جسد أمي أمام ناظري ولم أرغب بتضليل المرأة عن حالتها اليائسة، فأخفضتُ بصري بأسى. التقطتْ إليزابيث نظرتي ونكستْ برأسها مدركةً بؤس ما كنت أعنيه.

غسلتُ يدي بمجرد حصولي على المياه المغلية ولففت منشفةً مبلّلة ووضعتها بين ساقي السيدة برادفورد. لم أكن بحاجةٍ إلى الزبدة التي جلبتها الخادمة، لأن مهبلها زلقٌ بما فيه الكفاية مع تدفق الدماء منه. بالرغم من عمرها وجسدها النحيل، إلّا أن عضلاتها ما زالت صلبة، وعظام وركيها تباعدت بإسهاب بينما تهيئ جسدها للولادة على نحوٍ سليم. عرفتُ بمجرد ولوج يدي إلى الداخل أن باب الرحم مفتوحٌ بالكامل، فأدخلتُ أصابعي عبره بسهولة. لم يكن غشاء المشيمة قد تمزّق بعد، لذلك قمتُ بتمزيقه بأظافري، فصدحت السيدة برادفورد بتأوّهٍ طفيف، ثم غرقتْ في حالةٍ من فقدان الوعي. سارعتُ بإنقاذ وليدها قبل فقدانها لحياتها، فتركت يدي تبحث عن الطفل حتى عثرتُ على فجوةٍ تؤدّي إليه. تساءلتُ متعجّبةً لماذا ادعى الجراح بأنها حالة ولادةٍ ميئوس منها؟ فلو ثابر لتمكّن من القيام بما أوشك على إتمامه. لا بدّ أنه تقيد بتعليماتٍ تُفضي إلى تعمّد التقصير والإهمال في مساعدتها.

تمكّنتُ من قلب الخديج الصغير بصعوبةٍ ضئيلةٍ جداً، ثمّ حثثتُ

إليزابيث برادفورد على محاولة إيقاظ والدتها كي تتمكّن من الدفع؛ لكن المرأة الأضعف من بذل أيّ مجهودٍ مجدٍ جعلتني أرتعد من الفشل. تمكّنت السيدة أخيراً -بطريقةٍ أو بأخرى- من استدعاء القليل من القوة العميقة التي نحتاجها. فتاةٌ صغيرة رائعة مثالية على قيد الحياة انزلقت بين يدي.

انحنيتُ برأسي واستنشقتُ عبيرها الغضّ. نظرتُ إلى عينيها الزرقاوتين العميقتين، فلمحتُ فجر حياةٍ جديدة. بدتِ الفتاة في تلك اللّحظة الإجابةَ الكافية عن تساؤلاتي كلّها. أما إنقاذ هذا الكائن الصغير الاستثنائي فوهبني سبباً كافياً للبقاء، وعلمتُ حينها مدعاة متابعة العمر... بعيداً عن الموت، من ولادةٍ إلى ولادة، من بذرةٍ إلى برعم... أيقنتُ ماهية العيش بين العجائب.

بمجرد قطع حبل السرة وربطه، تباطأ نزف السيدة برادفورد إلى بضع قطرات. لفظتِ المشيمة دون إجهاد، وتمكّنتْ بعد حين من احتساء بعض المرق. شتمتُ الجراح في سرّي لتخلّيه عن هذه المرأة، فلو ساعدها منذ ذلك الحين، لما هدرت دماءها ولتمكّنَ بكلّ تأكيد من إنقاذ حياة شخصين معاً؛ إذ إنّ السيدة برادفورد ما زالت بحاجة معجزةٍ للنجاة بعد فقدانها هذه الكمية الغزيرة من الدماء. قصدتُ مع ذلك المحاربة لأجل حياتها، فسألتُ إليزابيث برادفورد الركوب على عجل والتوجّه إلى كوخي، مشيرةً إلى مكان قارورةٍ من منقوع نبات القرّاص الذي حسبتُ أنه يقوي والدتها.

«القرّاص؟» نطقتِ الكلمة كما لو أنها تتحسس مرارته في فمها. لم تفتها السخرية حتى في مثل هذه الأزمة. «متأكدةٌ من أنني لا أستطيع العثور على شيءٍ من هذا القبيل»، ثم وضعت يدها برفقٍ على جبين والدتها الشاحبة، بينما تحوّلتْ قسوة عينيها إلى حنانٍ يطوف حول الوجه المنهك.

«أتمنى لو بإمكاني جلب ما تحتاجينه كما ما تزعمين، لكن عليكِ الذهاب بنفسك، إذ إنّني أخشى أن تموت والدتي أثناء غيابي».

قدّرتُ ما قالته، فقرّرتُ المضيّ لإحضار الدواء، ثم طلبتُ من الخادمة تنظيف الطفلة ووضعها على ثدي أمها في أقرب وقتٍ ممكن. إن ماتت السيدة برادفورد -وهو الخيار الأكثر توقّعاً- لا يفوت الطفلة بضع دقائق ثمينة من الراحة في حضن والدتها. كنت في منتصف الطريق إلى الإسطبل

عندما أدركت أنني أشعر ببردٍ ينخر عظامي التي لا يغطيها سوى ثوب صوفيّ رقيق التقطته في الصباح حين هربتُ من مايكل مومبليون. التفتُّ متأملةً باستعارة عباءة إليزابيث. كان باب المطبخ الأقرب إليَّ، اقتحمته على عجالة ودخلت.

استغرق الأمر مني أقلّ من لحظةٍ لفهم ما تنوي إليزابيث برادفورد المستديرة بظهرها نحوي فعله. بدتْ مرتبكةً في رفع أكمام ثوبها الصوفيّ الفاخر فوق مرفقيها تفادياً للبلل. دلقتْ دلواً مملوءاً بالماء داخل الحوض قبل أن تُخفض ذراعيها وتشدّ عضلاتها بجهدٍ طفيف في محاولةٍ لإغراق الطفلة. قطعتُ المسافة بيننا بخطوةٍ واحدة ودفعتها جانباً بقوةٍ لم أعتقد بامتلاكها يوماً. انزلقتِ الطفلة من قبضتيها وهوت بجانب الدلو. سارعتُ بذراعي والتقطتُ جسدها الصغير النحيل وضممتها إلى صدري. تأرجح الدلو وسقط عن المقعد منسكباً بمحتوياته فوق تنورة إليزابيث برادفورد. تحسستُ جسد الطفلة البارد، فقمت بفركه بشدّة، كما كنت أمسّد أطراف جَمَلٍ وليدٍ في ليلةٍ باردة. سعلتِ الطفلة ثم نظرت بإحدى عينيها مطلقةً صيحاتٍ متعالية متتالية... الحمد لله، لم تصب بأذى.

أطلقتْ إغاثة الطفلة ألسنة الغضب المتوقّد في صدري لدرجة أني أمسكتُ خطّاف اللّحم المعلّق فوق الطاولة الخشبية واندفعتُ صوب إليزابيث برادفورد مع الطفلة المتشبثةِ بصدري.

تدحرجتْ جانباً لإنقاذ نفسها، وبصعوبةٍ بالغة حاولتِ الانتصاب على قدميها فوق البلاط المنزلق بفعل الماء. تملكتني خشيةٌ من ردّة فعلي، فاتخذتُ خطوةً إلى الخلف ورميتُ الخطّاف من يدي. حدّقنا بعضنا ببعض دون أن ننبس بحرف.

كسرتْ حاجز الصمتِ أخيراً ونطقت: «إنها لقيطة... طفلة زنا، ولن يقبل والدي بتنشئتها في عائلته».

«بإمكانكِ إدانة العاهرة، لكن لا تملكين الحقّ بسلبها حياتها!».

«لا تتحدثي معي هكذا!!».

«سأتحدّثُ بالطريقة التي أشاء!»، ثم بدأنا إطلاق الشتائم بعضنا على بعض كامرأتين مبتذلتين.

رفعتْ يدها لتنهي ذلك ثم قالت بصوت يكتنفه الحزن: «ألا ترين معي أنّ الطفلة نصلٌ لإنهاء حياة أمي... أمي التي لا فرصة لها ببدايةٍ جديدة إلّا بالتخلّص من وليدتها؟ هل تعتقدين أنني شغوفةٌ بقتلها؟... طفلة والدتي... أختي من لحمي ودمي؟ لا أبغي سوى إنقاذ أمي من شراسة والدي».

«أعطني الطفلة». سارعتُ في الردّ: «دعيها لي، سأربيها بحبّ».

تسمّرتْ في مكانها، تأملتْ قليلاً ثم أومأت بالنفي: «لا... لن أسمح لكِ. لا يمكننا أن ننشر عار عائلتنا في هذه القرية، كي نتيح الفرصة لنشر الوشايات والسمعة السيئة. ليس من مصلحة الطفلة... لا أن تكبر في هذه الدارة ولا أن تعيش بعيداً عنها. لا بدّ أنها ستعرف يوماً أصولها الحقيقية، وهذا ما يحدث دائماً في هذه الحالات».

«حسناً» أجبت ببرودة كما فعلتْ: «ساعديني كي آخذها بعيداً من هنا، وأتعهّد بعدم سماعكم لكلمةٍ تخصّنا إلى الأبد. اسردي وأمك القصة التي تعجبكما».

رفعتْ إليزابيث برادفورد حاجبيها ردّاً على ما قلته، ممعنةً النظر بشفتين مزمومتين. ظلّت صامتةً للحظاتٍ طويلة، في حين تفحّصت عيناي وجهها بحثاً عن أثرٍ لشفقة أو رحمة كاللّتين أظهرتهما لأمها؛ لكن لا شيء من هذا القبيل لاح فوق الملامح المتفكّرة الباردة.

مسألةٌ بدتْ مثل جميع الأمور المتعلقة بآل برادفورد، تمّتْ معايرتها وفق مقاييس يمكن رفعها أو تخفيضها، وفقاً لثقل ودقة المصلحة الذاتية. كرهتُ متابعة التحديق إلى ذلك الوجه الجلف الوقح، نظرتُ إلى الطفلة وحاولتُ تلاوة الصلاة لأجلها، فلم تتجمع سوى حروف كلمة واحدة في ذهني:

«أرجوكِ».

نطقتها بأقصى رغبة من أعماق قلبي. الغريب أنني لم أستطع استدعاء أيّ جملةٍ دينية... لا دعاء مألوف، ولا آية من الكتاب المقدس، ولا جملة من القدّاس. العجيب كيف اندثرت جميع النصوص والمزامير والصلوات القديمة المنقوشة في ذاكرتي. لقد انمحت بأكملها، كما لو أن قطعة قماشٍ مبلّلةٍ مرّت بشدّة فوق جميع الكلمات الصعبة الموشومة بجهدٍ أليم فوق

لوح خشبي. يبدو أنني بعد العديد من الصلوات غير المُستجابة فقدت القدرة على الصلاة.

«نعم» نطقت إليزابيث برادفورد بالموافقة أخيراً: «نعم، هذا خيارٌ جيد جدّاً».

مررتُ بيدي على جسد الطفلة بحرارة، وجلسنا بعد ذلك حول طاولة المطبخ القديمة المحببة لماغي كانتويل نتساوم على التفاصيل. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، لأنني كنت حازمةً بشأن متطلباتي، بينما حرصتْ إليزابيث برادفورد على التخلّص مني بأسرع وقتٍ ممكن. بعد اتفاقنا بشأن الشروط، ارتقيتُ الدرج صعوداً إلى غرفة والدتها التي استعاد وجهها تورده بشكلٍ مدهش بعد تناولها للمرق وقطعة الخبز المغمّس به. كانت مستلقيةً حين وصلت بعينين مغلقتين، حتى إنني ظننتها غافية. وقعتْ عيناها على الطفلة، فابتسمت وأشرقت الدموع في عينيها المحمرتين المتورمتين.

«ما زالت حية!» ارتعشتْ بصوتٍ منهك.

«لا تزال حيةً وستبقى»، ثم أخبرتها بما اتفقتُ عليه مع إليزابيث. جاهدتْ بعد ذلك للتعرّش على وسائدها ثم أمسكت ساعدي بأصابعها الضعيفة. اعتقدتُ أنها ستحتجّ على ما سمعته، لكنها حاولتْ بدلاً من ذلك تقبيل يدي.

«آه شكراً لك! الشكر الجزيل! بارك الرّبّ بكِ». ثم اتسعت عيناها بعد ذلك وأبدلتِ الهمس بنبرةٍ ملحّة: «عليكِ أن تغادري بسرعة... اليوم بالذات، قبل أن يعلم ولدي أو والده أن الطفلة لا تزال على قيد الحياة؛ فلا شيء سيثني عزيمتهما عن قتلها»؛ ثمّ أشارتْ إلى فتح صندوقٍ حديديٍّ أسفل سريرها، فعثرتُ في درجٍ مخفيٍّ داخل الصندوق على خاتمٍ وقلادة من الزمرد الساطع بوجه المخمل الداكن. «خذيهما... تصرفي بثمنهما لو قضت الحاجة، أو قدميهما لها حينما تكبر. أخبريها أن والدتها لم تكن لتبخل بحبّها لولا الظروف التي قضت بعكس ذلك».

خضّب المجهود والحزن وجهها بمزيدٍ من الشحوب، وعرفت أن الاضطراب سينال منها لو بقيتُ إلى جوارها مع الطفلة، لذا عجّلت في حزم إحدى شالاتها الصوفية الفاخرة حول صدري بإحكام ثم أرقدتُ الطفلة

داخله. ركعت إلى جوار سريرها التقطتُ يدها البيضاء ووضعتها على رأس الطفلة الحريري.

«ثقي بأنها ستكون بخيرٍ على الدوام».

نزلتُ الدرج وخرجتُ لملاقاة إليزابيث برادفورد التي كانت تنتظرني مع الحصان. مضينا ثلاثتنا قاصداتٍ الكوخ، حيث علا سجع الطفلة الصغيرة وأمسى أنيناً. سلّمتُ إليزابيث قارورةً من منقوع نبات القرّاص، وأرشدتها إلى الطريقة المثلى لتجرّعه. حصلتُ منها في المقابل على محفظةٍ تحوي قطعاً ذهبية فاقت تصوري.

حدّقتِ البقرة بعينين متذمّرتين حين دخلتُ إلى حظيرتها مع الدلو، فخاطبتها بالقول: «آسفةٌ إذ جعلتك تنتظرين، لكن لحليبك اليوم احتياجاتٌ عظيمة». في الكوخ عادَ إلى ذاكرتي عبق اللّبأ الشفاف المائل للزرقة في ثديي. نزعتُ القشدة الغنية عن وجه الحليب المغلي ومزجته مع القليل من الماء، ثم أمسكتُ الطفلة بين ذراعي. فغرت فاهها مطلقةً صرخاتٍ واهنةً خافتة. دسستُ خدها الناعم فاستدارت صوب إصبعي بفوضويةٍ وبطء. قطّرتُ الحليب بأصابعي داخل فمها حتى أبدتِ الشبع، فتوقّفتْ عن البكاء وتثاءبت ناعسة. أرقدتُها فوق بعض القشّ قرب الموقد، ثم انشغلتُ بجمع الممتلكات القليلة المتبقية التي نويت حملها معي. جركينة جيمي الشتوية الصغيرة التي أنقذتها من الحريق العظيم، وللذكرى... الكتاب الطبيّ الخاص بإلينور، والذي قرّح أعيننا أثناء مطالعته. أضفتُ بضع قوارير الأعشاب المفيدة لعلاج حمى الرُّضّع والإسهال... بغصّةٍ لاح صباح الحديقة ذاك حين حاولتْ إلينور إعلامي بمنافع زهرة البابونج بينما ألوذ بعدم الإصغاء. آه! كيف مضى الوقت سريعاً واضطررتُ لتغيير أسلوب تفكيري.

نحّيتُ أفكار السنة الفائتة بعيداً، محاولةً التفكير في المستقبل بجلاء. جلتُ في أنحاء الكوخ الخاوي وأدركتُ أنه لم يبقَ سوى القليل من الأغراض اللّازمة للرضيعة ولي. عزمتُ بعد ذلك على وهب أرضي وكوخي لطفلة الكويكر -ماري ويكفورد- والتي إن اختارت البقاء في القرية ستحظى بمأوى أكثر طمأنينة من الحقل المستأجر ومورداً لبناء مستقبلها دون تنقيبٍ

عن عروق الرصاص. أما بالنسبة إلى الماشية، فالطفلة فتيةٌ جداً لرعاية أغنامها، لذلك قرّرتُ مقايضتها مقابل بغلٍ ضخم يعود لماري هادفيلد سنحتاجه لنقلنا خارج القرية... صوب المجهول الذي تقودنا إليه الدروب.

عثرتُ على قطعةٍ من ألواح الصلصال استخدمتها إلينور لتعليمي الكتابة، ثم صررتها مع بضعة أغراض حين فُتح باب الكوخ دون قرعه. لم أتمكّن من تمييز ملامح الزائر المكلّل بوهجٍ مفاجئ... قفزتُ من مقعدي وانتصبتُ محتميةً بالطاولة.

«لا تخافي مني يا آنا. أنا آسفٌ على ما حدث بيننا... أعتذر عن كلّ شيء... حتى ما فاق معرفتكِ. لم آتِ إلى هنا من أجل تقديم الاعتذار، فأنا موقنٌ الآن أنكِ فقدتِ استعدادك أو قدرتكِ على الإصغاء إليَّ بشأن هذه الأمور، ولديك الحقّ كلّه. لقد جئت فقط لمساعدتك على الرحيل من هنا».

لا بدّ أن وقع المفاجأة بدا جليّاً فوق ملامحي، فهرع نحوي وتابع بالقول: «عرفتُ ما حدث هذا الصباح في دارة برادفورد... عرفت ما حدث هناك بالكامل»؛ ثم رفع يده حين أوشكت على مقاطعته...

«لقد نجتِ السيدة برادفورد وصحتها تزداد تحسناً. ها أنا قد عدتُ للتوّ بعد أن نظرت بعمقٍ إلى داخل قلبي في هذا اليوم. لقد أعدتني يا آنا إلى ما تقتضيه واجباتي. لم أعد أنوي متابعة الحياة التي عشتها، ولن أتجرع المزيد من مرارة أحزاني. ها أنتِ امرأةٌ حزينة، ومع ذلك تعيشين وتجلبين الحياة والنفع للآخرين. أنتِ من علمتني -بلا شك- أنه لا يجب على المرء في نهاية المطاف أن يتخذ درب الدين كي يجلب الراحة لمن يحتاجونها. أعتقد أنكِ أنقذتِ أكثر من شخصين في هذا اليوم».

اتخذ خطوةً بقصد التقدم نحوي حيث وقفتُ خلف الطاولة، لكن النظرة الجلفة على وجهي منعته وأبقت عليه حيث كان.

«آنا، لستُ هنا لأخبرك بمثل هذه الأشياء، لأنني أتخيّل أنكِ اكتفيتِ بالفعل بما سمعته من وجهات نظري؛ بل جئت لخشيتي من عدم إدراككِ للأذى المحدق بك. المسألة جديّةٌ يا آنا وخطيرةٌ للغاية، إذ سرعان ما ستشي إليزابيث برادفورد بأنكِ الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة الشاهد على

محاولتها في قتل الطفلة. أما والدها فيتوق إلى رؤية الطفلة ميتة، وبالتالي سيكون شأناً صغيراً لرجلٍ مثله أن يضيف حياتك إلى الفاتورة المستحقة. أريدكِ أن تأخذي أنتيروس». تغضّنت عيناه لوهلةٍ في تلميحٍ مرح: «كلانا نعرف أنه بإمكانك التعامل معه».

تمتمتُ ببضع كلماتٍ رافضةً عرضه، ذاكرةً خطتي عن البغل الخاص بماري، لكنه أسكتني مرة أخرى. «لا وقت كافياً لديكِ. من حسن الحظّ أنني التقيت مع رالف بولفر، أحد تجار الرصاص من باكويل. سيغادر اليوم إلى ميناء ليفربول مع حمولةٍ من رصاص اشتراها من مناجم بيك؛ فإن وصلتِ إلى باكويل قبل مغادرته سيعمل على مرافقتك إلى والد إلينور - حماي وربّ عملي، والذي تتاخم مقاطعته للطريق الذي سيتخذه بولفر. لقد كتبت رسالة تعريفٍ عنك توضّح ظرفك. أعتقد أنه خيارٌ جيدٌ لك يا آنا، لأنه رجلٌ طيب ومقاطعته شاسعة الأطراف. أنا متأكدٌ من أنه سيجد مكاناً آمناً لك... في مكان ما... في قريةٍ أو مزرعة، إن لم يكن في خدمة أسرته. من غير المحتمل أن يفكّر آل برادفورد في العثور عليكِ هناك، بل سيبحثون في المناطق المؤدية إلى لندن بدلاً من ذلك... يجب عليك الرحيل الآن».

وهكذا غادرت منزلي محرومةً من إلقاء نظرة أخيرة على الغرف التي احتفظتْ بتفاصيل أفراح حياتي ومعظم أحزانها. لم تستيقظ الطفلة عندما رفعتُ الحمالة وأوثقتها بصدري. إلّا أن لحظةً من الحرج انتابتني عند باب الفناء، حين رفع مايكل مومبليون ذراعه بقصد مساعدتي باعتلاء أنتيروس، فأقصيت جسدي عنه وامتطيتُ دون مساعدته، مفضّلةً امتطاء غير لائقٍ بدلاً من لمسةٍ من يده.

أدركتُ في منتصف الطريق أنه لا يمكنني إسدال الستارة على نهايةٍ مماثلة. استدرتُ من أعلى الحصان، فلمحته مسمّراً في مكانه، مثبتاً عينيه الرماديتين عليَّ رفعتُ له يدي، فلوّح بيده على امتدادها مودّعاً.

أشحتُ برأسي صوب المنعطف محاولةً صرف انتباهي عن كلّ شيء إلّا عن اجتياز أنتيروس للمنحدر المؤدي إلى طريق باكويل.

-16-

صفحة البحر كتموجات أرضٍ محروثة

أطلعتني إلينور مومبليون ذات مرّةٍ على قصيدةٍ شعرية شبّهتِ الشاعرة فيها البحر بالمروج. سحرتني القصيدة لأن امرأةً كتبتها، ولم تكن لديَّ أدنى فكرة في ذلك الوقت عن نساءٍ مبدعاتٍ ينسجن الشعر. حفظتها من شدّة حماستي وما زلت أعيد إلقاءها:

... كما لو أنك يا بحر مرجٌ
واسعٌ أنت رحْبٌ
عبابٌ وجهك سندس
بأناةٍ تبحر سفنك، بهوادة
يهتف بحّارتك كرعاةٍ يتحادثون
ويغنّون...

وصفٌ ظننته فطنة عظيمة من شاعرة لم تلمح محيطاً في حياتها، لكن تأملي لسطح المياه أيّاماً وشى بأن مارغريت كافنديش لا تعرف عن البحر شيئاً على الإطلاق.

أقيمُ في حجرةٍ خاصةٍ بي، حيث يمكنني متابعة دراستي وأعمالي بهدوء، بعيداً عن مجالس النساء بثرثراتهن وضجيج أطفالهن. المنزل فسيحٌ وجميلٌ للغاية، يربضُ فوق رابيةٍ مشرفةٍ على قوس الخليج الواسع داخل سورِ القلعة. تتوسط غرفتي المستديرة نافذةٌ مُشبّكةٌ مطلّةٌ على الحديقة المتاخمة لحشد بيوتٍ انتظمت كخلايا النحل المتربّعة على تلالٍ منخفضة،

تتلوها زرقة لامتناهية لمياهٍ ساطعةٍ تحت ضوء الشمس. من هنا يمكنني مراقبة القوارب القادمة من البندقية ومرسيليا والموانئ البعيدة أثناء تفريغ حمولاتها من الأواني الزجاجية والقصدير والمنسوجات المزخرفة، لتنقل في رحلة عودتها تبر الذهب وريش النعام والعاج. ليس كلّ ما تحمله السفن بهيجاً، فقد ينفطر قلبك حين ترى السلاسل والقيود تجرّ أفارقةً أجانب كُتبت عليهم العبودية. كم أشفق عليهم في رحلتهم الرهيبة! ولا يسعني إلّا أن أسأل الرياح أن ترأف بحالهم.

بالنسبة إلّي لا أظن أني سأسافر مجدّداً إلى أيّ مكانٍ في هذا العالم، لكن إن فعلتُ فلن أمخر عباب البحر في رحلتي؛ فالأمواج التي أقلّتني من إنجلترا لم تتهادَ بلطفٍ كما وصفتها مارغريت كافنديش في قصيدتها، بل غدت كابوساً مروّعاً من تلاطمٍ عنيفٍ متباينٍ بشدّة... انخفاضٌ سحيقٌ مفاجئ تلاه ارتفاعٌ شاهق وهِياجٌ متوثّبٌ دون سكينة فوق صفحة المياه المضطربة. تقاذفتِ الأمواج سفينتنا لأيّامٍ ولیالٍ، وغاصت مقدمتها عميقاً في الماء كمزلجة طفلٍ انزلقت بجنونٍ فوق منحدرٍ جليدي. حين طقطقت الأخشاب وأخذ البحّارة يلعنون تمزّق الأشرعة، فاحت الرائحة النتنة للقيء والقطران[1] فجثوتُ مترقّبة الموت المحقق. في الواقع كنت مريضةً جدّاً لدرجة أني أردتُ ذلك بشدّة، إلّا أن التفكير بالطفلة والحفاظ على حياتها منحني العزيمة على الصمود حتى النهاية.

لا أقصد الإسهاب بالتحدّث عن الصعوبات الجمّة التي واجهناها، لأن ما أردت قوله باختصار: إن أنتيروس حملني على صهوته بيسرٍ إلى باكويل حيث استعنتُ بمرضعةٍ للطفلة، ثم غادرنا البلدة برفقة السيد بولفر وحمولته من المعدن الخام. لكن عند وصولنا إلى المنعطف المؤدي إلى منزل طفولة إلينور أخرجتُ الرسالة التعريفية التي كتبها مايكل مومبليون ومزّقتها لقطع صغيرة ورحتُ أتأمل رياحاً حملتها بعيداً. أخبرتُ السيد بولفر أنني لن أكبّده عناء مرافقتنا إلى المقاطعة المقصودة، وأعلمته بعزمي على مواصلة الرحلة بصحبته وصولاً إلى الميناء. لا يمكنني تفسير عنادي وتشبّثي بقراري آنذاك،

1- استخدم القطران قديماً للحفاظ على الخشب في الملاحة كعامل مقاومةٍ للماء.

لكنه بدا من الأفضل قطع كلّ صلةٍ تربطني بحياتي القديمة. أدركتُ فجأةً وبجلاء امتعاضي من التنقّل اليوميّ من مكانٍ وطئته إلينور إلى آخر. لستُ إلينور بأيّ حالٍ من الأحوال، بل آنا. لقد حان الوقت للعثور على بقعةٍ جديدةٍ تتيح للطفلة ولي بدايةً جديدةً مختلفة كليّاً.

قصدتُ غرفةً في نزلٍ قريب من الميناء، عايشت فيها ندماً هائلاً على تهوّري، فلم يكن من السهل تحديد الوجهة التي عليّ اتباعها، خاصةً في ظلّ التوتر والقلق، إلى جانب قلة النوم التي تسببت بها الساعة البُرجية في الحيّ المقابل، والتي قُرِع جرسها بضرباتٍ لم تسعفني إلّا لحساب الوقت المسجّى بالأرق والخشية من المجهول. أما إن أنهكني التعب وغفوت قبل بزوغ الفجر بقليل، سارعتِ النوارس إلى إيقاظي بنعيقها الصارخ كما لو أنها تعلن نهاية الكون عند الشروق.

لم يكن الأمر في النهاية قراراً مُتخذاً بقدر ما كان خياراً مفروضاً. شرعت نوارس البحر بزعيقها بالتزامن مع طرقات صاحب النزل -الذي بدا رجلاً لطيفاً- لباب غرفتي، أعلمني بتوترٍ شديد أن رجلاً نبيلاً يسأل عن مكان تواجدي في أنحاء البلدة كلّها.

«لا أودّ إزعاجك حيال الأمر، لكنه أشاع أمام الجميع أنكِ سرقتِ مجوهراتِ أسرته، لم أصدقه بالطبع فلو كنتِ سارقة لما أفصحتِ عن اسمك. في الحقيقة أكثر ما أثار استغرابي سعيه وراء طفلتك أكثر من اهتمامه بأمر المجوهرات. لا أحبّذ حشر نفسي في شؤون نزلائي يا سيدتي، لكن سلوكه لا يطمئن أبداً، فإن كنتِ على درايةٍ بالخطر المحدق بك، استغلّي فرصتك بالهرب على متن السفينة القادمة أيّاً وحيثما كانت وجهتها».

هذا ما حدث بالفعل على نحوٍ ملائمٍ إلى حدٍّ ما... افترضتُ أنها السفينةُ الوحيدة المبحرة عبر أمواج ذلك الصباح، المحمّلةُ بمعادن مناجم بيك[1] والمتّجهة إلى كبار صنّاع الزجاج في البندقية... المدينة المائية المجهولة تماماً بالنسبة إليَّ. وشى تصدّع جوانب حوض السفينة بأنها بالكاد صالحة

1- تعد منطقة بيك Peak أو التلال، إحدى مناطق إنجلترا الشهيرة بالتعدين خلال العصور الوسطى، وتقع على الطرف الجنوبي من بينينز شمال ديربيشاير.

للملاحة، لكن لا خيار آخر أمامي كما ذكرت؛ لذا، دفعتُ بعضاً من ذهب برادفورد مقابل الحصول على كبينةٍ فوق ظهر السفينة لأرحل بعيداً عن موطني مع أكوام المعادن التي أمضيت عمري أخطو فوقها. سرعان ما فاتني عدّ النهارات واللّيالي التي قضيتها مع الطفلة متأرجحتين في السرير المتحرّك، مخمّنةً أن خاتمة حكايتنا هنا، حين تخترق الأمواج النزقة أخشاب حجرتنا وتسحلنا إلى أعماق بحرها.

عبقَ الهال بعبيره الأخّاذ عبر نسماتٍ صباحيةٍ دافئةٍ مباغتة، فسارعتُ في حملِ الطفلة وصعدتُ إلى سطح السفينة. لا يمكنني وصف بريق الشمس الوهّاج فوق الجدران البيضاء والقباب الذهبية، أما امتداد المدينة على سفح الجبل معانقةً مرفأها الأزرق الفسيح فعالقٌ في ذاكرتي. سألتُ القبطان عن المكان، فأعلمني بأننا قاربنا الوصول إلى ميناء وهران موطن عرب الأندلس.

لا زال كتاب إلينور بين أمتعتي أحد المقتنيات القليلة التي جلبتها معي -رغم وزنه الثقيل- فقد حرصتُ على حفظ ذكراها وذاكرة العمل الذي حاولنا إنجازه معاً. إنه المجلد النفيس الأخير من «قانون الطب» لابن سينا الأعز إلى قلبها والذي فكّرتُ ذات يوم بتعلم لغته اللّاتينية لأتمكّن من حفظ محتويات كتابه العظيم. لطالما أدهشني كما أثار عجب إلينور أن رجلاً غير مسيحي[1] استطاع منذ القدم الإحاطة بذلك الكمّ الهائل من المعارف، ثم تفكرتُ في الأطباء المسلمين جميعهم مذ مولد الكتاب حتى اللّحظة، ليتبدى لي فجأةً أن الأمواج حملتني إلى هذه المدينة المشرقة كي أنهل المزيد عن المهنة التي ساقتني الأقدار إلى دربها.

حاول القبطان نصحي بالعدول عن مغادرة السفينة، محذّراً من قراصنةٍ برابرة[2] وإسبانيين منفيين غرباء، لكنه آزرني بلطفٍ حين شعر بعنادي

1- تستخدم آنا صفة «infidel» في هذا الموضع، والتي تعني غير مسيحي أو معادٍ للمسيحية أو ملحد أو كافر... وهي نظرة المسيحيين الأوروبيين التي سادت خلال القرون الوسطى تجاه المسلمين والعرب، وقد أثّرت الحروب الصليبية بشدّة في تشويه هذه الصورة.

2- البرابرة: مصطلح استخدمه الأوروبيون منذ القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر للإشارة إلى سكان المناطق الساحلية الوسطى والغربية من شمال أفريقيا أو

ثم عرض استضافتي في منزله. لُقّب القبطان بأحمد باي[1] بفضل كتاباته ورحلاته التي جعلت منه أحد أشهر الأطباء في الساحل البربري. ما كان مدهشاً -بالنسبة إليَّ على الأقل نظراً إلى ظروفي وحالتي- موافقة الباي السريعة على طلبي بمساعدته الطبية. شرح السبب لاحقاً حين تعرّف كلٌّ منّا على الآخر جيداً، وأعلمني أنه بعد أداء صلاة ظهر أحد الأيّام، تضرع إلى الله أن يترأف برجلٍ عجوزٍ متعبٍ، مناشداً إيّاه العثور على مساعدٍ حصيف. دخل بعدها إلى مجلس النساء فوقعتْ عيناه على مبتغاه... عليّ وأنا أرتشف القهوة مع زوجاته.

الدخول إلى مخدعه بغية مساعدته والتعلّم منه تطلّب إضافتي إلى قائمة زوجاته بالاسم إن لم يكن بالجسد. وبجلاء أمومتي، لم يحتج الملا[2] إلى اشتراط وجود وصيٍّ لنيلِ موافقته لإتمام طقوس الزواج. من يومها لم يهدأ نقاشنا حول فكرة الإيمان... جدالٌ دار بين صلابة يقينه المكتمل مقابل أطلاله المهلهلة في قلبي. بدا الأمر كأحرفٍ باهتةٍ منسوجةٍ فوق رايةٍ مهترئةٍ تعلو ساحة القتال، رسالة لا يمكن لأحدٍ التكهّن بمعانيها. أعلمتُ أحمد باي بعجزي عن التسليم آنذاك، على أمل حدوث تغييرٍ فيما بعد، لتخمد المُسَاجَلَة بيننا منذ ذلك الحين.

أعتقد أن الباي أكثر الرجال الذين عرفتهم حكمةً ولطفاً، ولا بُدّ أنه أعذبهم وأنبلهم حديثاً بكلّ تأكيد. لم يتوانَ يوماً عن مديح المهارات الطبية التي جلبتُها معي، لكن الحقيقة أنّ ما علمني إيّاه فاق ذلك بكثير، ناهيك عن الكلام المعسول والعذوبة التي مُني بها قومه. لا يعتمد منهج الطبّ الذي اتّبعه أحمد باي على فتح الجسد بالمسابير الحادة وأكواب القروح التي استعملها الحلّاقون الجرّاحون في وطني، بل التمس وسائل تقوية

الساحل البربري آنذاك، والمعروفة حالياً بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا؛ حيث تمّ اشتقاق الاسم من البربر أو الأمازيغ في شمالي أفريقيا.

1- يطلق لقب (باي) على الشخصيات ذات الشأن والمكانة الاجتماعية في العديد من الدول، وعلى وجه الخصوص دول شمال أفريقيا، ويعني البيك أو الباشا أو السيد أو الأمير.

2- الملّا: لقبٌ يشير إلى الزعامة الدينية، ويعني الشيخ.

المناعة والتغذية الفعالة، ليمضي جُلّ وقته في دراسة صحة الجسد وطبيعة المرض... من يصيب وكيف ينتشر، وهل يتطور بمسارٍ مشابهٍ أو مغاير بين شخصٍ وآخر.

بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه كان الحزن والإحباط قد نالا منه، فالنساء في المجتمعات الإسلامية لا يجوز لهن الاستطباب على يد رجلٍ غريب... أمرٌ عايشه لسنواتٍ عدة حتى تملّكه البؤس مع تزايد عدد الأزواج المترقّبين لموت زوجاتهم دون اللّجوء إليه أو طلب المساعدة منه. أعتقدُ أنه عزم في النهاية على توكيل أيّ امرأةٍ متوسطة الذكاء، لديها رغبة في التعلم منه، للقيام بهذه المهمة. لطالما حاولتُ نيل ثقته أثناء الإشراف على الولادات وإرشاد النسوة إلى سبل الحفاظ على صحتهن وصحة أطفالهن. تابعتُ دراستي وعلمي بنيّة إنجاز عملٍ يستحق الحياة في هذا المكان. أقرأُ حاليّاً كتاب «أفيسينا»، أو «ابن سينا» كما تعلّمتُ لفظه بشكلٍ صحيح. الكتاب النفيس الذي لم يخطّ باللّاتينية كما تصوّرت، بل باللّغة العربية.

استغرقت عيناي وقتاً طويلاً حتى اعتادت توهّج شمس المدينة، فمن عاش معظم حياته محاطاً بالضباب يمكن للسطوع أن يُذهب بصره. ألوانٌ غنيةٌ مبعثرة حولي لا يمكن وصفها، فمن بإمكانه وصف البرتقالي ما لم يره بأمّ عينه؟ لونٌ مُخضَّبٌ لفاكهة الخرما[1] المتدلية عن الأغصان أمام نافذتي... ثمارٌ تتوهّج مستعرةً تحت السماء الزرقاء كتحفةٍ نحاسيةٍ ساطعةٍ تحت أشعة الشمس؛ تغدو ذهبيةً في أوقاتٍ أخرى أكثر تورّداً، متّقدةً على نحوٍ أقل كوجنات أحفاد أحمد باي وهم يتراكضون ويهرولون في فناء النساء.

وفرةٌ من الألوان الزاهية المتنوعة، باستثناء الأخضر، فلا عشب ينبت هنا ولا سندس يفترش اليابسة. حتى سعفات النخيل توشّحت برمالٍ ناعمةٍ كستها بعباءةٍ صفراء مغبرّة. لعلّ الأخضر أكثر ما افتقدته في هذه البقاع، توقٌ قد لا يبرّر فداحة ما ارتكبته ذات يوم حين انتشلتُ كتاباً أنيقاً معرّقاً مغلفاً بالجلد من المكتبة الضخمة الخاصة بأحمد باي، مطليّاً بلونٍ تعتمره مراعي وطني الصيفية. أخذتُ المجلّد إلى حجرتي ووضعته على الطاولة منتشيةً

1- وتدعى أيضاً فاكهة الكاكي أو الكاكا أو القاقا.

بالتحديق إليه، لأتعرّض للمرّة الأولى طوال سنواتٍ ثلاث لتأنيبٍ حادٍّ من الباي لمسِّ كتاب المسلمين المقدّس المُحرّم على المشكّكين. سارعتُ إلى توضيح الأسباب فتفهّم وعفا، مُقدّماً سجادةً حريريةً مزخرفةً بشجرةٍ عظيمةٍ ثرية... «أنيسة» أو «شجرة الحياة» كما يدعوها العرب. لم ألمح أوراقاً بوميضٍ مشابه واخضراراً فخيم فاق شجيرات إلينور في حديقتها البديعة.

لا تزال الشوارعُ إبان المغيب تعجّ بالعابرين إلى جوار باعة الأرصفة الصادحين فوق بضائعهم، في حين يرتفع أذان الصلاة ملحّاً ودافئاً من مئات المآذن الباسقة، ومثل عينيّ وجب على أذنيّ التأقلم مع صخب المدينة الدؤوب، حتى بتُّ أفتقد الصمت الذي أضناني يوماً. الساعة التالية لصلاة المغرب وقتي المفضل للتجول في المدينة، إذ تغدو النسائم أكثر برودة، وتخفّ وتيرة الازدحام. حيثما لاقيتُ نساء الحيّ تلقين عليَّ التحية مستخدماتٍ لقب ولدي البكر بدلاً من اسمي الحقيقي، لستُ «آنا فريث» الآن، بل «أمّ جيمي»[1]... يا للغبطة! ها هي ذكرى طفلي الصغير تُحيا من جديد!

استغرقني الوقت طويلاً لتسمية طفلة عائلة برادفورد. إذ كيف أطلق عليها اسماً خلال رحلةٍ بحريةٍ رهيبةٍ مفضيةٍ إلى هلاكٍ محتوم! «عائشة»... الاسم الذي اقترحه أحمد باي والذي يعني «الحياة». علمتُ فيما بعد أن النساء في السوق يطلقون على «الخبز»[2] الاسم ذاته. أعتقد أنه الأكثر ملاءمةً لطفلةٍ أمدتني بأسباب الحياة.

تنتظرني أحياناً في فناء النساء مرتديةً الحائك[3] الأبيض الذي تجرّه خلفها متمرغاً بالتراب حين تسارع نحوي عابرةً الحديقة الصغيرة لزوجة

1- تذكر الكاتبة اللقب في هذا الموضع باللغة العربية.
2- المراد هنا التسمية العامية للخبز بالـ «العيش» كما يدعوه سكان شمال أفريقيا.
3- الحايك أو الحائك أو الحيك أو التلحيفة: لباسٌ تقليدي من أصلٍ أندلسي ترتديه النساء في دول المغرب العربي، ويتألف من قطعةٍ كبيرةٍ من القماش الأبيض تستر به المرأة سائر جسدها، بالإضافة إلى العجار، وهو قطعةٌ صغيرةٌ من القماش الذي يغطي الوجه.

أحمد باي الكبرى. يعبق الهواء بشذا النعناع المسحوق والزعتر الحامض الذي تزرعه المرأة لتنكيه شايها المفضل، فتطلق مريم وابلاً من التوبيخ مع ضحكةٍ دمثةٍ تعلو وجهها الموشوم. أبتسمُ للمرأة المسنّة ملقيةً عليها السلام بينما أترنّح متأهبةً لالتقاط خماري المعلّق على إسفينٍ بجانب باب الدارة.

أحاول العثور عليها بينما تختبئ خلف نافورة القرميد الزرقاء. تومئ مريم برأسها مشيرةً إلى مكانها، فأتظاهر بعدم رؤيتها وأسير جانباً منادية باسمها؛ التفتُ بعدها على نحوٍ مفاجئ وألتقطها بين ذراعي. تقهقه ضاحكةً رابتةً على وجنتي بيديها الصغيرتين منديةً وجهي بقبلاتها الناعمة.

أنجبتُ طفلتي، هنا في جناح الحرملك بمساعدة أحمد باي دون عونه في تسميتها. حين أُلقي الحائك الصغير فوق رأسها، تسحبه بمهارةٍ لموضعه الصحيح، فتومض العينان الرماديتان الواسعتان... عينا أبيها.

نلوّح مودّعين لمريم، ثم ندفع باب خشب السّاج الثقيل، فيقبض الهواء الحارّ على أخمرتنا نافثاً عبابه مرفرفاً بها. تمسك عائشة بذراعي وإلينور بالأخرى، نمضي معاً عبر زحام مدينتنا.

خاتمة

هذا الكتاب عملٌ خيالي مستوحى من قصةٍ حقيقية عاشها سكان بلدة إيام في ديربيشاير إحدى مقاطعات شرق ميدلاندز في إنجلترا.

زرتُ إيام لأول مرّةٍ مصادفةً صيف عام 1990 أثناء عملي في لندن كمراسلةٍ أجنبية، حين قادتني مهمةٌ صحفية إلى مسيرٍ لطيفٍ متقشّفٍ عبر المتنزّه الوطني لمقاطعة بيك. أثارت فضولي يافطةٌ خُطّ عليها «بلدة الطاعون»، مشيرة بسهمٍ إلى إيام... البلدة الشاهدة على محنة قروييها وقرارهم الاستثنائي تحت لواء أبرشية كنيسة القديس لورانس.

أقمتُ بعد سنواتٍ في بلدة فرجينيا الريفية التي تبلغ مساحتها مساحة إيام، حيث تجلّت حكاية الحجر الصحي وتضحياته أمام ناظري. تساءلتُ عن عواقب ذاك القرار؟ عن الموت حين يحصد أرواح ثلثي جيرانك في غضون سنةٍ واحدة؟ أيُّ إيمان نجا وأيُّ علاقاتٍ سلمَتْ وأيُّ نظامٍ اجتماعي لم يمسّه الخلل؟

كتب ويليام ستايرون[1] ذات مرّةٍ أن أفضل الأعمال الروائية التاريخية تلك التي تقتات على «وجباتٍ صغيرة» من السجل الواقعي. صحيحٌ أنّ الكثيرين كتبوا عن إيام، وأجادوا السرد حولها، لكن التفاصيل الواقعية لا تزال طيّ المجهول. أما بالنسبة إلى أولئك المهتمين بالوصف الحيّ الذي يتوخّى الدقة التاريخية، فإن كتاب «طاعون إيام 1665-1666 Eyam Plague» لجون جي كليفورد John G. Clifford لا يُقدّر بثمن.

1- ويليام كلارك ستايرون William Clark Styron (1925-2006): روائيٌّ وكاتب مقالات أمريكي، فاز بجوائز أدبيةٍ كبرى عن أعماله.

حين استعنتُ ببعض الأسماء العائدة إلى أهالي البلدة حرصتُ على عدم الإسهاب في شرح تفاصيل حياتهم المعروفة؛ كما قمت بتبديل أو اختلاق أسماء متخيّلة للدلالة عليهم. جعلتُ مايكل مومبليون مجسّداً لكاهن إيام -ويليام مومبسون الحقيقي- من جهة بطولاته وقدسيّة أفعاله الرائعة فحسب؛ أما الجانب المظلم الذي أضفته إلى نظيره التخيّلي فهو محض خيال. كان لويليام مومبسون زوجة تدعى كاثرين وطفلان أرسلهما بعيداً عن إيام قبل أن يتمّ الاتفاق على الحجر الصحي، لكن كاثرين اختارت البقاء ومساعدة المرضى حتى أصابتها عدوى الطاعون وسلبت حياتها. أدرج ويليام مومبسون بعد موتها عبارةً في إحدى رسائله القليلة المتبقّية قال فيها: «حافظتْ خادمتي على صحتها بفضل الرّب؛ لو مَرِضَت، لاضطررت لغسيل ملابسي وشراء مؤن الطعام بنفسي أو تعرّضتُ للإصابة بالمرض». جملةٌ أوحتْ إليَّ بمحاولةٌ تخيّل حال هذه المرأة... كيف عاشتْ وبماذا شعرت... ثم استعرتُ صوتها لنسج هذه الرواية.

من بين الكتب والأشخاص الكثر الذين استعنتُ بمشورتهم، أودّ أن أشكر إيمي هوبرمان على نحوٍ خاص لبحثها الدؤوب في النصوص الطبية العائدة للقرن السابع عشر، كما أشكر ريتشارد زاك لتوصيفه الدقيق للجنس في كتابه «تاريخ العري History Laid Bare» الذي تناول النشاط الجنسي البشري خلال القرن السابع عشر. لا أنسى تقديري لآنا آشلي مكيج لتقديم المشورة حول ولادة النعاج وأدبياتها، ولرايموند راش عن أساليب الزراعة الرائعة التي تناولتها مقالاته المختارة في «حكمة الريف Country wise»، ولفيليب بينديكت على بصيرته في النفاذ إلى روح الإكليروس ومكتباتهم العائدة إلى القرن السابع عشر.

كما أودّ أن أشكر وكيل أعمالي الذي لا يجاريه أحد كريس دال، والمحرّرين الهواة والمحترفين الذين عملوا معي: دارلين بينجي، وبرايان هول، ورباعية هورويتز المؤلفة من إلينور وجوشوا ونورمان وطوني، إضافةً إلى كلايف بريدل، وبيل باورز، ومارثا شيريل، وقبل الجميع تقديرٌ كبير لمولي ستيرن.

المحتويات

شاءت المصادفة أن يأتي العمل على ترجمة هذه الرواية متزامناً مع انتشار جائحة كورونا covid-١٩، واتّباع إجراءات الحظر الصحي في معظم دول العالم، لتكون حكاية الوباء التي تسردها جيرالدين بروكس عن الطاعون الذي ضرب بلدة إيام الإنجليزية في القرن السابع عشر، والحظر الطوعي الذي فرضه القرويون على أنفسهم، مطرح مقاربةٍ شائقةٍ وملفتة، يباين عبرها القارئ أساليب البشر بتدبّر أمورهم لقطع سلسلة العدوى بالأمراض القاتلة. أساليب ما انفكت تتأرجح بين الشعوذة والإيمان واليأس والعلم، رغم مرور ما يقارب أربعة قرون.

منمنماتٌ تاريخيةٌ صغيرة، وأطلال حكايةٍ، جمعتها الكاتبة الأسترالية التي عملت لسنواتٍ كمراسلةٍ صحفية أثناء زيارتها لديربيشاير في إنجلترا عام ١٩٩٠: يافطةٌ نُقش عليها «بلدة الطاعون»... أنباء متفرقة عن عدد الضحايا الذي جاوز ثلث سكان البلدة، وبضع رسائل ناجية خطّها كاهن إيام، ذكر في طياتها تدابير الحظر، وخادمته التي سلمت من المحنة، وإصابة زوجته ووفاتها؛ لتلوح مصائرهم في وجدان بروكس مستدعيةً قدرتها الروائية على حبك حيواتهم ومعاناتهم في مواجهة الموت الأسود.

الصور الأثرية التي حرّضت الكاتبة الصحفية على نسج الرواية تموج بغنى بين سطورها، وقد يبدو من الأنيس الاطلاع عليها للتحليق مع عنان الخيال الذي ابتدعته، لتحكي أحداث سنةٍ عجيبة في بلدةٍ مترعةٍ بمفردات ثقافةٍ ترزح تحت ذيول القرون الوسطى في أوروبا، لذا، أُرفقت الرواية بملحقٍ لبعض الصور التي يمكن الرجوع إليها لتذوّق المزاوجة بين أدب بروكس والسجل الواقعي للمكان.

ولن يخفى على القارئ المكانة التي خصّتها المؤلفة للثقافة العربية التي سبقت أوروبا في تلك الحقبة، لتتجلّى ملامحها بالعلوم وأسماء الروّاد والمدن، فيغدو كتاب (الطب) لابن سينا ومدينة وهران الجزائرية في السطور الأخيرة، شمساً تشرق في درب ناجيةٍ من ظلام عامٍ مليءٍ بالعجائب.

